

## التشبيه في الفكر الأسطوري عند العراقي القديم

د. فايز أنور عبدالمطلب

استاذ مساعد تاريخ قديم  
كلية الآداب - جامعة دمنهور

### ملخص:

احتوى الفكر الأسطوري في العراق القديم على صيغة التشبيه، والتي قصد الكاتب من ورائها تأكيد صفات ومعاني لآلهة العراق القديم، فتم التشبيه بالسماء والأرض، والتشبيه بالجبال، وكذلك التشبيه بصفات القوى لدى الحيوانات، والتشبيه بالرياح والعواصف، والتشبيه بالسحاب والمطر، والتشبيه بالأشجار والنبات وغيرها. وكان الهدف من ذلك هو إيضاح معنى محدد مع الإيجاز والاختصار.

Likening in the Mythological Thought for the Ancient Iraqi

Summary

The mythical the likening which the author intended to emphasize traits and meanings of Ancient Iraqi Gods. There was likening to heaven and earth, to mountains, and to Animal powers, to winds and tornadoes, to clouds and rain, to tree and plants... etc. the aim of such similes was to clarify a specific meaning briefly.

التشبيه في اللغة: هو التمثيل، ويقال أشبه فلانًا وشابهه، وتشبه فلان بكذا.<sup>١</sup> أما تعريفه في اصطلاح البلاغيين؛ فلقد أجمل عبد العزيز عتيق تعريفه بأنه: "بيان أن شيئاً أو أشياء شاركت غيرها في صفة أو أكثر، بأداة هي الكاف أو نحوها ملفوظة أو مقدره، تقرب بين المشبه والمشبه به في وجه الشبه.<sup>٢</sup>

وسيتم تناول التشبيه في الفكر الأسطوري للعراق القديم، على النحو التالي:

<sup>١</sup> محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي (١٩٨٦)، ص ١٣٨.

<sup>٢</sup> عبدالعزيز عتيق (١٩٨٥)، ص ٦٢.

### مكانة الإله أنو:

ولقد تناولت الأساطير العراقية القديمة خلق الكون، وكان الإله "أنو" أهم الآلهة في هذا الصدد؛ فهو الذي خلق الكون تحت زعامته، وهو أكبر الآلهة، وفي قصيدة ارتفاع عشتار وصفً لمنزلة الإله أنو في مجلس الآلهة، تقول: "أمام أنو المقدس الذي كلامه غير متناه، الآلهة العظام برضا قوى ينحنون أمامه كسيف المنجل".<sup>٢</sup>

تم تشبيه الآلهة منحنية متخذة شكل سلاح سيف المنجل أمام الإله "أنو" وهو كبير مجلس الآلهة، ومن المعروف أن العراقي القديم عرّف نوعاً من الأسلحة يسمى سيف المنجل، وهو معروف منذ الألفية الثالثة قبل الميلاد.<sup>٣</sup> وبعض الآلهة مثل الإلهين آشور ونيورتا<sup>٤</sup> كان يحمل كل منهما سيف المنجل.<sup>٥</sup>

ومعنى ما سبق أن هذا السلاح كان معروفاً لدى العراقي القديم فجاء هنا التشبيه بانحناء الآلهة للإله أنو كسيف المنجل. ويمكن تفسير ذلك بأحد أمرين، الأول: أن السيف طبعاً في يدي ماسكه، فكذا هذه الآلهة مؤتمره بأمر الإله أنو. والثاني: ربما أراد الكاتب استلهاً هيئة الانحناء من السيف؛ فإن الآلهة منحنية أمام الإله أنو.

### الإله إنليل:

<sup>١</sup> أنو: أو "أن" هو الإله الرئيس في مجمع الآلهة السومري، ويحافظ على وضعه في العصر الأكادي، ويأتي اسمه الأول في قوائم أسماء الآلهة. وتُذكر في أسطورة التكوين أنه والد كثير من الآلهة. وهو مصدر السلطات كلها، وكذلك الأوامر الإلهية مجسداً بذلك القوة العليا والسيادة المطلقة للمزيد يُراجع: حسين أحمد سلمان وختام عدنان على (٢٠١٧)، ص ٢١٧ - ٢٤٤.

<sup>٢</sup> Black. J and Green. A (2004), p.19.

<sup>٣</sup> Muscarella. O. W (1988), p.340- 341.

<sup>٤</sup> نينورتا: آلهة سومري يعني (سيد الأرض) وعرف في الديانة الأكادية بنفس الاسم، وهو ابن الإله إنليل وشاركه في أماكن عبادته في (نفر)، وزوجته هي إلهة الشفاء (ولا)، وهو يجسد الخصوبة في أقدم مظاهرها، حيث تمتدحه القصائد السومرية بأنه جعل زرائب قطعان الماشية خصبة ومنح الحقول وأحواض السمك بركاته وهو فلاح أبيه (إنليل). يُراجع: انزارد. د وآخرون، (٢٠٠٠)، ص ٨٦، ٨٧.

<sup>٥</sup> Tallay. O (2005), p.82.

وقيل عن الإله إنليل (إيلليل)،<sup>١</sup> أن: "تواميسه المقدسة كنواميس خفية ما من أحد يستطيع إدراكها، وسر خفي كسمت السماء".<sup>٢</sup> تم تشبيه نواميس الإله إنليل بأنها خفية كسمت السماء؛ فالسماء برغم أنها مرئية إلا إنها بعيدة، وكُنْهها غير معروف. ووُصف معبد إنليل بأن: "مراسيمه مثل السماء لا تتغير نقضها، ولا يمكن تحطيم طقوسه المطهرة مثل الأرض".<sup>٣</sup> التشبيه هنا بالسماء يمكن تفسيره بأحد قولين، الأول: بأن السماء باقية ولا تتغير؛ فإن المعبد ومراسيمه باقية. والقول الثاني: أن السماء صافية، حيث يتم رؤيتها، كما إنها مصدر الضوء المتمثل في الشمس، وكذلك هي ذاتها التي تقدم الضوء حتى بالليل وذلك من خلال القمر والنجوم، ولقد ورد ذكر السماء بأنها: "صافية، وارتفعت فيها العديد من النجوم".<sup>٤</sup>

### الإله إنكي<sup>٥</sup>

عهد الإله "أنو" للإله إنكي إصلاح الري والزراعة إليه، فأتي: أن إنكي هو المسؤول عن جعل الأنهار مليئة بالمياه وذلك لري الأرض، وجعل الغيوم تعطي المطر بحيث يمكن أن تؤتي الثمار، وتم تشبيه الإله إنكي بأنه: "مثل الجبل يرتفع، ومثل السحابة التي تفيض في وسط السماء، ومثل الثور المرفوع قرونه".<sup>٦</sup> والثور هو رمز للقوة الإلهية،<sup>٧</sup> ووجه الشبه

<sup>١</sup> إنليل: عرف كإله رئيس في مجمع الآلهة السومريين وكان يظهر في البداية إلى جانب والده (أن) ثم ما لبث أن حل محل، وزوجته هي الإلهة (نينليل)، أو الإلهة الأم التي تبرز خاصة في نصوص العصر البابلي القديم، ويوصف إنليل بمنظم الكون منذ البدء، فهو الذي فصل السماء عن الأرض عندما كانتا ملتصقتين، وخلق المعول ليكون أداة عمل في يد الناس، وهو الذي ينصب الحكام والملوك على عروشهم. يُراجع: ادزارد. د. وآخرون (٢٠٠٠)، ص ١٠٢ - ١٠٤.

<sup>٢</sup> Jacobsen, T (2010), p.15.

<sup>٣</sup> كريمر. صموئيل (١٩٨٩)، ص ١٧٥ - ١٧٧؛ Kramer. S. N., (1963), p.120.

<sup>٤</sup> Konstantopoulos. G. V (2015) pp.86- 87.

<sup>٥</sup> إنكي: يعني في السومرية سيد الأرض أو سيد الأسفل، ويقابله في الأكادية اسم (إيا)، ويعرف أنه إله الحكمة والتعويضات وسيد (الأبزو) التي تصورها الإنسان على شكل محيطات المياه العذبة في وف الأرض، وبذا يكون الإله إنكي إله الخير والعذوبة ومانح الخصب ومفجر الفيضانات. للمزيد يُراجع، ادزارد. د. وآخرون (٢٠٠٠)، ص ٩٧ - ٩٩.

<sup>٦</sup> Espak. P (2010), pp. 49, 108.

<sup>٧</sup> Taheri. A (2013), p.19.

الشبه هنا هو ارتفاع منسوب مياه النهر المُشبه بارتفاع الجبل، ولا يُقصد لذاته وهذا الوصف أُريد به تشبيه الإله إنكي بالجبل المرتفع عاليًا، وتشبيهه أيضًا بأنه كالسحابة التي ينزل منها الخير وهو المطر على الأرض حتى تتم عملية الزراعة. وتشبيهه بالثور دليلاً على القوي التي يمتلكها الإله إنكي، وقوة الثور تظهر في قرونه فأضاف المرفوعة قرونه.<sup>١</sup> والجامع بين الثور والمياه أنهما يشتركا في الإخصاب؛ فالثور هو الذي يقوم بإخصاب الأبقار، وكذلك المياه تقوم بإخصاب الأرض بجعلها صالحة للزراعة.

كما إنه جاء في أسطورة إنكي ومدينة إريدو، أن الإله إنكي هو الذي قام ببناء معبده، فقال: "إنكي الذي يحدد المصائر، ولديه معرفة واسعة، بنى داره من الفضة وحجر اللازورد؛ فهي كالضوء المتألق".<sup>٢</sup> الأمر هنا متعلق بالفضة وحجر اللازورد اللذين يعطيان لمعانًا.

كما جاء في أوصاف الإله إنكي أنه: "لحيته مثل اللازورد"،<sup>٣</sup> ووصف إنكي بانه: "مثل شجرة *Kiškanū*"،<sup>٤</sup> وهي شجرة السنط أو الطلح التي يستخرج منها الصمغ، وهذه الشجرة تنمو على شواطئ الأنهار؛ لأنها تحيي على المياه،<sup>٥</sup> فهي بطبيعة الحال ليست شجرة أسطورية، بل تُزرع في مدينة إريدو، استُخدم خشبها في بناء المعابد، وكانت تزرع في قناة مليئة بالمياه على جانبي مدخل المعبد.<sup>٦</sup>

وفي الصراع بين الإله إنكي والوحش كور؛<sup>٧</sup> ويرجع سبب صراعهما أن "كور" اختطف الإلهة "ايرشكيجال"؛<sup>٨</sup> فشرع الإله "إنكي" للثأر من "كور"، وجاء في صراعهما أن

<sup>١</sup> Tallay. O (2013), p.41.

<sup>٢</sup> Espak. P (2010), p.78.

<sup>٣</sup> Espak. P (2007), p.44.

<sup>٤</sup> Black. J and others (2000), p.46.

<sup>٥</sup> Thompson. R. C (1948), p.288.

<sup>٦</sup> Espak. P (2007), p. 54.

<sup>٧</sup> كور: هو عبارة عن وحش قام باختطاف إحدى إلهات السماء، وأخذها غنيمة لنفسه؛ فقام الإله اينكي بصراعه. للمزيد يراجع: أسامة عدنان يحيى، الألهة في رؤية الإنسان العراقي القديم، ص ١٦٤-١٦٦.

<sup>٨</sup> ايرشكيجال: هي الإلهة الملكة الأعظم، وهي التي تحكم العالم السفلى. يراجع:

"كور": "شن الحرب عليها - على سفينة إنكي - كالزوبعة، وأحاط بها من كل جهة". وكان: "كالأسد صار يضرب ويلطم".<sup>١</sup>

ظَهَرَ "كور" في هذا الصراع كالزوبعة، ومن المعروف أن الزوبعة والإعصار يؤثران على السفن، فكان كور كالزوبعة على سفينة إنكي فهو يحارب بلا هوادة. "وكان كالأسد يضرب ويلطم". والتشبيه بالأسد دليل على القوة، فإن من صفات الأسد القوة، وجاء هذا التشبيه للدلالة على أن الصراع بين الإله "إنكي" والكائن الخرافي "كور" كان عراكًا شديدًا. كما إن الأسد أحد التجليات الخاصة بـ"كور"، وهو ما يجعل تشبيهه بالأسد أمر له منطقيته.

**الإله شمش:**

شمس هو إله الضوء، والنهار، واليوم، والعدالة، وأنه يحيى الموتى ويعاقب المذنب، وجاء في وصفه: "يا منير الظلمات! ويا من يمحو الشر في العلو وفي الأسفل! تنتشر أشعتك كالشبكة على الأرض والجبال والبحار".<sup>٢</sup> وفي تعويذة إله الشمس بأنه: "يرفع عينيه ومضيا كالبرق"،<sup>٣</sup> وهو: "كاللازورد في اللون".<sup>٤</sup>

تأثر الكاتب بحياته، فمن المعروف أن العراقي القديم تعلم الصيد في نهري دجلة والفرات بالشبكة، وكذلك استغل ملاحظاته التي تمثلت في رؤيته للبرق وشده ضوءه، أما عن حجر اللازورد فهو من الأحجار الكريمة، وهو حجر لامع، فإن إله الشمس هو الذي يجعل الشمس تنتشر أشعتها لتثير الكون.

#### الإله نرجال:

وجاء عن الإله نرجال<sup>٥</sup> إله العالم الأسفل ورب الأرض، أنه: "يهب كالريح، وأنه ثقيل مثل العاصفة"، وبعد أن أربع نرجال المدن، قيل عنه: "قمت بوضع قدمك عليهم مثل ثور

Black. J and Green. A (2004), p.77.

<sup>١</sup> Schwemer. M (2008), p.138.

<sup>٢</sup> Stephens. F. J (1969), p.387.

<sup>٣</sup> Polonsky. J (2002), p.191.

<sup>٤</sup> Polonsky. J (2002), p.192.

<sup>٥</sup> نرجال: إله سومري عُرف في الديانة الأكادية بنفس الاسم، وهو إله من آلهة العالم السفلي، وزوج الإلهة (إريشكيغال)، وهو يجسد وظائف في الأصل كإله في العالم السفلي إلا إنها ليست وظيفته الوحيدة، =

البرية، وقمت بضغط قرنك الكبير عليهم"، وجاء عنه أنه: "سكب دمهم مثل المطر في الأودية".<sup>١</sup> ومن المعروف أن رجال رب الأمراض والأوبئة ونزوله برجله عليهم وقرنه هو بداية مرضهم، والريح والعواصف أسلحة هذا الإله بحكم كونه حارق المحاصيل الزراعية، وهو أمر لازم له رياح عاتية تؤدي إلى حريق تام مُدمر.

### الإلهة عشتار:

ذُكرت الإلهة عشتار بأنها سيدة النواميس الإلهية، ومحبوبة السماء والأرض، ثم ذُكر عنها أنها تشبه التين،<sup>٢</sup> فقال: "قامت بإفراغ السم على الأرض مثل التين".<sup>٣</sup> هنا استلهاهم لطبيعة هذا الكائن الخرافية من حيث كون نصفه العلوي يمثل رأس ثعبان وهو ما يتناسب مع إفراغ السم، ومن ثم فالاستلهاهم هنا هو استلهاهم ميتولوجي.

وذكر أيضاً: "يا سيدتي إن الانوناكي<sup>٤</sup> الآلهة العظام، ينهزمون أمامك إلى الكهوف مثل الخفافيش مرفرفة".<sup>٥</sup>

ويمكن القول بأن تشبيه المنهزمين بالخفافيش يوضح مدى الفوضى التي تقع للمنهزميين؛ لأن الخفافيش لا ترى؛ فهم في حالة تخبط، وهذا دليلاً على حالة الإنهزام التي تسببت في فوضى عارمة، ويُمكن إضافة فُبح هيئة العدو في أعين المُنتصرين.

كما ذُكر عنها في المعارك أنها هي التي تفتح باب المعركة "أنت تراكمي الرؤوس مثل الغبار، وتزرع الرؤوس مثل البذور"،<sup>٦</sup> و"تثير بريقاً مثل النجوم"،<sup>٧</sup> وأنها: "لا تتراجع

=فهو يجسد وظائف إله علوي أيضاً، وتنسب إليه قسوة حرارة الشمس المحروقة، وهو الذي يسبب حرائق المحاصيل الزراعية والحمي والأوبئة التي تصيب البشر والحيوانات. للمزيد يراجع: انزارد. د. وآخرون، قاموس الآلهة والأساطير في بلاد الرافدين، ص ١٦٧.

<sup>١</sup> Kramer. S. N (1989), pp.308-309.

<sup>٢</sup> اهتم العراقي القديم بتصوير التين، وهو حيوان خرافي من نوات الأربع مجنح، له رأس ثعبان، وهو مصاحب لتصوير الآلهة، وهذا دليل على القوة. يراجع: Heuzey. M. L (1946), p.3ff.

<sup>٣</sup> Harris. R (1991), p.265; Lewis. M. H. C (2011), p.62.

<sup>٤</sup> الأئوناكي: آلهة في السماء هبطت إلى الأرض، ومرتبطة ذكرها بالهة الإيجي. يُراجع: Jordan. M. (2004), p.23.

<sup>٥</sup> Kotzé. Z (2017), p.114.

<sup>٦</sup> Harris. R (1991), p.269.

<sup>٧</sup> Smith. M. S (2014) p.49.

في المعركة مثل شاب هي شجاعة وماهرة في المعركة"،<sup>١</sup> وأنها: "في الحرب مثل إعمار"،<sup>٢</sup> وأن: "غضبها مثل ربح البحر سوف يتغلب على خصومها".<sup>٣</sup> وتُوصف الإلهة عشتار بعلاقتها بالملوك، ففي حوار آشوربانيبال<sup>٤</sup> Aššurbanipal (٦٦٨ - ٦٢٧ ق.م) ونابو Nabû حيث وصف نابو الإلهة عشتار بأنها كانت ترضع آشوربانيبال وهو طفل، فلذلك وصفت بأنها: "تحمل ولي العهد مثل مربية كما إنها ترضعه وتلعب معه".<sup>٥</sup>

وفي نص نزول الإلهة عشتار إلى عالم الأموات، وأنها ستدخل إلى عالم محرم فيه النور، ملئ بالغبار، وأكلهم هناك الطين، جاء: "لابسين كالطيور كسوة الجناح".<sup>٦</sup> وعندما حدثت الإلهة عشتار الحاجب لتتزل إلى عالم الأموات، ذهب الحاجب واستأذن من الملكة إيريش-كيجال، وعندما سمعت إيريش-كيجال صوت الإلهة عشتار، صارت: "كما قطعة مكسورة، أصفر [وجهاها]، كما حافة سوداء اسودت [شفتاها]".<sup>٧</sup>

الإله سن:

وعن الإله "سن"،<sup>٨</sup> فقد جاء في أنشودة موجهة إلى "سن": "أيها السيد إن ألوهيتك مثل السموات لا تُدرك خفاياها، ومثل البحر الواسع توحى بهلع قدسي".<sup>٩</sup> تم تشبيه الإله "سين" بالسموات ثم بالبحر، وظهوره مثل ظهور الإله شمش، وهذا يظهر عظم شأن الإله

<sup>١</sup> Lewis. M. H. C (2011), p.50.

<sup>٢</sup> Lewis. M. H. C (2011), p.58.

<sup>٣</sup> Lewis. M. H. C (2011), p.50.

<sup>٤</sup> آشوربانيبال: هو سادس ملوك العصر الإمبراطوري الآشوري الثاني، ولقد وصف آشوربانيبال بأنه أديباً ميالاً للعلوم، فارساً مغواراً، وقائد عربات، ولقد جمع جيشاً من الآشوريين والسوريين وخرج به إلى مصر. للمزيد يراجع: محمد بيومي مهران (١٩٩٠)، ص ٤١٩ - ٤٢٩.

<sup>٥</sup> Lewis. M. H. C (2011), p.111.

<sup>٦</sup> Heidel. A (1971), p.60, Tablet VII, Line 38.

<sup>٧</sup> Heidel. A (1971), p.122 lines 29, 30.

<sup>٨</sup> سن: هو إله القمر يسمى في اللغة السومرية "نانا"، وفي الأكادية "سن"، وهو ابن الإلهين "ينليل ونيليل"، ونيليل، ويذكر في المدائح الإلهية بثور "ينليل" الفتى. للمزيد يراجع: انزارد. د (٢٠٠٠)، ص ٨١، ٨٢.

<sup>٩</sup> Ferris J. S (1969), p.386.

"سين" حيث أن السماوات لا تُعرف خفاياها فكذلك الإله "سين"، ومن المعروف أن البحر واسع وكانت الشعوب القديمة تخشاه؛ فبذلك شبه الإله "سين" بهذا البحر الواسع الذي يخشاه الناس كخشيتهم من البحر.

وفي الأسطورة السومرية تفسير لبدء تنظيم الكون؛ فجاء أن أصل الأجرام النيرة وطبيعتها كالقمر، والكواكب والنجوم، جاء ما يلي: أن الكواكب بأنها "الكبار الذين يسرون حول القمر كالثيران الوحشية".<sup>١</sup> وجاء عن النجوم، أنها: "الصغار المنتشرين حول القمر كالحيوب".<sup>٢</sup> يُلاحظ الفارق في الحكم مع المشبه به في الحالتين السابقتين.

#### الإله أشور:

وظهر الإله "أشور" كبطل لملحمة الخليفة<sup>٣</sup> الأشورية، فهو الذي حطم الشر والأشرار، والأشرار، وجاء في وصفه أنه: "خلابة هينته كالبرق تومض عيناه".<sup>٤</sup> ومن المعروف أن البرق يسبق المطر، والمطر سبباً للخير والنماء والزراعة، فهو يتسبب في إعادة الحياة هذا من ناحية.

#### ايمش (الصيف):

ويظهر ايمش<sup>٥</sup> وهو الصيف المسئول عن بناء المدن وتشبيدها والمعابد، وذلك من أجل خلق مقومات الحياة، فجاء عنه أنه: "جعل المدن ومواطن السكنى تُشاد، وتُبنى البيوت في البلاد، وترتفع المعابد كالجبال".<sup>٦</sup> ولعل ارتفاع المعابد كالجبال يمكن تفسيره

<sup>١</sup> كريمر. صموئيل (١٩٨٩)، ص ١٦٣.

<sup>٢</sup> كريمر. صموئيل (١٩٨٩)، ص ١٦٣.

<sup>٣</sup> لعل السبب في وجود المنافسة الإلهية في الفكر الأسطوري للعراق القديم، هو أن كهنة كل آلهة سعوا ليظهروا إلههم بأنه الإله الرئيس في الكون، وأن هذه المنافسة في حقيقة أمرها هي منافسة بين كهنة الآلهة. يُراجع: اسامة عدنان يحيى (٢٠٠٧)، ص ١٢٩ - ١٣٦.

<sup>٤</sup> هايدل. الكسندر (٢٠٠١)، ص ٢٦.

<sup>٥</sup> ايمش: عزم الإله "ينليل" على خلق جميع أصناف الأشجار والحيوب وأراد أن يعمم الخير والرفاهية في البلاد، فخلق أصناف الأشجار والحيوب، وأراد أن يعمم الخير والرفاهية في البلاد، فخلق لهذا الغرض عنصرين من عناصر الحياة، هما الأخوان "ايمش" أي الصيف و"يننين" الشتاء، وعين لكل منهما وظائفه الخاصة به. كرم. صموئيل (١٩٨٩)، ص ٢٢٧.

<sup>٦</sup> كرومر. صموئيل (١٩٨٩)، ص ٢٢٧.



لسبيين، الأول: أن ارتفاع المعابد كالجبال ربما كان مُرتبطاً بعادة العراقي القديم إقامة معابده فوق مناطق مرتفعة. والسبب الثاني: أنها نسبت إلى الإله المُجسّد للصيف، ولم تنسب إلى الإله المُجسّد للشتاء وذلك مرده إلى التأثير السيئ للشتاء وما يستتبعه من أمطار مُدمرة على معابد العراقي القديم.

### الإله نينورتا:

وفي صراع الإله "نينورتا" مع العفريت أساك،<sup>١</sup> بدأ النزال بينهما، وكان شديداً ولكن "نينورتا" لم يقو على مصارعة خصمه "أساك"، بل "فر كالطير في بداية الأمر"، ثم يعاود "نينورتا" هجوماً عنيفاً على "أساك" وينتصر في هذه الجولة، ويقضي عليه.<sup>٢</sup> وهنا كان تشبيه "نينورتا" في فراره كالطير مرتبط بطبيعة خصمه، فهذا العفريت (أساك) عفريت أرضي موطنه الجبال، ومن ثم فلا سلطان له خارجها، وعليه أصبحت السماء هي المفر الآمن إذا ما أُريد تجنب شره، وهو ما جعل المؤلف يلجأ إلى مُشبه به يسكن عالم السماء أو جوها.

### الأم خويور (مرتبطة بالعالم السفلي)

وجاء في وصف الأم خويور Hubur<sup>٣</sup> بأنها تلبس كل الأشياء، أسلحة لا مثيل لها، وتحمل الثعابين السامة، وكذلك ترافق الوحوش؛ مما جعلها مثل الآلهة.<sup>٤</sup> وجاء عن آلهة ايجيجي Ijigi<sup>٥</sup>: "أنهم في موكب السماء يتألقون مثل النار".<sup>١</sup> وهذا يدل على الهيئة

<sup>١</sup> أساك: أو أساج عفريت سومري يعني اسمه (الذي يضرب الزراع) وتحول هذا الاسم إلى "أساكو" في اللغة الأكادية، وكان في الأصل عفريت الأوبئة والأمراض ثم أصبح عفريت - أعداء سومر - القاطن في الجبال، وكان الإله "نينورتا" يشن عليه حملات الجبال. للمزيد يراجع: اذارد. د (٢٠٠٠)، ص ١٥١.

<sup>٢</sup> جالكويسن (٢٠٠٤)، ص ١٦٧.

<sup>٣</sup> الأم خويور: وهي التي تعني الأدنى، أو ربما تكون مرتبطة بالعالم السفلي. يُراجع: Gelb. I. J (1973), pp.93, 94.

<sup>٤</sup> Speiser. E. A (1969), p.62; Jacobsen. T (1943), pp. 170.

<sup>٥</sup> آلهة ايجيجي: آلهة كانت في السماء ونزلت إلى الأرض ويرأسهم الإله اينليل، دائماً ما يتم نكرهم مع آلهة الأثانوكي. يراجع:

Jordan. M., (2004), p.134.

والسمو بتشبيه بعض الآلهة بالنار.<sup>٢</sup> ومن المعروف أن آلهة ايجيجي آلهة سماوية، وأن السماء موطن النجوم، والنجوم لها طبيعة نارية.

### الطائر أنزو:

في قصة ألواح القدر، استطاع الطائر أنزو أن يأخذ هذه الألواح، ويطير بها إلى الجبال، واجتمع مجمع الآلهة لمناقشة سرقة الألواح، وتحدث كبيرهم الإله "أنو" وحث ابنه الإله "حدد" على مُصارعة الطائر أنزو وأخذ ألواح القدر منه؛ لأنها طالما معه فسوف يكون كلامه مثل كلام انو، بالإضافة إلى ذلك: "من يجابهه يصبح كالفخار"، أي يصبح كالفخار سهل كسر، فهذا يقضى عليه. ولكن الإله "حدد" لم يستطع مواجهة الطائر أنزو، فخاطب "أنو" بعد الإله "شارا"،<sup>٤</sup> وحثه على قتال أنزو، ودار بين "أنو" وبين "شارا" نفس الحوار الذي دار بين "أنو" و"حدد"، وانتهى الحوار بانسحاب "شارا".<sup>٥</sup>

وبعد عدم استجابة الإلهين "حدد" و"شارا"؛ فقام الإله "حدد" بنقل صورة المعركة إلى الإله "ايا" الذي سوف يساعد بدوره الإله "تينورتا"؛ ليقضى على الطائر أنزو، فقام الإله "ايا" بتقديم النصائح للإله "تينورتا" في صراعه مع "أنزو"؛ فنصحه أن يحاربه بلا هوادة، وأن يضربه بالسيف ويرميه بالسهم، ثم قال له: "امدد قوسك، ولتنتلق من عارضتك السهام

<sup>١</sup> Kramer. S. N (1969), p.59.

<sup>٢</sup> محمد فهد القيسى (٢٠١٩)، ص ٤٤٨.

<sup>٣</sup> حدد: ويُقال في بعض المراجع أدد. والحرف الأول الألف A له خمس قراءات لأصوات حلقية، أ، هـ، ح، ع، غ، واصطُلمح عليها: A1 = أ، A2 = هـ، A3 = ح، A4 = ع، A5 = غ، وهذا الإله هو حدد لكتابته في الأكادية بلفظ A3. يُراجع: على ياسين الجبوري (٢٠٠٨)، ص ٢٨. والإله حدد إله الطقس، وكان يصور على شكل ثور وحشى جامح كالصاعقة، وكان يمثل عند الأكاديين أنه يمتلك قوى الطبيعة الخيرة والشريرة في آن واحد، فهو القادر على إنبات المزروعات، وفي نفس الوقت على تلغها بما يرسله من فيضانات وبرد وصواعق وأملاح. للمزيد يراجع: انزارد. د. وآخرون (٢٠٠٠)، ص ٧٨ - ٧٩.

<sup>٤</sup> شارا: إله مدينة "أوما" الواقعة في جنوب الرافدين، ويعتقد أنه كان إله حرب بدليل وصفه في المدائح الإلهية على أنه بطل الإله "أن" وهو ابن الإلهة "إنانا". للمزيد يراجع: انزارد. د. وآخرون (٢٠٠٠) ص ١٤١.

<sup>٥</sup> Scurlock. J. A (2012), p.370.

مثل البرق".<sup>١</sup> ومن المعروف أن البرق من الأسلحة التي تستخدم للقضاء على الأعداء، كما أن البرق سريع، فكذاك تكون سهام. وانتصر الإله "نينورتا" على "أنزو"، فجاء: "وتتطاير الأجنحة والريش كالفرشات".<sup>٢</sup> تتطاير من ضعفها كالفرشات فهي ضعيفة بطبيعة الحال.

### التشبيه في الأساطير المرتبطة بخلق البشر:

ولقد استطاع العراقي القديم أن يتصور خلق الإنسان؛<sup>٣</sup> فاعتقد في فكره الأسطوري أن الإله "إنليل" خلق الفأس وشق قشرة الأرض الصلبة؛ حتى ينبثق الناس منها كالنبات، فقال: "وعندما بدأ البشر يظهرون مثل العشب في الأرض".<sup>٤</sup> وفي هذا تصور لبداية خلق البشر، فتم تشبيههم بالعشب الذي يخرج من الأرض، وهذا تفسير لكيفية الخلق، والتي أفرد لها العراقيون القدماء أساطير في بداية خلق الإنسان.

### التشبيه في أسطورة جلامش:

وتناولت ملحمة جلامش تطور الإنسان البدائي، والتي تبدأ بسرد مغامرات جلامش من أجل الوصول إلى بطل قصة الطوفان "أوتا - نيشة" للفوز بالخلود، ولكن جلامش يقحم شعب أوروك في حروب كثيرة، مما جعلهم يشتكون إلى الإله أنو الذي استمع إلى شكواهم وكذلك الإلهة - الأم نخرساک (المذكورة في الملحمة باسم أرورو) التي تقوم بخلق نذً لجلامش، وهو إنكيدو، الذي خُلق من الطين بهئية المتوحش المليء جسمه بالشعر:

<sup>١</sup> Annus. A (2002), p. 104.

<sup>٢</sup> Annus. A (2002), p. 104.

<sup>٣</sup> أما عن طبيعة هذا الإنسان فتصورها العراقي القديم في معتقداته الدينية، بأن البشر بعدما ظهروا على الأرض فإنهم كانوا يسيرون على الأقدام والأيدي سويًا تشبهًُا بالحيوانات، وإنهم لم يعرفوا الملابس، ولم يأكلوا الخبز، إنما كان أكلهم العشب، ويشربون الماء، فلقد جاء في أسطورة الماشية والغلة: "مثل البشر لما خلقوا أول مرة، لم يعرف الأنوناكي أكل الخبز، ولم يعرفوا لباس الحُلل، كانوا يأكلون النباتات بأفواههم كالأغنام، ويشربون الماء من الجدول". يُراجع: Polonsky. J (2002), p.298؛ كريم. صموئيل (١٩٨٩)، ص ٢٠٢.

<sup>٤</sup> مازن محمد حسين (٢٠١٤)، ص ١٣١.

"طويل شعر الرأس مثل شعر المرأة، له خصل مثل الإلهة نيسابا<sup>١</sup> (إلهة الحبوب) سنابل الحقل، وملابسه مثل ملابس سموقان<sup>٢</sup> إله الجبل والحيوانات الوحشية"،<sup>٣</sup> والذي كان يعيش كما تعيش الحيوانات، حتى قيل عنه أنه: "مثل الثور"<sup>٤</sup>. وكان جسمه مغطى بشعر طويل، والتشبيه بالثور دليل على قوته؛ لأن العراقي القديم نظر إلى حيوان الثور أنه من أقوى الحيوانات.<sup>٥</sup> كما إنه يمكن القول أن تشبيه المحارب بالثور يصور فكرة الهياج التي تميز الثور عن غيره من الحيوانات، كما إنه مرتبط بمفهوم الطوفان بحكم كونه مظهر من مظاهر الهياج الهيدرولوجية.

وأشار جلجامش على راع بجلب بغي إلى إنكيديو،<sup>٦</sup> وعندما أتت البغي إلى إنكيديو، نظرت إليه وحدثته وقالت أنت أصبحت مثل الإله، وكانت: "تقوده مثل الطفل"،<sup>٧</sup> التشبيه هنا دليل على طاعة إنكيديو لها كما يطيع الطفل من يقوده في الغالب.

وبعد ذلك خلعت ملابسها وجامعها إنكيديو من الخلف - كما يفعل الحيوانات - فعلمته البغي كيف يجمعها بالطريقة التقليدية، وظل معها ستة أيام وسبع ليالٍ، ثم ذهب إلى حيواناته، فهربت منه الحيوانات عندما رآته؛ فحزن لذلك حزناً شديداً، ولكن البغي اقتربت منه، وعلمته كيف يأكل الخبز، ويشرب الجعة، وجاء في الأسطورة، أنه: غسل بالماء جسمه الأشعر، وحينما ذلك جسده بالزيت صار شبيهاً بالإنسان، وارتدى ثوباً "وأصبح كالمحارب".<sup>٨</sup> التشبيه لاكتسابه الصفات البشرية، والقيام بحياته كمحارب.

<sup>١</sup> نيسابا: إلهة سومرية كانت في الأصل إلهة الحبوب، وكان يكتب اسمها بالرمز المسماري على شكل سنبله قمح ثم أصبحت إلهة الكتابة والحساب والعلوم والعمران والفلك، وهي ابنة الإله "آن". للمزيد يراجع: ادزارد. د. وآخرون (٢٠٠٠)، ص ١٧٠.

<sup>٢</sup> سموقان: إله سومري وهو إله للحيوانات الوحشية وإله الجبل، عرف بألقاب أهمها: "سيد الجبل"، "أسد السهل العالي". للمزيد يراجع: Leick. G (1992), p.147.

<sup>٣</sup> نائل حنون (٢٠٠٦)، ص ٣٣؛ Speiser. E. A (1969), p.74.

<sup>٤</sup> George. A (2000), p.3.

<sup>٥</sup> Taheri. A (2013), p.16.

<sup>٦</sup> Speiser. E. A (1969), p.77.

<sup>٧</sup> George. A (2000), p.105.

<sup>٨</sup> George. A (2000), p.105.

ثم يتحدث جلامش لإنكيو عما رآه في منامه بأنه ارتعدت السماء، رجت الأرض، ويوجد شاب وجهه مظلم مثل زو Zu، وله مخالب مثل مخالب نسر، وأمسك بشعري، فاقنى قوة، ضربته لكنه مثل قشه قفز مبتعداً ضربني فبطحني، ومثل ثور وحشى يطأه بقدمه،<sup>١</sup> وفي نهاية الملحمة بعد أن أيقن جلامش بموت إنكيو: "غطي جلامش وجه صديقه كالعروس، وصاح مثل النسر، وتخبّط مثل لبوّة سقطت أشبالها في حفرة".<sup>٢</sup> ومن العادات العراقية القديمة إذا كان العريس من طبقة الأحرار، يقوم الزوج بوضع الحجاب على وجه زوجته، وهو علامة مميزة للمرأة الحرة، إذ لا يسمح للعاهرة أو الرقيقة ارتداؤه.<sup>٣</sup> وبهذا ساق الكاتب هذا التشبيه من خلال ما يحدث في الواقع العراقي القديم من وضع الزوج غطاء على وجه زوجته.

ويقول إنكيو لجلامش حين يسأله الأخير عن الأحوال في العالم السفلي، يبدأ إنكيو في وصف العالم السفلي لجلامش، حيث: "أصبح جسده مثل ثوب عتيق [التهمة] القمل". فصرخ جلامش، وألقى بنفسه على الأرض.<sup>٤</sup> ثم يقول: "اسمعونى يا شيوخ أوروك أوروك سابكى إنكيو صديقى مثل امرأة نادبة سابكى بمرارة".<sup>٥</sup> والمرأة النادبة هي التي تهيج النساء على البكاء، وجاء التشبيه هنا ليدل على أن البكاء سيكون مستمراً.

ويسأل جلامش عن رجل يموت، ويترك أبناء، فيجيبه إنكيو، فمنها: "من خلف أربعة أبناء يبدو مثل رجل لديه زوج من الحمير، فيتمتع بالراحة". وسأله جلامش عن الرجل الذي ليس له وريث، فأخبره إنكيو، أنه: "يأكل خبزاً مثل الآجر المحروق".<sup>٦</sup>

<sup>١</sup> Speiser. E. A (1969), p.87.

<sup>٢</sup> De Villiers. G. G (2004), p.2- 28.

<sup>٣</sup> أحمد أمين سليم (٢٠٠٩م)، ص ٢٦٨.

<sup>٤</sup> نائل حنون (٢٠٠٦)، ص ٥٦، ٦٦.

<sup>٥</sup> George. A. (2000), p.64.

<sup>٦</sup> نائل حنون (٢٠٠٦)، ص ٦٦.

يوجد في معتقد العراقي القديم أن كثرة الأولاد في الحياة الدنيا تعنى ضمان مكانة مرموقة في العالم الأسفل بعد الموت،<sup>١</sup> ويتضح أن الأبناء كما كانوا عوناً لأبيهم في حياته الدنيا، فإنهم سيكونون سبب سعادته وراحته في العالم الآخر.

ويسأل جلجامش إنكيديو عن مصير بعض الناس في العالم الآخر، فذكر منها: المرأة التي لم تنجب: مثل وعاءٍ به عيب مُلقى جانباً، ولا أحد يسعد بها،<sup>٢</sup> والرجل المصاب بالجرب، ينتفض مثل الثور، وتلتهمه الديدان، والغريق في الفيضان: ينتفض مثل الثور، وتلتهمه الديدان.<sup>٣</sup>

### التشبيه في ضوء أسطورة العقاب الإلهي للبشر

وأما عن أحداث العقاب الإلهي للبشر؛ فيتم ذلك من خلال مجلس الآلهة، والذي اجتمع، وبدأ الإله إنليل المجلس، وخاطبهم بسخطه على البشر الذين لهم ضجيج حرم الإله إنليل من النوم، والذي عبر عنه بأنه: "وأصبحت البلاد تخور مثل الثور"،<sup>٤</sup> فكان العقاب، وهو: "وليقضى الإله نمتار<sup>٥</sup> على صخبهم، ولتفتك كالإعصار: الأمراض والأوجاع والأوبئة....." فأمر بذلك فكانت الأوبئة، ثم قضى نمتار على صخبهم، وفنكت بهم كالإعصار: الأمراض والأوجاع والأوبئة.<sup>٦</sup> تم تشبيه أصوات الناس بخوران الثور، وهذا ليبدل على أنها أصواتهم بمثابة بمثابة الضجيج الذي يتسبب في منع الإله إنليل من النوم، ثم يأتي العقاب لذلك بأن الإله إنليل يأمر الإله نمتار بالفتك بالناس، ولكن فتكاً يكون كالإعصار لا يبقى منهم أحد. وكانت نتيجة هذا العقاب للبشر من الآلهة، أنه في العام الأول لم تثبت البقول، فأكل الناس العشب، وفي العام الثاني أصبحوا يعانون من الحكمة، وعندما حلت السنة الثالثة:

<sup>١</sup> Bayliss. M (1973), p.117.

<sup>٢</sup> De Villiers. G. G (2004), p.2- 28.

<sup>٣</sup> George. A (2000), p.188.

<sup>٤</sup> جاسم حسين يوسف (٢٠١٨)، ص١٤٩؛ Kramer. S. N (1963), p.65.

<sup>٥</sup> الإله نمتار: وصف في ملحمة جلجامش، فإنه غير صامت، امتد مثل السمك، ومثل الغزال في مصيدة

يضغطون على أفواههم في الغبار. يُراجع: Kramer. S. N (1940), p.220; Kramer. S.

N., (1969), p.51 lines 73- 75.

<sup>٦</sup> Kramer. S. N (1940), p.220.

تغيرت ملامحهم بفعل الجوع، وغطت وجوههم غشاوة كالنبات المصفر، وكانوا أحياء ولكن على حافة الموت".<sup>١</sup> وأريدَ بهذا التشبيه التعبير عن نهايتهم، فالنبات في أواخر مراحل نموّه ينموّ ويصفر ثم يزيله الفلاح من الأرض.

#### التشبيه في ضوء أساطير تدمير المدن:

وفي تدمير مدينة أكد، كان قرار الآلهة العظام أمثال سين وإنكي وإينانا ونيورتا وإيشكور وأوتو Utu بتدمير مدينة أكد، وذلك انتقاماً من الملك نرام سين<sup>٢</sup> (٢٢٦٠-٢٢٢٣ ق.م) Naram-Sin الذي قام بتخريب وتدمير معبد إيكور للإله إنليل بمدينة نر، جاء ذلك في أسطورة لعنة أكد: "وهكذا اتجه هؤلاء الآلهة صوب المدينة ونطقوا بلعنة الخراب والهلاك على أكادة (أكد)، يا أيتها المدينة لقد تجرأت بالهجوم على إيكور، وتحديت إنليل، فلتتراكم بساتينك مثل التراب".<sup>٣</sup> أي سيصيبها الدمار حتى تُصبح البساتين مثل التراب.

واجتمع الآلهة العظام؛ ليقرروا حدوث الطوفان، وهذا الاجتماع ترأسه الإله انو، وبحضور الآلهة إنليل، ونورتا، وإنكي، وكان من نتائج هذه الاجتماع حدوث الطوفان الذي أدى إلى: "تحطمت الأرض الواسعة مثلما (يتحطم) الإناء، واستحال كل نور إلى ظلمة، وظلت الرياح تهب يوماً كاملاً)، وتزايدت سرعتها وهي تهب حتى (غطت الجبال)، وفتكت بالناس مثل الحرب الضروس".<sup>٤</sup> تم تشبيه ما آلت إليه الأرض بالإناء المحطم، أي أصبحت الأرض غير صالحة للحياة، وكأن ما صارت إليه البلاد كان نتيجة حرب ضروس فتكت بكل الناس.

<sup>١</sup> Kramer. S. N (1940), pp.220, 221.

<sup>٢</sup> كان الإله أوتو Utu عند السومريين، وهو الإله شمش Šamš عند الأكاديين؛ فهو الإله المسئول عن إيصال الضوء إلى الحياة، فهو إله الشمس، وهو الذي يجعل النبات ينمو. يراجع:

Black. J and Green. A (2004), p.182-184.

<sup>٣</sup> نرام سين: من أبرز ملوك الأسرة الأكادية، وقد أكد بمقدرته العسكرية والسياسية الوحدة الإقليمية للعراق، إذ سيطر على الإقليم كله من لخليج العربي جنوباً إلى جبال أرمينيا شمالاً. للمزيد يراجع: محمد بيومي مهران (١٩٩٠)، ص ١٤٦-١٥٤.

<sup>٤</sup> جاسم حسين يوسف (٢٠١٨)، ص ١٥٠.

<sup>٥</sup> طه باقر (٢٠١٢)، ص ٣٣٥.

وتم تشبيه الآلهة أحيانًا بالطوفان، كما جاء عن إنليل بأنه: "الطوفان العارم الذي لا مثيل له".<sup>١</sup> وبقيادة الإله إنليل شكّل الإله حدد الغيوم العاصفة المظلمة وجلبت السيول التي أدت إلى الطوفان لدرجة أن الآلهة هرعت إلى السماء مخافة الطوفان، وأصبح الناس لا يرون بعضهم، ولا يعرفون بعضهم من الدمار الذي لحق بالبلاد، وذكر تشبيهه للآلهة: "كانت الآلهة مثل الكلاب مستلقية في العراء، وآلهة تصرخ مثل إمراة في المخاض".<sup>٢</sup> تشبيه الإله إنليل بالطوفان تعبيرًا على قوته التدميرية. كما أن بعض الآلهة حزنت على ما آلت إليه البلاد من الدمار فأصبحت الكلاب في الشوارع لا مأوى لها، بل أنها تصرخ من فرض حزنها مثل إمراة في مخاض الولادة.

وبعد نزول هذا الدمار بالبشر اشتكوا إلى الإلهة "مامى"،<sup>٣</sup> ولكن كلمات الإله إنليل جعلت كلمات "مامى" عديمة الفائدة، فقالت الإلهة "مامى": "إن إنليل تمكن بكلماته التي تماثل براعتها، كلمات (الشيطنانة) تيرورو الشهيرة، من جعل كلماتي عديمة الفائدة، مع أنني تلقيت نداء واستغاثة البشر، ودون أن أتمكن من عمل شيء: فإن ذريتي، أصبحت مقضياً عليها كالذباب".<sup>٤</sup> تم تشبيه الناس بالذباب؛ لضعفه وهوانه.

وتكلم الإلهة "مامى" وصف حالة البشر بعد الطوفان، فنقول: "و(ها هم) البشر ملأوا البحر، وكاليعاسيب (ملأوا) سطح النهر، ومثل جذوع حطب، ها هم، مكثسون مع الشاطي، ومثل جذوع (مجروفة)، ها هم مكثمون على الضفة". وأضافت وصفًا: "مثل غم حول حوض الإرواء، يبست شفاههم من القلق، وهم يترنحون من شدة الجوع".<sup>٥</sup>

<sup>١</sup> كريمر. صموئيل (١٩٨٩)، ص ٣٧٦.

<sup>٢</sup> Garrison. J. A (2011), p.83, 84

<sup>٣</sup> الإلهة مامى، هي الإلهة الأم في العراق القديم في كل من سومر، وبابل، وأكد، وهي من آلهة الخلق للإنسان العراقي القديم. يُراجع: Jordan. M (2004), p.186.

<sup>٤</sup> قاسم الشواف (١٩٩٧)، ص ٢٦٨.

تم تشبيه الموتى من الطوفان بالذباب، حتى أن عشتار تحمل عقداً في عنقها من اللوزرد أحجاره على شكل ذباب للتذكير به ضحايا الطوفان من البشر الطافين على وجه الماء كالذباب. يُراجع: قاسم

الشواف (١٩٩٧)، ص ٢٧١.

<sup>٥</sup> Dalley.S (1984), p.33.



وجاء في قصة جلجامش وصف الطوفان الذي دمر البشرية إن الإلهة عشتار:  
"تصرخ مثل امرأة في المخاض".<sup>١</sup>

أما عن تخريب مدينة أور تقول الإلهة چاشان - چال<sup>٢</sup> في بكائها على خرابها وبلاد سومر: "مدينتي، مثل نعجة أمينة، لم تُحتضن، راعيها الفتى غادرها. أور مثل نعجة أمينة لم تحتضن راعيها الفتى مضى بعيداً عنها".<sup>٣</sup> ويزداد حال الإلهة نينجال<sup>٤</sup> Ningal سوءاً، فإنها: "أصبحت مثل راعٍ لا حول ولا قوة له، عندما انهار السلاح على نجاجاته".<sup>٥</sup> وبتفقدتها وبتفقدتها لحال مدينتها أور المخربة ومعبدها المهتم "صارت دموعها مثل سيلٍ تنهمر".<sup>٦</sup> وصارت مدينة أور خراب بأكملها: "مدينة أور مثل طفل في شارع مهدم، يفتش نفسه عن مكانٍ أمامك. معبدك مثل رجلٍ فقد كل شيءٍ يلوي أمامك بيديه".<sup>٧</sup>

الإله مردوخ:

وفي نص "الأمجدن سيد الحكمة"،<sup>٨</sup> وهو الإله "مردوخ"، ذكر فيها أن مردوخ: "مثل الزوبعة العاصفة شديد هيجانه، كنسيم الصباح طيب هبويه"،<sup>٩</sup> وعندما يغضب: "مثل طوفان غضبه"،<sup>١٠</sup> ثم ذكر عنه: "إنه يصفح سريعاً [عمن يكون] مثل امرأة في

<sup>١</sup> Harris. R (1991), p.264.

<sup>٢</sup> چاشان - چال: إحدى إلهات مدينة أور، التي بكت على خراب مدينة أور. للمزيد يراجع:

Black. J and Green. A (2004), p.135.

<sup>٣</sup> قاسم الشواف، المرجع السابق، سطر ٢٦٥، ٢٦٦، ص ٤٠٩.

<sup>٤</sup> الإلهة نينجال: هي الأم الملكة الكبرى، زوجها هو الإله نانا وابنها الإله اوتو، وكانت تسمى أم أور.

للمزيد يراجع: Julia M and others (2013), p.49

<sup>٥</sup> Kramer . S. N (1940), p.53 line 305.

<sup>٦</sup> قاسم الشواف (١٩٩٧) ص ٤١٨ اسطر ٣١١ - ٣٢٤.

<sup>٧</sup> قاسم الشواف (١٩٩٧)، ص ٤١٨ سطر ٣٧٠، ٣٧.

<sup>٨</sup> أُطلق على هذا النص عنوان: "العادل الذي يتألم" أو "العادل المعذب"، ويتناول هذا النص مشكلة الألم

والمرض، والتساؤل هل يحق للرجل العادل أن يتألم، وهل يجوز له أن يلوم الآلهة، وكما يتساءل إذا ما

كان يحق للإنسان الحكم على العدالة الإلهية والشك فيها، ويجب النص عن هذا التساؤل في تمجيده

للإله مردوك وبعض الآلهة، يراجع: قاسم الشواف (١٩٩٧)، ص ٤٢٨ - ٤٢٩.

<sup>٩</sup> نائل حنون (٢٠١٥)، ص ٣٣٥، سطر ٥، ٦.

<sup>١٠</sup> قاسم الشواف (١٩٩٧)، ص ٤٣٠ سطر ٧.

المخاض".<sup>١</sup> وأردف: "ليظهر هيجانه الذي مثل سمكة....".<sup>٢</sup> وتم تشبيهه الإله "مردوخ" بزوبعة العاصفة التي تسبب في تصحر الأرض، وبرغم ذلك فهو كنسيم الصباح طيب هيوبه، فهو يمتلك صفات القوة والرحمة في الوقت ذاته، كما إن مردوخ قَسَمَ تيامات<sup>٣</sup> Tiamat إلى نصفين مثل المحارة نصف أنشأ به السماء والنصف الآخر الأرض والعالم السفلي.<sup>٤</sup>

ولقد شبه عصابة السبعة، وهم فرقة إيرو<sup>٥</sup> التخريبية، وقال عنهم: "منعدمو الشفقة مثل مثل الشيطان آلو"،<sup>٦</sup> وأنهم: "مثل نار الغضب".<sup>٧</sup> ويمكن إجمال النتائج فيما يلي:

السماء والأرض: تم تشبيه الإله إنليل بالسماء في علوها، وعدم معرفة الناس بأسرارها وكنهها؛ فكذلك الإله إنليل. وأيضاً معبده مثل السماء ثابت مستقر لا يستطيع أحد أن يؤثر فيه بشئ. الأرض: تم تشبيه طقوس إنليل بأنها كالأرض ثابتة راسخة مستمرة. أما عن الجبال فهي تتميز بالارتفاع والثبات؛ فلذلك تم تشبيه الإنكي بالجبل يرتفع. وعند ذكر الإله ايمش المسئول عن بناء المدن والمعابد؛ فذكر أن المعابد ترتفع كالجبال في ثباتها وبقائها.

<sup>١</sup> نائل حنون (٢٠١٥)، ص ٣٣٦، سطر ١٨.

<sup>٢</sup> نائل حنون (٢٠١٥)، ص ٣٣٧، سطر ٣٧.

<sup>٣</sup> كان للآلهة في الفكر العراقي القديم بداية، وهي متمثلة في أن الكون كان عدماً، ثم خُلق إلهان، الأول منهما هو "بسو"، وهو عبارة محيط المياه العذبة الموجود في الأرض، والثاني إلهة تدعى "تيامات" وهي البحر. يراجع: Black. J and Green. A (2004), p.177.

<sup>٤</sup> Speiser. E. A (1969), p.67.

<sup>٥</sup> إيرو: هو أحد الشيطان الذي يقوم بأعمال العنف والدمار. يراجع:

Konstantopoulos. G. V (2015), p.162- 163.

<sup>٦</sup> قاسم الشواف، المرجع السابق، ص ٤٣٢، سطر ٦٦.

<sup>٧</sup> الشيطان آلو: من الشيطان التي تقوم بأعمال تخريب وتدمير.

Konstantopoulos. G. V (2015), p.43.

<sup>٧</sup> قاسم الشواف، المرجع السابق، ص ٤٣٢، سطر ٦٨.

التشبيه بالفصيلة الحيوانية: ففي صراع كور مع الإله إنكي فكان كور كالأسد يضرب ويلطم دليل على قوته في بداية الصراع مع الإله إنكي. تم تشبيه الإله إنكي بالثور دليل على قوته، وكذلك شبه إنكيو بأنه مثل الثور لقوته أيضاً. وتم تشبيه الإله نرجال بالثور الذى يطئ بقدمه، ويضرب بقرنه. كما شبه ضجيج البشر بأن البلاد تخور مثل الثور مما تسبب في إزعاج الإله إنليل ولم يستطيع النوم فقام بتعذيب البشر. وتم بالتشبيه بالنسر وذلك عندما صاح جلامش مثل النسر حزناً على فقدان إنكيو. وشبهت الإلهة عشتار بأنها تُقرغ سمها على الأرض مثل التنين. وأيضاً تشبيه الانوناكى وهم يهزمون أمام عشتار، ومن شدة ما أصابهم من الهلع أنهم أصبحوا مثل الخفافيش، وهذا من شدة ارتباكهم. وفي فرار نينورتا من أمام خصمه أساك فلقد فر كالطير، وكان ذلك في بداية النزال بينهما.

وعن التشبيه بالرياح والعواصف، فقد تم تشبيه الإله نرجال في سرعته كالرياح. كما شبهت الإلهة عشتار بأنها مثل الرياح، فهي تهزم خصومها بسرعة. أما العواصف فلقد نظر العراقي القديم في فكره الأسطوري إلى الإله نرجال بأنه ثقيل مثل العاصفة، فهو يدمر تدمير العاصفة، وهذا يحدث له عندما يغضب، ووصف كور في هجومه على سفينة إنكي بأنه كالزوبعة.

السحاب والمطر: أما السحاب فهي تدل على العطاء حيث تفيض بالماء الذي يتسبب في إنبات الزرع من الأرض؛ فتم تشبيه الإله إنكي كالسحابة التي تفيض بالماء. وبخصوص المطر؛ فعندما فتك الإله نرجال بالبشر حتى سال دمائمهم مثل المطر في الأودية من كثرته، ويوضح ذلك مدى فتك الإله نرجال بالبشرية.

الضوء: تشبيه أشعة الإله شمش بأنها كالشبكة، فكما تنتشر الشبكة على جزء من الأرض فإن نور الإله شمش ينتشر ليملى الدنيا نوراً. وشبه الإله شمش بأنه كاللازورد لتدل على اللمعان. كما شبه معبد الإله إنكي المبنى من الفضة وحجر اللازورد فهو كالضوء المتألق. ولحيته مثل اللازورد من شدة لمعانها. وعن المعبود أشور فإن هيئته كالبرق أى تظهر ضوء. وكان للنجوم نصيباً في التشبيه فإن الإلهة عشتار تتبر بريقاً مثل النجوم. وعندما نصح آيا الإله نينورتا في صراع مع أنزو بأن سهامه مثل البرق أى خاطفة كنور

البرق السريع. ومن الأشياء الدالة على الضوء النار، فلقد جاء عن آلهة إيجي أنهم في موكب السماء يتألقون مثل النار. أى في ضوءها.

الأشجار والنبات: عرف العراقي القديم شجرة السنط التي تُخرج الصمغ؛ فشبه الإله إنكي بأنه مثل شجرة السنط، فإنه يأتي بالنفع مثل هذه الشجرة. وكذلك الإلهة عشتار شُبِحت بأنها تزرع الرؤوس مثل البذور.

ويمكن القول في نهاية المطاف، أن التشبيه المقصود به إيضاح معنى معين مع الإيجاز والاختصار، وفي حقيقة الأمر أنه أعطى المعنى المطلوب في إيجاز غير مخل، مما يجعل القارئ يستشعر المعنى المراد. وهو بذلك وفر شرحاً طويلاً لمُراد الكاتب، إذا جعل المعنى مباشر وواضح. كما استغل الكاتب المشبه به من البيئة التي يعيش فيها، فبذلك جاء الكلام سهل الفهم.

### مراجع البحث

#### أولاً المراجع العربية:

- أحمد أمين سليم، مصر والعراق . دراسة حضارية، الطبعة الثانية ( بيروت، دار النهضة العربية، ٢٠٠٩م).
- انزارد. د وآخرون، قاموس الآلهة والأساطير في بلاد الرافدين (السومرية والبابلية) في الحضارة السومرية (الأوغاريتية والفينيقية)، الطبعة الثانية، تعريب محمد وحيد خياطه (لبنان: دار الشرق العربي، ٢٠٠٠).
- أسامة عدنان يحيى، الآلهة في رؤية الإنسان العراقي القديم، دراسة في الأساطير، رسالة دكتوراه في التاريخ القديم، كلية الآداب، جامعة بغداد، (٢٠٠٧)
- جاسم حسين يوسف، العلاقة بين البشر والآلهة في بلاد الرافدين في ضوء النصوص المسمارية، مجلة مركز دراسات الكوفة، العدد ٤٩ (٢٠١٨)، ص ١٤٥ - ١٦٠.
- جالكوبسن، أديان ما بين النهرين - إطلالة عامة، (١٩٨٧)، بحث ضمن موسوعة: تاريخ الأديان، ج ٢، تحرير: فراس السواح، (دمشق: دار علاء الدين، ٢٠٠٤)
- حسين أحمد سلمان وختام عدنان على، الإله أنو كبير الهة العراق القديم، مجلة كلية التربية الجامعة المستنصرية، العدد الثاني ٢٠١٧، ص ٢١٧ - ٢٤٤.

- طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، الطبعة الثانية (بغداد: دار الوراق للنشر، ٢٠١٢).
- عبدالعزيز عتيق، علم البيان، في البلاغة العربية، (بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٨٥).
- على ياسين الجبوري، قاموس اللغة الأكديّة - العربية، (هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، ٢٠٠٨).
- قاسم الشوّاف، ديوان الأساطير، سومر وأكاد وأشور، الكتاب الثاني الآلهة والبشر، الطبعة الأولى، إشراف: أدونيس، دار الساقى، (لبنان: دار الساقى، ١٩٩٧).
- كريم. صموئيل، من ألواح سومر، ترجمة: طه باقر، مراجعة أحمد فخرى، (بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، ١٩٨٩).
- مازن محمد حسين، الأسطورة في بلاد الرافدين دراسة في الفكر الأسطوري الملحمي في الثقافة السومرية والأكديّة، مجلة مركز بابل للدراسات الإنسانية، ٢٠١٦، المجلد ٦/ العدد ٤، إصدار خاص بالمؤتمر الوطني للعلوم والآداب، (٢٠١٦)، ص ٢٩٧ - ٣١٩.
- محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، مختار الصحاح، (بيروت، مكتبة لبنان، ١٩٨٦).
- محمد بيومي مهران: تاريخ العراق القديم، مصر والشرق الأدنى القديم (١٠) (الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٠).
- محمد فهد القيسي، النار في أدب العراق القديم دراسة تحليلية، مجلة كلية التربية العدد الخامس والثلاثون ٢٠١٩.
- نائل حنون، ملحمة جلجامش ترجمة النص المسماري مع قصة موت جلجامش والتحليل اللغوي للنص الأكدي، (دمشق: دار الخريف للنشر والوزيع، ٢٠٠٦).
- نائل حنون، نصوص مسمارية تاريخية وأدبية، الترجمة المباشرة عن الأصول المسمارية مع الشروحات والتعقيبات اللغوية (بيروت: دار التنوير للطباعة والنشر، ٢٠١٥).

- هايدل. السكندر، الخليقة البابلية - قصة النشوء والتكوين عند قدماء العراقيين وانعكاساتها على العهد القديم، ترجمة ثامر مهدي محمد، محي الدين إسماعيل (بغداد: بيت الحكمة، ٢٠٠٢).

#### ثانياً: المراجع الأجنبية:

- Annus. A., The God Ninurta in the Mythology and Royal Ideology of Ancient Mesopotamia , State Archives of Assyria Studies, Volume XIV, Helsinki (2002).
- Bayliss. M., The Cult of Dead Kin in Assyria and Babylonia, Iraq, vol 35 ,(1973), pp.115- 125.
- Black. J and others., A Concise Dictionary of Akkadian, Wiesbaden (2000).
- Black. J and Green. A., An Illustrated Dictionary Gods, Demons and Symbols of Ancient Mesopotamia, Illustrations by Rickards. T, The British Museum Press, London, (2004).
- Dalley.S., Myths from Mesopotamia, Creation, the Flood Gilgamesh and Others, Oxford (1984).
- De Villiers. G. G., Understanding Gilgamesh: His World and his Story, South Africa (2004).
- Espak. P., Ancient Near Eastern Gods Enki and EA: Diachronical Analysis of Texts and Images from the Earliest Sources to the Neo-Sumerian Period, Master's Thesis, Faculty of Theology, Tartu University, Tartu (2007).

- ....., The God Enki in Sumerian Royal Ideology and Mythology, Dissertations Theologiae Universitatis Tartuensis (19), Paris (2010).

- Ferris J. S., Prayer to the Moon God, in: Ancient Near Eastern Texts, Edited by Pritchard. J., New Jersey (1969), p.386-387.

- Garrison. J. A., The Gilgamesh Epic and the Old Testament Prophetic Corpus, A Dissertation Submitted to the Doctor of Philosophy Committee of the Mid-America Baptist Theological Seminary, in the Old Testament Department, (2011).

- Gelb. I. J., Hurrians and Subariabs, Studies in Ancient Oriental Civilization, No.22, Chicago (1973).

- George. A., The Epic of Gilgamesh, The Babylonian Epic Poem and Other Texts in Akkadian and Sumerian, Penguin (2000).

- Harris. R., Inanna-Ishtar as Paradox and a Coincidence of Opposites, History of Religions, Vol. 30, No. 3 (Feb., 1991), pp. 261-278.

- Heidel. A., The Gilgamesh Epic and Old Testament Parallels, the University of Chicago, (1971).

- Heuzey. M. L., Dragons sacrés de Babylone et leur prototype chaldéen, Revue d'Assyriologie et d'Archéologie orientale, vol. VI, n° 3, (1906), pp.1- 10.

- Jacobsen. T., Primitive Democracy in Ancient Mesopotamia, Journal of Near Eastern Studies, Vol. 2, No. 3 (Jul., 1943), pp. 159-172.

- ....., The líl of dEn-líl. DUMU-É-DUB-BA-A: Studies in Honor of Åke W. Sjöberg (Behrens, H., D. M. Loding and M. T. Roth). (1989), pp.267-276.
- Jordan. M., Dictionary of Gods and Goddesses, the United States of America, (2004).
- Julia M and others., Goddesses in Context: On Divine Powers, Roles, Relationships and Gender in Mesopotamian Textual and Visual Sources, Zurich Open Repository and Archive, University of Zurich (2013).
- Konstantopoulos. G. V., They are Seven: Demons and Monsters in the Mesopotamian Textual and Artistic Tradition, (Near Eastern Studies) in the University of Michigan, (2015).
- Kotzé. Z., The Evil Eye of Sumerian Deities, Asian and African Studies, Volume 26, Number 1, (2017), pp.102 – 115.
- Kramer . S. N., Lamentation over the Destruction of Ur, Chicago (1940).
- ....., The Sumerians, Their History, Culture, and Character, London, (1963).
- ....., Sumerian Myths and Epic Tales, Ancient Near Eastern Tests, Edited by Pritchard. J., New Jersey (1969), pp.37-59.
- ....., BM 100042: A Hymn to Su-Sin and an Adab of Nergal , DUMU-É-DUB-BA-A: Studies in Honor of Åke W. Sjöberg (Behrens, H., D. M. Loding and M. T. Roth). (1989).



- Leick. G., A Dictionary of Ancient Near Eastern Mythology, (London and New York, 1992).

- Lewis. M. H. C., Warrior, Lover, Queen, Mother: The Goddess IŠTAR and her Relationship with Humanity, Master of Philosophy, Institute of Archaeology and Antiquity College of Arts and Law University of Birmingham October (2011).

- Muscarella. O. W., Bronze and iron. Ancient Near Eastern artifacts in the Metropolitan Museum of Art. New York: The Metropolitan Museum of Art, (1988).

- Polonsky. J., The Rise of the Sun God and the Determination of Destiny in Ancient Mesopotamia, Asian and Middle Eastern Studies, Presented to the Faculties of the University of Pennsylvania in Partial Fulfillment of the Requirements for the Degree of Doctor of Philosophy, (2002).

- Schwemer. M., The Storm-Gods of the Ancient Near East: Summary, Synthesis, Recent Studies, JANER 7.2 (2008), pp.121-168.

- Scurlock. J. A., Marduk and His Enemies: City Rivalries in Southern Mesopotamia, Organization, Representation, and Symbols of Power in the Ancient Near East, Proceedings of the 54th Rencontre Assyriologique Internationale at Würzburg 20-25 July 2008, edited by Wilhelm. G, Winona Lake, Indiana Eisenbrauns (2012), pp.369- 376.

- Smith. M. S., Atthart in Late Bronze Age Syrian Texts, Transformation of a Goddess: Ishtar - Astarte - Aphrodite, (Ed)

Sugimoto, David T., Zurich Open Repository and Archive 39, (2014), pp.33- 85.

- Speiser. E. A., Akkadian Myths and Epics, Ancient Near Eastern Tests, Edited by Pritchard. J., New Jersey (1969), pp.60-119.

- Stephens. F. J., Sumero-Akkadian Hymns and Prayers, Ancient Near Eastern Tests, Edited by Pritchard. J., New Jersey (1969), pp. 383- 392.

- Taheri. A., The "Man-Bull" and the «Master of Animals» in Mesopotamia and in Iran, Intl. J. Humanities Vol. 20(1) (2013), pp.13- 28.

- Tallay. O., The Triumph of the Symbol: Pictorial Representation of Deities in Mesopotamia and the Biblical Image Ban, the Zurich Open Repository and Archive, University of Zurich (2005).

- Thompson. R. C., A Dictionary of Assyrian Botany, London, (1948).

- Van Buren. E. D., The Dragon in Ancient Mesopotamia, Orientalia,, Vol. 15 (1946), pp. 1-45.

- Wang. X., The Metamorphosis of Enlil in Early Mesopotamia, (2010).

## المنهج التاريخي للكندي في كتابه الولاة والقضاة

د. علاء محمد عبد الغني حسن

أستاذ التاريخ الإسلامي المساعد

الجامعة العربية المفتوحة

### الملخص:

تعرض هذه الدراسة تحليلاً ونقداً لواحد من أهم مصادر تاريخ مصر في العصر الإسلامي، وهو كتاب الولاة والقضاة لأبي عمر الكندي (ت ٣٥٥ هـ/٩٦٦م)، هذا العالم والمؤرخ والمحدث والفقير، الذي عاصر تقدم الحضارة الإسلامية وازدهارها، وشارك مشاركة فعالة في تقدمها.

ويعد كتاب الولاة والقضاة مجموعة من التراجم للولاة والقضاة منذ بداية الفتح الإسلامي لمصر إلى قبل وفاة المؤلف؛ فقد قسمه الكندي إلى قسمين: الأول: خاص بالولاة الذين تولوا مصر في تلك الفترة، والقسم الثاني: خصصه للقضاة الذين كانوا على قضاء مصر إلى سنة (٢٤٦ هـ/٨٦٦م)، حيث احتوى المصنف على بعض الأحوال السياسية والاجتماعية والعلمية والأدبية في مصر في تلك الفترة، وقد تنوعت طرق الكندي في عرضه للأخبار، واختلفت من فترة إلى أخرى، دون الإخلال بالقيمة العلمية للمصنف.

### Abstract

This is an analytical and critical study of one of the most prominent sources of Islamic history in Egypt. It is the book of "ketab alwelah wa al kdah " by Abo Omar Alkindi (355h/966 g). This scholar, historian, narrator and jurist witnessed the progress and flourish of Islamic civilization and prolifically contributed to its advancement. His book, "Governors and Judges", is a collection of stories about governors and judges who had reigned Egypt since the Islamic conquest of Egypt till the demise of the author. The

author divided the book into two chapters; one about governors who ruled Egypt then and the other about judges who undertook judicial responsibilities in Egypt until the Hijra year of 246. The book contains an account of some political, social, scientific and literary events in Egypt at the time. Alkindi had various methods of reporting news, which varied from time to time without detriment to its scholarly value.

الكلمات المفتاحية: الولاة - القضاة - مصر - الخلافة - الكندي.

### المقدمة

يعد القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي قمة ازدهار التدوين التاريخي في مصر والعالم الإسلامي؛ ويرجع السبب في ذلك لكثرة الرحلات العلمية، وتنوع المؤسسات العلمية، وتقدمها في مصر، ومن أبرز المؤرخين والعلماء في تلك الفترة أبو عمر الكندي (ت ٣٥٥ هـ/٩٦٦م) الذي ولد في مصر وعاش بها في هذه الفترة، وتعلم العديد من العلوم، حيث أخذ العلم عن أكابر العلماء في هذا العصر، فقد بدأ حياته محدثاً، وهو ما طغى عليه في الكتابة التاريخية، فكان يتحرى الدقة في كل خبر، حيث اعتمد اعتماداً كبيراً على الرواية والسند، وإن كان في بعض الأحداث التي عاصرها لا يكتبها برواية أو سند، والمهم في هذه الدراسة كتابه (الولاة والقضاة)، والذي يعد مصدراً من مصادر التدوين التاريخي في هذه الفترة المهمة من تاريخ مصر الإسلامية.

تعتمد هذه الدراسة على عرض وتحليل ونقد لكتاب (الولاة والقضاة) للكندي، والذي يعد من الكتب المهمة في تاريخ مصر، حيث أرخ باختصار لبعض الأحداث التي حصلت في مصر في أثناء فترة الدراسة، كما ظهرت مهارة الكندي في الإشارة إلى بعض الأمور الاجتماعية والحضارية التي حصلت في أثناء الدراسة، وإن كانت قليلة إلا إنها تتناسب مع الغرض من تأليف الكتاب.

ولتلك الدراسة أهمية لاعتبارات عدة منها: أن هذا الموضوع يدخل ضمن نطاق المنهج التاريخي للكندي.

**وتحاول هذه الدراسة الإجابة على بعض الأسئلة منها:**

من هو الكندي ونشأته؟

ما هو منهج الكندي في كتاب الولاية؟

ما هو منهج الكندي في كتاب القضاة؟

**وتهدف الدراسة إلى:**

بيان مكانة الكندي بين العلماء.

إظهار منهج الكندي التاريخي في عرض الولاية.

التعرف على المنهج التاريخي للكندي في عرض القضاة.

**أما عن المنهج المستخدم في الدراسة:** فهو المنهج التحليلي، الذي يتناول الروايات

وتحليل تلك الروايات لمعرفة المنهج التاريخي الذي تبعه الكندي.

**أما عن الدراسات السابقة:** التاريخ والمؤرخون في مصر والأندلس في القرن الرابع

الهجري العاشر الميلادي، دراسة تحليلية مقارنة لعبد الفتاح فتحي عبد الفتاح.

**تحتوي هذه الدراسة على المحاور التالية:**

أولاً: نشأة الكندي وحياته.

ثانياً المنهج التاريخي للكندي في عرض الولاية.

ثالثاً: المنهج التاريخي للكندي في عرض القضاة.

الخاتمة والنتائج.

**أولاً نشأته وحياته:** هو محمد بن يوسف بن يعقوب بن حفص بن يوسف بن نصير

بن زيد بن عبد الله بن قيس بن الحارث بن عميس بن ضبيح بن عبد العزيز بن عامر بن

مالك بن براءة بن أذاة بن عدي بن أشرس بن شيبية بن السكون بن الأشرس بن كندة،

التجيبّي أبو عمر الكندي<sup>(١)</sup>، المؤرخ المصري، وهو غير الكندي الفيلسوف، ولد يوم النحر

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ، ٤٢٦؛ الذهبي : تاريخ الإسلام ، ٢٢١/١٥ .

سنة ٢٨٣ هـ / ٩٠٣ م في مصر<sup>(١)</sup>، وإن كان المتعارف عليه أن يختلف المؤرخون في سنة ولادته، فإن الأمر مع الكندي مختلف، حيث اتفقوا على مولده، ولكن كان الاختلاف في وفاته، حيث ذكر الذهبي أنه توفي سنة ٣٥٥ هـ / ٩٧٥ م<sup>(٢)</sup>، ولكن يبدو أنه التيس عليه الأمر، فذكره في وفيات ٣٥٠ هـ / ٩٧٠ م<sup>(٣)</sup>، بينما ذكر الصفدي أنه توفي سنة (٣٥٠ هـ / ٩٧٠ م) تقريباً<sup>(٤)</sup>، غير أن المقرئ بين أنه توفي سنة (٣٥٠ هـ / ٩٧٠ م) بمصر، ودفن بمقابر غافق وكندة<sup>(٥)</sup>، أما السيوطي، فبين أنه توفي سنة (٣٥٨ هـ / ٩٧٨ م)<sup>(٦)</sup>، كما ذكر الزركلي أنه توفي سنة (بعد ٣٥٥ هـ / بعد ٩٦٦ م)<sup>(٧)</sup>، وذكر الدار قطني أنه توفي سنة (٣٥٠ هـ / ٩٧٠ م) حيث أنهى كلامه، ب: (والله أعلم)، مما يدل على عدم تأكده من سنة وفاته<sup>(٨)</sup>، ولكن سزكين كان له رأي مختلف، حيث ذكر أنه توفي في الفسطاط سنة (٣٦٠ هـ / ٩٧١ م)<sup>(٩)</sup>، ولكن السؤال الذي يطرح نفسه، كيف يكون تاريخ الوفاة (٣٥٠ هـ / ٩٧٠ م) وأحداث كتاب الولاة إلى سنة (٣٦٢ هـ / ٩٨٢ م)، حين قدم المعز إلى مصر، وقد أورده كارل بروكلمان في الأحداث الواردة في نهاية الولاة سنة (٣٣٥ هـ / ٩٨٥ م) إلى (٣٦٢ هـ / ٩٨٢ م)<sup>(١٠)</sup>، فالمرجح أن تكون وفاته بعد سنة (٣٦٠ هـ / ٩٨٠ م) من بني كنده وكان يتفقه على مذهب العراقيين<sup>(١١)</sup> مؤرخ له علم بالحديث والأنساب<sup>(١)</sup>.

- (١) الباباني: هدية العارفين ، ٢ / ٤٦٠ ؛ السيوطي: حسن المحاضرة ، ١ / ٥٥٣ ؛ الزركلي : الأعلام ، ٨ / ٢١ .
- (٢) الذهبي: المصدر السابق، ٢٥ / ٤٥٣ ؛ ابن عبد الحكم: المصدر السابق، ص ٤٢٦ .
- (٣) الذهبي: المصدر السابق، نفس الصفحة .
- (٤) الصفدي: الوافي بالوفيات، ٢٠٠٠ م، ٥ / ١٦١ .
- (٥) المقرئ: المقفى الكبير، ٢٠٠٦ م ٧ / ٢٦٤ .
- (٦) الباناني: المصدر السابق، ٢ / ٤٦٠؛ السيوطي: المصدر السابق، ١ / ٥٥٣ ؛ الزركلي: المصدر السابق، ٨ : ٢١ .
- (٧) الزركلي: المصدر ، ٧ / ١٤٨ .
- (٨) الوداعي: تراجم رجال الدار قطني ، ص ١٢٢ .
- (٩) فؤاد سزكين: تاريخ التراث العربي، ٢ / ٢٣٩ .
- (١٠) كارل بروكلمان: تاريخ الأدب العرب، ٢ / ٨٥ .
- (١١) الصفدي: الوافي بالوفيات ، ٥ / ١٦١ .

نشأ الكندي في أسرة علمية أسهمت بشكل كبير في نهضة مصر الثقافية، فهو من بيت كريم حسباً ونسباً وعلماً؛ فعمه الحسن بن يعقوب من أبرز رواة الحديث في مصر، وقد بدأ الكندي تعليمه منذ نعومة أظفاره، حيث بدأ بحفظ القرآن الكريم، ودرس الحديث على أبرز علماء عصره في ذلك الوقت، ومنهم عامر بن الحسن بن خلف، وأبو القاسم الأزدي الملقب بابن قديد، واستطاع دراسة الفقه الحنفي، كما كان للإمام النسائي بصمة واضحة في حياة الكندي؛ فقد تعلم منه الكثير حين قدم مصر، فكانت حياة الكندي عبارة عن مراحل أتقن فيها أهم العلوم؛ فأولها تعلم فيها علم الحديث، والذي أتقن من خلاله السند والرواية عن الثقات، ولكنه استهواه علم التاريخ، فحرص على دراسته وإتقانه، فأصبح من أقدم المؤرخين في مصر، واتصف بالصدق والأمانة في نقل الأخبار وتدوينها، وأصبحت مؤلفاته في علم التاريخ من أقدم المصادر المهمة في تاريخ مصر الإسلامية، واعتمد على مؤلفاته أغلب المؤرخين الذين جاءوا من بعده.<sup>(٢)</sup>

أما عن الأحوال السياسية لمصر في حياة الكندي، فكانت مصر في تلك الفترة خاضعة لحكم الطولونيين والإخشيديين؛ فهي تعيش حياة مليئة بالاستقرار، بعد أن مرت في الفترة السابقة بالكثير من الاضطرابات والتوترات السياسية، والكثير من الأزمات الاقتصادية، إلى أن قدم عليها أحمد بن طولون والياً، فاستطاع بحكمته ورجاحة عقله أن ينقذ البلاد من هذه الحالة، وبنى فيها بنية تحتية، فأصلح اقتصادها، وعاش الناس في رخاء وهدوء سياسي<sup>(٣)</sup>، فقام في تلك الفترة ببناء مدينة القطائع، كما عمل على تأسيس أسطول بحري قوي، وساد الأمن في أنحاء البلاد<sup>(٤)</sup> وسار الإخشيديون على نفس سيرة الطولونيين<sup>(٥)</sup>،

(١) بكر بن عبد الله: طبقات النسابين، ص ٨٥.

(٢) الذهبي: تاريخ الإسلام، ٢٢١/١٥؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ١٣٤/٣؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ٥٥٣/١.

(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ١٧٣/١.

(٤) الشارعي: مرشد الزوار إلى قبور الأبرار، ص ٥؛ ابن تغري بردي: المصدر السابق، ١٣٤/٣.

(٥) السيوطي: المصدر السابق، ٣٧٩/٢؛ محمد بن عبد الرزاق: خطط الشام، ١٨٣/١؛ أحمد معمور العسيري: موجز التاريخ الإسلامي، ٢٣٢/١.

وبناءً على هذا، فقد شهد القرن الثالث الهجري تألفاً بين القبائل العربية، وأهل مصر؛ مما عمل على ظهور نهضة علمية على أعلى مستوى، ازدهرت معها المدارس، وانتشرت المجالس العلمية بمختلف أنواعها، ومنها مجالس الحديث والفقه، وانتشرت، كذلك الأمسيات الشعرية، فأصبحت مصر بيئة لجذب العلماء وطلاب العلم من مختلف أنحاء العالم، فعمل هذا على صلاح المجتمع ورفيقه.<sup>(١)</sup>

**الذين روى عنهم الكندي:** روى عن عليّ بن الحسن بن خلف بن قنيد الأزديّ، وأبي عبد الرحمن النسائيّ، وجماعة<sup>(٢)</sup>، أما من روى عن الكندي، فهم كثيرون، ومنهم أبو محمد عبد الرحمن بن عمر ابن النحاس<sup>(٣)</sup>، أما الذين نقل عنهم الكندي: ابن عبد الحكم<sup>(٤)</sup>، ونقل عن ابن إسحاق في كتابه المغازي، فإنه قال فيها: حدثني الزهريّ عن عبد الرحمن بن عبد القاري - أن رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بعث حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس، فذكر القصة. وفيها فأهدى إليه جاريتين إحداهما أم إبراهيم، وأما الأخرى فوهبها لجهم بن قثم العبديّ، فهي أم زكريا بن جهم الذي كان خليفة عمرو بن العاص.<sup>(٥)</sup>

**الناقلون عنه:** ولشهرة الكندي ومكانته العلمية نقل عنه كثير من العلماء ومنهم النووي، الذي نقل عن الكندي، في أثناء ذكره للقاضي سليم بن عمر، فقال: " وروى أبو عمر الكندي في كتابه في قضاة مصر أنه كان يختم في الليلة أربع ختمات<sup>(٦)</sup>، وكذلك نقل عنه الرشيد العطار في أثناء حديثه عن القاضي عياض في الرواة عن مالك، وترجم له

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ٣/١٤٠؛ أحمد معمور العسيري: تاريخ الإسلام، ١/٢٣٢.

(٢) المقرئزي: المقفى الكبير، ٧/٢٦٤.

(٣) المقرئزي: المصدر السابق، والصفحة .

(٤) ابن عبد الحكم [١٨٢ - ٢٦٨ هـ/٧٩٨ - ٨٨٢ م] محمد بن عبد الله بن عبد الحكم، المصري، أبو عبد الله، فقيه مصر في عصره، انتهت إليه الرياسة في العلم فيها، كان مالكي المذهب، ولازم الإمام الشافعي، ثم رجع إلى مذهب مالك، وحمل في فتنة القول بخلق القرآن إلى ابن أبي دواد في بغداد، فلم يجبه، فرده إلى مصر، وتوفي بها، وكان يتصف بأنه صادق. الزركلي: الأعلام، ٦/٢٢٣.

(٥) ابن حجر العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة، ١/٦٢٣.

(٦) النووي: التبيان في آداب حملة القرآن، ١/٦٠.



فقال: كذا نسبه أبو عمر الكندي في كتاب أعيان موالى مصر فيمن روى عن مالك<sup>(١)</sup>، ونقل عنه كذلك ابن قطلوبغا، حينما كتب عن مسلمة، حيث قال: وَقَالَ أَبُو عُمَرَ الْكِنْدِيُّ: جَمَعَ لَهُ مُعَاوِيَةُ فِي إِمْرَةِ مِصْرَ بَيْنَ الصَّلَاةِ وَالْخَرَجِ<sup>(٢)</sup>، ونقل عنه كذلك السيوطي، في النَّوْعُ الرَّابِعُ وَالسَّنَيْنَ: مَعْرِفَةُ الْمَوَالِ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَالرُّوَاةِ، وَصَنَّفَ فِي ذَلِكَ أَبُو عُمَرَ الْكِنْدِيُّ بِالنَّسْبَةِ إِلَى الْمِصْرِيِّينَ<sup>(٣)</sup>، كما نقل عنه الخطيب البغدادي: "وَرَوَى عَنِ ابْنِ أَبِي سَرْحٍ فِيمَا رَعَمَ أَبُو عُمَرَ الْكِنْدِيُّ"<sup>(٤)</sup>، ونقل عنه كذلك الذهبي، في حديثه عن أحمد بن يحيى بن وزير بن سليمان بن مهاجر، قال أبو عمر الكندي: " كان فقيهاً من أصحاب ابن وهب"<sup>(٥)</sup>، كذلك نقل عنه ابن تغري بردي، وقال: "أبو عمر الكندي: جمع له معاوية في إمرة مصر بين الخراج"<sup>(٦)</sup>، ونقل كذلك السيوطي حيث قال: "لطيفة عن الكندي في أمر يوسف عليه السلام"<sup>(٧)</sup>، ونقل كذلك عنه، ابن حجر العسقلاني، حيث قال: " وكذا قال أبو عمر الكندي في الموالى وذكر أنه قرأه على لوح بقبره منقوشاً"<sup>(٨)</sup>، ونقل عنه كذلك المقرئ: " وقال أبو عمر الكندي: وقتل أبو علاثة محمد بن أحمد بن عياض ابن أبي طيبة الجنبى، وكان رجلاً ذا لسان وعارضة"<sup>(٩)</sup>.

**مؤلفات الكندي:** صنّف الكندي الكثير من المؤلفات في أخبار مصر، فمنها: كتاب الأمراء، وكتاب الريات، وكتاب القضاة، وكتاب الموالى، وكتاب الجند الغربي، وكتاب الخندق والتراويح، وكتاب الخطط، وكتاب أخبار السري بن الحكم، وصنف فضائل مصر، وكتاب قضاة مصر سماه: "أخبار قضاة مصر" كان في زمن كافور وكتاب الخندق

(١) الرشيد العطار: مجرد أسماء الرواة عن مالك ، ٢٨٦/١ .

(٢) ابن قطلوبغا: مسند عقبة بن عامر ، ١/١ .

(٣) السيوطي،: تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي ، ٩١٠/٢ .

(٤) الخطيب البغدادي: تلخيص المتشابه في الرسم ، ٢٠٩/١ .

(٥) الذهبي: تاريخ الإسلام ، ١٦٦/١٨ .

(٦) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ، ١٢٨/١ .

(٧) السيوطي: حسن المحاضرة ، ١٠/١ .

(٨) ابن حجر العسقلاني: تهذيب التهذيب ، ٢٠١/٢ .

(٩) المقرئ: المقفى الكبير ، ١٣٣/٥ .

والتراويح، وكتاب الخدد، وكتاب سيرة السرى ابن الحكم، وكتاب أخبار مسجد أهل الولاية الأعظم، وكتاب سيرة مروان بن الجعد، وكتاب الموالي، هذه الكتب لم نسمع بها إلا عن طريق من ترجم للكندي، أو نقل عنها في كتابه، ولم يبق بين أيدينا إلا كتب الولاية والقضاة.<sup>(١)</sup>

**ثناء العلماء عليه:** كان للكندي مكانة كبيرة لدى علماء عصره؛ لذا فقد لهجت أقلامهم والسنتهم بالثناء عليه، حيث قيل: إنه كان عارفاً بأحوال الناس وسير الملوك؛ قال الفرغاني<sup>(٢)</sup>: "كان من أعلم الناس بالبلد وأهله وأعماله وثورته، وله مصنّفات فيه، وفي غيره من صنوف الأخبار والأنساب، وكان من جلة أهل العلم بالحديث والنسب، عالماً بكتب الحديث، صحيح الكتاب، نسابة، عالماً بعلوم العرب"<sup>(٣)</sup>، كما أثنى عليه الزركلي قائلاً: " كان من أعلم الناس بتاريخ مصر وأهلها وأعمالها وثورها، وله علم بالحديث والأنساب، وهو غير يعقوب الكندي الفيلسوف"<sup>(٤)</sup>.

**عرض عام لكتاب الولاية والقضاة:** يعد كتاب الولاية والقضاة من أهم الكتب في دراسة تاريخ مصر الإسلامية، حيث حدد الكندي، مدته الزمنية منذ بداية الإسلام حتى منتصف القرن الرابع الهجري، وعلى وجه التحديد سنة (٣٣٤ هـ/٩٥٤م)، وقسم الدراسة فيه إلى قسمين: قسم خاص بولاية مصر، والقسم الآخر خاص بقضاتها، أما القسم الأول: فقد وضع الكندي محتواه من خلال ما ذكره بنفسه في بداية الكتاب قائلاً: "هذا كتاب سميته ولاية مصر ومن ولي الصلوات فيها، ومن ولي الحرب والشرطة، منذ فتحت إلى زماننا هذا، ومن جمع له الصلاة والخراج"<sup>(٥)</sup>، فبدأ الكتب بذكر علاقة العرب بمصر قبل الإسلام، وبعض

(١) المقرئبي: المصدر السابق ، ٢٦٤/٧ ؛ ابن عساکر: تاريخ دمشق ، ٣٩٩/١٧ .

(٢) الفرغاني: (٣٢٧ - ٣٩٨ هـ = ٩٣٩ - ١٠٠٧ م) أحمد بن عبد الله بن أحمد الفرغاني، أبو منصور: مؤرخ، من سكان مصر، وبها وفاته، له (تاريخ) وصل به تاريخاً لوالده، و (سيرة

العزیز سلطان مصر المنتسب إلى العلويين) و (سيرة كافر الإخشيدى). الزركلي: الأعلام، ١٥٦/١ .

(٣) المقرئبي: المقفى الكبير، ٢٦٤/٧ .

(٤) الزركلي: المصدر السابق ، ١٤٨/٧ .

(٥) الكندي: كتاب الولاية والقضاة ، ص ١ .

العادات التي كانت موجودة في مصر، ثم ذكر كيفية فتح مصر، ثم اتبعها بذكر الولاية في عصر الخلفاء الراشدين، وكيفية اختيار هؤلاء الولاية، وعلاقة مصر بالبيزنطيين في تلك الفترة، وبعدها تطرق إلى الولاية في العصر الأموي، وفي تلك الفترة بين كيفية فتح بلاد المغرب، وركز على التجارة البحرية، وبين الثورات التي قام بها أهل مصر بسبب زيادة الخراج عليهم من قبل خلفاء الدولة الأموية، وبين كيفية تصدي والي لتلك الثورات، حيث كانت تلك الثورات سبباً في عزل الكثير من الولاية، وعزوف البعض عن تولي منصب والي، ولكن اختلف الامر في عهد الدولة العباسية، حيث كان يختار والي أما من الفرس، أو الترك؛ مما زرع في نفوس الأمراء حب الاستقلال عن الخلافة العباسية، وتكوين دولٍ مستقلة، كانت أول هذه الدول الدولة الطولونية، حيث كتب عن الدولة الطولونية ونبذة من تاريخها وسياستها الداخلية وحكامها بمصر وعلاقتها بالخلافة العباسية، وشر من بعض الأمور الحضارية في أثناء حكم الدولة الطولونية، والأسباب التي أدت إلى سقوطها، وقيام الدولة الإخشيدية على أنقاضها، ووضح علاقة الدولة الإخشيدية بالدولة العباسية، كما بين سياسة الإخشيديين في مصر، ومعاملتهم لأهل مصر، وكذا بعض الأمور الحضارية في عهدهم، أما القسم الثاني من الكتاب، فكتب فيه عن القضاة في مصر منذ بداية الدولة الإسلامية إلى منتصف القرن الثالث الهجري، ذكراً لأول قاضٍ في مصر فمن بعده، كما وضح التقاليد التي كان عليها القضاء في مصر، وكيفية اختيار القاضي، فذكر أن القاضي في بعض الأوقات كان يختاره الخليفة بنفسه، وذكر علاقة القاضي بالوالي، وفي بعض الأحيان كان والي ليس له سلطان على القاضي، وبين مراسم تولية القاضي، وكيفية جلوسهم إلى الناس، وأنهم كانوا يجلسون في البداية في المسجد، أو المنزل إلى أن تبنى دار للقضاء، ووضح بداية تدوين الأحكام القضائية، والسبب في ذلك، وذكر كذلك طريقة جلوسهم إلى الناس، وتحدث عن أعوان القاضي، واختصاصاتهم، وطريقتهم في إصدار الأحكام، وخروجهم للغزو، ومشاركتهم في الأحداث السياسية، بالإضافة إلى شطر من حياتهم الاجتماعية الخاصة وعلاقتهم مع الناس، وأهل بيوتهم، وأظهر ما اتصف به بعض منهم من الزهد، وبين أيضاً بالتفصيل الرواتب التي كان يتقاضاها القضاة في مصر على مر العصور، ووضح الزي الذي كان يرتديه القضاة؛ إذ كان لهم زي في البيت وزي في مجلس القضاء وزي عند مقابلة الأمير، ومتى بدأ هذا التقليد في قضاة مصر، أي أنه

أظهر القاضي بالطريقة التي يليق بها منصبه في المجتمع، وبين الكندي الاختصاصات التي كان عليها القضاة، وتطور القضاء على مر العصور، والسجلات التي كان يدون فيها الحكام، وطريقة حفظها، كما رتب الولاة ترتيباً زمنياً من الأقدم إلى الأحدث، حيث جعل لكل وإلٍ من الولاة عنواناً خاصاً به، ذكر فيه بداية تعيينه في الولاية، والوقت الذي ترك فيه الولاية، حيث بدأ الكتاب بأول وإلٍ على مصر في عهد الدولة الإسلامية وهو عمرو بن العاص<sup>(١)</sup>، وأنهى حديثه عن الجزء الخاص بالولاة بأبي الفوارس أحمد بن علي بن الإخشيد سنة (٣٥٨ هـ/ ٩٧٨ م)<sup>(٢)</sup>.

**المنهج التاريخي للكندي في كتابه الولاة والقضاة:** في هذه الدراسة نبحت منهجه في كتاب الولاة ومنهجه في كتاب القضاة؛ ففي كتاب الولاة يمكن تقسيم منهجه على الأصول التالية إلى قسمين: أولهما من بداية فتح مصر إلى بداية الدولة الطولونية والإخشيدية، حيث اتبع في كل قسم منهجاً مختلفاً عن القسم الثاني، حيث كان في القسم الأول يعتمد فيه على الروايات والسند، أما القسم الثاني، فقد عاصره بنفسه، فلم يذكر فيه روايات ولا سنداً.

#### أولاً كتاب الولاة:

- (١) منهجه من فتح مصر إلى قيام الدولة الطولونية.
  - (٢) منهجه في الدولة الطولونية والإخشيدية.
- ذكر ترتيب الولاة زمانياً؛ ولو تولى الوالي أكثر من مرة يذكر عند المرة الأولى ثم يذكر في السنة التي تولى فيها الولاية الثانية.
  - درج في منهجه الأساسي، أنه في أغلب الولاة يتبعه بذكر صاحب الشرطة فقط دون أن يكتب ترجمة عنه، أو يكتب ما كان يقوم به من مهام في الولاية فيقول: **تَمَّ وَلِيهَا عُتْبَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ مِنْ قَبْلِ أَخِيهِ مُعَاوِيَةَ عَلَيَّ صَلَاتُهَا، وَجَعَلَ عَلَيَّ شُرْطَتَهُ**<sup>(٣)</sup> **زَكَرِيَّا بْنُ جَهْمٍ**<sup>(٤)</sup>، وكان أيضاً يذكر أسماء أصحاب الشرطة في عهد الوالي إذا عزله، وعين أكثر من واحد،

(١) الكندي: الولاة والقضاة، ص ٨.

(٢) الكندي: المصدر السابق، ص ٢١٤.

(٣) الكندي: المصدر السابق، ص ٢٩.

(٤) زكريا بن جهم: هو زكريا بن جهم بن قثم العبدي، أمه أخت مارية القبطية زوجة النبي - صلى الله عليه وسلم - ابن حجر العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة، ١/ ٦٢٣.

- فيقول: " فجعل على شرطته السائب بن هشام بن كنانة العامري إلى سنة تسع وأربعين، ثم صرفه وجعل مكانه عابس بن سعيد المرادي،<sup>(١)</sup> ثم الغطيفي<sup>(٢)</sup>؛ فالتأمل فيما سبق يلاحظ أن الكندي ذكر مع ذكر الوالي، وصاحب الشرطة الذي اكتفى بذكر اسمه، ولم يذكر ترجمة عنه، ولم يذكر أيضاً المهام التي يقوم بها في الولاية.
- كان الجزء الأكبر من الكتاب بقسميه عبارة عن سرد تاريخي لا يذكر فيه مصادره، حيث بلغت كميته ما يقارب من ثلثي الكتاب، بخلاف الفترة الأولى من فتح مصر حتى سنة ٣٧ هـ/٦٥٧م والتي لم يكن بها أي سرد تاريخي، بل اكتفى فيها بالفقرات القصيرة، وبعض الأحداث، وبداية من سنة ٣٨ هـ/٦٥٨م، كان يزيد في سرد الأحداث مع زيادة الفقرات وإطالتها ويقبل في المقابل من مقدار الرواية، أو الحديث.
  - عمل الكندي على تطوير المنهج التاريخي، من خلال أسلوب متطور وصورة صادقة للرواية، حيث طغى عليه أنه كان محدثاً يهتم بالرواية والسند أكثر من اهتمامه بالخبر، ويظهر ذلك من ألفاظه مثل حدثني<sup>(٣)</sup>، أو أخبرني فلان.<sup>(٤)</sup>
  - صنف الكندي بين المؤرخين الذين يهتمون بالقطر الذي يعيش فيه؛ فهو مؤرخ مصري، لم يكتب إلا عن مصر، وسرد أخبارها، والحديث عن قبائلها، وأنساب أهلها، كما اهتم بالترجمة لمحدثيها، وفقهائها، ولعل الدراسة التي بين أيدينا أكبر دليل على ذلك.
  - اتسم أسلوب الكتاب بالاختصار والإيجاز حيث كان الكندي في أغلب الأحيان يذكر اسم الوالي مع بعض الأحداث في عهده، مع الإكثار من الروايات التي تتحدث عن هذا الحدث، ومنها على سبيل المثال في أثناء حديثه عن عيسى بن لقمان الجمحي ذكر عدة روايات؛ الأولى قال فيها: "تم وليها عيسى بن لقمان الجمحي من قبل أمير

(١) الكندي: المصدر السابق، ص ٣٢.

(٢) عابس المرادي: (٥٥٠ - ٦٨ هـ = ٦٨٨ - ٥٥٠ م)، عابس بن سعيد المرادي: قاض، من الولاية القادة. نشأ عربياً نكياً، فولاه مسلمة بن مخلد شرطة مصر سنة ٤٩ هـ ثم صرفه عن الشرطة وولاه البحر، فغزا الثغور. ثم رده إلى الشرطة سنة ٥٧ هـ واستخلفه على الفسطاط سنة ٦٠ هـ، ثم ولي القضاء والشرطة معاً، واستمر إلى أن توفي. الزركلي: الأعلام، ٣/٢٤٢.

(٣) الكندي: الولاية والقضاء، ٨/١ - ١٠ - ١٣ - ١٤.

(٤) الكندي: المصدر السابق، ٩/١ - ٢١ - ٢٨ - ٣٧.

- المؤمنين المهديّ على صلواتها وخراجها، فقديما يوم الإثنين لثلاث عشرة بقيت من ذي الحجة سنة إحدى وستين ومائة، فجعل على شرطه ابن عم له<sup>(١)</sup>.
- استطاع أن يوظف اللغة بطريقة ممتازة من خلال اختيار الألفاظ والعبارات بعناية فائقة، في أثناء عرضه للأحداث التاريخية، والسبب في ذلك يعود إلى ثقافته؛ حيث وجد في الكتاب الكثير من الأمثلة؛ منها ما ذكر خلال الفتنة التي قامت في مصر ضد الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه: "خلع عثمان" و"أسفر البلاد"<sup>(٢)</sup>، كما تفنن في استخدام الألفاظ التراثية مثل: "عزله قومه"<sup>(٣)</sup>، "انطاعوا إليه"<sup>(٤)</sup>، كما استخدم بعض الأمور الشاذة في توظيف اللغة مثل: "أخذوه قومه الفروض"<sup>(٥)</sup>، حيث كان الأولى أن يقول أخذه، ومنها: "أخرجوه أهلها"<sup>(٦)</sup>، بدلا من أن يقول: أخرجه.
  - في بعض الأحيان كان يكتفي بذكر مورد واحد فقط للرواية، حيث كان يبديته ب: "قال"، مثل: "قال الليث بن سعد في تاريخه"<sup>(٧)</sup>.
  - كان يأتي ببعض الألفاظ لتدل على معنى عام مثل الأشياخ ويقصد به مؤرخي مصر، وإذا شك في صدق معلومة، أو خبر كان يأتي بلفظ (زعموا)، حيث كان يظن أن عدد الجيش مبالغ فيه، حيث إنهم بلغوا مائة ألف<sup>(٨)</sup>.
  - أحيانا يذكر في ترجمة للوالي موطنه الأصلي مثل سعيد بن زيد من أهل فلسطين<sup>(٩)</sup>.
  - اختار عناوين الكتاب لتلائم مع المضمون مثل الدولة الطولونية<sup>(١٠)</sup> إذ كانت تلك العناوين معبرة عما يندرج تحتها، حيث تحدث فيها على تاريخ الدولة الطولونية وولاتها

(١) الكندي: المصدر السابق ، ٩١/١ .

(٢) الكندي: الولاية والقضاة ، ١٤/١ .

(٣) الكندي: المصدر السابق ، ص ١٥٠ .

(٤) الكندي: المصدر السابق ، ص ١٦٧ .

(٥) الكندي: المصدر السابق ص ٨٦ .

(٦) الكندي: المصدر السابق ، ص ٨٧ .

(٧) الكندي: المصدر السابق ، ص ١٠ .

(٨) الكندي: المصدر السابق ، ص ٢٢٣ .

(٩) الكندي: المصدر السابق ص ٤٠ .

(١٠) الكندي: المصدر السابق ص ٢١٢ .

- وانجازاتها الحضارية، وكذلك الإخشيدية.
- اهتم بأمور الجغرافيا من خلال تحديد الأماكن، حيث وضع ذلك في مواضع متعددة من كتابه، ومنها موقع قيسارية هشام<sup>(١)</sup>، وتحديد موقع الفيوم<sup>(٢)</sup>.
  - الدلالة على صدق الخبر، حيث كان يكتب الرواية والأحداث التاريخية، ويكتب قبلها الرواة والسند، كما يفعل أهل الحديث؛ مما يدل على صدق الخبر، وسار على هذا النمط في أغلب الكتاب بقسميه، والأمثلة على ذلك كثير ومنها: "حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ هَاشِمِ بْنِ مُرَيْدٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا دُحَيْمٌ، قَالَ: أَخْبَرَنَا الْوَلِيدُ بْنُ مُسْلِمٍ، قَالَ: أَخْبَرَنَا هِشَامُ بْنُ الْغَزَارِ، عَنْ يَزِيدَ بْنِ يَزِيدَ بْنِ جَابِرٍ، عَنِ الْقَاسِمِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ وَكَانَ صَاحِبَ بَغْلَةَ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - الشَّهْبَاءِ الَّتِي يَفُودُهَا فِي الْأَسْفَارِ، وَقَالَ: فُنْتُ بِرَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَهُوَ عَلَى رَاحِلَتِهِ رَثْوَةً مِنَ اللَّيْلِ، وَأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، قَالَ: أَنْخُ " (٣).
  - الأخبار كان يذكر فيها اليوم والشهر الهجري، ومنها: "وليتها الأستر مالك بن الحارث مستهل رجب سنة سبع وثلاثين" (٤).
  - اهتم اهتماماً كبيراً بالجانب الأدبي، حيث عالجه بحرفية كبيرة، فاتبع ذلك في أثناء ترجمته لعدد كبير من الولاة بين ثنايا كتابه، حيث كان يدعم كلامه بالشعر الذي يتناسب مع الموقف الذي يقال فيه، أو في الوالي الذي يتحدث عنه، ومن أمثلة ذلك ما حدث مع الوالي الأستر بن مالك<sup>(٥)</sup> الذي عينه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب على مصر، فشرب شربة عسل، فمات، فرثته سلمى أم الأسود بن الأسود النخعي قائلة:

(١) الكندي: المصدر السابق ، ص ٧٤.

(٢) الكندي: المصدر السابق، ص ٢٧٧.

(٣) الكندي: الولاة والقضاة ، ٣١/١.

(٤) الكندي: المصدر السابق ، ٢١/١.

(٥) الاشر بن مالك بن الحارث بن عبد يغوث بن مسلمة بن ربيعة بن الحارث بن جذيمة النخعي، فارس، شاعر، صحب عليا رضي الله عنه، وروى عنه وعن خالد بن الوليد، روى عنه عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، وأبو حسان الأعرج. ابن العديم : بغية الطلب في تاريخ حلب ، ١٨٧٥/٤.

نَبَا بِي مَضْجَعِي وَنَبَا وَسَادِي... وَعَيْنِي مَا تَهْمُ إِلَي رُقَادِي  
كَأَنَّ اللَّيْلَ أوثِقَ جَانِبَاهُ... وَأَوْسَطُهُ بِأَمْرَاسِ شَدَادِ  
أَبْعَدَ الْأَشْتَرِ النَّخَعِي تَرْجُو... مُكَائِرَةً وَيَقْطَعُ بَطْنَ وَادٍ (١)

وكذلك الشعر الذي كان يقال بعض المناسبات، سواء المناسبات السياسية، أو الدينية أو غيرها، من خلال مدح الوالي، أو رثائه، حيث تعددت أغراض الشعر، ويابن الكندي بين تلك الأغراض.

- اتبع الكندي في منهجه ذكر أكثر من رواية للخبر الواحد برواياتها المختلفة، ويسند مختلف ومنها: ما ذكر في موت الأشر مالك بن الحارث، حيث ذكر أكثر من رواية منها: قَالَ سَفِيَانُ، عَنْ عَمْرِو بْنِ دِينَارٍ، أَنَّ عَمْرَو بْنَ الْعَاصِ قَالَ لَمَّا بَلَغَهُ مَوْتُهُ: «إِنَّ لِلَّهِ جُنُودًا مِنْ الْعَسَلِ»، وذكرها بسند آخر، فقال: " وَبَعَثَ عَلِيٌّ مَالِكًا الْأَشْتَرَ عَلَى مِصْرَ، فَلَمَّا قَدِمَ الْقَلْزَمَ، (٢) شَرِبَ شَرِبَةً مِنْ عَسَلٍ، فَمَاتَ، فَبَلَغَ ذَلِكَ مُعَاوِيَةَ، وَعَمْرًا، فَقَالَ عَمْرُو: «إِنَّ لِلَّهِ جُنُودًا مِنْ عَسَلٍ»، كما ذكر روايتين أخريين لنفس الخبر بسند مختلف. (٣)
- فالمتأمل فيما سبق يلاحظ أن الكندي ذكر الرواية أربع مرات بسند مختلف، حيث كان هدفه واضحاً هو تأكيد صدق الرواية، ولعله في ذلك يشك في بعض الروايات، لأنه ذكر ذلك عن ترجمته لكثير من الولاة، وكذلك أراد أن يبرهن على صحة قوله بذكرها أكثر من مرة وبالسند المختلف.
- ذكر الحروب والفتن التي كانت تنشأ بين الحين والآخر، بطريقة جيدة، ومنها عند حديثه

(١) الكندي: المصدر السابق، ٢٢/١.

(٢) القلزم: مدينة من أعمال مصر على ساحل البحر، وبها يعرف البحر فيقال بحر القلزم، وبها المراكب للتجار، وسمي القلزم لأنه في مضائق بين جبال، والقلزم الدواهي والمضائق، وهي مدينة صغيرة متقنة البناء ليس فيها زرع ولا شجر، وإنما تمار من أرض مصر، ويضيق عندها البحر حتى يأتي كالنهر، ويمر كذلك دون مدينة القلزم إلى الشمال عشرة أميال وينقطع، وشرب أهل مدينة القلزم من جزيرة (هناك) ومن السويس يجلب على الظهر، وهي بئر بطريق مصر على ثلاثة أميال من مدينة القلزم. ياقوت: معجم البلدان، ٣٨٧/٤؛ الحميري، ٤٤٦/١.

(٣) الكندي: الولاة والقضاة، ٢١/١.



عن مسلمة بن مخلد، وغزواته: "انتصبت ولأوه وغزواته في البر والبحر، وفي إمرته نزلت الروم البرلس<sup>(١)</sup> في سنة ثلاث وخمسين، واستشهد يومئذ وزدان مولى عمرو بن العاص، في جمع من الناس كثير"<sup>(٢)</sup>؛ فالناظر في الأحداث السابقة يلاحظ أن الكندي ذكر بعض أحداث الحروب بدون سند، حيث بين أن الحروب كانت تحدث براً وبحراً، وبين كذلك ما كانت تقوم به الروم من مهاجمة مصر بين الحين والآخر وذكر هذه المرة نزولهم البرلس، ومقاومة الجيش الإسلامي لهم، وذكر كذلك استشهد مشاهير القواد فقط، ولكنه لم يذكر الخسائر التي وقعت في كلا الفريقين، ولا عدد من استشهد من الجانبين، بل ذكر أن الكارثة كبيرة، والأعداد التي استشهدت كثيرة، وإن لم يذكر العدد ولكن وضح ذلك من خلال قوله: جمع كثير.

وذكر كذلك في ولاية عمرو بن العاص الثانية قبل وفاته، حيث أرسل عمرو بن العاص شريك بن سمي الغطيفي<sup>(٣)</sup> في جيش لغزو البربر سنة أربعين للهجرة، فلم يحصل حرب بين الطرفين، ولكن تم الصلح بينهما، وبعد فترة نقضوا الصلح، وانقلبوا على عمرو بن العاص، فأرسل إليهم عقبه بن نافع الفهري<sup>(٤)</sup> في سنة إحدى وأربعين،

(١) البرلس: بفتحين، وضم اللام وتشديدها: بليدة على شاطئ نيل مصر قرب البحر من جهة الإسكندرية. ياقوت الحموي: معجم البلدان ، ٤٠٢/١ .

(٢) الكندي: المصدر السابق ٣٢/١ .

(٣) شريك: بن سمي الغطيفي - بالمعجمة ثم المهملة مصغراً - المرادي، وقد على رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وكان على مقدمة عمرو بن العاص في فتح مصر، غير أن شريك بن سمي استأذن عمرا في الزرع فلم يأذن له، فزرع بغير إذن، فكتب عمرو إلى عمر يخبره بذلك، فكتب إليه: ابعث إليّ به، فبعث به وهو في غاية الجزع، فلما وقف عليه، قال: من أي الأجناد أنت؟ قال: من جند مصر، قال: فلعلك شريك بن سمي. قال: نعم، قال: لأجعلنك نكالا. قال: وتقبل مني ما قبل الله من العباد؟ قال: وتفعل. قال: نعم. فكتب إلى عمرو إن شريكا جاءني تائبا فقبلت منه. ابن حجر العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة، ٢٧٩/٣ .

(٤) عقبه بن نافع بن عبد القيس بن لقيط بن عامر بن أمية بن الطرب بن الحارث بن عامر بن فهر القرشي الفهري ولد على عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لا تصح له صحبة، وكان أبا عمرو بن العاص، ولاء عمرو بن العاص إفريقية، لما كان على مصر. ابن سعد: الطبقات الكبرى ، ٤٦٦/١ ؛ ابن الأثير: أسد الغابة في معرفة الصحابة، ٥٧/٤ .

على رأس جيش<sup>(١)</sup>، فهربوا في اتجاه طرابلس، فتعقبهم عقبة ووقع القتال بين الطرفين، وكان النصر حليف المسلمين، وكانوا قد أرادوا الصلح، ولكنه رفض، وقال: "إنه ليس لمشرك عهد عندنا، إنَّ الله عزَّ وجلَّ يقول في كتابه: {كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ} (٢)، فالملاحظ على الأحداث السابقة يجد أن الكندي بين ما قام به عمرو بن العاص من محاولات لغزو البربر، فالواضح أنهم كانوا يغيرون على المسلمين، في أوقات متفرقة، ففي المرة الأولى عقد الصلح بين الطرفين، ولكنهم نقضوا الصلح، وذكر الكندي السنة التي أرسل فيها عمرو إليهم، وهي سنة (٤٠ هـ/٦٤٠م)، ولكن لم ييأس عمرو، فأرسل إليهم جيشاً آخر بقيادة عقبة بن نافع سنة (٤١ هـ/٦٤١م)، فعرضوا عليه الصلح، ولكن عقبة رفض مخافة أن ينقضوا الصلح واستشهد بأية من القرآن الكريم، وكان النصر حليف المسلمين، وأرسله كذلك لغزو قبائل هواره سنة (٤٣ هـ/٦٢٣م).

• تناول بعض التوترات السياسية التي كانت تمر بها مصر بين الحين والآخر سواء داخلياً، أو خارجياً، حيث نقل الخبر وذكره عن نقل عنه، " قَالَ ابن لهيعة: وغزا عبد الله بن سعد أيضاً ذا الصواري<sup>(٣)</sup> في سنة أربع وثلاثين، فلقبهم قُسْطَنْطِينَ بن هِرْثُل في ألف مركب، ويقال: في سبع مائة، والمسلمون في مائتي مركب، أو نحوها، فهزم الله الروم<sup>(٤)</sup>، فالتأمل في الخبر السابق يلاحظ أن الكندي نقل الخبر عن ابن لهيعة، وأكد على ذلك أيضاً بقوله وسمعت ابن أبي يزيد يقول، فالأول عن طريق النقل والثاني عن طريق السماع .

(١) الكندي: الولاة والقضاة ، ص ٢٧ .

(٢) سورة التوبة، أية ٧ .

(٣) ذات الصواري: غزوة وقعت سنة (٣٤ هـ/٦٥٤م) بين المسلمين والروم في البحر من ناحية الإسكندرية، وقائد جيش المسلمين عبد الله بن أبي سرح اشتهرت هذه الموقعة باسم ذات الصواري، وقيل إنها سميت كذلك لكثرة صواري السفن التي ظهرت فيها وهي الأدقال، هذه التسمية أنها نسبة إلى المكان الذي جرت الموقعة عنده لأنه كان مكتظاً بأشجار السرو. النويري: نهاية الأرب في فنون الأرب، ٨٠/١ ؛ المسعودي: التنبيه والإشراف، ١ / ١٢٢ .

(٤) الكندي: المصدر السابق ، ص ١٣ .

والظاهر هنا أن الكندي نقل من ابن عبد الحكم<sup>(١)</sup>، ولكنه لم ينقل سند الخبر كاملاً، فابن عبد الحكم ذكر السند، حيث قال: وحدثنا يحيى بن عبد الله بن بكير عن الليث بن سعد وبعدها قال ابن عبد الحكم: كما حدثنا عبدالله بن صالح عن الليث بن سعد عن يزيد بن أبي حبيب، فالكندي ذكر فقط يزيد بن أبي حبيب وترك باقي الرواة، وهنا يدل على أنه كان واثقاً من نقله من ابن عبد الحكم، أما عن عدد المراكب لدى الروم، فابن عبد الحكم ذكر أنها ألف، ولكن الكندي ذكر أنه ألف أو ٧٠٠، وذكر كذلك السنة، (٣٤ هـ/٦٥٤م)، واتفق معه كذلك الطبري، ولكن الطبري اختلف معه في عدد المراكب التي كانت في حوزة الروم، فقال كانت خمسمائة، أو ستمائة مركب<sup>(٢)</sup>، إذاً كان الكندي يعتمد روايات ابن عبد الحكم غير أنه كان يختلف معه في العدد فربما سمع العدد شفاهة من أي مصدر آخر؛ وأيضاً في ذكره عدد الجند التي فتحت مصر كتب عدة روايات وكل رواية بعدد ويظهر من ذلك أنه شك في الأعداد، فكتب كل الروايات التي ذكرت فيها أعداد الجند بسندها؛ مثل: حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ الْحَسَنِ بْنِ قُدَيْدٍ، وَأَبُو سَلْمَةَ، قَالَا: حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ عُثْمَانَ بْنِ صَالِحٍ، وعند ذكره لعنتبة بن أبي سفيان<sup>(٣)</sup> قال: " ثُمَّ وَلِيَهَا عُنْبَةَ بْنُ أَبِي سَفْيَانَ مِنْ قِبَلِ أَخِيهِ مُعَاوِيَةَ عَلَى صَلَاتِهَا، ثُمَّ وَفَدَ عَلَى أَخِيهِ بُوْفَدٍ مِنْ أَشْرَافِ أَهْلِ مِصْرَ، وَاسْتَخْلَفَ عَلَى مِصْرَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ قَيْسٍ<sup>(٤)</sup>، وكانت فيه شدة على بعض أهل مصر، فكروهوا ولايته عليهم وامتنعوا منها،

(١) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ٢٠٦/١.

(٢) الطبري: تاريخ الطبري، ٢٨٨/٤.

(٣) عنتبة بن أبي سفيان حَرْبُ بْنُ أُمَيَّةَ بْنِ عَبْدِ شَمْسِ بْنِ عَبْدِ مَنَاَفِ بْنِ قُصَيِّ بْنِ كِلَابِ بْنِ مُرَّةَ بْنِ كَعْبِ بْنِ لُؤَيِّ بْنِ غَالِبِ أَخُو مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سَفْيَانَ ابْنِ حَرْبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَكْنَى أَبَا الْوَلِيدِ، وَوَلَاهُ عَمْرُ بْنُ الْعَاصِ، فَأَقَامَ عَلَيْهَا سَنَةً. ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ: الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ١٠٢٥/٣.

(٤) عبد الله بن قيس بن الحارث بن عيَّاش بن ضبيع التَّجِيبِيِّ أحد بني زُمَيْلَةَ، وكانت أمه أخت أبي الأعور السُّلَمِيِّ أبو حميضة أمه أخت أبي الأعور يروى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه روى حديثه السكن بن أبي كريمة عن أمه كبشة بنت قيس بنت مالك بن أبي حميضة عن جد أبيها أبي حميضة عبد الله بن قيس واسم أبي كريمة ربي بن زيد بن أبي حميضة

فبلغ ذلك عُتْبَةَ، فرجع إلى مصر<sup>(١)</sup>.

فالملاحظ على الرواية السابقة يجد أن الكندي ذكر الحديث عن عتبة والتوتر في مصر بسبب تعينه، فبدأ الحديث بكلام دون ذكر سند أو رواة، ولكنه بعد ذلك أفرد كلامه بحديثي ونهاه برواية العتبي عن أبيه أي أنه أكد على كلامه المذكور في البداية ذكر سبب خروج عتبة إلى الشام، وذكر فقط استخلافه لعبد الله بن قيس، ولكنه أكد في الرواية التي أفردها بسندها عن التوترات التي حدثت في مصر بسبب توليته له وكره أهل مصر له بسبب شدته، مما دفعهم إلى الإرسال لعتبة بن أبي سفيان يشكون عبد الله بن قيس الذين لم يقبلوا به.

● إمامه بالكثير من الأحداث التاريخية، حيث كانت معارفه التاريخية واسعة، ولم تقتصر على مصر فحسب بل تطرق إلى معارف متعددة منها معرفته بالعلويين: "باستخلاف أحمد بن مزاحم على صلاتها، فجعل على شُرطه بولغيا، وخرج في أمرته رجل من العلويين، يقال له: بُغا الأكبر<sup>(٢)</sup> خرج من الصعيد، فبعث إليه أُرْجور بأربعمائة رجل لمحاربتة، فهرب بُغا منهم ومات،<sup>(٣)</sup>، وكذلك نكر فتة ابن الصوفي العلوي فقال: " وخرج ابن الصوفي العلوي بصعيد مصر وهو إبراهيم بن محمد بن يحيى بن عبد الله بن محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب عليه السلام، كان خروجه في سنة ثلاث وخمسين ومائتين، فدخل إسنا<sup>(٤)</sup> في ذي القعدة سنة خمس وخمسين ومائتين، فنهبها وقتل الصوفي إلى الواح<sup>(٥)</sup>، فأقام به بتيس<sup>(٦)</sup>، ثم خرج إلى

عبد الله بن قيس وهو ابن عمها. الرازي: الجرح والتعديل، ١٣٩/٥.

(١) الكندي: الولاة والقضاة، ص ٢٩.

(٢) المقرئ: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ١٦٠/٤.

(٣) الكندي: الولاة والقضاة، ص ١٥٩.

(٤) إسنا: بالكسر ثم السكون، ونون، وألف مقصورة: مدينة بأقصى الصعيد، وليس وراءها إلا أدفو وأسوان ثم بلاد النوبة، وهي على شاطئ النيل من الجانب الغربي، وهي مدينة عامرة طيبة كثيرة النخل والبساتين والتجارة، ويقال: إن أهلها المريس، ومنها الحمير المريسية. اليعقوبي: البلدان، ١٧٢/١؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، ١٨٩/١.

(٥) الواح: مفرد جمعها الواحات وهي قيطية: عبارة عن ثلاث كور في غربي مصر ثم غربي الصعيد: الواح الأول أوله مقابل الفيوم ممتد إلى أسوان، وهي كورة عامرة ذات نخيل وضياع حسنة وفيها تمر جيد يعد أوفر تمر مصر وهي أكبر الواحات، وبعدها جبل آخر ممتد كامتداد الذي قبله وراءه كورة أخرى يقال لها: واح، الثانية وهي دون تلك العمارة، وخلفها جبل ممتد كامتداد الذي قبله وراءه كورة أخرى يقال لها: واح، الثالثة وهي دون الأوليين في العمارة، ومدينة الواح الثالثة يقال لها: سنترية، بالسین المهملة، وفيها نخل كثير ومياه جمّة؛ منها مياه حامضة يشربها أهل تلك النواحي، وإذا شربوا

الأشْمُونِيِّينَ<sup>(٢)</sup> فِي الْمَحْرَمِ سَنَةَ تِسْعٍ وَخَمْسِينَ، فَبِعَثَ إِلَيْهِ بِأَبِي مُغِيثٍ فِي خَمْسِمِائَةٍ، فَوَجَدَ ابْنَ الصُّوفِيِّ قَدْ سَارَ إِلَى أُسْوَانَ لِمَحَارَبَةِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ الْعُمَرِيِّ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْحَمِيدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، فَالتَقَى هُوَ، وَالْعُمَرِيُّ، فَظَفِرَ بِهِ الْعُمَرِيُّ وَبِجَمِيعِ جَيْشِهِ، فَقَتَلَ مِنْهُمْ مَقْتَلَةً عَظِيمَةً، وَرَجَعَ ابْنُ الصُّوفِيِّ إِلَى أُسْوَانَ، فَقَطَعَ لِأَهْلِهَا ثَلَاثِمِائَةَ أَلْفِ نَخْلَةٍ وَظَهَرَ فَسَادُهُ بِهَا، فَبِعَثَ أَحْمَدُ بْنُ طَوْلُونَ بَابِنَ سَيْمًا مَدَدًا لِبُهُمُ بْنُ الْحُسَيْنِ، وَاضْطَرَبَ أَمْرُ ابْنِ الصُّوفِيِّ مَعَ أَصْحَابِهِ، فَتَرَكَهُمْ وَمَضَى إِلَى عَيْدَابِ<sup>(٣)</sup>، فَرَكِبَ الْبَحْرَ إِلَى مَكَّةَ<sup>(٤)</sup>.

فَالْمَتَأَمَّلُ فِي الْأَحْدَاثِ السَّابِقَةِ يَجِدُ أَنَّ الْكَنْدِيَّ ذَكَرَ خُرُوجَ ابْنِ الصُّوفِيِّ، وَذَكَرَ كَذَلِكَ اسْمَهُ كَامِلًا بَعْدَ أَنْ بَدَأَ بِلِقَبِهِ، وَذَكَرَ كَذَلِكَ السَّنَةَ الَّتِي خَرَجَ فِيهَا وَالشَّهْرَ الْهَجْرِيَّ، وَذَكَرَ كَذَلِكَ الْمَدْنَ الَّتِي مَرَّ بِهَا وَانْتَقَلَ إِلَيْهَا، وَكَانَ أَحْمَدُ بْنُ طَوْلُونَ يُرْسِلُ إِلَيْهِ الْجَيْوشَ بَيْنَ الْحَيْنِ وَالْآخَرِ، وَذَكَرَ كَذَلِكَ مَا قَامَ بِهِ ابْنُ الصُّوفِيِّ مِنَ التَّخْرِيبِ فِي الْأَمَاكِنِ الَّتِي كَانَ يَمُرُّ بِهَا، غَيْرَ أَنَّهُ حَصَلَ لِبَسِّ لَدِيَّةٍ حَيْثُ إِنَّهُ بَدَلَ مِنْ أَنْ يَذَكَرَ ابْنَ الصُّوفِيِّ ذَكَرَ لَفْظَ الصُّوفِيِّ فَقَطْ، وَأَخْطَأَ كَذَلِكَ فَبَدَلَ مِنْ أَنْ يَقُولَ: انْتَقَلَ قَالَ: قَتَلَ، وَبَيَّنَّ الْفَسَادَ الَّذِي قَامَ بِهِ فِي أُسْوَانَ، حَيْثُ ذَكَرَ أَنَّهُ قَطَعَ ثَلَاثِمِائَةَ أَلْفِ نَخْلَةٍ، وَإِنْ كَانَ هَذَا الْعَدَدُ كَبِيرًا فَإِنَّ لَهُ بِالْجُنُودِ الَّذِينَ يَقْطَعُونَ هَذَا الْعَدَدَ الْكَبِيرَ فِي الْفَتْرَةِ الَّتِي مَكَثَ فِيهَا فِي أُسْوَانَ وَوَرَاءَهُ جَيْشَ أَحْمَدِ بْنِ طَوْلُونَ، وَلَكِنْ هَذَا لَا يَنْفِي مَدَى التَّخْرِيبِ الَّذِي قَامَ بِهِ مِنْ قَطْعِ النَّخْلِ، غَيْرَ أَنَّهُ ذَكَرَ الْقَائِدَ ابْنَ سَيْمًا وَلَمْ يَذَكَرْ مِنْ هُوَ أَوْ

غيرها استوبؤوها، وبين أقصى واح الثالثة وبلاد النوبة ست مراحل، وبها قبائل من البربر من لواتة وغيرهم. ياقوت: المصدر السابق، ٣٤٢/٥.

(١) تبتس: جزيرة ومدينة جميلة وهي بعيدة عن الساحل بحيث لا يرى من أسطحها والمدنية مزدهمة وبها أسواق فخمة وجامعان وقد يبلغ عدد الدكاكين بها عشرة آلاف كان منها مائة دكان عطار وهناك في فصل الصيف يبيعون الكشكاب فإن الجو حار وتكثر الأمراض في المدينة، تقع بين الفرما ودمياط. ناصر خسرو: سفرنامه، ٧٦/١؛ ياقوت الحموي: المصدر السابق، ٥١/٢.

(٢) مدينة الأشمونيين: وهي من مدن مصر العظام وبها فرهة الخيل والدواب والبعال، عامرة نزهة وفيرة النعم تكثر فيها أشجار الأبنوس، تقع غرب النيل سميت باسم مؤسسها أشمن بن مصر بن بيسر بن حام بن نوح. اليعقوبي: المصدر السابق، ١٧٠/١؛ ياقوت: المصدر السابق، ٢٠٠/١.

(٣) عيذاب: بالفتح ثم السكون، وذال معجمة، وآخره باء موحدة: بليدة على ضفة بحر القلزم هي مرسى المراكب التي تقدم من عدن إلى الصعيد. ياقوت: معجم البلدان، ١٧١/٤.

(٤) الكندي: الولاية والقضاة، ص ١٦٠ - ١٦١.

يعرف به كما كان يذكر مع باقي القواد، وهذا يؤخذ عليه في هذه الأحداث.  
فالمأمل في الخبر السابق يلاحظ أن الكندي لخص فتنة العلويين التي حصلت في مصر في سنة (٢٥٤ هـ/٨٧٤م) في حدث بسيط يفهم منه القارئ عظم تلك الفتنة وما كانت تؤدي إليه، وذكر كذلك السبب، وهذا يدل على براعته كمؤرخ.  
وكذلك إمامه بفتنة القرامطة وإرسال هارون بن خمارويه جيشاً لمحاربتهم، ولكن انهزم الجيش وخرجت إليه جيوش أهل العراق، وذكر كذلك وفاة الخليفة العباسي المعتضد سنة (٢٨٤ هـ/٩٠٤م)، وتولية مكانه ابنه المكتفي بالله غير أن الكندي ذكر -وتعد أول مرة يذكر فيها-: سمعت ابن قديد يقول: "أقبح ما أتى أهل هذا المسجد شهادتهم على ابن القطاس، حتى باعوه، وعلى أبي علثة حتى قتلوه"<sup>(١)</sup>، وقد استشهد بالشعر حيث ذكر الكندي قول: وقال إسماعيل بن أبي هاشم:

فيا أبا علثة لهفى عليك... للهف صب كئيب وجل  
فلا نام ظلمك بل لا هدا... وحاشى لظلمك أن يضمحل  
ويا أهل مسجدنا ما لكم... توائنتم عنه حتى قتل<sup>(٢)</sup>

وكذلك إمامه بأحدث فتنة الأمين والمأمون<sup>(٣)</sup>، وإدراكه لعلاقة أهل الإسكندرية التجارية بالأنديلسيين.<sup>(٤)</sup>

• وكان من منهجه في بعض الأجزاء من الكتاب والخاصة بالولاية أن يذكر الوالي فقط وبعض الأحداث المهمة، وربما يكون السبب في ذلك راجعاً لقصر فترة الوالي وضعفه، أو لقلّة المادة العلمية التي وصلت إليه، أو لعدم شهرة الوالي وضعفه، أو قبول أهل مصر لهذا الوالي، أو كرههم له، فبالتالي لم يصل إليه من الأحداث، ومنها: "وليها أحمد بن مزاحم باستخلاف أبيه له على صلاتها، فجعل على شرطه أزجور فوليتها أحمد إلى

(١) الكندي: المصدر السابق ، ١/١٨٠.

(٢) الكندي: المصدر السابق، ١/١٨٠.

(٣) الكندي: المصدر السابق، ص ١٥٧.

(٤) الكندي: الولاية والقضاة ، ص ١٥٧ .

أن تُوفِّي بها لتسع خلونَ من ربيع الآخر سنة أربع وخمسين ومائتين، وليها شهرين ويوماً" (١)، فالمتأمل فيما سبق يلاحظ أن الكندي ذكر الوالي ولم يذكر سنداً ولا رواية في أثناء الحديث عنه بل ذكر فقط صاحب الشرطة في عهده، فلم يذكر أي شيء فيما قام به ربما لقصر الفترة التي تولاها وهي شهران، ولم يصل إليه من الأحداث المهمة في عهده، غير أنه في بعض الأحيان كان يذكر الوالي، مع بعض التفاصيل التي مرت عليه في فترة ولايته، وكذلك الكثير من الحوادث، والتي كانت تحدث في عهده، وبالتالي يكون وضوح بطريقة ذكية تاريخ تلك الفترة، والأمثلة كثيرة، ومنها ما ذكر سابقاً.

(٢) منهجه في الدولة الطولونية والإخشيدية: أما عن منهجه في الجزء الخاص بالدولة الطولونية، فقد عالج تاريخها من خلال ذكر الولاة، فبدأ بمؤسسها أحمد بن طولون، ولكن اختلف في معالجتها عن الجزء الأول من الولاة، فلم يذكر رواية أو سنداً لأنه عاصر تلك الأحداث بنفسه، وظهر اهتمامه التاريخي، حيث استطاع أن يظهر تاريخ الدولة بأكملها، فبدأ بمعالجة الأمور السياسية ولم يترك الأمور الحضارية، كما عالج كذلك الأمور الاجتماعية التي كانت تحدث في المجتمع المصري في ذلك الوقت، فبدأ بذكر الوالي، مع ذكر السنة التي تولى فيها، واليوم والتاريخ الهجري، وكذلك صاحب الشرطة، كما كان متبعاً من بداية الكتاب، فبدأ بحديثه عن أحمد بن طولون قائلاً: "تمَّ وليها أحمد بن طولون من قبل الخليفة العباسي المعتز (٢٣١هـ - ٢٥٥هـ/٨٢١م - ٨٧٦م) على صلاتها، دخلها يوم الخميس لسبع بقين من شهر رمضان سنة أربع وخمسين" (٢).

- أما الفترة التي عاصرها، فكان يدون فيها ما سمعه هو شخصياً فيكتب الأحداث بثقة تامة، فهو في هذه الحالة مصدر المعلومات.
- لم يعتمد الكندي على منهج المحدثين من حيث السند والرواية إلا في الفترة التي عاصرها، لذا كان في تعامله مع المصادر التاريخية في الفترة الأولى التي لم يعاصرها

(١) الكندي: المصدر السابق، ص ١٥٩.

(٢) الكندي: المصدر السابق والصفحة .

يعتمد على الرواية والمكتوب منه، وكان يقرأه على أساتذته، ويروي عنهم بالسند الموثق إلى أصحابه، وكان بعض الروايات يأخذها عن طريق المشافهة، والكثير من الحوادث التي كان يسجلها كانت تروى على مر الأجيال حتى تصل إليه فيدونها.

• ذكر الكندي التوترات السياسية التي كانت تحدث في الدولة الطولونية بصدق وحرافية وبطريقة مختصرة، حيث قال: " ثمَّ خرج بُغا الأصغر<sup>(١)</sup>، فيما بين الإسكندرية وبرقة<sup>(٢)</sup>، وذلك في جمادى الأولى سنة خمس وخمسين ومائتين، وسار في جمع معه إلى الصعيد فلقية... ابن الحسين، فحاربه، فقتل بُغا وأتى برأسه إلى الفسطاط يوم الثلاثاء لإحدى عشرة بقيت من شعبان سنة خمس وخمسين ومائتين"<sup>(٣)</sup>، فالمتأمل في الأحداث السابقة يجد أن الكندي كتب المكان الذي بدأت منه الفتنة وهو الكنائس، وحدد موقعها فهي تقع بين الإسكندرية وبرقة، كما حدد التاريخ واليوم الذي بدأت فيه تلك الفتنة، وبين الذي خرج مع بغا الصغير، وخط سيره من الكنائس إلى الصعيد، وذكر من كان على رأس الجيش الذي انتصر عليه وقطع رأسه حتى يقضي على الفتنة تماماً ويكون عبءاً لمن يقوم بمثل هذا العمل، وأرسلت رأسه إلى الفسطاط مقر إقامة الوالي أحمد بن طولون، وبين أن الفتنة استمرت حوالي أربعة أشهر، وإن لم يذكر ذلك صراحة ولكن وضح ذلك من خلال بدايتها في جمادى الأولى إلى القضاء عليه في شهر شعبان، وكذا لم يذكر القائد الذي استطاع القضاء عليه، ويبدو أنه سقط منه، فلم يتذكر اسمه ولكنه وضع

(١) بغا الأصغر: أحمد بن محمد بن عبد الله بن إبراهيم طباطبا بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام، الشريف توفي سنة ٢٥٥ هـ. المقرئ: المقفي الكبير، ٣٧٩/١؛ ابن حجر العسقلاني: نزهة الألباب، ١٢٦/١.

(٢) مدينة برقة مدينة متوسطة المقدار ليست بكبيرة ولا بصغيرة، غير أنها في هذا الوقت عامرها قليل وأسواقها كاسدة وكانت فيما سلف على غير هذه الصفة، وهي أول منبر ينزله القادم من بلاد مصر إلى القيروان، ولها كور عامرة بالعرب وهي في بقعة فسيحة يكون مسيرها يوماً وكسراً في مثله ويحيط بهذه البقعة جبل وأرضها حمراء خلوقية التراب وثياب أهلها أبداً حمر وبذلك يعرف أهلها في سائر البلاد المحيط بها والصادر عنها والوارد إليها كثير في الأحيان؛ لأنها بعيدة عن البلاد المجاورة المقاومة لها. الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ٣١٠/١؛ ياقوت، معجم البلدان، ٣٨٨/١.

(٣) الكندي: الولاة والقضاة، ص ١٦٠.



نقاطاً: (... بن الحسين، وهو بهم بن الحسين<sup>(١)</sup>)، حيث بين أن أحمد بن طولون استطاع القضاء على تلك الفتنة في مهدها وقطع رأس الفتنة وهو بغا الصغير.

• اهتم بالناحية الأدبية، فاستطاع جمعها مع بعض التوترات السياسية التي حدثت في أثناء الدولة الطولونية منها: "وبلغ أحمد بن طولون ما فعله أبو أحمد<sup>(٢)</sup>، وإسحاق بن كنداج<sup>(٣)</sup>، فرجع إلى يمشق، وكتب إلى عامله يأمره بإحضار القضاة، والفقهاء، والأشراف، وكتب بخبر المعتمد وما فعل به، وورد كتابه إلى مصر ففرى على أهلها، بأن أبا أحمد نكث بيعة المعتمد وأسرته وحرش عليه في دار أحمد بن الخطيب، وأن المعتمد قد صار من ذلك إلى ما لا يجوز ذكره، وأن المعتمد يبكي بكاءً شديداً، ثم خطب الخاطب بمصر يوم الجمعة، فذكر ما نيل من المعتمد، وزاد في خطبته: اللهم فاكفه من حصره ومن ظلمه، وحضر أهل الشامات، والتغور، فلما اجتمعوا، أمر أحمد بن طولون بكتاب خلع فيه أبا أحمد الموفق من ولاية العهد لمخالفة المعتمد، وأحضره إياه، وكتب فيه: إن أبا أحمد خلع الطاعة وبريء من الذمة، فوجب جهاده على الأمة، وشهد على ذلك الجميع، إلا بكار بن قتيبة<sup>(٤)</sup>.

(١) بهم بن الحسين ت بعد ٢٥٦ هـ: أحد قواد أحمد بن طولون، بعثه لقتال بغا الأصغر لما خرج بأرض مصر فظفر به. ثم عقد له على جيش وضم إليه ابن عفيف، فخرجوا إلى الصعيد يوم الخميس لتسع عشرة خلت من ربيع الأول سنة ست وخمسين ومائتين. المقرئ: المواعظ والاعتبار، ٢/٢٩٨.

(٢) أبو أحمد الموفق بالله طلحة بن المتوكل على الله جعفر بن المعتصم بن هارون الرشيد العباسي، كان ولي عهد أخيه المعتمد، وصف بأنه بطل شجاع، كما وصف بأنه ذو بأس وحزم، حارب الزنج حتى أبادهم وقتل طاغيتهم، كان قائداً للجيش، محبوباً من الناس. الهجراني: قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر، ٢/٦٠٢؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ١٢/٥٤٢؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ٦/٦٤٥.

(٣) إسحاق بن كنداج: وقيل كنداجيق الخزري، من أكابر القواد، كان في أيام المعتمد على الله، وبقي إلى زمن المعتضد، وولي مدينة حلب وقنشرين. ابن العديم: بغية الطلب في تاريخ حلب، ٣/١٤٩٩.

(٤) القاضي بكار بن قتيبة: أبو بكرة بكار بن قتيبة بن أبي بردعة بن عبيد الله بن بشر بن عبيد الله بن أبي بكرة نفيح بن الحارث بن كلدة النقي صاحب رسول الله - صلى الله عليه وسلم -

قال قعدان بن عمرو:

طَالَ الْهُدَى بِابْنِ طُولُونَ الْأَمِيرِ كَمَا... يَزْهُو بِهِ الدِّينُ عَنِ دِينِ وَإِسْلَامِ  
قَادَ الْجِيُوشَ مِنَ الْفُسْطَاطِ يَفْتُمُّهَا... مِنْهُ عَلَى الْهَوْلِ مَاضٍ غَيْرِ مَحْجَمٍ<sup>(١)</sup>  
إن الناظر في الأحداث السابقة يجد أن الكندي، قد رفع من شأن أحمد بن طولون،  
حيث أصبحت منزلته فوق منزلة الخليفة لدرجة أن الخليفة استنجد به حينما خرج عليه ولي  
عهده أبو أحمد وثار عليه، وصور الخليفة المعتمد بالضعف الشديد لدرجة أنه وصل لدرجة  
البكاء مما حصل معه، حيث طلب من خطاب المنابر الدعاء له، وبين نكاء ودهاء أحمد  
بن طولون في تعامله مع الأمر، فلم يخلعه من تلقاء نفسه بل جمع الفقهاء وأخذ منهم فتوى  
بخلع ولي العهد، ففي هذه المرة الكندي استشهد بشعر قعدان بن عمرو الذي مدح أحمد بن  
طولون، وعبر فيه عن أحمد بن طولون الذي يرفع شأن الدين الإسلامي، وكذلك بسالته  
وحكته، كقائد عظيم للجيش، وبين كذلك أنه حامي الخلافة من أي مكروه، وشجع كذلك  
الناس على أن يقفوا وراء أحمد بن طولون، ولكن ما يؤخذ على الكندي أنه ذكر ولي العهد  
أبا أحمد فقط ولم يذكر اسمه، وربما يكون له في ذلك مبرر، حيث يريد التمييز لكثرة لقب  
الموفق على كثير من خلفاء الدولة العباسية، وكذلك لم يذكر السبب وراء خروج ولي العهد  
عليه، هل بسبب وقية بينهما أم من تلقاء نفسه.

كما وضح الناحية الأدبية من خلال إظهاره لمكانة أحمد بن طولون لدى الشعب  
المصري، حيث ذكر كثيراً من الأدلة المدعمة بالثناء الذي قام به الشعراء تجاه أحمد بن  
طولون، وكذلك مكانته لدى الخليفة الذي حزن حزناً شديداً على وفاته، فقام أيضاً برثائه،  
حيث ذكر حزن الناس عليه في أثناء مرضه رجالاً ونساءً والدعاء له من على المنابر،  
وكذا الحزن الذي خيم على الناس بوفاته وحزن وجزع الخليفة العباسي المعتمد ورثاؤه له،

؛ كان حنفي المذهب، وتولى القضاء بمصر سنة ثمان - أوتسع - وأربعين ومائتين، من قبل  
المتوكل سنة (٢٤٦ هـ/٨٦٦م)، اتصف بسيرته الحسنة، ولد بالبصرة سنة (١٨٢ هـ/٨٠٢م).  
الهجراتي: المصدر السابق، ٥٩٤/٢؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ٢٨٠/١؛ الذهبي: سير  
أعلام النبلاء، ٥٩٩/١٢.

(١) الكندي: الولاة والقضاة، ص ١٦٩.

ولكن الملفت أن يذكر الكندي ما قاله محمد بن داوود عند موته.  
وقال المُعتمِدُ يُرثِيهِ: **إِلَى اللَّهِ أَشْكُو أَسَى... عَرَانِي كَوَفَّعَ الْأَسْلُ**  
**عَلَى رَجُلٍ أَرْوَعَ... يُبْرِى فِيهِ فَضْلُ الْوَجَلِ**  
وقال أيضاً ابن داوود: **يَا رَاكِبًا تَخْدِي بِهِ حُرَّةً... يَحُوبُهُ عَنْهَا النَجْبُ الْخِدْنَا**  
**عَرَّجَ عَلَى الْمُحْتَمِمْ فَاَنْزَلَ بِهِ... فَاسْلَحَ عَلَى قَبْرِ ابْنِ طُولُونًا<sup>(١)</sup>**  
فالمتمأمل فيما سبق يجد أن الكندي ذكر ما قاله محمد بن داوود الذي كان دائم النقد له، فلم ينته من نقده حتى بعد وفاته، فهذا يدل على أن الكندي يأتي بكل ما يقال فيه، حتى لو علم أنه يتحمل عليه.

• **منهجه في خلفاء الدولة الطولونية:** فعند حديثه عن خمارويه بن أحمد بن طولون ذكره وذكر لقبه (أبا الجيوش)، وذكر كذلك مهامه التي نسبت إليه، منها على صلاتها وخراجها وكيف أخذ البيعة، غير أن أغلب حديثه عنه كان على الحروب وقمع التوترات السياسية التي قامت في عهده، أو التي اضطر إلى القيام بها، ووسط ذكره للأمور السياسية لم يترك الناحية الأدبية، حيث اهتم بذكر الشعر الذي كان يقال في المناسبات سواء بالمدح، أو غير ذلك، ومن تلك الأحداث ما ذكر في الخطاب الذي أرسله أبو أحمد الواسطي إلى الموفق ليحثه على حرب خمارويه والتصغير من شأنه، فنجح في ذلك وسار إليه الموفق فاستطاع هزيمته، حيث قال:

**يَا أَيُّهَا الْمَلِكُ الْمَرْهُوبُ جَانِبُهُ... شَمَّرَ ذُبُولَ السَّرَى فَالْأَمْرُ قَدْ قَرَّبَا**  
**كَمْ دَا الْقُعُودُ وَلَمْ يَقْعُدْ عَدُوْكُمْ... عَنِ الْقِتَالِ لَقَدْ أَصْبَحْتُمْ عَجَبًا<sup>(٢)</sup>**

وذكر الكثير من المدائح الذي قيلت في خمارويه، ومنها قول الوليد بن عبيد البُحْتَرِيِّ:  
**وَقَدْ رَأَيْتُ جُيُوشَ النَّصْرِ مَنْزِلَةَ... عَلَى جُيُوشِ أَبِي الْجَيْشِ بْنِ طُولُونًا**  
**يَوْمَ النَّبِيَّةِ إِذْ نَتَّى بِكَرَّتِهِ... فِي النَّفْعِ حَمْسِينَ أَلْفًا أَوْ يَزِيدُونَ<sup>(٣)</sup>**  
فالمتمأمل فيما سبق يلاحظ أن الكندي عند حديثه عن خمارويه أكثر من الشعر

(١) الكندي: الولاية والقضاة ، ١/١٧٢ .

(٢) الكندي: المصدر السابق ، ١/١٧٤ .

(٣) الكندي: الولاية والقضاة ، ١/١٧٥ - ١٧٦ .

بالمقارنة بباقي الولاة، وسار في ذكر الأحداث التي كانت في عهده على نفس النمط الذي سار عليه في أثناء حديثه عن أحمد بن طولون، وإن كان مقلداً في ذكر الأحداث السياسية، ولكن اهتم أكثر بالناحية الأدبية، فذكر الكثير من الشعر بأغراضه المختلفة. أما باقي أمراء الدولة الطولونية، فكان حديثه عنهم مختصراً وركز على بعض الأحداث التاريخية المهمة التي حدثت في عهدهم، فذكر ما قام به أبو العساكر جيش بن خمارويه وولاة العهد من بعد خمارويه، حيث انتفض عليه الجيش، وأصدر القضاة فتوى بخلعه بعدما وقف ضده كما عارضه الكثير من القواد ولجئوا كذلك إلى الخليفة العباسي المعتضد، فخلعوه ووضع في السجن، فمات بعد أيام وكانت فترة ولايته تسعة أشهر، وتولى مكانه أخوه هارون بن خمارويه، الذي بدأ عهده بالكثير من الاضطرابات السياسية، حيث خرج عليه عمه ربيعة بن أحمد بن طولون، واستطاع القبض عليه وضرب بالسوط ما يقارب من ألف ومائتي سوط، فمات سنة (٢٨٤هـ/٩٠٤م). وبين ضعف الدولة الطولونية في أواخر أيامها، وإن لم يذكر ذلك صراحة بل ذكره من خلال الرثاء الشعري الذي أكثر منه في الاستشهاد به حيث ذكر قول: " قَالَ نافع بن محمد بن عمرو:

أَلَا شَقَّ جَيْبَ الصَّبْرِ إِنْ كُنْتَ مُوجَعًا... وَلَا يُلْفِ لَاحِ فِيكَ لِلْعَدْلِ مَطْمَعًا  
لِمَا دَهَمَ الْإِسْلَامَ مِنْ فَجْعِ حَادِثٍ... تَهْمٌ لَهُ أَرْكَانُهُ أَنْ تَضَعْنَعا<sup>(١)</sup>

فالملاحظ فيما سبق من أحداث يلاحظ أن الكندي عند حديثه عن باقي أمراء الدولة الطولونية كان مقلداً في الأحداث، وربما يرجع السبب في ذلك لضعفهم وقلة الأحداث والتوترات التي حصلت في عهدهم، وذكر كذلك سبب ضعف الدولة الطولونية، غير أنه لم يترك الجانب الأدبي بذكر الشعر.

• وبين كذلك الأمور الحضارية في الدولة الطولونية، فذكرها بين الأحداث السياسية التي قام بها حكام الدولة الطولونية من تقدم حيث قال: "وثوقني المهتدي في شعبان سنة ست وخمسين ومائتين، وبويع المعتمد بن المتوكل، فأقر أحمد بن طولون عليها وابتدأ

(١) الكندي: المصدر السابق، ١/١٩٦.

أحمد بن طولون في بُنيان الميدان<sup>(١)</sup> في شعبان سنة ست وخمسين، وأمر بحرث فُيور اليهود، والنصارى وبنى موضعهما<sup>(٢)</sup>، فالملاحظ للخبر السابق يجد أن الكندي بدئه بذكر وفاة الخليفة العباسي المهدي والشهر الذي توفي فيه وتولية الخليفة العباسي المعتمد بن المتوكل، وإقراره لأحمد بن طولون والياً على مصر، وما قام به أحمد بن طولون من بناء الميدان.

• وتحدث كذلك عن أحوال المجتمع، حيث بين الكندي ما قام به أحمد بن طولون في أثناء ذكره للأحداث التاريخية، من بناء المسجد والمستشفى، حيث قال: " وقدم أحمد من الإسكندرية إلى الفسطاط يوم الخميس لثمان خلون من شوال سنة تسع وخمسين وأمر أحمد ببنيان المسجد على الجبل في صفر سنة تسع وخمسين، وأمر أيضاً ببنيان المارستان للمرضى، فبني لهم في سنة تسع وخمسين.

وقال محمد بن داود:

أَلَا أَيُّهَا الْأَعْقَالُ إِيهًا تَأَمَّلُوا... وَهَلْ يُوقِظُ الْأَذْهَانَ غَيْرُ التَّأَمُّلِ  
أَلَمْ تَعَلَّمُوا أَنَّ ابْنَ طُولُونَ نَقْمَةٌ... تَسِيرُ مِنْ سُقُلِ الْيَكْمِ وَمِنْ عَلِ<sup>(٣)</sup>

إن الناظر في الخبر السابق يلاحظ أن الكندي ذكر ما قام به أحمد بن طولون من إصلاحات في المجتمع حيث بنى المسجد والمستشفى، غير أنه بالرغم من هذا التقدم لم يأت الكندي بمن يقوم بمدحه من الشعراء الكثر الذين كانوا موجودين في الدولة الطولونية، وخاصة أن أحمد بن طولون كان في هذا الوقت في قمة مجده، فأتى الكندي بهذا المثل بعدما ذكر بنائه للمسجد والمستشفى، ولم يذكر من قام بمدح من

(١) الميدان: يطلق عليه الميدان السلطاني، ويقع تحت القلعة والرميلة التي تحت القلعة مكان سوق الخيل والحمير = = والجمال. كانت بستانا، ويجاورها الميدان في الموضع الذي يعرف اليوم: بالقبيبات، فيصير الميدان، فيما بين القصر والجامع الذي أنشأه أحمد بن طولون، وبجاء الجامع: دار الأمانة في جهته القبليّة، ولها باب من جدار الجامع يخرج منه إلى المقصورة المحيطة بمصلى الأمير إلى جوار المحراب. المقرئزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ١١٩/٢.

(٢) الكندي: الولاة والقضاة، ص ١٦٢.

(٣) الكندي: المصدر السابق، ص ١٦٣.

الشعراء الذين كانوا يتقربون منه ويحاولون إرضاءه، غير أن الكندي جاء بهذا المثل الشعري، والذي نقد فيه الشاعر أحمد بن طولون بالرغم مما قام به من اصلاح في المجتمع، ولعله في ذلك يريد أن يظهر أن أحمد بن طولون يتقبل الرأي والرأي الآخر، وفي ذلك تمجيد لأحمد بن طولون.

• اهتم بذكر الأمور الحربية التي قام بها أحمد بن طولون من بناء الحصون لصد خطر الأعداء، وكذلك تأسيس الأسطول، والسبب في ذلك أن موسى بن بغا (١) أراد عزل أحمد بن طولون عن مصر فسار إليه بجيش، حيث قال: "ويلغ ابن طُولُون، أنه سائر إِلَيْهِ، وأنه مُجَدِّ فِي محاربتِهِ، فعَمِلَ أحمدُ بَنُ طُولُونِ فِي الحَدَرِ منه، وابتدأ فِي بُنيانِ حِصْنِ الجزيرةِ الَّذِي بينَ الجِسرَيْنِ، ورأى أن يجعلها مَعْقِلًا لِماله وحَرَمه، وذلك فِي سنة ثلاثٍ وستين، واجتهد أحمدُ بَنُ طُولُونِ فِي بُنيانِ المراكبِ الحربيةِ وإطافتها بالجزيرة، وأظهر الامتناع من مُوسى بَغَا.

قال محمد بن داود لأحمد بن طولون:

لَمَا تَوَى ابْنُ بَغَا بِالرَّقَّتَيْنِ مَلًا... سَأَقْبِهِ زَرْقًا إِلَى الكَعْبَيْنِ والعَقَبِ

بَنَى الجزيرةَ حِصْنًا يَسْتَجِنُّ بِهِ... بِالْعَسْفِ والضَّرْبِ والصَّنَاعِ فِي تَعَبِ (٢)

ولعل ما ذكر سابقاً لدليل على التقدم الحربي الذي حصل في عهد أحمد بن طولون، حيث أنشأ الحصون، وأسس الأسطول، وبين السبب في ذلك من خلال التهديدات التي حصلت من موسى بن بغا، ولكن كان مصير هذا التقدم الذي قدمه أحمد بن طولون الهجاء وأيضاً الكندي لم يذكر سوى محمد بن داود، ولعل السبب في ذلك راجع لما بينا في الخبر السابق.

• وكتب عن تاريخ الدولة الإخشيدية (٣)، وربطها بالعلاقات مع بلاد المغرب، حيث

(١) موسى بن بغا: أحد قواد المتوكل، خرج سنة ٢٥٠ هـ لحرب أهل حمص حين قاتلوا واليهيم، فأوقع بهم وقتل منهم الكثير، ورمى النيران في حمص، وبالغ في العنف، ثم ولي حرب الزنج بالبصرة فانتصر عليهم؛ وكذا في الكثير من الحروب، توفي سنة أربع وستين. الذهبي: تاريخ الإسلام، ٤٣٩/١.

(٢) الكندي: الولاة والقضاة، ص ١٣٤.

(٣) الدولة الإخشيدية: قامت في مصر: ٣٢٣ - ٩٣٤/هـ ٣٥٨ - ٩٦٨م: أصل الإخشيديين أتراك من

استطاع ربط الأحداث مع علاقة الإخشيديين بالمغرب، حيث أرسل محمد بن طفج الإخشيدي<sup>(١)</sup> أخاه الحسن بن طفج على رأس جيش إلى الإسكندرية، فاستطاع هزيمة المغاربة وقتل منهم الكثير، كان يذكر التاريخ الهجري باليوم، والسنة كما كان في المنهج منذ بداية الكتاب قائلاً، ثم عسكر الأمير محمد بن طفج وأجمع على الخروج إلى الشام، ثم سار لست خلون من شوال سنة ثلاثين، واستخلف على الفسطاط أخاه أبا المظفر، وخلا الفسطاط من الجند، فخرج محمد بن يحيى بن محمد بن أحمد بن عبد الله بن موسى بن علي بن أبي طالب الذي، يقال له: ابن السراج، فمضى إلى الصعيد، فخرج بشرونة وصار إلى غربي النيل، فنهب سمسطا<sup>(٢)</sup>، وذلك في ذي القعدة سنة ثلاثين، ومضى على وجهه فلج طريق المغرب، فصار إلى سلطان صاحب إفريقية<sup>(٣)</sup>.

فالملاحظ أن الكندي في حديثه عن الدولة الإخشيدية سار على نفس منهجه السابق

فرغانة (من بلاد ما وراء النهر) مؤسسها هو محمد الإخشيد بن طفج وهو من موالي ابن طولون فبعد الدولة الطولونية ظلت مصر تحت الخلافة العباسية مباشرة ٣٠ سنة (٢٩٣ - ٣٢٣ هـ/ ٩٠٥ - ٩٣٤ م)، فتولاها محمد الإخشيد من قبل الخليفة الراضي، وازدهرت البلاد في عهده، واستطاع أن يضم بلاد الشام. ثم ضم الحجاز وحاول سيف الدولة الحمداني انتزاع الشام منه ففشل. موجز التاريخ الإسلامي منذ عهد آدم عليه السلام. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ١/١٨٧؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ٢/٣٧٩؛ أحمد معمور العسيري: تاريخ ما قبل الإسلام، ١/٢٣٢.

(١) محمد بن طفج الاخشيدي: مؤسس الدولة الإخشيدية بمصر والشام وكان أصغر أولاد طفج نشأ فلقب بالإخشيد أصله أق شديد معناه الشمس البيضاء وتولى طرسوس زمن المعتضد فغزا وفتح عليه ثم تولى الرملة من جهة= المقتدر في سنة(٣١٦هـ/٩٣٦م)، وأقام بها إلى= سنة(٣١٨هـ/٩٣٨م)، وجرت بينه وبين سيف الدولة وقائع ثم تزوج السيف بنت أخته ثم تولى دمشق من جهة المقتدر وكان على مصر أحمد بن كيغلق، ولما تولى الراضي عزله وولي الإخشيد مصر في سنة(٣٢٣هـ/٩٤٤م) توفي سنة ٣٣٤ هـ/٩٥٦م. الصفدي: الوافي بالوافيات، ٢٠/١٧؛ حاجي خليفة: سلم الوصول إلى طبقات الفحول، ٣/٢٣٧.

(٢) سمسطا: ضم أوله وثانيه ثم سين مهملة أخرى، وطاء مهملة، وألف مقصورة، وعن أبي الفضل: سمسطا من عمل البهنسا، ومنهم من يقول سمسطا، بفتحتين: قرية بالصعيد الأدنى من البهنسا على غربي النيل، ينسب إليها الحزم السمسطية، وهي حزم من الحبل لا يفضل عليها شيء من جنسها. ياقوت: معجم البلدان، ٣/٢٥٠.

(٣) الكندي: الولاة والقضاة، ١/٢١١.

خلال ذكره للدولة الطولونية، فكان يذكر اليوم مع التاريخ الهجري ذكراً للشهر، فذكر سنة ٣٣هـ، ولم يذكر ثلاثمائة، وذكر كذلك بعض الأحداث التاريخية وشطراً من الحروب، فذكر خروجهم وحروبهم في الإسكندرية، وكذلك خروجهم لتوسع الدولة وضم بلاد الشام، ولكنه ذكر خطأ مهما قام به محمد بن طفج، أنه ترك الفسطاط بلا حماية، ولا جنود مما دفع أحد العلويين للتخريب والخروج عليه.

• وذكر كذلك بعض الأحداث والنزاعات السياسية لأمرء الدولة الإخشيدية قائلاً: " ثم وليها أبو القاسم أنوجور بن الإخشيد باستخلاف أبيه الإخشيد عليها يوم ورد الخبر بموت أبيه، وكان أبو المظفر الحسن بن طغج بمصر، وقبض على أبي بكر محمد بن علي بن مقاتل يوم الثالث من المحرم سنة خمس وثلاثين، وقدم الحاج يوم الأربعاء خامس وعشرين المحرم، ثم كان النيروز<sup>(١)</sup>، والطلع العقرب، فأقام فيه أياماً، ثم رحل والعسكر معه يوم الثلاثاء حادي وعشرين شهر ربيع الأول، وكان مقام العسكر بمصر شهراً واحداً واحد وعشرين يوماً".<sup>(٢)</sup>

إن الناظر للأحداث السابقة يلاحظ أن الكندي ذكر بين الأحداث التاريخية في تلك الفترة مع ذكر اليوم والشهر مع ذكر السنة وإن كان ذكر ٣٥هـ، ولم يذكر ثلاثمائة تلميحاً على بعض الأمور التي كانت تحدث في المجتمع المصري من أعياد الأقباط مثل النيروز، وكذلك الاحتفالات بالحج عند خروج الموكب، وكذلك عند وصول الخطاب بتولية أحد الأمراء بمصر، فإن كان ذلك يحصل معه احتفال فيلقى ذلك الخطاب في المسجد على مسمع من الناس، كما ذكر كذلك بعض الأمور المتعلقة بعلم الفلك.

• ولكن ما يؤخذ على الكندي أنه في تأريخه للدولة الإخشيدية كان مختصراً جداً على عكس منهجه في علاج الدولة الطولونية، فكان يقتصر على أدق الأحداث المهمة، فحسب أما عن باقي خلفاء الدولة الإخشيدية، فكان الحديث عنه مختصراً جداً، فلم

(١) النيروز: كلمة فارسية معناها: عيد الربيع، وهو عيد رأس السنة الفارسية وهو يوم الاعتدال الربيعي. الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ٣٩/١٠.

(٢) الكندي: الولاة والقضاة، ٢١٢/١.



يأت بالتفاصيل سوى التعيين وصاحب الشرطة ومنها: "واستبدَّ كأفور بالأمر بعد موت عليّ بن الإخشيدي، ودُعي باسمه على المنابر في المحرم سنة خمس وخمسين وثلاثمائة، ووردت رُسل المُطيع وِخلَعُه وهداياهُ وقيِد وسوار، ورُفعت المطارِد على رأسه، ووافَت رُسل صاحب هَجَر القَرَمَطيّ إلى كأفور ومعهم نحو المائتي جمل من متاع الحاجّ الذين قطع عليهم بنو سُلَيم، فأمر برده إلى الحاجّ وسُلّم إليهم، وتُوفّي كأفور في جمادى الأولى سنة سبع وخمسين وثلاثمائة".<sup>(١)</sup>

فالملاحظ في كتابته عن كأفور ذكره أنه لم يعين ولكنه أخذ الولاية غصباً، حيث جعله أمراً واقعاً، حيث دعا لنفسه من على المنابر، وذكر السنة الهجرية التي تم فيها هذا الأمر، وبناء على هذا تسابق الخليفة العباسي في الاعتراف به، فأرسل إليه بتتويجه أميراً على مصر، وكذلك أرسل إليه القرمطي ما أخذ من الحج، وبين كذلك أنه لم يبق في الولاية بعد هذا الاعتراف سوى مائة يوم، وذكر سنة وفاته ليفهم من ذلك أن فترة ولايته كانت ما يقارب السنتين، ولم يذكر فيها سوى تلك الأحداث اليسيرة، غير أنه في وفاته ذكر الشهر الهجري، ولم يذكر اليوم الذي توفي فيه، وذكر مدة ولايته مائة يوم، وأهمل اليوم الذي مات فيه، حيث يلاحظ أنه ذكر ٣٥٧ هـ/٩٧٧م، ولم يكتب كما في السابق بذكر ٥٧ فقط بل كتبها كاملة.

#### ثانياً المنهج التاريخي للكندي في كتاب القضاء:

- أما عن منهجه في القسم الثاني من الكتاب، فقد أفرد له لقضاء مصر، حيث اتبع منهجاً خاصاً صار عليه، ونلاحظ من خلاله الأمور التالية:
- الذي قام بنقل كتاب القضاء للكندي تلميذه ابن النحاس<sup>(٢)</sup>، والدليل على ذلك أنه في بعض الأحيان كان يكتب: حدثنا محمد بن يوسف<sup>(٣)</sup>، ويذكر كذلك الرواية التي نقل

(١) الكندي: الولاية والقضاء ، ٢١٤/١ .

(٢) أبو محمد بن عبد الرحمن بن عمر بن محمد بن سعيد المصري البزار ، ولد ليلة النحر ٣٢٣

هـ ، وتوفي سنة ٤١٦ هـ . ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ٢٦٤/٤ .

(٣) الكندي: الولاية والقضاء ، ٣٠٢/١ - ٣٠٣ - ٣٠٤ .

- منها الكندي.
- اعتمد في ذكر الروايات على بعض الألفاظ مثل: حدثنا<sup>(١)</sup>، وحدثني<sup>(٢)</sup>، وأنشدنا عند ذكره للشعر<sup>(٣)</sup>، وأخبرني<sup>(٤)</sup>.
- وقال<sup>(٥)</sup>.
- في بعض الأحيان كان يكرر الروايات فيأتي بروايتين، أو أكثر دون أي اختلاف بين الروايتين.<sup>(٦)</sup>
- في بعض الأحيان كان يحدث اضطراب في تنظيم المادة العلمية وعرضها مثل ذكره (سليم بن عترة في قول آخر)<sup>(٧)</sup>، حيث إنه كان من الواجب عليه ذكر كل ما يتعلق بالقاضي في مكان واحد، ولكن ربما يكون وصله أمور جديدة في هذا القاضي، فكتبه في هذا الموضوع، والدليل على ذلك أن الكلام المكتوب مختلف عما كتب في الأول.
- رتب القضاة ترتيباً زمنياً، عرض من خلاله بعض الأمور منها حياة كل قاضي، حيث ذكر تاريخ توليته القضاء، ومتى عزل، كما يذكر بعض أخبارهم، ويذكر كذلك بعض الحوادث المهمة في عهده بالتفصيل، وكذلك يذكر القضايا التي ترفع إلى الخليفة بالتفصيل وانتهى كتاب القضاء بولاية القاضي بكار بن قتيبة سنة (٢٤٦هـ/٨٦٦م).<sup>(٨)</sup>
- استطاع الكندي أن يذكر بعض الأحداث التاريخية من خلال ذكره للقضاة ومنهجه التاريخي أن يبين تطور الحياة الاجتماعية في مصر في أثناء حكم الدولة الإسلامية.
- الاهتمام بالناحية الأدبية؛ فعند الحديث عن بعض القضاة كان يدعمه بالشعر

(١) الكندي: المصدر السابق، ص ٣١٦.

(٢) الكندي: المصدر السابق والصفحة .

(٣) الكندي: الولاية والقضاة ، ص ٤٥٣ .

(٤) الكندي: المصدر السابق، ص ٤٧٢ .

(٥) الكندي: المصدر السابق، ص ٣٩٥ .

(٦) الكندي: المصدر السابق ص ٣٣٠ - ٤٠٤ .

(٧) الكندي: المصدر السابق، ص ٣٠٦ - ٣١١ .

(٨) الكندي: المصدر السابق ، ٣٣٩/١ .

المختار، والذي ذكر في القاضي، أو ذكر في بعض المواقف في أثناء وجوده في المنصب، أو شعر قاله القاضي نفسه في بعض المناسبات، ومنها ما ذكر في القاضي عمران بن عبد الرحمن الحسني، حيث، هجاه ابن أبي زمزمة، فقال:

أنا ابن أبي بدرٍ بهجرةٍ يثربٍ... وهجرة أرض النجاشي أفرز  
أمثلي على مني وفضل أبوتي... نسيت وهذا نجل مروان يذكر<sup>(١)</sup>

إن الملاحظ في الأحداث السابقة يرى أن الكندي ذكر الرواية كاملة بسندها، ثم بين السبب الذي من أجله الشاعر عبد الملك قام بهجاء القاضي عمران بسبب الشدة التي مرت على مصر، وكما ذكر أول شدة تمر بها البلاد، وكأنه تشاء منه.

كما كرر أيضاً هجاء عبد الله بن عبد الملك بن مروان في القضاء كما ذكره سابقاً في الولاة، فالملاحظ أنه استشهد بالشعر بالرغم من أنه كرر نفس الشعر في الجزء الخاص بالولاة.

- من أهم الأمور التي اتبعتها في منهجه الاستشهاد بالأحاديث النبوية الشريفة، التي كان يختارها بعناية لتوافق الحدث والزمان والمكان، وفي الغالب يقوم بشرح هذه الأحاديث، أو التعليق عليها، حيث كان عدد الأحاديث التي استشهد بها في هذا القسم أكثر من القسم الخاص بالولاة، ولعل ذلك راجع إلى أن الأمور الخاصة بالقضاة كانت تستدعي الاستشهاد بالأحاديث، ومنها ما ذكرها في أثناء حديثه عن القاضي عبد الرحمن بن حجية الأكبر، حيث كان يستشهد بالأحاديث النبوية في أثناء ذكره لبعض الأمور القضائية فذكره بسنده حيث قال ابن وهب: أخبرني رجال من أهل العلم، عن ابن حجية، قال: «يجوز وطء الحامل ما لم تنقل ويحضرها نفاس»<sup>(٢)</sup>.
- بين كذلك الرواتب التي كان يتقاضاها القضاة في مصر وبين كذلك الأهمية السامية للقضاء، فذكر في أثناء حديثه عن ابن حجية الرواتب التي كان يتقاضاها القاضي، حيث كان يأخذ القاضي رواتب عالية، وهذا ما نهج عليه حكام الدولة الإسلامية،

(١) الكندي: المصدر السابق، ٢٣٦/١.

(٢) الكندي: الولاة والقضاة، ٢٣٠/١.

حيث قال: "إن ابن حُجيرة الأكبر كَانَ عَلَى القضاة، والقَصَص، وبيت المال، فكان رزقه في السنة من القضاء مائتي دينار، وفي القَصَص مائتي دينار، ووزقه في بيت المال مائتي دينار، وكان عطاؤه مائتي دينار، وكانت جائزته مائتي دينار، وكان يأخذ ألف دينار في السنة، فلا يحول عَلَيْهِ الحَوْل، وعنده منها شيء يفضل عَلَى أهله وإخوانه"<sup>(١)</sup>.

فالمتمأمل في الرواية السابقة يلاحظ أن الكندي بين رواتب القضاة في ذلك الوقت حيث بين أن القاضي، كان يجمع مع القضاة وظائف أخرى مثل القصص، والإشراف على بيت المال، حيث بلغ راتبه ما يقارب ألف دينار في السنة.

• ومن الأمور التي صار عليها في منهجه عن القضاة أنه كان يذكر في أثناء حديثه عن أغلب القضاة سنة وفاته، وكذلك عدد السنين التي تولى فيها القضاء، ويبين ذلك باليوم والشهر والسنة الهجرية، والأمثلة على ذلك كثيرة، منها ما ذكر عند حديثه عن عبد الرحمن بن حجيرة: فوليتها عبد الرحمن بن حُجيرة إلى أن مات بها وهو قاضيا في المحرم سنة ثلاث وثمانين<sup>(٢)</sup>، فالناظر إلى الأمور السابقة يجد أن الكندي ذكر حديثاً عن الوقت الذي تولى فيه القضاء، والسنة والشهر الذي مات فيه القاضي، وأكد على ذلك برواية مدعومة بالسند الصحيح.

• عرض بعض الأحداث التاريخية المهمة في أثناء ترجمته لبعض القضاة، وربما كانت هذه الأحداث سبباً في تولية القاضي لمنصب القضاء، حيث ذكر الكندي في أثناء حديثه مالك بن شراحيل «أن عبد العزيز بن مروان عقد لمالك بن شراحيل عَلَى البعث إلى ابن الزبير، فكانوا ثلاثة آلاف رجل عليهم مالك بن شراحيل، فلما قُتل ابن الزبير، أمر عبد الملك بن مروان بابتداء دار مالك ومسجده، وكان مُقَدِّماً عند عبد العزيز، فولاه القضاء بعد موت ابن حُجيرة الأكبر في المحرم سنة ثلاث وثمانين»<sup>(٣)</sup>، فالمتمأمل

(١) الكندي: المصدر السابق ، ٢٢٩/١.

(٢) الكندي: المصدر السابق ، ٢٣١/١.

(٣) الكندي: الولاية والقضاة ، ٢٣٣/١.

في الأحداث السابقة يجد أن الكندي عالج بعض الأحداث التاريخية والنزاعات في أثناء حديثه عن القاضي، مع ذكر تلك الرواية بسندها، فذكر عدد الجيش الذي خرج من مصر لمحاربة عبد الله بن الزبير، وكان عدده ثلاثة آلاف جندي، وكان قائد الجيش مالك بن شراحيل، ولما ظفروا بعبد الله بن الزبير وقتل، فكافأ عبد العزيز بن مروان مالك بن شراحيل ببناء منزل ومسجد، وكان من المقربين له، وعينه في القضاء.

• كما كان يبين سبب تولية القاضي للقضاء، وكذلك بين أن بعض القضاة كان يجمع بين القضاء والشرطة مثل القاضي يونس بن عطية، حيث قال الكندي: "فَدَخَلُوا يَوْمًا عَلَى عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِيَسْتَأْذِنُوهُ فِي الْمَصِيرِ إِلَى مِصْرَ، فَدَخَلْتُ مَعَهُمْ، فَبَيْنَا نَحْنُ جُلُوسٌ عِنْدَهُ إِذْ دَخَلَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وَكَانَتْهُ غَضْبَانُ، فَجَلَسَ، فَلَمْ يَحْفَلْ بِهِ عُثْمَانُ، فَجَعَلَ عَلِيٌّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - يَقُولُ: إِنَّ لِي فِيهَا وَإِسْلَامًا وَهَجْرَةً، وَعُثْمَانُ مُعْرِضٌ عَنْهُ إِذْ دَخَلَ الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فَضْرَبَ عُثْمَانُ بِمِحْضَرْتِهِ الْأَرْضَ، وَقَالَ: رَبِّ مُفْتَخِرٍ بِهَجْرَتِهِ مَرَقٌ هَذَا أَطِيبُ مِنْ عَرَقِهِ يَعْنِي: الْعَبَّاسُ، فَتَدَمَّرَ عَلِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَقَامَ غَضْبَانُ يَجْرُ رِيْطَتَهُ<sup>(١)</sup>، فَوَلِيَهَا يُونُسُ بْنُ عَطِيَّةَ مَجْمُوعًا لَهُ الْقَضَاءُ وَالشَّرْطُ إِلَى مُسْتَهْلٍ سَنَةِ سِتٍّ وَثَمَانِينَ، فَصُرِفَ عَنْهَا، فَوَلِيَّ سَنَةَ وَسَبْعَةَ أَشْهُرٍ"<sup>(٢)</sup>، فالمتأمل فيما سبق يجد أن الكندي ذكر كذلك قصة هجرة قبيلة كنده إلى المدينة ومنها إلى مصر والسبب في تلك الهجرة، وكذلك ذكر مدة ولاية يونس القضاء في آخر الترجمة عنه، وذكر كذلك العدد الذي هاجر في ذلك الوقت، وكانوا مائة من أهل كنده، كما ذكر ما حصل في مجلس أمير المؤمنين عثمان بن عفان حينما دخل عليه علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - والعباس بن عبد المطلب.

• ذكر مكانة قضاة مصر حتى أن قضاة الشام كانوا يأخذون بفتواهم في كثير من

(١) الكندي: المصدر السابق، ٢٣٤/١.

(٢) الكندي: المصدر السابق، ٢٣٤/١.

الأمر، حيث ذكر الكندي في ترجمته ليونس قائلاً: "إن عبد الملك بن مروان كتب إلى عبد العزيز بن مروان يُعلمه أن أهل الشام اختلفوا عليه في نفقة المبتوتة، فاكْتُب إليّ بما عند أهل مصر فيه فجمع الأشياخ إلى عبد العزيز، فسألهم، وكان يونس بن عطية في أخرياتهم، فقال له عبد العزيز: تكلم، فتكلم، فأعجب عبد العزيز به، فسألهم عنه، فقالوا له: هذا من سادات حَضَرَ مَوْت<sup>(١)</sup>، فولاه القضاء"، قَالَ خَلَف: وكان يونس أول قاضي بمصر من حَضَرَ مَوْت<sup>(٢)</sup>، فالمطالع فيما سبق يلاحظ أن الكندي وضح مكانة قضاة مصر ومنزلتهم، حيث إن قضاة الشام، كانوا يأخذون بفتواهم لما بلغوا من العلم، وذكر كذلك أول قاض من حضرموت، وذكر سبب توليته للقضاء.

• وأظهر كذلك أن بعض الولاة كان يجمع مع وظيفة الوالي منصب القضاء، فكان الكندي يذكره ضمن كتاب الولاة ويذكره أيضاً ضمن كتاب القضاء مثل ما حصل مع عبد الرحمن بن معاوية بن حديج الذي كان والياً وقاضياً، وكان أيضاً متقلداً للشرطة حيث ذكر الكندي ذلك عند ترجمته لمعاوية في القضاء، كما ذكر ذلك في أثناء الكلام عن ولايته فقال: "وثُوقِي عبد العزيز بن مروان في جمادى الأولى سنة ست وثمانين، وعبد الرحمن بن معاوية على القضاء والشرط، فقام بأمر مصر عمر بن مروان، وقدم عبد الله بن عبد الملك بن مروان أميراً في جمادى الآخرة، فأقر عبد الرحمن بن معاوية على القضاء والشرط إلى شهر رمضان سنة ست وثمانين، ثم صرفه عنها"<sup>(٣)</sup>، فالملاحظ فيما سبق يجد أن الكندي وضح أن القاضي كان يتقلد بجانب وظيفته وظيفة الوالي وصاحب الشرطة، أي أن كل مناصب الولاية كانت بيده، فيذكر في كتاب الولاة، ويذكره مرة ثانية في القضاء مع ذكر الشهر واليوم والتاريخ الهجري مع ذكر أنه تولى الشرطة.

• وعالج أيضاً مسألة الأنساب، فكان يكتب النسب، وإذا اختلف في نسب أي شخص

(١) الكندي: الولاة والقضاة، ٢٣٤/١.

(٢) الكندي: المصدر السابق، ٢٣٤/١.

(٣) الكندي: المصدر السابق، ٢٣٦/١.

كان يبحث عنه، ومنها ما ذكر في ترجمة عمران بن عبد الرحمن الحسني وقيل: "هو من كندة، ويقال: من مدحج، ولكن الكندي أتى برواية، وقد أخذ النسب الأصلي من صاحبها حيث قال: "ممن أنتم اليوم يا ابن شُرْحِيل؟ قَالَ: من العَوْتِ قَالَ: والعَوْتِ إلى من؟ قَالَ: إلى مدحج"<sup>(١)</sup>، فالملاحظ أن الكندي عالج أمور النسب بدقة تامة، حيث كان يذكر كل الروايات التي قيلت في نسبه، ويورد كل رأي حتى لو لم يدعم هو هذا الرأي، فيذكر كل الروايات سواء بسندها، أو ما سمعها هو شخصياً، ويذكر تأييده ورأيه فيها.

• وكان الكندي يدعم كلامه بأدلة من القرآن الكريم، ويذكرها في موضعها مثل ما حصل حينما ذكر ذلك في ترجمة القاضي عمران بن عبد الرحمن الحسني بعد ذكر السند كاملاً قال: "إن عبد الله بن عبد الملك بُغِي عنده عمران بن عبد الرحمن بعد عزله، فأمر بقميص يُعمل له من قراطيس، ثم كتب إليه يعاتبه ويشتمه، وقال: يُلبس غداً ويُوقف فيه، فإن عمران لقاعد في المسجد إذ جاءت ريح بسحابة حتى طرحتها في حجره، فإذا فيها: لَفَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ"<sup>(٢)</sup>،<sup>(٣)</sup> فالمتأمل في الخبر السابق يجد أن الكندي ذكر الآية القرآنية التي استشهد بها القاضي مع ذكر اسم السورة ورقم الآية، وقد كانت مناسبة للحادث التي قيلت فيها.

• ومن منهجه أيضاً الذي صار عليه في كتاب القضاة أنه إذا تولى القاضي القضاء أكثر من مرة، كان يذكر لفظ الثانية أو الثالثة بعد ذكر اسم القاضي، فيذكر اسمه، وربما لم يذكر اسمه كاملاً، حيث يكتفي بذكره كاملاً في المرة الأولى، كما كان يذكر القاضي للمرة الثانية إذا ولي القضاء للمرة الثانية فيقول: "عبد الله بن عبد الرحمن بن حُجْبِرَةَ الثانية"<sup>(٤)</sup>.

• كما أن الكندي وضع بعض الأحكام القضائية التي كان يقضي بها القضاة ويذكر تلك

(١) الكندي: المصدر السابق، ٢٣٧/١.

(٢) سور البقرة آية: ١٣٧.

(٣) الكندي: الولاية والقضاة، ٢٣٧/١.

(٤) الكندي: المصدر السابق، ٢٤١/١.

الأحكام، ومن أمثلة ذلك: "أن عمر بن عبد العزيز، كتب إلى عياض بن عبيد الله: " كتبت إليّ ترعم أن فضاتكم يقضون في الشفعة أنها للأول فالأول من الجيران، فنقول: قد كُنا نسمع أن الشفعة للشريك ليست لأحدٍ سواه، وأحقّ الناس بالبيع بعد الشفيع المشتري، ولعمري ما الشفعة بالجوار، فوجدتها لم يوجبها أحد، ولو أنّ ذلك يكون ما انقطع بعضهم من بعض، وما أشاع رجل أرضاً إلا أفضى إلى جاره حتى تنقضي العامورة، ولا داراً إلا حتى تُقضى إلى دار ببعض مساكن الناس"<sup>(١)</sup>، فالناظر فيما سبق يجد الكندي ذكر بعض الأمور القضائية المهمة التي كان يقضي بها القضاة، ودونت تلك الأحكام القضائية.

- ذكر الكندي عدالة قضاة مصر ولعل ما قام به القاضي توبة بن نمر الحضرمي حينما تولى القضاء قال لزوجته: يا أم محمد، أي صاحب كنت لك؟ قالت: خير صاحب وأكرمه، قال: فاسمعي لا تعرضن لي في شيء من القضاء، ولا تذكرني بخصم، ولا تسألني عن حكومة، فإن فعلت شيئاً من هذا فأنت طالق، فإمّا أن تُقيمي مكرمةً وإمّا أن تذهبي نميمةً، فانتقلت عنه فلم تكن تأتيه إلا في الشهر والشهرين"<sup>(٢)</sup>، ولعل المثال السابق لفيه أروع مثال للعدالة، حيث إن القاضي طبق هذا الأمر على زوجته، حيث إنها لو تدخلت في أي أمر من أمور القضاء، فتصبح طالقاً، إذاً قد حرم عليها تماماً الدخول في أي أمر من أمور القضاء.
- وكان في بعض الأحيان يخالف الطريقة التي صار عليها منذ بداية الكتاب، فكان في العادة يذكر السنة في البداية، ولكن في بعض الأحيان كان يذكر السند في نهاية الخبر، ومنها: "ثم ولي القضاء بها خير بن نعيم من قبل الأمير حنظلة بن صفوان الكلبي في شهر ربيع الآخر سنة عشرين ومائة، وجعل إليه القضاء والقصاص جميعاً، حدّثني بذلك يحيى، عن خلف، عن أبيه، عن جدّه"<sup>(٣)</sup>.
- ربط بعض الأماكن بأسماء أصحابها فقد ذكر في أثناء حديثه عن المفضل بأنه مصري: "المفضل

(١) الكندي: المصدر السابق، ١/٢٤٣.

(٢) الكندي: الولاية والقضاة، ١/٢٤٨.

(٣) الكندي: المصدر السابق، ١/٢٥٣.



- بن فضالة مصري رجل صدق".<sup>(١)</sup>
- كان للكندي تحليلات وتفسيرات لبعض الأحداث، وكان أحياناً يذكر الحدث مع أسبابه ونتائجه، ومنها سبب توليته للقضاة من الأزد وغيرهم، حيث قال: "مُعَاوِيَةَ كَتَبَ إِلَى مَسْلَمَةَ بْنِ مُخَلَّدٍ وَهُوَ عَلَى مِصْرَ لَا تُؤَلِّ عَمَلَكُ إِلَّا أَرْدِيًّا أَوْ حَضْرَمِيًّا، فَإِنَّهُمْ أَهْلُ الْأَمَانَةِ"<sup>(٢)</sup>، فالملاحظ في الروايات السابقة يجد أن الكندي ذكر الرواية وذكر السبب فيها، حيث اتبع ذلك ببعض التفاسير والتحليلات والأسباب، فقد ذكر سبب تولية الأزد للقضاء، وكان السبب أنهم اتصفوا بالأمانة.
  - اتبع أسلوب الانتقائية في ذكر بعض الأحداث كما حصل في أثناء حديثه عن عبد الرحمن بن عبد الله العمري، فقال: "أخرجت مُراد فرساً لها يوم الرّهان، وكانوا يفخرون به يسمونه الرّعفران، وأخرجت يَحْصُبُ فرساً لها يسمّى الجّناح، وجعل كل فريق منهم لصاحبه أيّهم سبق كأنّ المسبوق له، وجعلا غايتها من جنان قيس بن حبشي إلى منية المنوبي، فخرجوا وخرج عامّة مصر معهم، فسبق فرس مُراد فرس يَحْصُبُ حتى كاد أن يدخل الغاية، فخرجت يَحْصُبُ، فضربت وجه الرّعفراني حتى تحير، وسعد الجّناح فرس يَحْصُبُ، فدخل الغاية، فاقتتلوا، وانضمّ مع كل فريق منهم طائفة من الناس، وركب الأمير ليث بن الفضل يحجز بينهم، وردّ الأمر إلى العمري لينظر فيه، فانتته يَحْصُبُ بأموال عظيمة، فحكم لهم بالفرس، ودفع إليهم الرّعفراني وقضى لهم به"<sup>(٣)</sup>.
  - عالج الجغرافيا وما يخص المكان إشارة إلى بعض الأحداث التي تخص المدن، وكان الإشارة إلى ذلك كثيرة، ومنها قال معاوية بن حديج: سمعت من أبي يقول: "كنتُ بالعراق، فدخلت يوماً على أبي جعفر أمير المؤمنين، فقال: يابن حديج، أعلمت ما حدث ببأدك"<sup>(٤)</sup>، ثمّ التفت إلى ربيع، فقال: انتخبنا لأهل مصر قاضياً.<sup>(٥)</sup>

(١) الكندي: المصدر السابق، ٢٧٩/١.

(٢) الكندي: المصدر السابق، ٣٠٥/١.

(٣) الكندي: المصدر السابق، ٢٨٠/١.

(٤) الكندي: الولاية والقضاة، ٢٦٦/١.

(٥) الكندي: المصدر السابق، ٢٦٧/١.

### ما يؤخذ على الكندي:

- لم يحدد بالضبط السنة التي ينتهي فيها كتابه، حيث ذكر في المقدمة (منذ فتحت إلى زماننا هذا)<sup>(١)</sup>.
- اسم الكتاب غير معبر عما في داخله من أحداث؛ فالأصل في الولاية أن يذكر الولاية فقط، ولكنه تحدث عن بعض الأمور السياسية والإدارية والاجتماعية والاقتصادية.
- لم يكتب في المقدمة المنهج الذي يسير عليه في كتابه.
- اعتمد اعتماداً كلياً على القضاة الموجودين في مصر في مقر الولاية أي في العاصمة، ولم يتطرق إلى القضاة الموجودين في الأقاليم.

### الخاتمة:

#### كان من أبرز النتائج التي توصلنا إليها في البحث ما يلي:

- منهج الكندي لم يخرج من المناخ السائد في عصره خصوصاً في إطار تدوين الحادثة وعرض المحتوى الديني وفكرة الولاء للبلد الذي نشأ فيه.
- اعتمد الكندي في منهجه بشكل كبير على ما كان سائداً في عصره من خلال تدوين الحوادث مع عرض المحتوى الديني، مع التركيز على ولائه للبلد الذي عاش فيه.
- اجتهد كثيراً في ربط الأحداث في إطار زمني واحد يعرض من خلاله تفصيل بعض الأخبار.
- سار الكندي على مسلك الرواية، بدون سند، واعتمد في الجزء الأكبر الذي لم يعاصره ويعيش فيه على ما سمعه في مجالس العلم وحلقات الدرس، حيث إنه غلب عليه أسلوب المحدثين بالاعتناء بالسند وفي بعض الأحيان كان يسقط، وخاصة في الفترة التي عاصرها، فكان هذا الأمر متبعاً وسار عليه مؤرخو القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، وعلى وجه الخصوص كان سائداً في المدرسة المصرية التي ينتمي الكندي إليها، فكان الغرض منه التبسيط في أسلوب الكتاب.<sup>(٢)</sup>

(١) الكندي: المصدر السابق، ص ٦.

(٢) عبد المولى عبد الخالق: جهود المؤرخين المسيحيين في مصر الإسلامية من القرن الأول

- ويرع الكندي في إعطاء منهجه صورة التاريخ المحلي المتخصص بقطر واحد خاصة أنه جمع بين التاريخ والأدب، والذي زاده دقة أنه معاصر للأحداث، فامتازت كتابته بحسن التنسيق والدقة في نقل الخبر، وخاصة في نقل الأخبار التي عاصرها.<sup>(١)</sup>
- يتضح من خلال كتاب الكندي أنه برع في عرض الروايات والأحداث، وعدم إسقاط السند.
- أبدع الكندي في نقل الأخبار التاريخية التي عاصرها، حيث امتازت كتاباته بالدقة والتنسيق والتجربة الميدانية على عكس الأخبار التي أوردها في الفترة التي سبقت العصر الذي كان يعيش فيه.
- اعتمد المؤرخون الذين جاءوا من بعده على كتابه واعتبروه مصدرًا تاريخيًا ضروريًا لحقبة زمنية مهمة، ولهذا نجدهم يشيرون إلى الأحداث والتواريخ، ويضعون كتاب الكندي وشروحه كمصدر وكدليل لتأكيد كونه موردًا مهمًا من موارد المدرسة المصرية في تفسير التاريخ.
- كانت أهم ميزة في منهج الكندي التخصص في التاريخ المحلي في أثناء الكتابة التاريخية، وخاصة أنه لم يخرج في كتاباته عن تاريخ مصر وأشخاصها، ووصف وولاتها وقضاتها.
- ما يؤخذ على الكندي في منهجه للتدوين التاريخي هو اعتماده على بعض الروايات الشفهية التي سمعها في بعض مجالس العلم، وذكرها دون مصدر، أو إسناد.
- استطاع أن يقدم بدقة وأمانة للقضاء في مصر ما يقارب من قرنين ونصف بعدالة تامة، بعيداً عن التعصب، فهو نعم المؤرخ.<sup>(٢)</sup>

---

الهجري حتى القرن السابع الهجري (مصر ١٤٢١ هـ/٢٠٠١م)، ص ٢٢١؛ سيدة إسماعيل الكاشف: مصر في الإخشيديين، ط ١، الهيئة المصرية للكتاب، مصر، ١٤١٧ هـ/١٩٩٧م، ص ٣٠٥.

(١) عبد المولى عبد الخالق: المرجع السابق، ص ٢٢١؛ سيدة إسماعيل الكاشف: المرجع السابق، ص ٣٠٥.

(٢) عبد الفتاح فتحي عبد الفتاح: التاريخ والمؤرخون في مصر والأندلس في القرن الرابع الهجري

## المصادر والمراجع

### أولا المصادر:

- الإدريسي، محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الحسني الطالبي، المعروف بالشريف الإدريسي، ت: ٥٦٠هـ: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٤٠٩هـ.
- ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري، عز الدين ابن الأثير، ت ٦٣٠هـ: أسد الغابة في معرفة الصحابة، تحقيق علي محمد معوض - عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية ط١، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.
- الباباني، إسماعيل بن محمد أمين بن مير سليم الباباني البغدادي، ت ١٣٩٩هـ: هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، طبع بعناية وكالة المعارف الجليلة في مطبعتها البهية إستانبول ١٩٥١.
- بكر بن عبد الله أبو زيد بن محمد بن عبد الله بن بكر بن عثمان بن يحيى بن غيهب بن محمد ت: ١٤٢٩هـ: طبقات النسابين، دار الرشد، الرياض، ط١، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
- ابن تغري بردي، يوسف بن تغري بردي بن عبد الله الظاهري الحنفي، أبو المحاسن، جمال الدين، ت: ٨٧٤هـ: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب، مصر.
- حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله القسطنطيني العثماني المعروف بـ «كاتب جلبي» ويد «حاجي خليفة»، ت ١٠٦٧ هـ: سلم الوصول إلى طبقات الفحول: تحقيق محمود عبد القادر الأرنؤوط، مكتبة إرسیکا، إستانبول - تركيا، ٢٠١٠ م.
- ابن حجر العسقلاني: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي: تهذيب

---

العاشر الميلادي، دراسة تحليلية مقارنة، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ١٤٢٤ هـ/٢٠٠٤م، المجلد الثاني، ص ٦٥٢.

- التهذيب، دار الفكر - بيروت، ط١، ١٤٠٤ - ١٩٨٤.
- ابن حجر العسقلاني، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني ت: ٨٥٢هـ: نزهة الألباب في الألقاب، تحقيق عبد العزيز محمد بن صالح السديري، الناشر: مكتبة الرشد - الرياض، ط١، ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م.
- ابن حجر، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني، ت: ٨٥٢هـ: الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية - بيروت، ط١، ١٤١٥ هـ.
- الحميري، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم الحميري، ت ٩٠٠هـ: الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة - بيروت، ط٢، ١٩٨٠ م.
- الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي (المتوفى: ٤٦٣هـ): تلخيص المتشابه في الرسم، تحقيق: سؤينة الشهابي، طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، ط١، ١٩٨٥ م.
- ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان البرمكي الإربلي، ت: ٦٨١هـ: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر - بيروت.
- الدمشقي، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي، ت ٧٧٤هـ: طبقات الشافعيين، تحقيق: أحمد عمر هاشم، د محمد زينهم محمد عزب، مكتبة الثقافة الدينية، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م.
- الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قأيماز الذهبي، ت ٧٤٨هـ: سير أعلام النبلاء، تحقيق مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، ط٣، ١٤٠٥ هـ/١٩٨٥ م.
- الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قأيماز ت: ٧٤٨هـ: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق عمر عبد السلام التدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م.

- الرازي، أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي، الحنظلي، الرازي ابن أبي حاتم ت: ٣٢٧هـ: الجرح والتعديل، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط١، ١٢٧١ هـ ١٩٥٢ م.
- الرشيد العطار، يحيى بن علي بن عبد الله بن علي بن مفرج، أبو الحسين، رشيد الدين القرشي الأموي النابلسي ثم المصري، المعروف بالرشيد العطار، ت ٦٦٢هـ: مجرد أسماء الرواة عن مالك، يليه المستدرک على الخطيب والعطار، تحقيق أبي محمد سالم بن أحمد بن عبد الهادي السلفي، مكتبة الغرباء الأثرية، ط١، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م.
- الزركلي، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي، ت: ١٣٩٦هـ: الأعلام، دار العلم للملايين، ط١٥، ٢٠٠٢ م.
- ابن سعد، أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الهاشمي بالولاء، البصري، البغدادي ت: ٢٣٠هـ: الطبقات الكبرى تحقيق عبد العزيز عبد الله السلومي، مكتبة الصديق - الطائف، المملكة العربية السعودية ١٤١٦ هـ.
- السيوطي عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، ت: ٩١١هـ: حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية - عيسى البابي الحلبي وشركاه - مصر، ط١ ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م.
- السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، ت ٩١١هـ: تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي، تحقيق أبو قتيبة نظر محمد الفاريابي، دار طيبة.
- الشارعي، موفق الدين أبو محمد بن عبد الرحمن، ابن الشيخ أبي الحرم مكّي بن عثمان الشارعي الشافعي، ت ٦١٥هـ: مرشد الزوار إلى قبور الأبرار، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط١، ١٤١٥ هـ.
- الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله، ت ٧٦٤هـ: الوافي بالوفيات، تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث - بيروت، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.
- الطبري، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري، ت: ٣١٠هـ: تاريخ الطبري = تاريخ الرسل والملوك، وصلة تاريخ الطبري، تعريب عريب بن سعد القرطبي، ت: ٣٦٩هـ، دار التراث - بيروت، ط٢، ١٣٨٧ هـ، ٢٨٨/٤.

- عادل نويهض: معجم المفسرين «من صدر الإسلام وحتى العصر الحاضر»، قدم له: مُفتي الجمهورية اللبنانية الشَّيخ حسن خالد، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، بيروت - لبنان، ط٣، ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٨ م.
- ابن عبد الحكم، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله عبد الحكم بن أعين القرشي المصري: فتوح مصر وأخبارها، تحقيق: محمد الحجيري، دار الفكر - بيروت - ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.
- ابن عبد الحكم، عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم، أبو القاسم المصري ت ٢٥٧هـ: فتوح مصر والمغرب، مكتبة الثقافة الدينية، سنة، ١٤١٥ هـ.
- ابن العديم، عمر بن أحمد بن هبة الله بن أبي جرادة العقيلي، كمال الدين ابن العديم ت، ٦٦٠هـ: بغية الطلب في تاريخ حلب، تحقيق سهيل زكار، دار الفكر.
- ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر، ت ٥٧١هـ، تحقيق عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٥ هـ/١٩٩٥ م.
- القرطبي، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي ٤٦٣ هـ: الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت.
- ابن قطلويعا، زين الدين أبو العدل قاسم بن قطلويعا السوداني الجمالي الحنفي، ت ٨٧٩هـ: مسند عقبة بن عامر، مكتبة برلين بألمانيا الغربية.
- الكندي، أبو عمر محمد بن يوسف بن يعقوب الكندي المصري، ت: بعد ٣٥٥هـ: كتاب الولاية وكتاب القضاة للكندي، تحقيق: محمد حسن محمد حسن إسماعيل، وأحمد فريد المزدي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط١، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م.
- محمد بن عبد الرزاق بن محمد، كُرْد علي، ت ١٣٧٢: خطط الشام، مكتبة النوري، دمشق، ط٣ ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م.
- المسعودي أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي، ت ٣٤٦هـ: التنبيه

- والإشراف، تصحيح: عبد الله إسماعيل الصاوي، دار الصاوي - القاهرة.
- المقرئ أحمد بن علي بن عبد القادر، أبو العباس الحسيني العبيدي، تقي الدين المقرئ، ت ٨٤٥هـ: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، دار الكتب العلمية، بيروت ط١، ١٤١٨ هـ.
  - المقرئ، تقي الدين المقرئ، ت، ٨٤٥ هـ = ١٤٤٠ م: المقي الكبير، تحقيق محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت - لبنان، ط٢، ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م.
  - ناصر خسرو أبو معين الدين الحكيم القبادياني المروزي، ت: ٤٨١هـ: سفر نامه، تحقيق يحيى الخشاب، دار الكتاب الجديد - بيروت، ط٣، ١٩٨٣.
  - النووي، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (المتوفى: ٦٧٦هـ): التبيان في آداب حملة القرآن، تحقيق محمد الحجار، ط٣، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت - لبنان.
  - النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، دار الكتب العلمية - بيروت/لبنان - ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٤ م، ط١.
  - هجراني، أبو محمد الطيب بن عبد الله بن أحمد بن علي بامخرمة، الحضرمي الشافعي، ٨٧٠ - ٩٤٧ هـ، قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر، تحقيق بو جمعة مكري/خالد زواري، دار المنهاج - جدة، ط١، ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٨ م.
  - وادعي، مُقْبَلُ بْنُ هَادِي بْنِ مُقْبَلِ بْنِ قَائِدَةَ الْهَمْدَانِيِّ الْوَادِعِيِّ، ت ١٤٢٢هـ: تراجم رجال الدار قطني في سننه الذين لم يترجم لهم في التقريب ولا في رجال الحاكم، دار الآثار - صنعاء، ط١، ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م.
  - ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي ت: ٦٢٦هـ: معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ط٢، ١٩٩٥ م.
  - اليعقوبي، أحمد بن إسحاق (أبو يعقوب) بن جعفر بن وهب بن واضح اليعقوبي ت: بعد ٢٩٢هـ: البلدان، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٢ هـ.
- ثانياً المراجع:



- أحمد معمور العسيري: موجز التاريخ الإسلامي منذ عهد آدم عليه السلام (تاريخ ما قبل الإسلام) إلى عصرنا الحاضر ١٤١٧ هـ/ ٩٦ - ٩٧ م، الناشر: غير معروف (مكتبة الملك فهد الوطنية - الرياض)، ط١، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م.
- عبد الفتاح فتحي عبد الفتاح: التاريخ والمؤرخون في مصر والأندلس في القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي، دراسة تحليلية مقارنة، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ١٤٢٤ هـ/ ٢٠٠٤م.
- عبد المولى عبد الخالق: جهود المؤرخين المسيحيين في مصر الإسلامية من القرن الأول الهجري حتى القرن السابع الهجري (مصر ١٤٢١ هـ/ ٢٠٠١م)، ص ٢٢١؛ سيدة إسماعيل الكاشف: مصر في عصر الإخشيديين، ط١، الهيئة المصرية للكتاب مصر، ١٤١٧ هـ/ ١٩٩٧م.
- فؤاد سزكين: تاريخ التراث العربي، نقله إلى العربية: د محمود فهمي حجازي، راجعه: د عرفة مصطفى - د سعيد عبد الرحيم، أعاد صنع الفهارس: د عبد الفتاح محمد الطلو، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، عام النشر: ١٤١١ هـ - ١٩٩١ م.
- كارل بروكلمان: تاريخ الأدب العرب، تاريخ الأدب العربي، تحقيق عبد الحلیم النجار ورمضان عبد التواب، دار المعارف، ١٩٧٧ م، ط٥، ٨٥/٢.

## أبرز أعلام سيناء في العصور الوسطى

د/ وفاء إبراهيم العبد حميدو

مدرس تاريخ العصور الوسطى

بكلية الآداب - جامعة العريش

### الملخص :

لعب سكان سيناء في العصور الوسطى دوراً مهماً في تقدم الحضارة المصرية، وساهموا في علو شأن هذه المنطقة في تلك الحقبة التاريخية؛ إذ لمعت أسماء بعض الشخصيات التي كانت من أهالي سيناء نفسها، سواء في الفترة البيزنطية: كالأسقف ميلاس Melas أسقف مدينة رينوكورورا ، وشقيقه سولون Solon الذي خلفه في الأسقفية، أو بعض الشخصيات في الفترة الإسلامية: كالشاعر والفقير أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن الفتح العريشي من مدينة العريش، وكذلك أبو علي الحسين بن محمد بن هارون الفرعي من مدينة الفرما، وغيرهم من الشخصيات الواردة في هذا البحث.

هذا ولم يقتصر الدور الحضاري على أهالي سيناء فحسب، بل شمل من سكن وعاش في تلك البقعة الفسيحة، فبرزت أسماء بعض الشخصيات التي عاشت في سيناء، وساهمت بدور كبير في بروز مدن سيناء في تلك الفترة التاريخية، كالأسقف جريجوريوس Gregorios أسقف رينوكورورا، وكذلك الراهب أنسطاسيوس السينائي Anastasius of Sinai أحد رهبان دير سانت كاترين وغيرهما. لذا كان من الضروري تسليط الضوء على تلك الشخصيات، وإبراز أدوارهم العظيمة في تطور الحضارة المصرية، وهذا ما يسعى إليه هذا البحث.

### Abstract

#### Outstanding Figures in Sinai in the Middle Ages

In the Middle Ages. The inhabitants of the Sinai played an important role in the progress of the Egyptian civilization. Among these figures who were from the people of Sinai itself in the Byzantine period. Bishop Melas, Bishop of Rhinokoroura, and his brother Solon who succeeded him in the episcopate. Or

some personalities in the Islamic period such as the poet and jurist Abu Al- Abbas Ahmad Ibn Ibrahim Ibn Al-Fath Al-Arishi from the city of El- Arish, as well as Abu Ali Al-Hussein Ibn Muhammad Ibn Haroun Al-Farmi from the city of El-Farma.

The civilized role was not limited to the people of Sinai, but also included those who lived in this area. Like Bishop Gregorios, Bishop of Rhinokoroura , the monk Anastasius of Sinai, one of the monks of the Monastery of Saint Catherine, and others. It was necessary to shed light on these personalities, and to highlight their great roles in the development of Egyptian civilization.

### المقدمة:

لم تكن سيناء في العصور الوسطى مجرد صحراء جرداء تتخللها الوديان وتعتريها الجبال ويقطنها البدو الرُّحْل الذين غلب عليهم الجهل وقلة الحيلة، بل لعب سكانها دوراً مهماً في تقدم الحضارة الإنسانية، وأسهموا في علو شأن الشخصية المصرية في تلك الحقبة التاريخية بما قدموه من إسهاماتٍ أدبيةٍ وأدوارٍ حضاريةٍ؛ فلمعت أسماء بعض الشخصيات التي كانت من أهالي سيناء نفسها، وبعض الأعلام التي جاءت للسكن في سيناء، سواء في الفترة البيزنطية (٢٨٤-٦٤١م) أو في الفترة الإسلامية (٦٤١م-١٥١٧م/ ٢٠-٩٢٢هـ)، فأسهموا جميعاً بدورٍ كبير في بروز مدن سيناء في تلك الفترة التاريخية، وتركوا بصمة مؤثرة ودوراً لامعاً في الحضارة المصرية، وجعلوا لتلك المنطقة ذكراً بارزاً في التاريخ؛ لذا كان من الضروري تسليط الضوء على أبرز تلك الشخصيات، والكشف عن أدوارهم العظيمة في تطور الحضارة المصرية، وهذا ما يسعى إليه هذا البحث. ولم أتناول في هذا البحث الأعلام في الفترة البيزنطية فحسب، ولكن الأعلام في الفترة الإسلامية أيضاً؛ وذلك حتى أستطيع تقديم صورة متكاملة عن أبرز شخصيات سيناء خلال فترة العصور الوسطى

بأكملها، وأوضح كيف أن أبناء سيناء ظلوا يسهمون في تقدم العلم حتى العصر الإسلامي أيضاً وليس في العصر البيزنطي فحسب.

وقد تناولت البحث في محورين أساسيين؛ أولهما: أبرز الأعلام من أهالي سيناء في العصرين البيزنطي والإسلامي، والذين هم من أهالي المنطقة نفسها، ورتبتهم حسب الترتيب الزمني والمكاني، بدءاً من شرق سيناء إلى غربها - وذلك لعدم توافر شخصيات من جنوب سيناء فيما اطلعت عليه من مصادر-، ثم تناولت أبرز الأعلام من سكان سيناء في العصرين البيزنطي والإسلامي، وهم الذين جاءوا من مناطق أخرى وسكنوا سيناء، ورتبتهم أيضاً حسب الترتيب الزمني والمكاني، بدءاً من الشمال إلى الجنوب.

وقبل الخوض في الحديث عن أبرز أعلام سيناء، يجب التنويه إلى الوضع الإداري لشبه جزيرة سيناء خلال فترة العصور الوسطى، وهي التي كانت تمثل حلقة الوصل بين مصر وشبه الجزيرة العربية وفلسطين وسوريا، وكان وضعها في الفترة البيزنطية مختلفاً عنه في الفترة الإسلامية، ففي العصر البيزنطي كانت شبه جزيرة سيناء منقسمة إدارياً إلى منطقتين: منطقة الساحل الشمالي من رينوكورورا Rhinokorura (العريش) حتى بيلوزيوم Pelusium (الفرما الحالية)، والتي كانت تتبع ولاية مصر، ومنطقة وسط وجنوب سيناء وجزء صغير من الساحل يضم مدينتي رافيا Raphia (رفح الحالية) وبيبليون Bitylion (الشيخ زويد الحالية)، وكانت تتبع إدارياً ولاية فلسطين<sup>(1)</sup>، في حين كانت سيناء

---

(1) Hieroclis, Synecdemvs Et Notitlae Graecae Episcopatum, ed. G. Parthey , Berolini,1866 p.48;Georgii Cyprii, Descriptio Orbis Romani, ed.H. Gelzer, Lipsiae,1790, pp.35,51-2.

Cf.also, Herbert Verreth, The Northern Sinai From The 7th Century BC Till The7th Century AD.A Guide to The Sources , 2vols. , Leuven, 2006, vol.1, pp.67-8.

انظر أيضاً: محمد زايد عبد الله: سيناء مقصدًا للهاربين والحجاج خلال العصر البيزنطي (٢٨٤-٦٣٩م)، مجلة المؤرخ المصري، عدد ٤٢، يناير ٢٠١٣، (ص١٧٧-٢٣٨)، ص ١٧٩.

- عن موقع مدن سيناء، انظر خريطة سيناء في العصر البيزنطي في آخر البحث.

في العصر الإسلامي بأكملها أو ما عدا رفح تتبع مصر الإسلامية<sup>(١)</sup>، وعلى الرغم من أن أغلب مدن شبه جزيرة سيناء كانت صغيرة الحجم، ومتباعدة عن بعضها البعض بمسافات تتخللها الرمال والجبال سواء في العصر البيزنطي أو الإسلامي، ومنقسمة بين ولايتين في العصر البيزنطي (ولاية مصر وولاية فلسطين)، إلا إن أهلها وسكانها كانوا بقدر الإمكان منفتحين على العالم الخارجي، ومشاركين فيما يجري حولهم من أحداث.

#### ١- أبرز الأعلام من أهالي سيناء في العصور البيزنطية والإسلامية:

لقد برزت أسماء بعض أهالي سيناء خلال الفترة البيزنطية والإسلامية ولعبوا دوراً مهماً لصالح مدنهم ومنطقتهم<sup>(٢)</sup>، ففي الفترة البيزنطية ظهر بعض الرهبان في مدينة رينوكورورا وعملوا على شهرة المدينة على حد قول المؤرخ سوزومين Sozomen ، الذي أضاف أنهم لم يكونوا من خارج المدينة، ولكنهم كانوا من أهلها، ومن أشهرهم الأسقف ميلاس Melas أسقف المدينة<sup>(٣)</sup>، الذي ترهب في شبابه، ونال قدرًا كافيًا من العلم والفلسفة، وكان يتحلى بالعديد من الصفات الحسنة كالتواضع وحسن إكرام الضيف<sup>(٤)</sup>، كما كان شديد

---

(١) ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٥، دار صادر، بيروت، ج٥، ص١٣٩؛ الفلقشندي: صبح الأعيان في صناعة الإنشاء، ج١٥، تحقيق محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ج٣، ص٣٤٧-٣٤٩؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج١٧، تحقيق محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ج١، ص٤٨.  
انظر أيضًا: حسين مؤنس: أطلس الإسلام، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ١٩٧٨، ص٣٢٤.

(٢) انظر قائمة أبرز أعلام سيناء في العصور الوسطى في الملحق آخر البحث.

(3) Sozomenus, Church History from 323-425, in Nicene and Post-Nicene Fathers: Second Series Socrates, Sozomenus Church Histories, Tras. C. Hartranft, 14 vols., ed. Philip Schaff, New York, 2017, vol. 2, p. 369 ; Sozomen, The Ecclesiastical History of Sozomen , tr. E. Walford, London, 1855, p.296.

Cf. also, Herbert Verreth, Northern Sinai, p.288-90; lina Eckenstein , A History of Sinai, Reprint,Cambridge University Press, Cambridge, 2018 , p. 100.

(4) Sozomenus, Church History , p. 369; Sozomen, Ecclesiastical, p.297.

التمسك والافتتاع بالمذهب الأثناسيوسي، فعندما صدر مرسوم الإمبراطور قائلن Valens (٣٦٤ - ٣٧٨م) في عام ٣٦٥م بطرد جميع الأساقفة المعارضين للأريوسية، أرسل بعض الجنود للقبض على ميلاس، وعندما وصلوا إلى المدينة، قابلوا ميلاس الذي كان منشغل بتصليح أحد المصابيح، وكان يرتدي ملابس بسيطة لا تدل على أنه أسقف المدينة؛ فلم يعرفوه، ولم يكن هو الآخر يعرفهم أو يعرف الهدف الذي جاءوا من أجله؛ فاستقبلهم أحسن استقبال، وأكرمهم في دار الأسقفية، وقدم لهم الطعام والشراب بنفسه، وإن دل ذلك على شيء، فإنما يدل على مدى كرمه وتواضعه، ومعرفته التامة لصعوبة الطريق الذي سلكه ليصلوا إلى رينوكورورا، وأنهم في أمس الحاجة إلى الراحة والطعام، ولم يلبث أن عرف الجنود أن هذا الرجل المتواضع هو الأسقف الذين جاءوا للقبض عليه، فعرضوا عليه الهرب؛ تجنباً للنفى، وإكراماً لحسن ضيافته لهم، إلا إنه رفض أن يهرب من الآلام التي سيعانيها الأساقفة الآخرون، فتعرض لما تعرضوا له<sup>(١)</sup>.

وقد خلف ميلاس في الأسقفية شقيقه سولون Solon الذي كان يعمل بالتجارة في شبابه، ولكن بإرشاد وتوجيه من أخيه ميلاس أقنعه بترك العمل التجاري وتبني الحياة الرهبانية<sup>(٢)</sup>، وبذا كان لميلاس تأثير قوي على شقيقه، وفي الوقت نفسه دل ذلك على الترابط الأخوي بينهما. كما اشتهر أيضاً في رينوكورورا ديونيسيوس Dionysius الذي ترأس

(1) Sozomen, Ecclesiastical, pp.296-7.

Cf. also, Herbert Verreth, Northern Sinai, p.288-90; lina Eckenstein , A history, p. 100.

- يرجع المذهب الأثناسيوسي إلى أسقف الإسكندرية أثناسيوس الذي رفع السيد المسيح إلى مصاف الإله الأب، وجعله مساوي له في كل شيء، في حين كان المذهب الأريوسي يرجع إلى كاهن الإسكندرية أريوس، الذي أنكر ألوهية السيد المسيح، وأنزله إلى مرتبة البشر، للمزيد عن الاختلافات بين المذهبين انظر:

محمد مرسي الشيخ: تاريخ مصر البيزنطية، ١٩٩٩، ص ٤٦-٧.

(2) Sozomenus, Church History , p. 369; Sozomen, Ecclesiastical, pp. 296-97.

دير المدينة الذي يقع شمال رينوكورورا، وذلك في بدايات القرن الرابع الميلادي، وقد ذكره المؤرخ سوزمين ضمن أكثر الفلاسفة البارزين في مدينة رينوكورورا<sup>(١)</sup>.

كما شغل بعض أهالي سيناء مناصب مهمة في مصر، كهيراكليون Heraklion الذي تقلد منصباً سياسياً كبيراً في الإدارة البيزنطية في بداية القرن الخامس الميلادي، وهو من مدينة رينوكورورا، ولكنه لم يظل متفوقاً فيها، بل استطاع ببراعته وحنكته أن يصل إلى منصب سياسي عالٍ خارج مدينته، ورغم ابتعاده عن رينوكورورا إلا إنه ظل منتمياً إليها، متابعاً لأخبارها، متردداً عليها، فلما زارها في أحد الأيام وعرف بموت أسقفها، رغب بأن يتولى أسقفيتها أشهر الشخصيات وأكثرها علماً وحكمة؛ فوقع اختياره على بوليبيوس الشهير Polybios، بعدما سمع أنه تتلمذ على يد الأسقف أيفانيوس العظيم Epiphanius أسقف سلاميس في قبرص قبل عام ٤٠٣م، ورغم رفض بوليبيوس الذهاب إلى هناك، إلا إن هيراكليون أجبره على ذلك؛ إذ دفع جنوده إلى أخذه بالقوة على ظهر أحد الجمال، مما دفع بوليبيوس إلى الرضوخ في النهاية لأوامر هيراكليون<sup>(٢)</sup>.

وهناك أيضاً شخصية الراهب والعالم إيسيدور البيلوزي Isidore of Pelusium، الذي لمع اسمه في النصف الثاني من القرن الرابع الميلادي وأوائل القرن الخامس الميلادي، وأغلب معلوماتنا عنه مستمدة من الإشارات التي أظهرها في رسائله الباقية، ويعتقد البعض

---

(1) Sozomenus, Church History , p. 369; Sozomen, Ecclesiastical, pp. 296.

(2) Polybii Episcopi Rhinocorurorum, Vita Sancti Epiphani, ed, Migne, in P.L.,vol. 41,1863,(cols. 37-114),col.112.

Cf. also ,Herbert Verreth, Northern Sinai, vol.1, pp. 293-4.

- ايفانيوس ولد في فلسطين ما بين سنة ٣١٠-٣٢٠م، كان والداه يهوديين، ثم اعتنقا المسيحية، وقد أرسل في صغره إلى مصر؛ ليتعلم بها على يد رهبانها، ثم عاد إلى فلسطين، وأسس ديراً، وتولى رئاسته، ثم سافر إلى قبرص وتولى أسقفية سلاميس عام ٣٦٦م. للمزيد انظر:.

Epiphanius of Salamis, The Panarion of Epiphanius of Salamis Book I (Sects 1-46), trans . F. Williams, 2<sup>nd</sup>, Brill, Leiden, 2009, PP. XIV-XV.

أنه من مواليد مدينة بيلوزيوم (الفرما)، على أساس أنه كان كاهنًا لكنيستها يومًا ما<sup>(١)</sup>، والبعض الآخر يرى أنه من الإسكندرية، بناءً على تلقية العلم فيها<sup>(٢)</sup>، ولا يوجد ما يؤكد أي الرأيين أو ينفيهما. وأنه ربما ولد فيما بين سنة ٣٥٥ - ٣٦٠م<sup>(٣)</sup>، وتلقى تعليمًا عاليًا في الإسكندرية؛ إذ درس الفلسفة اليونانية والبلاغة والأدب الكلاسيكي - وهذا ما يظهر في رسائله التي توضح سعة اطلاعه على الفلاسفة والشعراء اليونانيين - ، فعينه مجلس مدينة الإسكندرية معلمًا للطلاب، فتعلم على يده الكثيرين منهم<sup>(٤)</sup>، وظل إيسيدور البيلوزي يقوم بتلك المهمة على الأوجه الأكمل، حتى أدرك أن دوره كمسيحي مخلص، يتعارض مع ما

---

(<sup>١</sup>) Lillian Larsen, "The Letter Collection of Isidore of Pelusium" , in Late Antique Letter Collections: A Critical Introduction and Reference Guide, ed. C. sogno , B. Storin & E. Watts, University of California Press, 2017, ( pp.286-308 ), p.288; Madalina Toca & Johar Leemans , "The Authority of a 'Quasi-Bishop: Patronage and Networks in the Letters of Isidore of Pelusium", in Episcopal Networks in Late Antiquity: Connection and Communication Across Boundaries, ed. C. Cvetkovic and P. Gemeinhardt, Berlin, 2019, p.83.

(<sup>٢</sup>) David T. Runia, Philo and the Church Fathers: A Collection of Papers, Brill, Leiden, 1995, p. 155; Στυλιανός Γ. Βαγιανός, Παιδαγωγικές και ανθρωπαγωγικές αντιλήψεις του Ισιδώρου Πηλουσιώτη: συμβολή στην ιστορία της παιδαγωγικής , διδακτορικών διατριβών, Πανεπιστήμιο Αθηνών, Αθήνα, 2005, p.18.

(<sup>٣</sup>) Lillian Larsen, Letter Collection of Isidore, p.288 ; Madalina Toca & Johar Leemans , Authority of a 'Quasi-Bishop, p.83.

(<sup>٤</sup>) مخطوط السنكسار القبطي اليعقوبي، تعليق ميخائيل مكسي إسكندر، هارموني للطباعة، ص ٢٦٠، انظر أيضًا:

David T. Runia, Philo and the Church Fathers, p. 156; Στυλιανός Γ. Βαγιανός, Παιδαγωγικές, p.23 ; Madalina Toca & Johar Leemans , "The Authority of a 'Quasi-Bishop, p.83; Frank R. Trombley, Hellenic Religion and Christianization: C. 370-529, 2vols., 2nd, Brill Academic Publishers, Boston , 2001, vol.2, p.241.



يلقيه للطلاب في محاضراته من أفكار فلسفية وثنية، فقرر اللجوء إلى الصحراء في نيتريا Nitria عند وادي النظرون والترهين هناك لبعض الوقت<sup>(١)</sup>.  
لم يظل إيسيدور في نيتريا طويلاً؛ إذ ما لبث أن عاد إلى الحياة العامة وأصبح كاهناً لكنيسة بيلوزيوم على أيدي الأسقف عمونيوس Ammonius أسقف بيلوزيوم الذي ربما أقنعه بترك الصحراء والتوجه للمدينة بعدما أعجب بعلمه وحكمته وطالبه باستغلال ذلك في خدمة كنيسة بيلوزيوم والعمل على تفسير الكتاب المقدس، وخلال تلك الفترة عكف إيسيدور على خدمة كنيسة المدينة بكل ما أوتي من قوة، وفي الوقت نفسه استطاع أن يوثق علاقته بسكان المدينة ويعمق هويته بالمدينة وكنيستها<sup>(٢)</sup>، ولكن لم يلبث أن تغير الموقف برمته بعدما تولى يوسيبوس Eusebius الأسقفية خلفاً لعمونيوس في ٤٠٨م، إذ أدار شؤون كنيسة بيلوزيوم بشكل خاطئ، الأمر الذي لم يرتضيه إيسيدور؛ إذ أبى أن يظل خاضعاً لزعامة يوسيبوس<sup>(٣)</sup>، فقرر التراجع إلى الصحراء والترهين في دير يقع شرق بيلوزيوم بالقرب من مدينة أفنايوم Aphnaeum<sup>(٤)</sup>.

ولعل إيسيدور لم يغادر بيلوزيوم ببساطة لمجرد عدم رضائه عن أفعال أسقفها، فهو ليس بالشخصية السلبية التي تسكت عن الخطأ، وتغض الطرف عنه وتتسحب مسرعة، ولعله واجه يوسيبوس أكثر من مرة بأفعاله الخاطئة، وحاول أن يثنيه مرات عدة عن تلك الأفعال، ويقنعه بحسن إدارة كنيسة بيلوزيوم، ولكنه عندما لم يجد استجابة من يوسيبوس،

(١) Lillian Larsen, Letter Collection, p.288.

يسطس الأورشليمي: الرهينة القبطية وآثارها الدينية في شبه جزيرة سيناء، أي برنت، الجيزة، ٢٠١٧، ص ٨١.

(٢) Madalina Toca & Johar Leemans , Authority of a "Quasi-Bishop", p.84.

(٣) Lillian Larsen, Letter Collection, p.288; Madalina Toca & Johar Leemans , Authority of a 'Quasi-Bishop', p.84.

(٤) Στυλιανός Γ. Βαγιανός, Παιδαγωγικές και ανθρωπογωγικές , p. 25; Lillian Larsen, Letter Collection, p.288.

- تقع مدينة أفنايوم على ساحل البحر المتوسط، في شمال شبه جزيرة سيناء ما بين مدينتي جيرل وبيلازوم، عن موقع المدينة انظر الخريطة في آخر البحث.

فوجد حينها أن الحل الأفضل هو مغادرة المدينة وكنيستها بدلاً من أن يظل خاضعاً لزعامه يوسيبوس. وقد ظل إيسيدور في دير أفنايوم حتى وفاته ما بين سنة ٤٣٥-٤٥٠م<sup>(١)</sup>. وعلى الرغم من انزواء إيسيدور إلى الصحراء إلا إن ذلك لم يجعله منعزلاً عما يجري حوله من أحداث، بل كان على اطلاع على تلك الأحداث من خلال شبكة علاقاته بسكان بيلوزيوم على وجه الخصوص ومصر على وجه العموم، سواء من الكهنة والرهبان والمسؤولين المدنيين والعامّة الذين ظلوا يترددون عليه في خلوته، ويراسلونه؛ ليحصلوا على مشورته، ويشكوا إليه أوضاعهم ومشاكلهم<sup>(٢)</sup>.

وكان إيسيدور لا يبخل على أحد من مراسليه وزائريه في الرد على استفساراتهم وتساولاتهم، وفي الوقت نفسه التدخل لإيجاد حلول لمشاكلهم لدى السلطات العليا في القسطنطينية. وقد ترك إيسيدور البيلوزي قرابة ألفي رسالة باليونانية<sup>(٣)</sup>، نصفها أرسلها إلى شخصيات دينية في مصر، وأكثر من خمسمائة رسالة إلى المسؤولين الإمبراطوريين والمحليين<sup>(٤)</sup>، وأغلب تلك الرسائل كانت مقتضبة للغاية، وتفتقر لكثير من المعلومات التاريخية الدقيقة، فالكثير من السياق التاريخي بين إيسيدور والمرسل إليهم لا يتم تفسيره في الرسالة، على أساس أن الشخصين يعرفان الحدث الذي بناء عليه يوجه إيسيدور رسالته<sup>(٥)</sup>، ورغم ذلك، فإن هذا لا يقلل من أهمية تلك الرسائل

---

(١) David T. Runia, Philo and the Church Fathers, p.156 ; Lillian Larsen, Letter Collection of Isidore, p.288; Madalina Toca & Johar Leemans , Authority of a 'Quasi-Bishop, p.84 .

(٢) David T. Runia, Philo and the Church Fathers, p.155 ; Στυλιανός Γ. Βαγιανός, Παιδαγωγικές, p.26 ; Madalina Toca & Johar Leemans , Authority of a 'Quasi-Bishop', pp.84-5 .

(٣) David T. Runia, Philo and the Church Fathers, p.155 ; Madalina Toca & Johar Leemans , Authority of a 'Quasi-Bishop, p.83.

يسطس الأورشليمي: الرهينة القبطية، ص ٨١.

(٤) Lillian Larsen, Letter Collection of Isidore, p.290.

(٥) Madalina Toca & Johar Leemans , Authority of a 'Quasi-Bishop, p.85.

التي كشفت الستار عن الدور المحوري الذي لعبه إيسيدور، وقد تم جمع تلك الرسائل وحفظها من قبل تلاميذه في الدير الذي أقام فيه بقية حياته<sup>(١)</sup>.

وقد حظيت رسائل إيسيدور البيلوزي على اهتمام كبير؛ إذ ترجم بعضها في القرن السادس الميلادي إلى اللاتينية<sup>(٢)</sup>، في حين نال صاحبها شهرة كبيرة، فقد وصفه البطريرك سفيروس Severus of Antioch بطريرك أنطاكية (٥١٢-٥١٨م) بـ " المنبر اللامع الذي بدأ سلامًا لصالح بيلوزيوم"<sup>(٣)</sup>، وقال عنه المؤرخ الكنسي إيفاجريوس Evagrius (في النصف الثاني من القرن السادس الميلادي): "كانت شهرته واسعة الانتشار... وكان شهيرًا بين الجميع بالأفعال والكلمات... لقد كتب العديد من الأشياء الأخرى المليئة بكل فائدة..."<sup>(٤)</sup>، كما ووصفه البطريرك فوتيوس Photius بطريرك القسطنطينية (٨٥٨-٨٦٧م) بأنه أحد أساتذة المعرفة المسيحية القديمة، وأنه نموذج للحياة الكهنوتية والرهبانية<sup>(٥)</sup>.

ويتضح لنا من خلال رسائل إيسيدور الدور النشط الذي لعبه لمساعدة أهالي مصر بوجه عام وبيلوزيوم بوجه خاص؛ فعندما اشتكى إليه البعض من كثرة الضرائب المفروضة عليهم؛ مما جعلهم يفرون إلى الصحراء هرباً من هذا العبء غير المحتمل، سارع بكل شجاعة وجرأة إلى إرسال رسالة إلى الإمبراطور ثيودسيوس الثاني Theodosius II (٤٠٢-٤٥٠م) نفسه يطالبه بتخفيف هذا العبء عن كاهل المصريين، وينصحه بعدم إساءة استخدام السلطة. ويلاحظ استخدام إيسيدور عبارات دينية؛ لإعطاء قوة لحجته، ولإقناع الإمبراطور بشكل مؤثر وفعال. كما أرسل رسالة أخرى إلى الإمبراطور سنة ٤٣١م يطالبه

(١) Lillian Larsen, Letter Collection of Isidore, p.296.

(٢) David T. Runia, Philo and the Church Fathers, p. 156.

(٣) Severus Patriarch of Antioch, The Sixth Book of the Select Letters of Severus Patriarch of Antioch in the Syriac Version of Athanasius of Nisibis, 2vols. trans. E. Brooks, Oxford, 1903, vol.2, part1, p.150.

(٤) Evagrius, The Ecclesiastical History of Evagrius Scholasticus, Trans. M.Whitby, Liverpool University Press, Liverpool, 2000, p.41.

(٥) David T. Runia, Philo and the Church Fathers, p. 156.

فيها بإجبار مرؤوسيه بعدم التدخل في شئون كنيسة إفسوس Ephesus، ويطلب منه بأن يحضر بنفسه جلسات مجمع إفسوس الأول سنة ٤٣١م؛ ليحافظ على السلام والنظام، ويمنع تصاعد حدة الخلافات بين الطرفين المتناهسين، قائلاً له: إذا أتيحت لك الفرصة لحضور المداولات في إفسوس فأنا أعلم أنه لن يكون هناك لوم لك من جانبهم، ولكن إذا تخلّيت عن الحضور... فمن سيحرر المجمع من الحماقات" (١).

وعلى الرغم من عدم حضور الإمبراطور للمجمع، إلا إن ذلك لا يعني أنه لم يستمع لطلب إيسيدور، بل لعله وافق على بعض مطالبه؛ عندما أمر المستول Candidianus الذي أرسله لحضور المجمع بعدم التدخل في المناقشات والاكتفاء بحفظ النظام والسلام داخل المجمع (٢).

وتأتي مخاطبة إيسيدور للإمبراطور ثيودسيوس الثاني مباشرة لدليل على المكانة الدينية التي وصل إليها إيسيدور، والتي أهلتها، لأن يخاطب الإمبراطور مباشرة، ولعل إيسيدور كان على اقتناع بأن الإمبراطور سوف يقرأ رسالتيه، ويستمع إلى ما جاء فيهما، ويتصرف وفقاً

---

(١) Isidori Pelusiotae, Sancti Isidori Pelusiotae de interpretatione divina Scriptura. Epistolarum, ed. Auctior et Emendatior, Venetiis ,1745, Ep. 35,p.7, Ep.311, p.56 .

Cf. also, Pierre Évieux, Isidore de Péluse , Beauchesne, Paris, 1995, p.47; Nicolas Laos, The Metaphysics of World Order: A Synthesis of Philosophy, Theology, and Politics, Pickwick Publications, Eugene, 2015, pp.201-02; Madalina Toca & Johar Leemans , Authority of a 'Quasi-Bishop, pp.91-2.

- مجمع إفسوس الأول : أمر الإمبراطور ثيودسيوس الثاني بعقدته سنة ٤٣١م ؛ لمناقشة آراء نسطور بطريرك القسطنطينية القائلة بأن السيدة مريم العذراء هي والدة المسيح وليس أم الإله، إذ انقسم الأساقفة في الشرق والغرب بين مؤيد لآراء نسطور ورافض لها، وقد توصل المجمع إلى إدانة آراء نسطور، واتهامه بالزندقة. للمزيد انظر:

مجموعة الشرع الكنسي أو قوانين الكنيسة المسيحية الجامعة التي وضعها المجمع المسكونية والمكانية المقدسة، ترجمة حنانيا الياس كساب، ط٢، مطبعة النور، بيروت، ١٩٩٨، ص٢٨٨ وما بعدها.

(٢) Pierre Évieux, Isidore de Péluse, p.47.

لهما على أقصى تقدير، أو إنه إن لم يلبَّ ما جاء بهما، فعلى الأقل يكون إيسيدور قد أدى دوره في عدم السكوت عما يراه خطأً.

وكذلك أرسل إيسيدور رسالتين إلى اثنين من المسؤولين في القصر الإمبراطوري، يعترض فيهما على تعيين جيجانتيوس Gigantius في إدارة شؤون مقاطعة أوغسطامنيكا الأولى Augustaminca ، ويحاول أن يقنعهما بأنه لا بد من معاقبة جيجانتيوس جراء أفعاله الآثمة السابقة في بيلوزيوم بدلاً من تعيينه<sup>(1)</sup>؛ إذ كان الأخير على حسب ما ذكره إيسيدور قد نهب أموال مواطني بيلوزيوم، واستولى على الأموال التي أرسلت للفقراء في المدينة، وهاجم الكنيسة وتدخل في شئونها، ودفعت تجاوزاته بعض المواطنين إلى الخروج خارج المدينة للبحث عن عمل في أماكن أخرى<sup>(2)</sup>؛ وتأتي مخاطبة إيسيدور لهؤلاء المسؤولين في محاولة منه لجعل تلك الشخصيات تستخدم كل نفوذها لدى الإمبراطور وضمن الأوساط السياسية العليا لتجنب عودة جيجانتيوس إلى بيلوزيوم، وبذا يحاول إيسيدور - بقدر الإمكان - أن يستخدم صلاته وعلاقاته الاجتماعية لخدمة بيلوزيوم وسكانها<sup>(3)</sup>.

---

(1) Isidori Pelusiotae, Epistolarum, Ep.484,486, p.83 .

Cf. also, Pierre Éviex, Isidore de Péluse, pp.51,95.

- جيجانتيوس هو من مواليد كابدوكيا Cappadocia ، وتولى لبعض الوقت إدارة شؤون مدينة بيلوزيوم، وأساء استخدام سلطته فيها، ثم غادرها إلى القسطنطينية ربما بعد غضب أهل المدينة عليه. انظر: Madalina Toca, "Isidore of Pelusium's Letters to Didymus the Blind", in Studia Patristica vol.XCVI Papers presented at the Seventeenth International Conference on Patristic Studies held in Oxford 2015, ed. M. Vinzent, Peeters, Leuven , 2017,( pp.325-332), p.329.

- مقاطعة أوغسطامنيكا الأولى هي إحدى المقاطعات المصرية التي اشتملت على جزء من شرق الدلتا وساحل سيناء الشمالي بدءاً من رينوكورورا، وضمت ثلاث عشرة مدينة، للمزيد انظر: Hieroclis , Notitlae Graecae, p.47.

Cf. also, Herbert Verreth, Northern Sinai, pp.65,300.

(2) Isidori Pelusiotae, Epistolarum, Ep.487, p.84 .

(3) Madalina Toca & Johar Leemans , Authority of a 'Quasi-Bishop, p.90 .

ولم يقف دور إيسيدور على هذا فحسب، بل لعب دور الوسيط للأفراد الذين اتصلوا به، وطالبوه بالتوسط لحل مشاكلهم، ففي أثناء وجوده في بيلوزيوم ككاهن، أرسل إليه شخص يُدعى بونوس Bonus يشتكي إليه أنه كان يعمل مع الحكومة في نقل الحبوب إلى القسطنطينية، وقد تعرضت سفينته المحملة بتلك الحبوب للرياح العاتية في البحر، فغرقت بكل حمولتها، مما كلفه خسائر فادحة؛ إذ كان عليه أن يسدّد قيمة الحبوب المفقودة للخزانة العامة، ناهيك عن خسارة سفينته، وما قد ينجم عن عدم تعاون الحكومة معه فيما بعد، مما يعرض أعماله المستقبلية للخطر، ولم يأل إيسيدور جهداً في تقديم المساعدة لبونوس، فكتب رسالتين إلى مسئولين في الإسكندرية، أحدهما يدعى إيسيدور، ولعله كان المسئول عن إمدادات الحبوب للقسطنطينية، يطالبه بإعفاء بونوس من دفع قيمة الحبوب المفقودة، ويوضح له أن غرق السفينة ليس ذنب بونوس وأنه لم يتعمد ذلك، ولكن أهوال البحر هي السبب، والرسالة الثانية أرسلها إلى شخص يدعى سوزومين Sozomen المساعد، يسأله عما إذا كان قد سمع من المسئول إيسيدور عن المشكلة مع بونوس، ويحدثه بأسلوب ديني للتدخل لحل ذلك، وهذا معناه أن إيسيدور البيلوزي لم يكتفِ برسالته لإيسيدور المسئول، ولكن عندما لم تُحل المشكلة أرسل رسالة أخرى لغيره، على أمل أن يتدخل لحلها<sup>(1)</sup>.

هذا وقد كان إيسيدور يرى أنه تقع على عاتقه مسئولية كبيرة في إصلاح سلوك العديد من الشخصيات المعاصرة له، وأنه من الواجب عليه تقديم النصح والإرشاد لهم، حتى لو وصل ذلك إلى حد تعنيفهم ليثنيهم عن تلك السلوكيات، فعندما سمع بالسلوكيات السيئة لخصي القصر الإمبراطوري ويدعى فاريسمانوس Pharismanios، أرسل إليه يخاطبه بكل جرأة دون خوف، ويعاتبه على سلوكه ويصفه بأنه رجل جشع، وأن حياته لا تتفق مع الكتاب المقدس الذي يدعي أنه يعرفه، وأن عليه أن يقرأ ليفهم وليُعدل من سلوكه<sup>(2)</sup>.

---

(1) Isidori Pelusiotae, Epistolarum, Eps.299,300, p.54.

Cf. also, Madalina Toca & Johar Leemans , Authority of a 'Quasi-Bishop', p.88.

(2) Isidori Pelusiotae, Epistolarum, Ep.27, p.6 .

Cf. also, Pierre Évieux, Isidore de Pélus, p.95.

وهنا يُرى إلى أي مدى كان إيسيدور البيلوزي على استعداد للذهاب للدفاع عن مصلحة أبناء بلده، سواء في أثناء وجوده في بيلوزيوم، أو بعد ذلك في الدير الذي يقع شرقها ، وإلى أي مدى أدى دورًا نشطًا في حماية مصالح المظلومين وتقويم سلوك الخاطئين<sup>(١)</sup>. وبالتالي فلم يكن إيسيدور البيلوزي مجرد راهب عاش في صحراء سيناء، بل كان مدافعًا قويًا عن مصالح الكنيسة والمجتمع في مصر، وفي الوقت نفسه كان معلمًا حكيمًا لكثير من تلاميذه، ومفسرًا بليغًا للكتاب المقدس، ومراقبًا جيدًا لكل ما يجري من حوله من أحداث سواء في مصر أو القسطنطينية، وناقداً جريئًا لكثير من الشخصيات الكنسية التي أصابها التدهور الأخلاقي.

هذا عن أبرز شخصيات أهالي سيناء في العصر البيزنطي، أما في العصر الإسلامي فقد اشتهرت عدة شخصيات من مدينة الفرما، وحفظت المصادر الإسلامية أسمائهم، ومنهم: أبو الحسين بن محمد بن هارون بن يحيى بن يزيد الفرمي، الذي كان من موالي آل شرحبيل ابن حسنة في مصر<sup>(٢)</sup>، وقد حدث أبو الحسين الفرمي عن كبار الفقهاء والرواة في مصر كالإمام الفقيه أبي ركزيا يحيى بن أيوب العلاف، والحسن بن غليب الأزدي<sup>(٣)</sup>

(١) Madalina Toca & Johar Leemans , Authority of a 'Quasi-Bishop', p.90 .

(٢) شرحبيل ابن حسنة هو شرحبيل بن عبد الله بن المطاع، وأمه حسنة، وهو من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأحد أمراء الأجناد الذين وجههم الخليفة أبو بكر الصديق (١١-١٣هـ/ ٦٣٢-٦٣٤م) لفتح بلاد الشام، وسكن دمشق، ومات سنة ١٨ هـ/٦٣٩م عن عمر يناهز ٦٧ سنة، للمزيد انظر:

ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق، ٣٧ج، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ج ١٣ ، ص ٤٥-٦٥.

(٣) أبو ركزيا يحيى بن أيوب العلاف هو أحد فقهاء مصر، تجاوز التسعين عامًا، وتوفي في سنة ٢٨٩هـ/ ٩٠٢م، قال عنه الذهبي: "الإمام؛ المحدث، الحجة، الفقيه... فقيه أهل مصر". انظر:الذهبي: سير أعلام النبلاء، ١٧ج، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ج ٩، ص ٢٤٩. -أما الحسن بن غليب الأزدي عاش بمصر، وهو من الرواة من أهل الثقة، وتوفي في ذي الحجة سنة ٢٩٠هـ/ ٩٠٣م، انظر: الذهبي: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، ١٧ج، تحقيق بشار عواد معروف، ط ١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ٢٠٠٣، ج ٦، ص ٧٣٨.

وغيرهما، وقيل عنه إنه: "نعم الرجل" من أهل ثقة، وتوفي في ذي القعدة سنة ٣٤٣هـ / ٩٥٥م<sup>(١)</sup>.

ومن أهل الفرما أيضًا أبو حفص عمر بن يعقوب بن زريق الفرماوي، قيل عنه إنه روى الحديث عن بكر بن سهل الدمياطي، وروى عنه أبو بكر أحمد بن محمد بن عبدوس النسوي<sup>(٢)</sup>، ويذكر أن الأخير سمع منه الحديث وهو بمدينة الفرما<sup>(٣)</sup> فلعل أبا حفص الفرماوي ظل مقيمًا بالفرما، وفي الوقت نفسه تردد على دمياط، وحينها سمع من بكر بن سهل الدمياطي، وقد عاش أبو حفص الفرماوي خلال أواخر القرن الثالث الهجري وبدايات القرن الرابع الهجري/ القرن العاشر الميلادي؛ وذلك على أساس أنه كان معاصرًا لشيوخه بكر بن سهل الدمياطي، الذي توفي في ربيع أول ٢٨٧هـ / ٩٠٠م<sup>(٤)</sup>، وفي الوقت نفسه سمع منه أبو بكر أحمد النسوي الحديث، والذي توفي في ٣٩٦هـ / ١٠٠٥-١٠٠٦م<sup>(٥)</sup>.

(١) ابن ماكولا: الإكمال في رفع الالتياب عن المؤلف والمختلف في الأسماء والكنى والأنساب، ج٧، تحقيق، دار الكتب العلمية، بيروت، ج٧، ص ٦٩؛ السمعاني: الأنساب، ج١٢، تحقيق عبد الله عمر البارودي، ط١، دار الجنان، بيروت، ١٩٨٨، ج٤، ص ٣٧١؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٤، ص ٢٥٥؛ ابن الأثير: اللباب في تهذيب الأنساب، ج٢، تحقيق عبد اللطيف حسن عبد الرحمن، دار الكتب العلمية، بيروت، ج٢، ص ١٧٢؛ ابن ناصر الدين الدمشقي: توضيح المشتبه في ضبط أسماء الرواة وأنسابهم وألقابهم وكناهم، ج ١٠، تحقيق محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، ج ٤، ص ٣٥٦؛ المقرئ: كتاب المقفى الكبير، ج٨، تحقيق محمد اليعلاوي، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩١، ج٣، ص ٣٤٥.

- انظر قائمة أبرز أعلام سيناء في العصور الوسطى في الملحق آخر البحث.

- (٢) السمعاني: الأنساب، ج٤، ص ٣٧١؛ ابن الأثير: اللباب، ج٢، ص ١٧٢؛
- بكر بن سهل بن إسماعيل الدمياطي: عاش في دمشق وبيروت ومصر، حدث بحديثين من أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم، وتوفي إما في مدينة الرملة أو دمياط. انظر: ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج ١٠، ص ٣٧٩-٣٨٠.
- أبو بكر الحافظ أحمد بن محمد بن عبدوس، هو أحد أعلام الأئمة، قال عنه الذهبي: "رجالٌ جوالٌ"، انظر: الذهبي: تاريخ الإسلام، ج٨، ص ٧٦٩، ج٩، ١٦٣.
- (٣) السمعاني: الأنساب، ج٤، ص ٣٧١.
- (٤) ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج ١٠، ص ٣٧٩-٣٨٠.
- (٥) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج٨، ص ٧٦٩.



وهناك أيضًا هوش ابن رزين بن نمير الفرمي، الذي ولد بمدينة الفرما في عام ٥٢٨هـ/ ١١٣٣م، وتقل ما بين الفرما والطينة ودمياط، وذكر عنه: أنه شيخ صالح ومعمّر، إذ عاش أكثر من مائة سنة، قضى تسعة وستين سنة منها في مدينة الطينة (على مشارف الفرما)، وتوفي في مدينة دمياط في شهر صفر سنة ٦٣٩هـ/ أغسطس ١٢٤١م<sup>(١)</sup>.

أما عن أهالي مدينة العريش، فكان هناك أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن الفتح العريشي الذي عاش في أواخر القرن الخامس وأوائل القرن السادس الهجري/ أواخر القرن الحادي عشر الميلادي وأوائل القرن الثاني عشر الميلادي، وذلك بما أنه كان معاصرًا للعالم الأندلسي أبي بكر الطرطوشي الذي توفي في سنة ٥٢٠هـ/ ١٢٦٦م<sup>(٢)</sup>، وقد ولد أبو العباس أحمد العريشي بمدينة العريش، ولكنه تركها وسكن في مدينة رشيد؛ سعيًا لطلب العلم، وتردد على مدينة الإسكندرية؛ ليتعلم هناك الفقه والحديث على يد العالم الأندلسي الشهير أبو بكر الطرطوشي فصار من تلاميذه<sup>(٣)</sup>، كما برع أبو العباس في الشعر، فنظم

---

(١) المنذري: التكملة لوفيات النقلة، ٤ج، تحقيق بشار عواد، ط٣، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٤، ج٣، ص ٥٧٣؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج١٤، ص ٣٠٨.

(٢) أبو بكر محمد بن الوليد الفهري الطرطوشي: ولد بطرطوشة في الأندلس عام ٤٥١هـ/ ١٠٥٩م، وتوجه إلى سرقسطة لطلب العلم، ثم هاجر إلى المشرق عام ٤٧٦هـ/ ١٠٨٣م، فدخل مكة والبصرة ثم بغداد ودمشق إلى أن استقر في الإسكندرية، وتزوج من مصرية، وخصص منزله لتعليم الطلاب الحديث والفقه على المذهب المالكي، للمزيد عنه انظر: الطرطوشي: سراج الملوك، تحقيق: محمد فتحي أبو بكر، ط١، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ١٩٩٤، ص ٥-١٩؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج٨، تحقيق احسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨، ج٤، ص ٢٦٢-٢٦٤.

انظر أيضًا: جمال الدين الشيال: أعلام الإسكندرية في العصر الإسلامي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ٢٠٠١، ص ١١٦.

(٣) الحافظ أبي طاهر السلفي: معجم السفر، تحقيق عبد الله البارودي، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٣، ص ٦١؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج١٤، ص ٢٠٥؛ ابن ناصر الدين الدمشقي: توضيح المشتبه، ج٦، ص ٢٥٠-٢٥١.

وأُنتد عدة قصائد شعرية<sup>(١)</sup>، أورد أبو طاهر السلفي بعضها في معجمه، وقال عنه: إنه "من أهل الفقه والعفة"<sup>(٢)</sup>.

ولم يكن أبو العباس أحمد العريشي وحده الذي تفقه في الدين وتعلم الحديث، بل سلك نهجه بعض أفراد أسرته، إذ روى الحديث عنه ابنه شعيب، وكذلك حفيده إبراهيم بن شعيب الذي ذكر الذهبي: - أنه "العريشي الأصل، الرشيدي المولد، الإسكندراني الدار، المالكي" المذهب؛ إذ إنه ولد في رشيد في سنة ٥٤٨هـ / ١١٥٣-١١٥٤م، وكان شيخاً جليلاً وشاعراً فقيهاً، ورغم أنه كان ضرير البصر، إلا إن ذلك لم يثنيه عن تحصيل العلم، وقيل عنه: "شيخ فاضل من بيت نباهة ورفعة"، وتوفي في سنة ٦٣٦هـ / ١٢٣٨-١٢٣٩م عن عمر يناهز ٨٨ سنة<sup>(٣)</sup>، وبذا فقد أثبت أبو العباس أحمد العريشي وابنه وحفيده أن أهالي مدينة العريش قادرون على المشاركة في تقدم الحياة العلمية في مصر الإسلامية.

## ٢- أبرز الأعلام من سكان سيناء في العصرين البيزنطي والإسلامي:

لم يقتصر أعلام سيناء على أهالي سيناء نفسها الذين ولدوا فيها، ولكن هناك بعض الشخصيات التي لم تكن من أهل سيناء ولكنهم جاءوا إليها، وسكنوا فيها، وشاركوا في تقدمها ورفعتها<sup>(٤)</sup>، ففي مدينة بينثليون (الشيخ زويد الحالية) ظهر اسم الراهب أجاكس Ajax، الذي أصبح أسقف للمدينة في النصف الثاني من القرن الرابع الميلادي<sup>(٥)</sup>، وما يعرف عنه أنه كان متزوجاً وأنجب ثلاثة أبناء، إلا إنه رغب في اعتناق الحياة الرهبانية،

(١) الحافظ أبي طاهر السلفي: معجم السفر، ص ٦١؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ١١٤.

(٢) الحافظ أبي طاهر السلفي: معجم السفر، ص ٦٠-٦١.

من أبيات الشعر التي أنشدها أبو العباس العريشي: =

ما أبعد القاصي من المُتداني      وسنا الهداية من دُجى الكفران  
قل للجهول بربه وبما أتى      من قوله في محكم الفرقان  
أنسبت ربك غرة وجهالة      للعجز والتقصير والنقصان

انظر: الحافظ أبي طاهر السلفي: معجم السفر، ص ٦٠.

(٣) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج ١٤، ص ٢٠٥؛ المقرئ: المقفى الكبير، ج ١، ص ١٧١.

(٤) انظر قائمة أبرز أعلام سيناء في العصور الوسطى في الملحق آخر البحث.

(٥) Herbert Verreth, Northern Sinai, p.186.

فترك زوجته وأبناءه وترهبين في مدينة غزة، وكان شديد التمسك بدينه، فتعرض لكثير من المضايقات علي يد الوثنيين، إلا إنه ظل على إيمانه، مدافعاً عن دينه، غير عابئ بما قد يلاقه من أذى، وفي فترة ما من حياته توجه إلى مدينة بيتليون وتولى أسقفيتها، وقد تمكن من إدارة شئون كنيستها على الوجه الأكمل ببراعة وحكمة على حد قول المؤرخ سوزمين<sup>(1)</sup>.  
أما في مدينة رينوكورورا ، فقد جاء إليها الأسقف بوليبيوس الشهير في القرن الخامس الميلادي، والذي تعلم وتلمذ على يد الأسقف أيفانيوس العظيم أسقف سلاميس في قبرص، ورافقه في جميع رحلاته وكتب عن حياته، وبعد وفاة الأخير توجه بوليبيوس إلى مصر بناء على طلب من معلمه قبل وفاته، وانتقل إلى طيبة العليا، وظل بها لمدة عام قبل أن يقابل المسئول هيراكليون، الذي رغب في أن يوليه أسقفة رينوكورورا، لما عرف عنه من علمٍ وحكمةٍ ورجاحة عقلٍ، إلا إن بوليبيوس رفض ذلك، ولعله رغب في عدم تولي أي مناصب دينية؛ ليتفرغ للكتابة وتحصيل العلم، إلا إنه اضطر في النهاية للرضوخ لمطالب هيراكليون، وتقلد أسقفة المدينة وظل بها، وإن لم تذكر المصادر الفترة التي مكث فيها في هذه المدينة، إلا إنه بتوليه أسقفيتها جعل اسم المدينة يلحق باسمه، فعرف ببوليبيوس من رينوكورورا، وبذا فقد جعل لهذه المدينة ذكراً في التاريخ<sup>(2)</sup>.

كما برز اسم الأسقف ألفيوس الأول Alpheios I أسقف رينوكورورا( في القرن الخامس الميلادي)، الذي كان له آراؤه الدينية الخاصة التي لم يكن يخشى أن يُبديها حتى لو كانت مخالفة لما هو معترف به من قبل كنيسة الإسكندرية، لدرجة أنه دافع عن كاهن يدعى لامبيتوس Lampetius - اتهم بتأييده للأفكار القائمة على التسول ورفض العمل للتفرغ للصلاة-، وألف كتاباً في الدفاع عنه، الأمر الذي أدين بسببه وعزل من أسقفيته، ولكن أفكاره ومبادئه نقلها لتلاميذه، ومن ضمنهم تلميذه الذي يحمل الاسم نفسه والمبادئ

(1) Sozomen, Ecclesiastical, p.357.

(2) Polybii Episcopi Rhinocorurorum, Vita Sancti Epiphani, col.112.

Cf. also ,Herbert Verreth, Northern Sinai, pp. 293-4; Iina Eckenstein, A history , p. 100.

نفسها، والذي لم يخشَ هو الآخر من أن يظهر مبادئه التي اقتنع بها، فأدين من قبل بطيريك الإسكندرية المنوفيزيتي تيموثيوس الثاني أيلوروس Timotheos Ailouros (٤٥٧-٤٧٧م)<sup>(١)</sup>.

هذا إلى جانب مساهمة أحد أساقفة مدينة رينوكورورا في مساعدة المسيحيين الذين تعرضوا للمحن والغزوات، ألا وهو الأسقف جريجوريوس Gregorios أسقف رينوكورورا، الذي أرسله بطيريك الإسكندرية يوحنا الخامس الرحيم John V the Merciful (٦٠٦-٦١٦م) لمساعدة أهالي مدينة بيت المقدس بعد الغزو الفارسي لها في ٦١٤م، ولشراء أسراهم من قبضة الفرس وإطلاق سراحهم<sup>(٢)</sup>؛ وقد وقع اختيار يوحنا الرحيم على جريجوريوس؛ وذلك لقرب هذا الأسقف من بيت المقدس مكانياً، وفي الوقت نفسه لعله اشتهر بالحنكة وحسن وسرعة التصرف وغيرهم من الصفات الضرورية للشخص الذي سيتعامل مع الفرس الغزاة.

كما لمعت أسماء كثيرة من أساقفة شمال سيناء الذين عاشوا فيها ولعبوا دوراً بارزاً في المشاركة الفعالة في المجامع الدينية التي عقدت خارج مصر؛ إذ حضر عدة أساقفة من سيناء مجمع إفسوس الأول سنة ٤٣١م، ووقعوا على قرارات المجمع، وعارضوا أفكار نسطور Nestorius بطيريك القسطنطينية (٤٢٨-٤٣١م)، ومن هؤلاء الأساقفة: هيرموجينيس Hermogenes أسقف رينوكورورا، وأبراهام Abraham أسقف أوستراكين

---

(<sup>١</sup>) Herbert Verreth, Northern Sinai, p. 298; Lina Eckenstein, A history , p.109.  
(<sup>٢</sup>) Sophronius , "The Life of Our Holy Father John The Father " in From Three Byzantine Saints: Contemporary Biographies of St. Daniel the Stylite, St. Theodore of Sykeon and St. John the Almsgiver , trans. Elizabeth Dawes, and introductions and notes by Norman H. Baynes, London, 1948, p.204.  
انظر أيضاً: محمد فرحات: "الغزو الفارسي لبيت المقدس ٦١٤م"، في دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، دار الوفاء ، الاسكندرية، ٢٠١٥، (ص ٥٥-٨٥)، ص ٧٥.

Ostrakine (الفلوسيات)، ولامبيتوس Lampetius أسقف كاسيوم Casiu ، وهيراكيس Hieracis أسقف أفنايوم، وكذلك يوسيبوس Eusebiu أسقف بيلوزيوم<sup>(١)</sup>.

وبعد المجمع وقع اختيار البطريرك كيرلس الأول ا Cyril (٤١٢ - ٤٤٤م) بطريرك الإسكندرية على هيروموجينيس أسقف رينوكورورا ولامبيتوس أسقف كاسيوم؛ ليكونا مندوبين عنه إلى البابا كليستين الأول Celestin بابا روما (٤٢٢-٤٣٢م)؛ لمطالبته بإرسال خطابات معهما لإقناع الأساقفة المعارضين لقرارات مجمع إفسوس الأول ٤٣١م<sup>(٢)</sup>، ويأتي اختيار البطريرك كيرلس الأول لهاتين الشخصيتين ليكونا مندوبين عنه، ومتكلمين باسمه؛ لدليل على مكانتهما السامية وقدراتهما العالية التي لم يضعفها بقاؤهما في سيناء، ولم يجعلهما وجودهما هناك مهمشين أو منعزلين.

كما حضر الأسقف زينون Zenon أسقف رينوكورورا مجمع إفسوس الثاني سنة ٤٤٩م ووقع على قراراته<sup>(٣)</sup>. وكذلك حضر اثنان من أساقفة سيناء مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١م، وهما الأسقف ستيفانوس Stephanos أسقف جيررا Gerra ، وهيراكيس أسقف أفنايوم اللذان كانا ضمن الأساقفة المصريين العشرين الذين حضروا المجمع في جلسته الأولى،

---

(١) The Acts of the Council of Chalcedon, 3vols., Trans. Richard Price and Michael Gaddis, Liverpool University Press, Liverpool, 2005, vol.1, pp. 299, 338.

Cf. also, Herbert Verreth, Northern Sinai, p.374, p.472.

- عن موقع هذه المدن انظر الخريطة في آخر البحث.

(٢) Pau Figueras, From Gaza to Pelusium, in Beer- Sheva, vol. 14, Ben-Gurion University of the Negev Press, 2000, p. 140 ; lina Eckenstein, A history , p. 109.

(٣) Acts of The Council of Chalcedon, vol. 1, pp.146, 291,363.

Cf. also, Herbert Verreth, Northern Sinai, p. 296.

مجمع إفسوس الثاني عقد بأوامر من الإمبراطور ثيودسيوس الثاني في سنة ٤٤٩م؛ للنظر في آراء أوطيخا؛ وقام المجمع بترئفة أوطيخا، وإعادته إلى رتبته الكهنوتية. للمزيد انظر: صبري أبو الخير: تاريخ مصر في العصر البيزنطي، ط٢، عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية، ٢٠٠١، ص ٥٣.

ولكنهم لم يحضروا الجلستين الثانية والثالثة؛ وذلك بعدما أوقف المجمع في الجلسة الأولى بطريرك الإسكندرية ديوسقوروس I Dioscorus (٤٤٤-٤٥٤م) -لتبرئته لأوطيخا Eutyches في مجمع إفسوس الثاني الذي كان قد تولى رئاسته في سنة ٤٤٩م -، فشعروا أنهم غير قادرين على التصرف في غياب بطريركهم<sup>(١)</sup>، ولكنهم عادوا وقدموا التماساً مع أحد عشر أسقفاً مصرياً، أكدوا فيه على تمسكهم بالإيمان النيقوي، ورفضهم لأفكار أريوس ونسطور وغيرهم من أصحاب البدع، ولكنهم لم يذكروا معارضتهم لأوطيخا الذي كان مجمع خلقيدونية قد عقد لإدانتته، وعندما قرأ الالتماس على الحضور، هتف الجميع ضدهم وطالبوهم بلعن أوطيخا<sup>(٢)</sup>، مما دفع هيراكيس أسقف أنفايوم إلى التقدم أمامهم والتحدث بكل حنكة وجرأة قائلاً: "إذا كان أحد لديه معتقدات مخالفة لما ذكرناه يُلعن سواء

(١) Acts of The Council of Chalcedon, vol. 2, p. 148, n.34.

- مجمع خلقيدونية: عقد المجمع في سنة ٤٥١م، وانتقلت فيه كنيسة روما مع كنيسة القسطنطينية ضد كنيسة الإسكندرية، وأقر المجمع بمذهب الطبيعيتين (المذهب الملكاني) القائل بأن للمسيح طبيعتين منفصلتين إلهيه وبشرية، كما قرر المجمع عزل بطريرك الإسكندرية ديوسقوروس ونفيه. للمزيد انظر: محمد مرسي الشيخ، تاريخ مصر البيزنطية، ص ٥١.
- أوطيخا هو رئيس أحد أديرة القسطنطينية، ولد في سنة ٣٧٠م وتوفي بعد سنة ٤٥١ أو ٤٥٤م، ابتدع بعض الأفكار حول طبيعة السيد المسيح بعد التجسد، واعتبرت بدعة وهرطقة، للمزيد انظر: =

= Kazhdan and Others, O.D.B, 3 Vols , Oxford University Press , Oxford, 1991, vol.2, p. 759.

- عن موقع مدينة جيرا انظر الخريطة في آخر البحث.

(٢) Acts of The Council of Chalcedon, vol. 2, p.148-49.

- الأيمان النيقوي: هو دستور الإيمان الصادر عن مجمع نيقية سنة ٣٢٥م، والقائل: "بالحقيقة نؤمن بإله واحد، الله الآب ضابط الكل خالق السماء والأرض ما يرى وما لا يرى، نؤمن برب يسوع المسيح ابن الله الوحيد المولود من الآب قبل كل الدهور...." للمزيد انظر: صبري أبو الخير: تاريخ مصر، ص ٤٥.

كان أوطيخا أو أي شخص آخر ... وأنا ننتظر قرار أسقفنا الأقدس [يطيريك الإسكندرية] ... لأننا سنتبعه في كل شيء...»<sup>(١)</sup>.

وبذلك فقد امتنع هيراكيس ومن معه من الأساقفة عن الموافقة على ما جاء في الجلسة الرابعة، متمسكين بتعاليمهم وأعرافهم التي وضعت في مجمع نيقية، والتي نصت على أن جميع الأساقفة المصريين عليهم أن يخضعوا لقرارات رئيس الأساقفة في الإسكندرية، وبما أن الأخير قد أوقفه المجمع في الجلسة الأولى فلا يستطيعون البت في قرارات المجمع دون اللجوء لرئيس الأساقفة<sup>(٢)</sup>، وبذلك لم يكن حضور أساقفة سيناء في المجمع مجرد حضور شكلي أو صوري، ولكنه مشاركة فعالة بإبداء آرائهم والامتناع عما يرونه مخالفاً لتقاليدهم الكنسية.

وإذا تركنا الحديث عن الشخصيات التي ظهرت في شمال سيناء، وانتقلنا للحديث عن الشخصيات التي برز اسمها في جنوب سيناء ولعبت دوراً مهماً لصالح تلك المنطقة، فكان هناك جريجوري الأنطاكي Gregory of Antioch وذلك في النصف الثاني من القرن السادس الميلادي؛ إذ ترأس دير جبل سيناء من قبل الإمبراطور جستين الثاني Justin II (٥٦٥ - ٥٧٤م) الذي نقله من دير في القدس إلى دير جبل سيناء<sup>(٣)</sup>، ولا يوجد في المصادر معلومات عن حياته الأولى، ولكنه عندما تولى رئاسة الدير واجه مخاطر جمة بسبب هجمات العرب على الدير ومحاصرتهم إياه، ورغم ذلك استطاع أن يعيد السلام إلى هذا المكان على حد قول المؤرخ إيفاجريوس<sup>(٤)</sup>، وإن لم يذكر المؤرخ كيف استطاع جريجوري فعل ذلك؛ ولعله استعان بجنود الحامية الذين تركهم الإمبراطور جستين الأول Justinian I (٥٢٧ - ٥٦٥م) هناك عند بنائه لحصن عند سفح الجبل؛ لحماية الدير من

(١) Acts of The Council of Chalcedon, vol. 2, p.152.

(٢) Acts of The Council of Chalcedon, vol. 2, p. 149-50.

(٣) Evagrius, Ecclesiastical History, p. 262.

Cf. also, Irfan Shahid, Byzantium and the Arabs in the Sixth Century, 2vols., Dumbarton Oaks, America, 1995, vol. 1, part. 1, p.352.

(٤) Evagrius, Ecclesiastical History, p. 262.

خطر العرب الذين كانوا يهاجمون المنطقة باستمرار<sup>(١)</sup>، أو لعله عقد معهم صلحاً، معتمداً في ذلك على طريقته السلسة في الحوار والافتتاح أو التهديد بالحامية؛ فأتناهم عن مهاجمة المنطقة، وبالتالي فهذا الدور الذي نجح فيه جريجوري في حماية تلك المنطقة وجلب الاستقرار لها أهله ليتولى أسقفية أنطاكية فيما بعد كما يرى المؤرخ إيفاجريوس نفسه<sup>(٢)</sup>.  
وبرز أيضاً في منطقة جنوب سيناء شخصية الراهب والقديس يوحنا كليماكوس السلمي John Climacus ، الذي عاش في أواخر القرن السادس الميلادي ومنتصف القرن السابع الميلادي؛ وذلك على أساس أن الراهب أناستاسيوس السينائي Anastasius of Sinai الذي عاش في ذلك الوقت ذكر إشارات تدل على أنه كان معاصراً ليوحنا السلمي إذا ذكر: "أخبرنا يوحنا"<sup>(٣)</sup>، "وفي السنة الماضية عندما الأب القديس يوحنا كان على وشك الذهاب إلى الرب"<sup>(٤)</sup>.

وتكاد تكون المعلومات عن حياة يوحنا كليماكوس الأولى معدومة، حتى أن كاتب سيرته الراهب دانيال أوف رايثو Daniel of Raithou لم يتطرق إلى هذا الأمر، واقتصر على الحديث عن حياته بعد قدومه إلى سيناء وهو بسن السادسة عشر، ولكن بما أن دانيال وصف يوحنا كليماكوس بالعلامة<sup>(٥)</sup>، فلعله ولد لعائلة نبيلة مكنته من الحصول على القدر

---

(١) Walter D. Ward, The Mirage of the Saracen : Christians and Nomads in the Sinai Peninsula in Late Antiquity, University of California Press , California , 2015, p.38, p.114 .

- ذكر المؤرخ بروكبيوس أن هذا الحصن كان قوياً للغاية، وكان عدد جنود حاميته كبيراً جداً. انظر: Procopius, The Buildings of Justinian, trans. A. Stewart, London ,1888, p.147.

(٢) Evagrius, Ecclesiastical History, p. 262.

(٣) Anastasius of Sinai, Tales of The Sinai Fathers, in History and Hagiography from the Late Antique Sinai, trans. D. Caner, Liverpool University Press, Liverpool, 2010, p.175.

(٤) Anastasius of Sinai, Tales of The Sinai Fathers, p.183.

(٥) Daniele Rhaitheno, vita St. Joannis Scholastici Climaei, ed. Migne, in P.G.,vol.88, 1864, (cols.595-610), col.596.



الكافي من التعليم، والذي يظهر في أسلوبه الكتابي الغني بالمفردات اللغوية والتنشيبات الأدبية.

وعلى أية حال فبمجرد وصول يوحنا كليماكوس - وهو بسن السادسة عشر - إلى سيناء اعتنق حياة الرهبانية، وأصبح الأب مارتيريوس Martyrius مرشده الروحي<sup>(١)</sup>، ويذكر دانيال في سيرة يوحنا أن أحد آباء سيناء تنبأ ليوحنا بأنه سيصبح "نجماً عظيماً"<sup>(٢)</sup>، كما ذكر الراهب أنساتاسيوس السينائي في كتابه أن بعض آباء سيناء تنبأوا ليوحنا بأنه سيتولى يوماً ما رئاسة دير سيناء<sup>(٣)</sup>، ولعه أظهر ما يدل على الفطنة والذكاء والإيمان القوي الذي جعلهم يتنبؤون له بذلك.

وفي سن الخامسة والثلاثين من عمره توفي مرشده الروحي، فاعتزل في مكان يسمى ثولاس Tholas، يبعد عن دير جبل سيناء حوالي خمسة عشر ميلاً رومانياً (٥،٢٢ كم)، وظل هناك قرابة أربعين عاماً، لم يكن فيهم منعزلاً عن المجتمع الرهباني، بل استمر في استقبال الزوار من الرهبان والعلمانيين، وتقديم المشورة والنصح لهم<sup>(٤)</sup>، ولعله في تلك الفترة قام برحلته إلى مدينة الإسكندرية، والتي وصف أحد أديرتها وحياة رهبانها في كتابه (السلم)<sup>(٥)</sup>، الذي كتبه بناءً على طلب من يوحنا رئيس دير رايثو John of Raithou (على مقربة من مدينة الطور الحالية)، وبعد أربعين عاماً من وجوده في خلوته في ثولاس انتخب

(١) Daniele Rhaitheno, vita , cols. 597,600.

يوحنا السلمى: كتاب السلم إلى الله، ترجمة رهبنة دير مارجرس الحرف، ص ١١.

Andrey Kordochkin, John Climacus and the spiritual tradition of the Iv-Vii centuries, Durham theses, Durham University, 2003, p.18.

(٢) Daniele Rhaitheno, vita , col.608.

(٣) Anastasius of Sinai, Tales of The Sinai Fathers, p.181.

(٤) Daniele Rhaitheno, vita , col.597.

يوحنا السلمى: السلم، ص ١٢.

Andrey Kordochkin, John Climacus, p.19.

(٥) انظر يوحنا السلمى: السلم، ص ٤٢-٨

رئيسًا لدير جبل سيناء<sup>(١)</sup>، وإن كنا لا نعرف المدة التي قضاه في هذا المنصب، إلا إنه نال شهرة عالية ومكانة سامية بين رهبان سيناء، حتى إن الراهب أنستاسيوس لقبه بـ " موسى الثاني الجديد"، ووصفه بأنه " القمص الأكثر قداسة في جبل سيناء المقدس"<sup>(٢)</sup>، وفي أواخر أيامه ترك رئاسة الدير لشقيقه جورج، وعاد هو لخلوته، وتوفي بعدها بفترة قليلة<sup>(٣)</sup>.

ويُعد كتاب (السلم) الذي وضعه يوحنا كليماكوس من أشهر الكتب الدينية التي عرفت خلال تلك الفترة، والتي مثلت نوعًا من الأدب الديني، تناول فيه يوحنا ثلاثين مقالًا تمثل خطوات الصعود الروحي إلى الله، وسرد فيها أخبار بعض الرهبان في سيناء والاسكندرية<sup>(٤)</sup>، وقد ذكر يوحنا أسماء بعض الكتاب اللاهوتيين في كتابه كإفريم السرياني Ephrem وجريجوري النازيانزي Gregory of Nazianzus وغيرهما<sup>(٥)</sup>، وإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على أنه إما سمع عن هؤلاء الكُتاب وكتبهم في المرحلة الأولى من

(١) Anastasius of Sinai, Tales of The Sinai Fathers, p.181.

Cf.also, Andrey Kordochkin: John Climacus, p.19.

(٢) Anastasius of Sinai, Tales of The Sinai Fathers, pp.175,183.

(٣) Daniele Rhaitheno, vita , col.609; Anastasius of Sinai, Tales of The Sinai Fathers,pp.183-84.

Cf. also, Andrey Kordochkin: John Climacus, p.19.

(٤) انظر يوحنا السلمي: السلم، ص ٢٧ وما بعدها

(٥) يوحنا السلمي: السلم، ص ٦٨ ، ١٨٦ ، ١٥٨. انظر أيضًا:

Andrey Kordochkin: John Climacus, p.20.

إفريم السرياني ولد سنة ٣٠٦ م ، وكتب العديد من الترانيل والأشعار الدينية، وتوفي في سنة ٣٧٣ م، للمزيد انظر: =

= Christopher Loveless, Strange Eventful History the story of the Saints of the church of England,2012, p.98-9.

جريجوري النازيانزي : ولد في سنة ٣٢٩م، وكان أسقف القسطنطينية في الفترة من ٣٨٠-٣٨١م وأسقف نازيانزوس Nazianzos في كابادوكيا من ٣٨٢-٣٨٤ م، وكان مؤلفًا غزير الإنتاج، وكتب عدة كتب وقصائد شعرية وعظات دينية ورسائل، وتوفي في سنة ٣٩٠م، للمزيد انظر:

Kazhdan and Others, O.D.B,vol.2, pp.880-81.

حياته، أو عن طريق وصول تلك الكتب إلى سيناء وتداولها بين أيدي الرهبان، وفي هذه الحالة الأخيرة يكون بُعد سيناء لم يكن حائلاً دون وصول تلك المؤلفات إليها، كما أن الرهبان هناك لم يكونوا منعزلين تمام الانعزال عن العالم الخارجي.

وقد عُرف كتاب السلم وتداول بين المسيحيين، وترجم إلى لغات عدة قبل القرن العاشر الميلادي، إذ ترجم من أصله اليوناني إلى السريانية قبل هذا القرن، ومع هذا القرن ترجم إلى العربية والأرمنية، وفي القرن الثاني عشر الميلادي ترجم إلى السلافية، وفي القرن الرابع عشر الميلادي بدأت تتوالى ترجمات كتاب السلم إلى اللغات الحديثة<sup>(١)</sup>.

كما لمع اسم آخر في جنوب سيناء ألا وهو الراهب أنستاسيوس السينائي Anastasius of Sinai الذي ولد في النصف الأول من القرن السابع الميلادي، وعاصر فترة الفتوحات الإسلامية لبلاد الشام ومصر، وتتسبب أسرته إلى مدينة الإسكندرية، ولكنه من المرجح أنه ولد في جزيرة قبرص في مدينة أماثوس Amathus، وعند غزو العرب للجزيرة في سنة ٦٤٩م غادرها إلى فلسطين، ومنها إلى جبل سيناء<sup>(٢)</sup>؛ حيث استقر هناك لفترة طويلة حتى وافته المنية بعد سنة ٧٠٠ أو ٧٠١م؛ لأنه ظل يكتب حتى هذا الوقت، وخلال إقامته في منطقة جبل سيناء أصبح راهباً، ويعتقد أنه أصبح كاهناً أيضاً، وقد تولى لبعض الوقت رعاية الرهبان المصابين بمرض عضال وعلاجهم<sup>(٣)</sup>، معتمداً في ذلك على معرفته الطبية التي أوضحها في كتاباته - والتي ربما اكتسبها في أثناء إقامته في قبرص-؛ إذ أجاب على أحد سائليه بوصف كيف كان بعض الفلاسفة في قبرص يعالجون مرضاهم باتباع نظام غذائي معين، وتناول بعض الأطعمة المليئة للمعدة<sup>(٤)</sup>.

(١) كتاب السلم، ص ٢٢.

(٢) Clement Kuehn, Anastasius of Sinai: Biblical Scholar, in B.Z., vol.103, 2010, (pp.55-81), p.55.

(٣) David Thomas and others, Christian-Muslim Relations :A Bibliographical History (600-900), 16 vols. Brill, Leiden ,2009, vol.1, p.193.

(4) Anastasius Sinaita, Interrogationes et Responiones, ed.Migne, in P.G., vol.89,1865, cols.732-33.

وقد تنقل أنستاسيوس في منطقة جنوب سيناء؛ إذ عاش مدة ثلاث سنوات في أرسيلايو التي تقع عند أحد وديان المنطقة، ويصعب الوصول إليه على حد قوله، وكذلك بقي بعض الوقت في مكان يسمى Goudda والذي يبعد قرابة خمسة عشر ميلاً (٢٢، ٥٥ كم) عن دير جبل سيناء، وتميز بحديقته الرائعة، وإن لم يذكر أنستاسيوس المدة التي عاشها هناك<sup>(١)</sup>، وكانت إقامة أنستاسيوس فترة كبيرة من حياته في سيناء قد جعلته يشعر بالانتماء الشديد لتلك المنطقة؛ إذ ذكرها بكلمة "صحراءنا" في أكثر من مرة وفي أكثر من موضع<sup>(٢)</sup>. وقد هيات بيئة سيناء لأنستاسيوس المناخ الملائم والوقت المناسب للكتابة والتأليف، فأنتج مؤلفات كثيرة تقارب خمسة عشر مؤلفاً، تنوعت موضوعاتها بين اللاهوت والتفسير والجدل والأدب الرهباني<sup>(٣)</sup>، ومن تلك المؤلفات كتاب الهوديغوس Hodegos، الذي كتبه بعد سنة ٦٤١-٦٤٢ م وقبل سنة ٦٨٠-٦٨١ م<sup>(٤)</sup>، ولعله كتبه في أثناء إقامته في سيناء، واهتم أنستاسيوس فيه بشكل أساسي بدحض البدع، وتطرق فيه إلى العقيدة الإسلامية، وأشار إلى أن المسلمين لديهم مفاهيم خاطئة عن السيد المسيح على حد قوله، وأن هناك خلاقات لاهوتية حقيقية بين المسيحيين والمسلمين<sup>(٥)</sup>.

كما كتب أنستاسيوس كتاباً ضد اليهود من مجلدين لم يصل إلينا، ومقالاً قصيراً عن البدع والهرطقة، كتبه في الفترة من ٦٩٢-٦٩٥ م في أثناء إقامته في سيناء، وكذلك مجموعة من العظات، وكتب كتاب (كلمات ضد المونوثيليتية Sermo adversus

(١) Anastasius of Sinai, Tales Sinai Fathers, p.172, n. 2, pp.183, 190.

(٢) Anastasius of Sinai, Tales Sinai Fathers, pp.181, 184,188,196.

(٣) David Thomas and others, Christian-Muslim Relations, vol.1, p.194.

(٤) John Haldon, "The works of Anastasius of Sinai. A key source for the history of seventh-century east Mediterranean society and belief", in The Byzantine and early Islamic Near East. I. Problems in the literary source material, ed.A. Cameron and L.I. Conrad, the Darwin Press, Princeton, 1992, (pp.107-47), p.113.

(٥) David Thomas and others, Christian-Muslim Relations, vol.1, p.196.

(*Monotheletas*) في سنة ٧٠١ م<sup>(١)</sup>، كما كتب كتاب (أسئلة وأجوبة) في سنة ٧٠٠ م<sup>(٢)</sup>، ضمت حوالي ثلاثة ومائة سؤال، شملت مجموعة واسعة من الموضوعات الخاصة باللاهوت والطب والعلوم الطبيعية، وإن كانت أغلبها تتناول الهموم اليومية للمسيحيين<sup>(٣)</sup>، وقد أضافت أجوبة أنستاسيوس موضوعات جديدة عما كتبه الرهبان السابقون له، إذ تناولت موقف وأوضاع المسيحيين الخاضعين للحكم الإسلامي أو الذين خضعوا للعبودية<sup>(٤)</sup>، كما يُعد كتابه هذا واحداً من أقدم المؤلفات المسيحية التي أشارت صراحةً إلى بعض المعتقدات الإسلامية، كرفض الشيطان الخضوع لآدم<sup>(٥)</sup>.

هذا إلى جانب ما كتبه أنستاسيوس السينائي عن حكايات آباء سيناء التي تمثل الجانب الأدبي من مؤلفاته، ففي سنواته الأولى التي كان فيها راهباً على جبل سيناء جمع نحو تسعة وثلاثين قصة عن الرهبان والنساك الذين يعيشون في الصحاري حول جبل سيناء في أواخر القرنين السادس والسابع الميلاديين، وكان أنستاسيوس يهدف من وراء هذا العمل إلى موازنة المسيحيين الذين خضعوا للحكم الإسلامي، والذين لم يعتادوا بعد على التكيف مع هذا الوضع الجديد، فحاول بسرد قصص ومعجزات آباء سيناء أن يقوي إيمان هؤلاء المسيحيين، ويثبتهم عن الارتداد عن المسيحية، كما توفر قصصه تلك أدلة وثائقية لتاريخ

---

(<sup>1</sup>) John Haldon, works of Anastasius of Sinai, pp.112-13.

-المونوثليتيّة: هو مذهب الإرادة الواحدة التي أقره الإمبراطور هرقل (**Heraclius** ٦١٠ - ٦٤١م)، والقائل بأن للسيد المسيح طبيعتين، ولكن بإرادة واحدة ومشية واحدة، وحاول هرقل فرض هذا المذهب بالقوة في مصر التي ظلت متمسكة بمذهبيها الديني، للمزيد انظر: صبري أبو الخير: تاريخ مصر، ص ٥٩.

(<sup>2</sup>) John Haldon, works of Anastasius of Sinai, p.120.

(<sup>3</sup>) Anastasius Sinaita, Interrogationes, cols.711- 824,

Cf. also, David Thomas and others, Christian-Muslim Relations, vol.1, p.201.

(<sup>4</sup>) John Haldon, works of Anastasius of Sinai, p.130.

(<sup>5</sup>) David Thomas and others, Christian-Muslim Relations, vol.1, p.201.

المجتمع الرهباني في جبل سيناء قبل الفتوحات الإسلامية وبعدها مباشرة<sup>(١)</sup>، كما أضاف فيه تفاصيل دقيقة عن الطقوس اليومية للحياة الرهبانية في سيناء<sup>(٢)</sup>. وبالتالي استطاع أناستاسيوس السينائي بمؤلفاته أن يقدم العون المناسب للمسيحيين الشرقيين، وفي الوقت نفسه يسجل سير رهبان جبل سيناء ويحفظها، ويثبت أن من يسكن تلك المنطقة بإمكانه الاطلاع على ما يجري حوله من أحداث ويشترك فيها بدورٍ فعالٍ ومؤثرٍ.

أما عن الشخصيات اللامعة التي ظهرت في مدينة رايتو Raithou ( على مقربة من مدينة الطور الحالية)، فهناك يوحنا رئيس دير رايتو، الذي ظهر في النصف الأول من القرن السابع الميلادي، والمعلومات عنه تكاد تكون معدومة، وما يعرف عنه أنه هو الذي استطاع أن يفتح الراهب يوحنا كليماكوس بأن يؤلف كتاب (السلم الإلهي)، ولعله كانت له مكانة خاصة عند الأخير؛ مما جعله يوافق على طلبه، أو كانت لديه قدرة عالية على الإقناع. وكذلك كان هناك الراهب دانيال من رايتو Daniel of Raithou الذي كتب سيرة يوحنا كليماكوس<sup>(٣)</sup>، وكتبها باعتباره شاهد عيان ومعاصرًا ليوحنا، وإن كانت سيرته عبارة عن مدح ليوحنا أكثر من كونها تاريخًا، إلا أنه قدم معلومات مهمة عن حياة يوحنا كليماكوس بعد ترهبته في جبل سيناء، ولولاها ربما طمس الكثير عن أخباره وحياته<sup>(٤)</sup>.

### وفي النهاية أجمل ما توصلت إليه الدراسة في الآتي:

١- لم تكن سيناء مجرد صحراء فاصلة بين مصر وفلسطين وشبه الجزيرة العربية، ولم تكن أيضًا منعزلة عن العالم الخارجي، بل كانت مجالًا خصبًا للإبداع؛ إذ

---

(١) David Thomas and others, Christian-Muslim Relations, vol.1, p.198.

(٢) Anastasius of Sinai, Tales of The Sinai Fathers, p.172

(٣) Daniel Caner, History and Hagiography from the Late Antique Sinai, trans.

D. Caner, Liverpool University Press, Liverpool, 2010., p.37.

(٤) انظر سيرة يوحنا كليماكوس التي كتبها دانيال أوف رايتو:

Daniele Rhaitheno, vita , cols.595-610.

أتاحت الفرصة لسكانها لبيدعوا ويألفوا في هدوءٍ وسكينةٍ، ويشاركوا في الوقت نفسه فيما يجري حولهم من أحداث، فظهرت شخصيات من أهالي المنطقة نفسها أسهمت بدور حضاري مؤثر داخل سيناء وخارجها. كما جاء إليها واستقر بها عدد من الشخصيات التي عُرفت بحكمتها وحنكتها، فتولوا مناصب دينية فيها، وشاركوا في حضور المجامع الدينية التي عقدت خارجها، ودونوا مؤلفات ظلت باقية لتدل على أن من يسكن تلك المنطقة ذات الخصوصية الطبيعية والجغرافية بإمكانه أن يساهم في تقدم الحياة العلمية في مصر خلال تلك الفترة التاريخية.

٢- تنوع الإنتاج الأدبي الذي قدمه أعلام سيناء في العصور الوسطى من حيث نوعه إلى: قصص وشعر وسير ذاتية ومراسلات، وذلك كحكايات آباء سيناء الذي وضعه أنستاسيوس السينائي، والقصائد الشعرية التي نظمها أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن الفتح العريشي وحفيده، وسيرة القديس يوحنا كليماكوس التي كتبها دانيال من رايتو، ومراسلات إيسيدور البيلوزي التي بلغ عددها ألفي رسالة.

٣- توحد أغلب الإنتاج الأدبي الذي قدمه أعلام سيناء في العصور الوسطى من حيث مضمونه إلى موضوعات دينية، سواء في الفترة البيزنطية أو الإسلامية، مع قدر ضئيل من الموضوعات الطبية والعلمية كالتى دونها أنستاسيوس السينائي، أو الموضوعات السياسية والاجتماعية كبعض مراسلات إيسيدور البيلوزي .

٤- أن الأعلام الذين ظهر اسمهم في جنوب سيناء لم يكونوا من تلك المنطقة، ولكنهم جاءوا إليها من مناطق أخرى، ليتربنوا فيها، وذلك بخلاف منطقة شمال سيناء التي ظهر فيها أعلام ولدوا وتربوا في مدن تلك المنطقة الساحلية.

٥- أن بعض الشخصيات التي كانت من أهالي مدن منطقة شمال سيناء لم يكونوا متوقعين داخل مدنهم، بل سافر بعضهم خارجها؛ طلباً للعلم أو سعياً للرزق.

قائمة بالمختصرات الواردة في البحث

B.Z.	Byzantinische Zeitschrift
O.D.B.	The Oxford Dictionary of Byzantium
P.G.	Patrologiae Graeca

قائمة بأبرز أعلام سيناء في العصور الوسطى

اسم الشخصية	المدينة التي ظهر دوره فيها	الوظيفة أو المكانة	الفترة الزمنية	الدور الذي قام به
ميلاس	رينوكورورا	أسقف رينوكورورا	قبل ٣٦٥	- تمسك بالمذهب النيقوي مما عرضه للنفي زمن الإمبراطور فالنر .
أجاكس	بيتليون	أسقف بيتليون	النصف الثاني من القرن الرابع الميلادي	- أدار شئون كنيسة بيتليون بحكمة وبراعة.
سولون	رينوكورورا	أسقف رينوكورورا	بعد ٣٦٥م	- تولى الأسقفية خلفاً لشقيقه ميلاس
إيسيدور البيلوزي	شرق بيلوزيوم	معلم وكاهن وراهب	ما بين ٣٥٥ - ٣٦٠م حتى ٤٣٥-٤٥٠م	- فسر الكتاب المقدس - دافع عن مصالح كنيسة وأهالي بيلوزيوم - علم كثير من



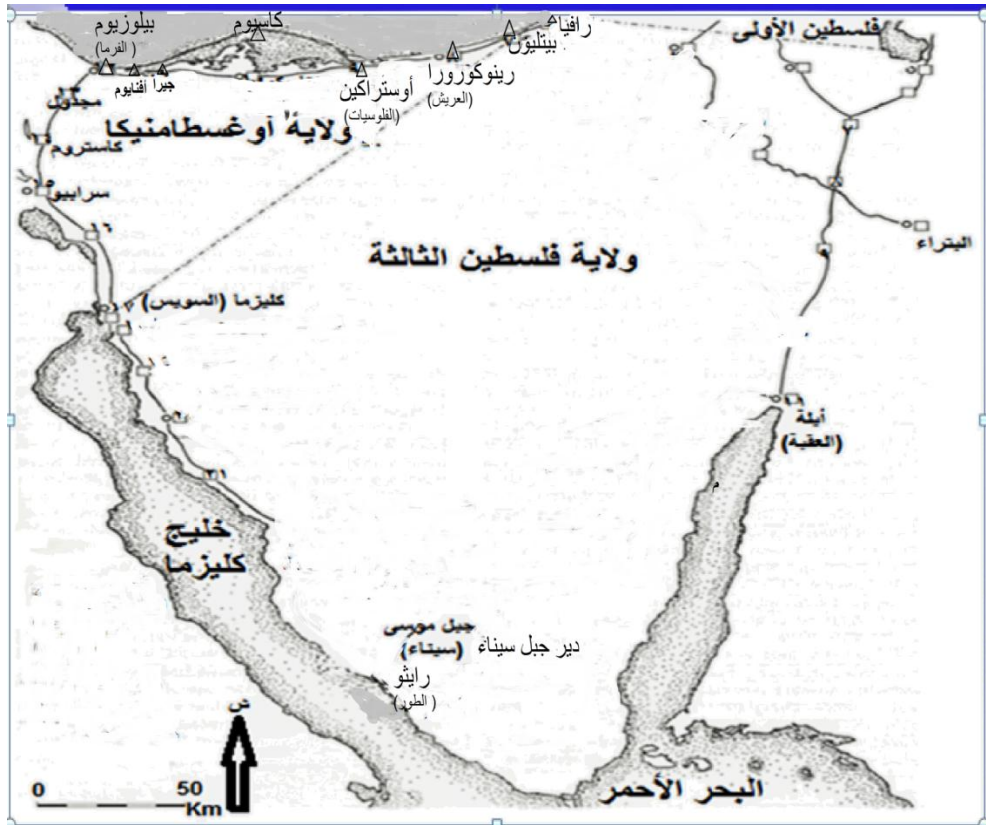
تلاميذه الفلاسفة اليونانية والكتاب المقدس				
ديونيسيوس	رينوكورورا	رئيس دير المدينة	في القرن الرابع الميلادي	- من أكثر الفلاسفة البارزين
هيراكليون	رينوكورورا	من رينوكورورا	في منصب سياسي في الإدارية البيزنطية	- جعل أكثر الرهبان حكمة وعلم يتولى أسقفية مدينته.
ألفيوس الأول	رينوكورورا	أسقف رينوكورورا	القرن الخامس الميلادي	- ألف كتاب للدفاع عن الكاهن لامبيتوس
هيرموجينيس	رينوكورورا	أسقف رينوكورورا	٤٣١-٤٤٩ م	- حضر مجمع إفسوس الأول - أرسل كمندوب لبطريـرك الإسكندرية إلى بابا روما
أبراهام	أوستراكين	أسقف أوستراكين	القرن الخامس الميلادي	- حضر مجمع إفسوس الأول
لامبيتوس	كاسيوم	أسقف كاسيوم	القرن الخامس الميلادي	- حضر مجمع إفسوس الأول - أرسل كمندوب لبطريـرك

الإسكندرية إلى بابا روما				
يوسيبوس	بيلوزيوم	أسقف بيلوزيوم	القرن الخامس الميلادي	- حضر مجمع إفسوس الأول
زينون	رينوكورورا	أسقف رينوكورورا	٤٤٩-٤٥٠م	- حضر مجمع إفسوس الثاني
هيراكليس	أفنايوم	أسقف أفنايوم	القرن الخامس الميلادي	- شارك في مجمع إفسوس الأول - شارك في مجمع خلقيدونية
ستيفانوس	جيرا	أسقف جيرا	القرن الخامس الميلادي	- شارك في مجمع خلقيدونية
جريجوريوس	رينوكورورا	أسقف رينوكورورا	أواخر القرن السادس الميلادي وبداية القرن السابع الميلادي	- ساعد مسيحي بيت المقدس أثناء الغزو الفارسي للمدينة
جرجوري الأنطاكي	جبل سيناء	رئيس دير جبل سيناء	النصف الثاني من القرن السادس الميلادي	- حمى الدير من هجمات الأعراب ونشر السلام في المنطقة
يوحنا كليماكوس السلمي	جبل سيناء	راهب ورئيس دير جبل سيناء	أواخر القرن السادس الميلادي حتى النصف الأول من القرن السابع	- ألف كتاب السلم
يوحنا أوف	رايثو	رئيس دير	النصف الأول من	- أفتح يوحنا

رايثو		رايثو	القرن السابع الميلادي	كليماكوس بتأليف كتاب السلم.
دانييل أف رايثو	رايثو	راهب	النصف الأول من القرن السابع الميلادي	- ألف سيرة حياة الراهب والقديس يوحنا كليماكوس
أناستاسيوس السينائي	جبل سيناء	راهب	النصف الأول من القرن السابع الميلادي حتى ٧٠٠م أو ٧٠١م	- ألف عدة كتب في موضوعات لاهوتية وطبية وعلمية وأدبية
أبو الحسين بن محمد بن هارون بن يحيى بن يزيد الفرمي	من الفرما	راوي	قبل سنة ٣٤٣هـ/ ٩٥٥م	- حدث عن كبار الفقهاء والرواة في مصر
أبو حفص عمر بن يعقوب بن زريق الفرماوي	من الفرما	راوي	خلال أواخر القرن الثالث الهجري وبدايات القرن الرابع الهجري/ القرن العاشر الميلادي	- روى الحديث عن كبار المشايخ
أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن الفتح العريشي	من العريش - رشيد والإسكندرية	فقيه وشاعر	أواخر القرن الخامس وأوائل القرن السادس الهجري/ أواخر القرن الحادي عشر وأوائل القرن الثاني عشر الميلادي	- تعلم الفقه والحديث - أنشد عدة قصائد شعرية

شعيب بن أحمد بن إبراهيم العريشي	من العريش - رشيد والإسكندرية	فقيه	أواخر القرن الخامس وأوائل القرن السادس الهجري/ أواخر القرن الحادي عشر ومنتصف القرن الثاني عشر الميلادي	- روى عن والده أبو العباس أحمد بن إبراهيم العريشي الحديث
هواش ابن رزين بن نمير الفرعي	من الفرما - بين الفرما والطينة ودمياط	شيخ صالح	١١٣٣/٥٠٢٨ - ١١٣٤م حتى سنة ١٢٤١/٥٦٣٩م	
إبراهيم بن شعيب بن أحمد بن إبراهيم العريشي	من العريش - رشيد والإسكندرية	فقيه وشاعر	١١٥٣/٥٠٤٨ - ١١٥٤م حتى ١٢٣٨/٥٦٣٦م ١٢٣٩م	- روى الحديث عن والده وجدته - أنشد قصائد شعرية

### خريطة مدن سيناء في العصر البيزنطي



نقلًا عن : محمد زايد عبد الله: سناء مقصدًا للهاريين، ص ٢١٠.

## قائمة المصادر والمراجع

### أولاً: المصادر الأجنبية:

#### **The Acts of the Council of Chalcedon.**

3vols., Trans. Richard Price and Michael Gaddis, Liverpool University Press, Liverpool, 2005.

#### **Anastasius of Sinai.**

Tales of The Sinai Fathers, in History and Hagiography from the Late Antique Sinai, trans. D. Caner, Liverpool University Press, Liverpool, 2010.

#### **Anastasius Sinaita.**

Interrogationes et Responsiones, ed. Migne, in P.G., vol.89, 1865.

#### **Daniele Rhaitheno.**

vita St. Joannis Scholastici Climaei, ed. Migne, in P.G., vol.88, 1864, (cols.595–610)

#### **Epiphanius of Salamis.**

The Panarion of Epiphanius of Salamis Book I (Sects 1–46), trans. F. Williams, 2nd, Brill, Leiden, 2009.

#### **Evagrius.**

The Ecclesiastical History of Evagrius Scholasticus, Trans. M. Whitby, Liverpool University Press, Liverpool, 2000

#### **Georgii Cyprii.**

Descriptio Orbis Romani, ed. H. Gelzer, Lipsiae, 1790.

#### **Hieroclis.**

Synecdemvs Et Notitiae Graecae Episcopatum, ed. G. Parthey, Berolini, 1866.

**Isidori Pelusiotae,**

Sancti Isidori Pelusiotae de interpretatione divina Scriptura.  
Epistolarum, ed. Auctior et Emendatio, Venetiis, 1745

**Polybii Episcopi Rhinocorurorum,**

Vita Sancti Epiphani, ed. Migne, in P.L., vol.  
41, 1863, (cols. 37–114).

**Procopius,**

The Buildings of Justinian, trans. A. Stewart, London  
1888.

**Severus Patriarch of Antioch,**

The Sixth Book of the Select Letters of Severus Patriarch of  
Antioch in the Syriac Version of Athanasius of Nisibis, 2  
vols. trans. E. Brooks, Oxford, 1903.

**Sophronius,**

"The Life of Our Holy Father John The Father " in From  
Three Byzantine Saints: Contemporary Biographies of St.  
Daniel the Stylite, St. Theodore of Sykeon and St. John the  
Almsgiver, trans. Elizabeth Dawes, and introductions and  
notes by Norman H. Baynes, London, 1948.

**Sozomen,**

The Ecclesiastical History of Sozomen, tr. E. Walford,  
London, 1855.

**Sozomenus,**

Church History from 323–425, in Nicene and Post–Nicene  
Fathers: Second Series Socrates, Sozomenus Church  
Histories, Tras. C. Hartranft, 14 vols., ed. Philip Schaff,  
New York, 2017, vol. 2.

## ثانياً: المصادر العربية:

- ابن الأثير (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٣م) عز الدين أبي الحسن الجزري :  
اللباب في تهذيب الأنساب، ٢ج، تحقيق عبد اللطيف حسن عبد الرحمن، دار  
الكتب العلمية، بيروت
- ابن تغري بردي (ت. ٨٧٤هـ/١٤٧٠م) جمال الدين أبو المحاسن يوسف:  
النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ١٧ج، تحقيق محمد حسين شمس  
الدين، دار الكتب العلمية، بيروت.
- ابن خلكان (ت ٦٨١هـ/١٢٨٢م) أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر:  
وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ٨ج، تحقيق احسان عباس، دار صادر،  
بيروت، ١٩٦٨
- ابن عساكر (ت ٥٧١هـ/١١٧٦م) الحافظ أبي القاسم علي بن الحسن :  
تاريخ مدينة دمشق، ٣٧ج، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب  
العلمية، بيروت.
- ابن ماكولا (ت ٤٧٥هـ/١٠٨٢م) الأمير الحافظ علي بن هبة الله:  
الإكمال في رفع الأرتياب عن المؤلف والمختلف في الأسماء والكنى  
والأنساب، ٧ج، تحقيق، دار الكتب العلمية، بيروت.
- ابن ناصر الدين الدمشقي (ت ٨٤٢هـ/١٤٣٨-١٤٣٩م):  
توضيح المشتبه في ضبط أسماء الرواة وأنسابهم وألقابهم وكناهم، ١٠ ج،  
تحقيق محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة.
- الحافظ أبي طاهر السلفي (ت. ٥٧٦هـ/١١٨٠-١١٨١م):  
معجم السفر، تحقيق عبد الله البارودي، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٣.
- الذهبي (ت ٧٤٨هـ/١٣٤٧م) شمس الدين محمد بن أحمد:  
- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والاعلام، ١٧ج، تحقيق بشار عواد معروف،  
ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ٢٠٠٣.
- سير أعلام النبلاء، ١٧ج، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب  
العلمية، بيروت.



**السمعاني**(ت ٥٦٢هـ/ ١١٦٦م) أبو سعد عبد الكريم ابن الإمام الحافظ أبي بكر:  
الأنساب، ١٢ج، تحقيق عبد الله عمر البارودي، ط١، دار الجنان،  
بيروت، ١٩٨٨.

**السيوطي** (ت ٩١١هـ / ١٥٠١م) جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر:  
لب اللباب في تحرير الأنساب، ٢ج، تحقيق محمد أحمد عبد العزيز وأشرف أحمد  
عبد العزيز، دار الكتب العلمية، بيروت.

**الطرطوشي**(ت ٥٢٠هـ/ ١١٢٦م) أبو بكر محمد بن الوليد :  
سراج الملوك، تحقيق: محمد فتحى أبو بكر ، ط١، الدار المصرية اللبنانية،  
القاهرة ، ١٩٩٤.

**القلقشندي**(ت. ٨٢١هـ/ ١٤١٨م) أحمد بن على:  
صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ١٥ج، تحقيق محمد حسين شمس الدين، دار  
الكتب العلمية، بيروت.

**مخطوط السنكسار القبطي اليعقوبي:**

تعليق ميخائيل مكسي إسكندر، هارموني للطباعة.  
**المقريري:** (ت ٨٤٥هـ/ ١٤٤١م) نقي الدين أحمد أبو محمد بن على:  
كتاب المقفى الكبير، ٨ج، تحقيق محمد اليعلاوي، ط١، دار الغرب الإسلامي،  
بيروت، ١٩٩١.

**المنذري**(ت ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م) زكي الدين أبو محمد عبد العظيم بن عبد القوي:  
التكملة لوفيات النقلة، ٤ج، تحقيق بشار عواد، ط٣، مؤسسة الرسالة،  
بيروت، ١٩٨٤.

**ياقوت الحموي**(ت ٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م) شهاب الدين أبو عبد الله:  
معجم البلدان، ٥ج، دار صادر، بيروت.

**يوحنا السلمى:**

كتاب السلم إلى الله، ترجمة رهينة دير مارجرس الحرف.

ثالثاً: المراجع الأجنبية:

**Christopher Loveless،**

Strange Eventful History the story of the Saints of the church of England، 2012.

**Daniel Caner،**

History and Hagiography from the Late Antique Sinai، trans. D. Caner، Liverpool University Press، Liverpool، 2010.

**David T. Runia،**

Philo and the Church Fathers: A Collection of Papers، Brill، Leiden، 1995.

**David Thomas and others،**

Christian–Muslim Relations :A Bibliographical History (600–900)، 16 vols. Brill، Leiden ،2009.

**Frank R. Trombley،**

Hellenic Religion and Christianization: C. 370–529، 2vols.، 2nd، Brill Academic Publishers، Boston ، 2001.

**Herbert Verreth،**

The Northern Sinai From The 7th Century BC Till The7th Century AD.A Guide to The Sources ، 2vols. ، Leuven، 2006.

**Irfan Shahid،**

Byzantium and the Arabs in the Sixth Century، 2vols.، Dumbarton Oaks، America، 1995.

**John Haldon.**

"The works of Anastasius of Sinai. A key source for the history of seventh-century east Mediterranean society and belief ", in *The Byzantine and early Islamic Near East. I. Problems in the literary source material*, ed.A. Cameron and L.I. Conrad , the Darwin Press, Princeton, 1992, (pp.107–47).

**Kazhdan and Others.**

O.D.B. 3 Vols , Oxford University Press , Oxford , 1991.

**Lillian Larsen.**

"The Letter Collection of Isidore of Pelusium" , in *Late Antique Letter Collections: A Critical Introduction and Reference Guide*, ed. C.sogno , B.Storin & E.Watts, University of California Press, 2017,( pp.286–308 ).

**Lina Eckenstein ,**

*A History of Sinai.* Reprint, Cambridge University Press, Cambridge, 2018.

**Madalina Toca,**

"Isidore of Pelusium's Letters to Didymus the Blind", in *Studia Patristica vol.XCVI Papers presented at the Seventeenth International Conference on Patristic Studies held in Oxford 2015*, ed. M. Vinzent, Peeters, Leuven , 2017,( pp.325–332).

**Madalina Toca & Johar Leemans ,**

"The Authority of a 'Quasi-Bishop: Patronage and Networks in the Letters of Isidore of Pelusium", in *Episcopal Networks in Late Antiquity: Connection and Communication Across Boundaries*, ed. C. Cvetkovic and P. Gemeinhardt, Berlin, 2019.

**Nicolas Laos،**

The Metaphysics of World Order: A Synthesis of Philosophy،  
Theology، and Politics، Pickwick Publications، Eugene، 2015.

**Pau Figueras،**

From Gaza to Pelusium، in Beer- Sheva، vol. 14، Ben-Gurion  
University of the Negev Press، 2000.

**Pierre Éviex،**

Isidore de Péluse ، Beauchesne، Paris، 1995.

**Walter D. Ward،**

The Mirage of the Saracen : Christians and Nomads in the Sinai  
Peninsula in Late Antiquity، University of California Press ،  
California ، 2015.

رابعًا: المراجع العربية والمعربة:

**جمال الدين الشيال :**

أعلام الإسكندرية في العصر الإسلامي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ٢٠٠١.

**حسين مؤنس:**

أطلس الإسلام، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ١٩٧٨.

**صبري أبو الخير:**

تاريخ مصر في العصر البيزنطي، ط٢، عين للدراسات والبحوث الانسانية

والاجتماعية، ٢٠٠١.

**مجموعة الشرع الكنسي :**

أو قوانين الكنيسة المسيحية الجامعة التي وضعها المجامع المسكونية والمكانية

المقدسة، ترجمة حنانيا الياس كساب، ط٢، مطبعة النور، بيروت، ١٩٩٨.

**محمد فرحات:**

"الغزو الفارسي لبيت المقدس ٦١٤م"، في دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية،  
دار الوفاء ، الاسكندرية، ٢٠١٥، (ص ٥٥ - ٨٥).

محمد مرسي الشيخ:

تاريخ مصر البيزنطية، ١٩٩٩.

يسطس الأورشليمي:

الرهينة القبطية وآثارها الدينية في شبه جزيرة سيناء، آي برنت، الجيزة، ٢٠١٧.

خامساً: الرسائل العلمية الأجنبية:

**Andrey Kordochkin،**

John Climacus and the spiritual tradition of the IV-VII  
centuries، Durham theses، Durham University، 2003.

**Στυλιανός Γ. Βαγιανός،**

Παιδαγωγικές και ανθρωπογωγικές αντιλήψεις του Ισίδωρου  
Πηλουσιώτη: συμβολή στην ιστορία της παιδαγωγικής ،  
διδακτορικών διατριβών، Πανεπιστήμιο Αθηνών، Αθήνα، 2005.

سادساً: الدوريات العلمية الأجنبية:

**Clement Kuehn،**

Anastasius of Sinai: Biblical Scholar، in B.Z.، vol.103، 2010،  
(pp.55-81).

سابعاً: الدوريات العلمية العربية:

محمد زايد عبد الله:

سيناء مقصدًا للهاربين والحجاج خلال العصر البيزنطي (٢٨٤-٦٣٩م)، مجلة المؤرخ  
المصري، عدد ٤٢، يناير ٢٠١٣، (ص ١٧٧-٢٣٨).



## معركة أوتربرن ١٣٨٨ م (إسكتلندا تغزو إنجلترا)

د. هشام علي الحسيني  
مدرس تاريخ العصور الوسطى  
كلية الآداب - جامعة حلوان

### ملخص:

حاول الإنجليز منذ عهد وليم الفاتح ضم إسكتلندا بهدف توحيد الجزر الإنجليزية، إلا أن الإسكتلنديين لم يرضخوا لهذا الوضع وواجهوا الإنجليز في معارك واشتباكات كثيرة وبخاصة على الحدود، بل وحاول الإسكتلنديون غزو إنجلترا أكثر من مرة وبخاصة في عهد مالكولم الثالث ودافيد الأول، إلا أن النتائج لم تكن حاسمة، بل وتغيرت الأوضاع وخضعت إسكتلندا لإنجلترا منذ عهد هنري الثاني بعد أسر الملك الإسكتلندي وليم الأسد. ثم تباينت العلاقات الإسكتلندية- الإنجليزية ما بين العداء أحياناً والسلم أحياناً أخرى. واستمرت هذه الأوضاع إلى عهد الملك الإنجليزي إدوارد الأول الذي سيطر على إسكتلندا تماماً بعد واقعة فالكيرك. وإذا كان إدوارد الثاني ملك إنجلترا قد هُزم في بانوكبرن ١٣١٤، وتم الاعتراف بإسكتلندا ١٣٢٨، إلا أن وفاة روبرت بروس ملك إسكتلندا جاءت إيذاناً بخضوع إسكتلندا لإنجلترا مرة أخرى في عهد إدوارد الثالث، وتعرض الإسكتلنديون لهزائم متتالية في هاليدون هيل ونيفيل كروس.

تغيرت الأوضاع تماماً في عهد روبرت ستيوارت (الثاني) وروبرت الثالث من بعده، واستغل الإسكتلنديون سوء الأوضاع الداخلية في إنجلترا في عهد ريتشارد الثاني. وجاء الانتصار في معركة أوتربرن ١٣٨٨ ليحقق لإسكتلندا الاستقرار والسيطرة لفترة طويلة، وبخاصة على الحدود بين البلدين بعد معاهدة ١٣٩٦ التي فعلت استقلال إسكتلندا بعد أن ظهرت كحليف لفرنسا في المعاهدة. بل وتجراً الإسكتلنديون بعد غزو إنجلترا على التدخل في الاضطرابات التي كانت تحدث في شمال إنجلترا وسيطروا على الحدود بين البلدين لفترة.



### **Battle of Otterburn 1388**

Since the reign of William the conqueror, the English tried to annex Scotland with the aim of Uniting the English Islands, but the Scots didn't submit to this situation and Faced the English in many battles and clashes, especially on the borders. Indeed the Scots tries to invade England more than once, especially during the reign of Malcolm III an David I, but the results were not decisive, but rather the situation changed, and Scotland was subjugated to England Since the reign of Henry II after the families of Scottish King William Al Assad, then the Scottish – English relations varied between hostility at times and peace at other times and these conditions continued until the era of the English King Edward I, Who Controlled Scotland completely after his reality Falkirk.

If Edward II of England was defeated in Bannockburn in 1314 and the Independence of Scotland was recognized in 1328, however, the death of Robert Bruce, King of Scotland, ushered in subjugation of Scotland to England again during the reign of Edward III, and the Scots suffered successive defeats at Halidon Hill and Neville Cross.

The situation changed completely during the reign of Robert stuart II and Robert III after him, and the Scots took advantage of the poor internal conditions in England during the reign of Richard II, and the victory come in the Battle of otterburn in 1388 to achieve stability and control for Scotland for a long period. Especially on the Borders between the two countries after the treaty of 1396, which established the independence of Scotland after it appeared as an ally of France in the treaty. Indeed, the Scots after the invation of England dared to intervene in the disturbances that were occurring in the north of England and they controlled the borders between the two countries for a period.



يذكر بعض المؤرخين أنه لا ينبغي أن ننخدع بالاستقرار في الخريطة السياسية لأوروبا. فلم يكن ذلك يمنع وجود عدد من الصراعات التي لم تستثن منها عملياً أية قوة، والتي تعتبر في جزء منها نتيجة لذلك الاستقرار. فبين ١٣٠٠ و ١٤٥٠م نشبت بعض المعارك الأكثر شهرة وضراوة في تاريخ أوروبا. كما حدثت بعض حالات الحصار الطويلة الأمد، وأكثر الحملات العسكرية تدميراً. وبطبيعة الحال كان من شأن السباق إلى التسلح والتنافس العسكري أن جعلاً الحرب تتقل على كاهل الحكومات والشعوب. وفي تلك الفترة لا يمكن الفصل بين إنجلترا وفرنسا بسبب الصراع الطويل الذي وضع إحداها في مواجهة الأخرى. فقفزت المملكة الإنجليزية فجأة على صعيد القوى الأوروبية، فقد كانت لها طموحات إقليمية واسعة كانت تحرك ملوكها وشعبها. ولذلك وجدوا في الحرب علاجاً للضغوط الاقتصادية، والتوترات السياسية. كما وجدوا فيها مصدراً لازدهارهم، وربما مبرراً لوجودهم. فقد كانوا يعتقدون دائماً بأنهم يتمتعون بتفوق إزاء جيرانهم.

ويبدو أن الصراع بين إنجلترا وفرنسا لم يشمل الجانب العسكري فحسب، وإنما تعدى إلى حشد وتجنيد الحلفاء، والتآمر وتأليب الجيران، ولذلك دخلت أطراف أخرى حلبة الصراع مثل اسكتلندا، حيث حاول الإنجليز دائماً إخضاع مملكة اسكتلندا، وتعزيز ممتلكاتهم وزيادة حجمها. والواقع أن الاضطرابات التي أثارها الإسكتلنديون، ومحاولاتهم الدائمة للاستقلال قد أضفا مظهراً آخر لخلفية الصراع الإنجليزي- الفرنسي في تلك الفترة. وفي هذا البحث يحاول الباحث إلقاء الضوء على معركة من أهم المعارك في تلك الفترة، وكانت لها نتائج بعيدة المدى والأثر وهي معركة أوتربرن<sup>(١)</sup> Otterburn ١٣٨٨م. وأبدأ البحث بعرض موجز للعلاقات العدائية بين الطرفين مع التركيز على فترة ما قبل المعركة.

(١) قرية صغيرة على بعد ثمانية أميال من نيوكاسل New Castle، وتمتد شرقاً وغرباً بطول نهر

ريدسال Rede (Reed) Sale .

\* Richard Grafton: The Chronicle of John Hardyng, London, 1543, P. 343, Scott.W: Scotland, Vol. 1, Philadelphia, 1830, P. 216.





كان أمراً متوقفاً أن يفرض الإسكتلنديون أنفسهم على خلفية الصورة في تلك الفترة، خاصة وأن العلاقات بين إنجلترا واسكتلندا كانت متوترة، وكانت حدودهما المشتركة مسرحاً للنزاعات المتكررة، وكانت تسمى " أرض المطاردات والاشتباكات". وكان ملوك إنجلترا قد ادعوا حق السيادة على اسكتلندا منذ عهد وليام الفاتح William the Conqueror (١٠٦٦-١٠٨٧)، خاصة وأن الإنجليز حاولوا منذ ذلك الوقت مد نفوذهم إلى اسكتلندا بهدف توحيد الجزر الإنجليزية كلها في مملكة واحدة<sup>(١)</sup>، وكان مؤرخو الإنجليز ينظرون إليهم على أنهم برابرة<sup>(٢)</sup>.

أما في عهد الملك الإنجليزي هنري الثاني Henry II (١١٥٤-١١٨٩) فتوترت العلاقات، واستطاع هنري صد غزوات الإسكتلنديين، خاصة وأن إنجلترا تعرضت للغزو أكثر مرة في عهد مالكولم الثالث " Malcolm III (١٠٥٨-١٠٩٣)، ثم غزا دافيد الأول David I (١١٢٤-١١٥٣) نورثمبريا Northumbria في شمال إنجلترا، ثم فقدها مالكولم الرابع Malcolm IV (١١٥٣-١١٦٥). وقد تغيرت الأوضاع في عهد هنري الثاني من حالة الدفاع إلى حالة الهجوم والتوسع، حيث بلغت الدولة في عهده من النضج والقوة ما جعلها

(1) William of Malmesbury: Gesta Pontificum Anglorum, trans. Thomson. R.M, Vol. II, Oxford, 2007, P. XIX & P. 231., Glaber. R: The Five Books of the Histories, trans John France, U.S.A, 1989, P.54, FF., Stubbs.W: Chronicle and Memorial of Great Britain and Ireland During The Middle Ages, Vol. 1, London, 1864, P. 446., Daniel. K. Cornolly: Coping Maps By Mathew Paris Itineraries Fit For Aking, in. Palmira Brummett: The Book of Travels Genre, Ethnology, And Pilgrimage (1250-1700), Leiden, Boston, 2009, PP. 185,186, Medieval English Literature, Cambridge, 2008, P. 234., McGlynn. S: Medieval Warfare in European Review of History- Revue Europeenne D'Histoire, Vol. 4, No. 2, 1997. Archibald. R. Lewis: The Closing of the Medieval Frontier (1250-1350), in. Speculum, Vol. 33, No. 4 (Oct., 1958), P. 483., Hector. L. Macqueen: Scotland, Politics, Government And Law in. Rigby. S. H: Acompanion to Britain in Later Middle Ages, United Kngdom, 2003, PP.295-299., Keechang Kim: Aliens in Medieval Law, Cambridge, 2004, P. 169.

(2) Maitland F.W: The History of English Law, Vol. 1, Cambridge, 1895, PP. 200, 201., Dalton. P. The Outlaw Hereward" the Wake" His Champion And Enemies, in. John. C. Appleby& Dalton. P: Out Laws in Medieval and Modern England (1066-1600), Great Britain, 2009, P. 23.



قادرة على أن تؤثر فيما حولها من البلاد<sup>(١)</sup>. فامتدت حدود امبراطورية هنري الثاني إلى الأطراف الشمالية من اسكتلندا<sup>(٢)</sup>، واستطاعت جيوشه هزيمة وأسر وليم الأسد William the Lion ملك اسكتلندا عند النويك<sup>(٣)</sup> Alnwick ١١٧٤، واعترف وليم بتبعيته الإقطاعية لهنري الثاني ولأبنة من بعده هنري الثالث<sup>(٤)</sup> Henry III (١٢١٦-١٢٧٢). ثم تحسنت العلاقات بين البلدين في عهد الكسندر الثاني Alexander II (١٢١٤-١٢٤٩) بمقتضى معاهدة يورك مع هنري الثالث، وتخلّى الإسكتلنديون عن الإدعاءات في الكونتيات الإنجليزية في الشمال<sup>(٥)</sup>.

أما في عهد الملك الإنجليزي إدوارد الأول Edward I (١٢٧٢-١٣٠٧) فظل الاتصال قائماً بين المملكتين، وكانت العلاقات جيدة في عهد الكسندر الثالث Alexander

(1) The Chronicle of Roger of Hoveden, Vol. IV, in. Historical Introduction to the Rolls series. By. Stubbs. W, London, New York, and Bombay, 1902, P. 309., Aird. W: Northumbria, in. Paulin Stafford Accompanian to the Early Middle. Ages (Britain And Ireland) 1100-1500, United Kingdom, P. 303.

(2) Eyton. R.W: Antiquities of Shropshire, Vol. 1, London, 1854, P. 35., Duckett, Bart.G.F: Record Evidence of Cluni From 1077 To 1534, Paris, 1886, P. 122.

(3) Pettit. J.: History of Great Britain, London, 1794, P. 312., Willelmi Parvi: Historiarum Anglicarum, Vol. 1, Londini, 1856, P. 179, FF., Pierre De Langtoft: Chronicle De Pierre De Langtoft (From The Earliest Period to the death of King Edward1), Vol. 11, London, 1868, PP. 12, 13., Radulpiae coggeshall Chronicon Anglicanum De Expugnatione TerreAE Sanctae Li Bellus, Thomas Angellus De Mort Et Sepultura Henrici Regis Angliae. Junioris, Gesta Fulconis Filii Warini, Excerepta Exotis Imperialibus Geovassi Tideburiensis, Ed. By. Joshephu Stevenson, London, 1875, P. 18., Barrow. G.W: Scotland (1000- 1306), Great Britain, 1981, P. 178.

(4) Gvillelmi Nevbrigensis Historiam, Paris, 1810, P. 434, ff, Scott.W: Op. Cit, P. 77, Roberston, W: Scotland Under Early Kings, Vol. 1, Edinburgh, 1862, P. 372., Murray. A: The Crusades, An Encyclopedia, Vol. IV, California, Oxford, 2006, P. 1081., Hosler. D.J: Henry 11, Amedieval Soldier Atwar (1147-1189), Leiden, Boston, 2007, PP. 216-219.

(5) Minote. L: Poems on Interestrng Events in the Reign of Edward III, London, 1795, P. XXII, FF., Kaeuper. R.W: Chivalry And Violence in Medieval Europe, Oxford, 1999, P. 107.



III ملك اسكتلندا<sup>(١)</sup> (١٢٤٩-١٢٨٥م)، ولكن بعد وفاة الكسندر الثالث حدث صراع على العرش بين النبلاء<sup>(٢)</sup>، وظهر إدوارد كمحكم في هذا الصراع، وبمساعدة إدوارد تم اختيار باليول Balliol ملكاً على اسكتلندا (١٢٤٩-١٣١٤م)، والذي أعلن خضوعه لإدوارد في كل قراراته<sup>(٣)</sup>.

وفي تلك الفترة ساءت العلاقات بين فرنسا وإنجلترا، وحاول إدوارد الأول الحصول على مساعدة حلفائه ومنهم باليول لتغطية نفقات الحرب مع فرنسا، وحاول إدوارد أن يجعل

---

(1) Tout. T.F: The History of England from the Accession of Henry III to the Death of Edward III (1216-1377), London and Newyork, 1905, P. 177., Hector. L. Maqueen: Op. Cit, PP. 295-299.

(٢) منهم حنا باليول John Balliol لورد جاللووي Lord of Gallway وروبرت بروس Robert Bruce Lord of Anandal (١٢١٥-١٢٩٥) لورد أناندال Lord of Anandal وينحد من سلالة وليم الأسد، وفلورنس Florence وينحدر من سلالة إدا Eda شقيقة وليم الأسد ودافيد، وباتريك دنبار Patrick Dunbar، وليم دي روس William De Ros، وحنا كومين John Comyh وينحدر من سلالة دونالدبان Donaldbane شقيق مالكولم كانمور Malcolm Canmore وآخرون.

\* Dalrymple. D: Annals of Scotland From the Accession of Malcolm III surnamed Canmore to the accession of Robert I, Edinburgh, 1776, P. 190, FF, Hardy. T. D: Syllabus of the Documents Relating To England And Other Kingdoms (1066-1377), Vol. 1, 1869, PP. 108, 109., Gillingham. J & Griffiths. R: Medieval Britain, Oxford, 2000, P. 85., Keen. M: England in the Late Middle Ages, London And New York, 2003, P. 22., Bartlett.R: The Celtic Lands of British Isles, in. New Combridge Medieval History, Vol. V, Cambridge, 2008, P. 820., Jennifer. C. Ward: Noblewomen, Family And Identity in Later Medieval Europ., in. Anne. J. Duggan: Nobles And Nobility in Medieval Europe, Great Britain, 2000, P. 253., Burn S.W.E: A brief History of Great Britain, U.S.A, 2010, P. 74.

(3) Townsend. G: The Act And Monuments of John Foxe, Vol. 11, London, 1837, P. 579., Extrait D'une Chroniques Anonyme: Anciennes Chronique De Flandre, in. R.H. G.F, T.XXII, Paris, 1878, P. 371., Jotisky A & Hull.C: The Penguin Historical Atlas of the Medieval World, Italy, 2005, Dickinson: Scotland From the Earliest Time To 1603, in. Strayer. J : Dictionary of the Middle Ages, Vol. 11, New York, 1988, P. 108, Cynthia. J. Neville: Remembering the Legal Past: anglo- Scottish Border Law And Practice in the Later Middle ages, Great Britan, 2005, P. 48, Holmes. A. D: The Later Middle Ages (1272-1485), New York, 1996, PP. 94,95.



سيادته فعلية على اسكتلندا، فأنكر باليول التدخل الإنجليزي في الشؤون الإسكتلندية، وبذلك اتخذ موقفاً عدائياً صريحاً من إدوارد الأول ورفض مساعدته، بل وتحالف ضده مع الملك الفرنسي فيليب الرابع Philippe IV (١٢٨٥-١٣١٤م) في عام ١٢٩٥م<sup>(١)</sup>. وكرد فعل على هذا التحالف الاسكتلندي - الفرنسي غزا إدوارد الأول المملكة الإسكتلندية، وتنازل باليول عن العرش وتم سجنه في إنجلترا، وأعلن إدوارد سيطرته على اسكتلندا، وجعل الإدارة الإسكتلندية تحت قيادة نائبه الإنجليزي حنا إيرل وارين<sup>(٢)</sup> John Early Warne. ظلت اسكتلندا تدين بالولاء للتاج الإنجليزي، ولولا ظلم الولاة الإنجليز وفسادهم وتعاملهم بقسوة لظلت اسكتلندا على التبعية على حد قول بعض المؤرخين، ولكن ظلم الولاة ولد روحاً ثورية بين الإسكتلنديين، فثاروا ضد الإنجليز بقيادة الفارس وليم والاس<sup>(٣)</sup> William Wallace، وتحت قيادته حقق الإسكتلنديون نصراً كبيراً في معركة

(1)Chronicon Girardi de Fracheto, in. R.H. G.F, T. XX1, Paris, 1855, PP. 21,22., Austin. F.O.: Source Book of Medieval History, New York, Chicago, Cincennati, 1907, P. 419., Black. J. G: Edward And Gascony in 1300, in. English Historical Review, Vol. 17, July, 1902, P. 519., Hume. D: History Of England, London, 1910, PP. 158, 159., Ramsay. J.H: The Dawn of Constitution or the Reigns of Henry III and Edward I (1216-1307), Oxford, 1908, P. 406, FF., Lunt. W.E: AHisotry, Of England, London, 1928, P. 218.

(2)Dalrymple. D: Op. Cit, P. 244., Scott.W: Op. Cit, Vol. 1, P. 72., Hardy. T.D: Op. Cit, Vol. 1, P. 121., Ormrod.W.M: England, Edward II And Edward III, in Cambridge Medieval History, Vol. VI (1300-1415), Cambridge, 2008, P. 273.

(٣) يذكر المؤرخون أنه ولد في عام ١٢٧٠ أو عام ١٢٧٢ في ايلدرسيل Eldersile في رينفروشير Renfrewshire، وهو ابن مالكولم والاس Malcolm، ووالدته تدعى مارجريت Margaret، وله اثنين من الأخوة أندرو Andrew وقتل بواسطة الإنجليز هو ووالده، أما حنا John فأعدم هو الآخر بواسطة الإنجليز ١٣٠٧ بعد إعدام والاس ووصف وليم بالقوة الجسدية والشجاعة وكان يحترم الكنيسة ورجال الدين وله أعمال خير كثيرة عن طريق رعاية الفقراء.



جسر ستيرلنج Stirling Bridge سبتمبر ١٢٩٧<sup>(١)</sup>. ولكن تعلم الإنجليز الدرس، وازدادت روح المقاومة عندهم بعد الهزيمة، واستطاع إدوارد الأول الرد في معركة فالكيرك **Falkirk** ١٢٩٨م. وبعد النصر استطاع إدوارد الأول إخضاع النبلاء، وإعدام وليم والاس، وحاول تحقيق السيطرة التامة على اسكتلندا. ولكن خاب أمله، فلم يستطع إخماد الثورة داخل اسكتلندا. خاصة بعد أن وجد الإسكتلنديون حليف قوي وهو البابا بونيفاس الثامن Boniface VIII (١٢٩٤-١٣٠٣) الذي حاول التوفيق بين إنجلترا واسكتلندا، وكانت له إدعاءات في اسكتلندا، وأنها ملك لكنيسة الرومانية، وأنها ليست تابعة للملك الإنجليزي إقطاعياً، وأنه منذ القدم واسكتلندا تابعة للكنيسة روما ولم تكن تابعة لأسلاف إدوارد، ولذلك اعترض على الغزو الإنجليزي لإسكتلندا، فساعت العلاقات بين البابوية وإنجلترا<sup>(٢)</sup>. كما ظهر زعيم آخر أكثر قوة هو روبرت بروس<sup>(٣)</sup> **Robert Bruce** (١٣٠٦-

\* John Marguess of Bute: Early Days of Sir William Wallace, Paisley, 1876, P. 15, FF., Edward. D. English: Wallace, William, Encyclopedia of Medieval World, U.S.A, 2005, P. 737.

(1) Pierre de Langtoft: Op. Cit, P. 300., Alan Williams: The Knight and the Blast Furnace, Leiden, Boston, 2003, P. 47., Garrett.C: English Medieval Knight (1200-1300), Great Britain, 2002, P. 48., Streissguth. T: The Green Haven Encyclopedia of the Middle Ages, U.S.A, 2003, P. 107.

(2) Joncs. W: Ecclesiastical History, Vol. 111, London, 1838, P. 478., Kidder. D.P: The Lives of the Popes, New York, 1853, P. 258, FF., Walsh. W: England Fight with the Papacy, London, 1867, P. 43., Green Wood. T: Apolitical History of the Great Britain Patriarchate, London, 1872, PP. 305-307., Schuff. P: History, of the Christian Church Middle Ages), Vol. VI, 1882, P. 11, Kidd. D.D: Documents Illustrative of the History of The Church, Vol. III (500-1500), London, 1914, P. 121., Verbruggen. J. F: The art of War in Western Europe During the Middle Ages, TR. BY. Summer Willard & Sourthern. R.W, Great Britain, 1997, P. 122., Deansely. M: Ahistory of the Middle Church (500-1500), New York, 2005, P. 166.

(٣) هو ابن روبرت بروس من أناندال Annandale (ت. ١٢٩٥) مدعي العرش ١٢٩٠م، وهو من عائلة كانت تسعى دائماً إلى العرش بعد وفاة الكسندر الثالث، وكان يحظى بتأييد أغلب النبلاء فيما عدا عائلة كومين Comyn ابن عم باليول، فتخلص من منافسيه وتولى الحكم ١٣٠٦.

\* Alexander Grant: Fourteenth Century (Scotland in. New Cambridge Medieval Hisotry, Vol. VI, Cambridge, 2008, P. 350., Duncan: A.M: Robert 1 of Scotland (1272-1329), in. Strayer. J: Dictionary of the Middle Ages, Vol. 10, New York,



١٣٢٩م) استطاع طرد جيوش إدوارد الأول، وأعلن نفسه ملكاً على اسكتلندا، وحاول إدوارد الأول محاربه إلا أن القدر لم يمهلته وتوفي في كارليل Carlisle ١٣٠٧م، وفي وسط تلك الأحداث كان مولد الأمة الإسكتلندية التي صارت حقيقة ذات أهمية كبيرة بالنسبة لإنجلترا<sup>(١)</sup>.

تقدم بروس ملك اسكتلندا للسيطرة على الأقاليم الاسكتلندية<sup>(٢)</sup>، ونهض إدوارد الثاني<sup>(٣)</sup> Edward II (١٣٠٧-١٣٢٧) لإنقاذ ستيرلنج Stirling، فالتحم الجيشان، واستطاع الجيش الإسكتلندي وبخاصة حملة الرماح دحر الجيش الإنجليزي وهزيمته في بانوكبرن Bannockburn في الرابع عشر من يولييه ١٣١٤م، وأحرز الإسكتلنديون نصراً كبيراً على الإنجليز، وأنهت هذه المعركة السيطرة الإنجليزية على جنوب اسكتلندا إلى

---

1988, P. 426., Powicke. M: The English Commons in Scotland in 1322 and the Deposition of Edward II, in. Speculum, Vol. 35, No. 4(Oct. 1960), P. 556, FF.

(1) Chronico Rotomagensi, in . R.H. G.F, T.XXIII, Paris, 1894., Dubabin. J: Captivity and Imprisonment in Medieval Europe (1000-1300), China, 2002, P. 87, Thea Summer Field: The Testimony of writing: Pierre De Langtoft and the Appeals to History (1291-1306), Great Britain, 2005, P. 37., Garski-R: Justice. and in Justice, England's Local Officials in Later Middle Ages, Great Britain, 2009, P. 56.

(2) Froisart: The Chronicle of Froissart, trans.Bourchier.J,London,1930,pp.16,17.

(٣) ابن إدوارد الأول من إيلينوراف فشتالة Eleanor of Castile، ولد في Carnarvon إبريل ١٢٨٤، وهو أول ملك إنجليزي لويلز Wales في ١٣٠١م، وخلف والده على العرش ٧ يولية ١٣٠٧، وتوفي ٢٧ يناير ١٣٢٧.

=\* Charles. T.Wood:Edward II of England (1284-1327), in. Strayer. J: Ioctionary of the Middle Ages, Vol. 4, New York, 1984, p. 397., Wilkinson. B: Coronation Oath of Edward II and the Statute of York, in. Speculum, Vol. 19, No. 4 (Oct.1944), P. 445,FF.



حين، بل وهاجم بروس الحدود الإنجليزية<sup>(١)</sup>، رغم أنه كان حريصاً على تجنب الدخول في معارك فاصلة<sup>(٢)</sup>.

على أية حال لم تكن معركة بانوكبرن هي نهاية الصراع الإنجليزي - الإسكتلندي، والتي كانت فرنسا العامل الرئيسي فيه، وأعلن بروس حقوق اسكتلندا في السيادة على أراضيها. ورفض الملك إدوارد الثاني الاعتراف بشرعية الملك الإسكتلندي، وبعد المعركة بخمس سنوات حاصر بيرويك Berwick ولم ينل إلا الخيبة. وراً على ذلك قام إدوارد بروس شقيق الملك الإسكتلندي بغزو إيرلندا Ireland في عام ١٣١٥ بمساعدة بروس وبدعوة من بعض النبلاء الأيرلنديين الراغبين في طرد الإنجليز من إيرلندا، فدخل إدوارد بروس إيرلندا وانتصر في عدة معارك على الإنجليز، غير أنه قتل في النهاية وعادت السيطرة الإنجليزية على إيرلندا<sup>(٣)</sup>.

(1) Edwardi Secundi, TR. By. Wendy. R.Childs, U. S.A, 2005, P. 86, FF., Barell. A.D: Medieval Scotland, Cambridge, 2003, P.118., Thea Summer Field: Barbour's Bruce Medieval Literacy Responses To Warfare, Great Britain, 2004, P. 109., Clifford. J. Rogers: The Practice of War, in. Carol Lansing & Edward. D. English: Acompanion to the Medieval World, United Kingdom, 2009, P. 446., Ilana Krug: Wartime Corruption An Complainst of the English Peasantry, in. Vazigi. M & Christie. N.: Noble Ideals And Bloody Realities (Warfare in the Middle Ages, Leiden, Boston, 2006, P. 179., Powicke. M. : Edward II And Military Obligation, in. Speculum, Vol. 31, No. 1 Jan. 1956), PP. 65-98.

(2) Verbruggen. J.F: Op. Cit, P. 341.

(٣) توجه إدوارد بروس إلى إيرلندا بحوالي ستة آلاف اسكتلندي وانتصر في عدة معارك على الإنجليز في Ardscul، وصار سيداً على مقاطعة Ulster، ثم ذهب إليه روبرت بروس وساعده في السيطرة على أجزاء من إيرلندا، ثم ترك له قوة وعاد إلى اسكتلندا ١٣١٧. وبعد رحيل روبرت توقفت طموحات إدوارد بروس في معركة دندالك Dundalk. ١٥ أكتوبر ١٣١٨ بع أن هزم هزيمة ساحقة على يد القائد الإنجليزي John Bermingham، حيث كان الجيش الإنجليزي الإيرلندي يفوق جيشه عدداً، وذبح إدوارد وسط جنوده على يد الفارس الإنجليزي John Maupas، وشوه الإنجليز جثته بطريقة بشعة، وتمكن الفارس الإسكتلندي John Tomson من العودة ببقية القوات الاسكتلندية إلى اسكتلندا.



وفي تلك الأثناء تدخلت البابوية منذ عام ١٣٢٠ في محاولة منها لإعطاء اسكتلندا استقلالها، وأرسل البابا حنا الثاني والعشرون John XXII (١٣١٦-١٣٣٤) خطاباً إلى الملك إدوارد الثاني بذلك، وأعلن الملك من جانبه رده بالرفض، إلا أن البابوية تدخلت ثانية واستطاعت انتزاع الهدنة بمساعدة زوجته إيزابيل Isabelle وعشيقها روجر مورتيمر Roger Mortimer (١٢٧٨-١٣٣٠) المسيطران على العرش، وذلك في مارس ١٣٢٨م فيما عرف بمعاهدة أدنبره Edinburgh، وتم التصديق عليها بعد شهرين في نورثامبتون<sup>(١)</sup> Northampton، وتم الاعتراف باستقلال إسكتلندا في مقابل مبلغ مالي كبير، وزواج ابن روبرت بروس من شقيقة إدوارد الثالث<sup>(٢)</sup> Edward III (١٣٢٧-١٣٧٧) جوان Joan

\* Scott.W:Op. Cit, PP. 125, 126., Niav Gallagher: The Franciscans and Scottish Wars of Independence, an Irish Perspective, in. Journal of Medieval History, Vol. 32, P. 17., Tony Jaques: Dictionary of Battles And Sieges, London, 2007, P. 317.

(1) Scott. W: Ibid, P. 158., Ben Dodds: Peasant And Production in the Middle North- East (1270-1536), Great Britain, 2007, P. 67., Wormald. J: Scotand History, in. Strayer. J: Dictionary of the Middle Ages, Vol. 11, New York, 1988, P. 110., Fasolt. C: Council And Hierarchy, Cambridge, 1991, P. 311., David. G. Sylvester: Communal Piracy in Medieval England's Cinque Ports, in. Maya Yazigi & Niall Christie: Noble Ideals And Bloody Realities (Warfare in the Middle Ages), Leiden. Boston, 2006, P. 170., Jordan. C: Richard II (1367-1400), An Encyclopedia, Vol. 4, New York, 1996, P. 14 .Allmand.C: The Report of War in Middle Ages, Liverpool, 2000, p. 22.

(٢) الابن الأكبر لإدوارد الثاني من إيزابيل دي فرانس Isabelle ابنة الملك الفرنسي فيليب الرابع، وتوج في عمر الرابعة عشرة بعد سيطرة والدته وعشيقها روجر مورتيمر على العرش لمدة ثلاث سنوات، ثم أعدم مورتيمر وسيطر على الحكومة ٢٩ نوفمبر ١٣٣٠. تزوج فيليب من هاينوت Philippa of Hainault (١٣١٤-١٣٦٩) في عام ١٣٢٨م وأنجب منها أبنائه إدوارد من ودستوك Edward of Wood Stock والد حفيده ريتشارد الثاني Richard II، وأنجب حنا اف جنت John of Gaunt الذي لعب دوراً كبيراً في تلك الفترة في العلاقات مع اسكتلندا وكان لإدوارد الثالث دور كبير على الساحة السياسية.

Richard Grafton: Op. Cit, P. 17. Graftons' Chronicle or History of England From the Year 1189 To 1558, Vol. 1 London, 1809, P. 412., John Levis: The History of the Life and Suffering of Reverend and Learned John Wicliffe, London,





(١٣٢١-١٣٦٢). وبعد الهدنة علم إدوارد أن جيشاً اسكتلندياً يخترق الأقسام الشمالية من مملكته، وقبل أن تنشب الحرب مرة أخرى، تفهقر الإسكتلنديون، وتم الصلح مرة أخرى بين الطرفين ولكن هذه المرة في بيرويك<sup>(١)</sup>.

بعد وفاة إدوارد الثاني تولى العرش إدوارد الثالث، وظل ينظر بعين الحذر إلى اسكتلندا، وأعلن عدم رضاه عن معاهدة نورثامبتون ١٣٢٨، وأيده الشعب الإنجليزي في ذلك، وما إن تخلص إدوارد الثالث من وصاية والدته إيزابيل وروجر مورتيماير حتى بدأت أعماله ضد اسكتلندا<sup>(٢)</sup>. فعندما توفى روبرت بروس في السابع من يونيو ١٣٢٩، انتقلت حكومة اسكتلندا إلى راندولف Randolph صاحب الخبرة الطويلة في خدمة العرش الإسكتلندي، وصار إيرل موراي Early of Moray وصياً على عرش الملك دافيد الثاني David II (١٣٢٩-١٣٧١م) الذي كان في الخامسة من عمره. وأرسل إدوارد الثالث عدة مطالب رسمية إلى إيرل موراي يذكره بضرورة تنفيذ التعهدات التي التزم بها بروس بشأن إعادة إيرليات بوشان Buchan وانجوس Angus وبارونية ليديل Liddel إلى بومونت Baumont، وامفراويل Um Farville، وويك Wake<sup>(٣)</sup>.

1720, P. 235., Hartmilan. Di History of Latin Christianity, Vol. III, London, 1872, P. 151., Maselino. J: Ex Altera Chronici Rotomagensis, in. R.H.G. F, T.XXIII, Paris,1894,PP 351, 352., Edward. D. English: Encyclopedia of Medieval World., U.S.A, 2005, P. 234.

(1) Froissart: Op.Cit, PP. 16, 17., Lodge. R: The Close the Middle ages (1272-1494), London, 1924, P. 68., Hector. L. Maqueen: Op. Cit, P. 299., Cynthia. J. Nevile: Op. Cit, P. 249., Streissguth. T: Op. Cit, P. 249.

(2) Gutch.J: History And Antiquities of England And Ireland, Vol. 1, London & Cambridge, 1781, P. 3 FF., Mackay. A & Ditchburn. D: Atlas of Medieval Europe, London, New York, 1997, P. 320., Ramsay. J. H: Genesis of Lancaster or the Three Reigns of Edward II, Edward III, And Richard II (1307-1399), Vol. 1, 1913, PP. 226-232., Alexander Grant: Op. Cit,P. 351.

(3) Grafton's Chronicle, P. 331., Minote. L: Op. Cit, P. XXVII., Jones. M: The Hundred Years War, in. Mackay. A: Atlas of Medieval Europe, London, New York, 1997, P. 159., Lodge. R: Op.Cit, PP. 68, 69. .



جاء رد إيرل موراي مخيباً لآمال إدوارد الثالث، فقد ضرب إيرل موراي بتلك المطالب عرض الحائط، وعندئذ استغل الطامع في العرش إدوارد باليول **Edward Balliol** (ابن حنا باليول) الفرصة وقاد الساخطين على نظام الحكم في اسكتلندا ضد إيرل موراي<sup>(١)</sup>، خاصة بعد أن استقبله إدوارد الثالث في قصره ووعدته بالمساعدة ضد إيرل موراي<sup>(٢)</sup>. وعلى الرغم من ذلك تصرف إدوارد الثالث بكياسة في بداية الأمر، فلم يكن مستعداً لتوريط نفسه في كارثة أخرى كذلك التي حلت بوالده، وأصدر بياناً أكد فيه التزامه التام بمعاهدة نورثامبتون، ومنع المسلحين من عبور الحدود الإسكتلندية دون إذنه<sup>(٣)</sup>، بيد أنه في الوقت نفسه غض الطرف عن تجهيز قوة صغيرة في مياه هيومبر Humber البعيدة، وأبحرت هذه القوة من المغامرين إلى فورث Forth ووصلوا إلى ميناء كينجهورن Kinghorn، وبعد سلسلة من المغامرات الحربية المحفوفة بالمخاطر هزموا الإسكتلنديين الذين كان يقودهم دونالد أيرل مار Earl of Mar في دبلن مور Dupplin Moor بالقرب من بيرث Perth في الحادي عشر من أغسطس ١٣٣٢م، بعد موت إيرل موراي بأسابيع قليلة، وكان إيرل موراي آخر رفاق السلاح لروبرت بروس الذي ظل على قيد الحياة<sup>(٤)</sup>.

(1) Graftons Chronicle, P. 332, FF., Westerhof D: Death and Noble Body in Medieval England, Great Britaing 2008, P. 97, FF., Hector. L. Maqueen: Op. Cit, P. 300.

(2) Scott. W: Op. Cit, P. 176, FF, Westerhof. D: Ibid, P. 97, FF., Edward. D. English, Encyclopedia of the Medieval World, P. 234.

(3) Charles. W.Eliot: Chronicle And Romance, Froissart, Malory, Holinshed, Neusork, 1910, P. 3, Ramsay. J. H: Genesis of Lancaster, PP. 226-232, Edward D. English: Encyclopedia of Medieval World, P. 234., Westerhof. D: Ibid, P. 97FF.

(4) Ormrod. W.M: The Personal Religion of Edward III, in. Speculum, Vol. 64, No. 4 (Oct. 1989), P. 862., Barell. A.D: Op. Cit, P. 128., Hector. L. Maqueen: Op. Cit, P. 300., Westerhof. D: Ibid, P. 97, FF .



واصل إدوارد الثالث إنتصاراته للمرة الثانية على الإسكتلنديين في معركة هاليدون هيل<sup>(١)</sup> Halidon- Hill ١٣٣٣ وهي المعركة التي دمرت كل ما أسسه روبرت بروس، وتبين للجميع أن معاهدة نورثامبتون قد انتهت، واضطر دافيد بروس David Bruce وكبار قادة اسكتلندا إلى الهروب إلى فرنسا ومعهم بعض الأساقفة وذلك في مايو ١٣٣٤م، وقسمت أسكتلندا بين إدوارد الثالث الذي سيطر على معظم الجنوب الإسكتلندي، وإدوارد باليول الذي سيطر على باقية اسكتلندا، وأصبح بمثابة الدمية في أيدي إدوارد الثالث<sup>(٢)</sup>. ولم يغيب عن بال إدوارد الثالث إمكانية إحياء التحالف الفرنسي - الإسكتلندي نتيجة العدوان الإنجليزي على اسكتلندا. وقبيل معركة هاليدون هيل بثلاثة أيام صدرت الأوامر للتجار الإنجليز محذرة إياهم بعدم التحرش بالفرنسيين دون سبب لتقادي مخاطر

(١) تقدم إدوارد الثالث في الأراضي الإسكتلندية بدعم من إدوارد باليول، واجه جيشا بقيادة ارشيبالد دوجلاس Archibald Douglas الوصي على الطفل دافيد بروس، وانتصر إدوارد الثالث وقتل ارشيبالد دوجلاس بالقرب من هاليدون هيل، وسيطر إدوارد الثالث وإدوارد باليول على اسكتلندا.

\* Willard. J. F: Inland Transportation in England during the Fourteenth Century, in Speculum, Vol. 1, No. 4, (Oct. 1926), P. 363., Clayton. J. Drees: The Late Medieval age of Crisis And Renewal (1300-1500), U.S.A, 2001, P. 138, Tyerman. C.J: Philip VI And The Recovery of The Holy Land, in. English Historical Review, Vol. 100, No. 394 (Jan. 1985), P. 31., Jim Bradbury: The Medieval Archer, Great Britain, 1985, P. 88, Kelly De Vries & Robert. D. Smith: Medieval Weapons, U.S.A, 2007, P. 170, Whetham D: Just Wars And Moral Victories, in. Kelly De Vries: History of Warfare, Vol. 55, Leiden, Boston, 2009, P. 111.

(2) Scott. W: Op. Cit, P. 176, FF, Hardy. T.D: Op. Cit, P. 346, FF, Shenton. C: Edward III and the Symbol of the Leopard, in. Peter Coss & Maurice Keen: Heraldry, Pageantry And Social Display in Medieval England, Great Britain, 2002, P. 80., Alastair. J. Macdonald: John Hardyng, Northumbrian Identity And Scots, in North- East England in Later Middle Ages, By. Christine. D. Liddy & Richard. H. Britnell, Great Britain, 2005, P. 33., Tyerman. C.J: Ibid, P. 31, Wormald. J: Op. Cit, P. 110., Ben Dodds: Op. Cit, P. 67.



اندلاع الحرب<sup>(١)</sup>. ويبدو أن خطة إدوارد الثالث كانت العمل على أن تظل المفاوضات الإنجليزية - الفرنسية قائمة على قدم وساق، غير أن فيليب السادس Philippe VI (١٣٢٨-١٣٥٠) ألقى مفاجأة مذهلة. فمجرد وصول دافيد بروس إلى فرنسا أبلغ وفد المفاوضات الإنجليزية تصميمه على ان معاهدة السلام مع إنجلترا لابد وأن تتضمن وضع دافيد بروس الملك الاسكتلندي بل وكل شعب اسكتلندا. وظل التأييد الفرنسي لاسكتلندا يمثل العقبة الكبرى أمام التوصل إلى إتفاق انجليزي- فرنسي<sup>(٢)</sup>.

كان موقف الملك الفرنسي فيليب السادس داعماً قوياً للوطنيين في اسكتلندا، فتجمعوا تحت قيادة اندرو موراي Andrew Moray (ابن صديق والاس وزوج أخت روبرت الأول)، وروبرت ستيوارت. Robert Stewart أما جماعة المغامرين الذين حققوا نجاح في اسكتلندا كما ذكرت، فقد تنازعا فيما بينهم ووجدوا أن إدوارد نفسه متورطاً في سلسلة من الحملات باهظة التكاليف وغير حاسمة، وهو الأمر الذي تعرض له جده من قبل. وقبل بداية عام ١٣٣٤ إجتاح إدوارد الثالث الأراضي المنخفضة في هجوم مفاجئ، كلفه أموالاً كثيرة، وفي الصيف التالي ١٣٣٥م شن هجوماً أكثر طموحاً مع باليول، على أمل إحراز نصرنهائي على المنادين بالاستقلال الاسكتلندي. تحرك الجيش الإنجليزي عبر الأراضي الاسكتلندية الجنوبية وتجمع عند بيرث، بيد أن هذا الجيش لم يتمكن من السيطرة

---

(1) Deprez. E: Les Preliminaire de la Guerre de Cent Ans, Paris, 1902, P. 92, Dana Carlton: The Middle Ages (395-1500), New York & London, 1921, P. 416, Scott. L. Waugh: Edward III (1327-1377), in. Emmerson. R.K: Key Figures in Medieval Europe, An Encyclopedia, New York And London, 2006, P. 191, Ruth Brand: Galloay the Solway Shore and the Nature of Borders, in. Brendan Smith: Ireland and English World in Late Middle Ages, Great Britain, 2009, P. 63., Wormald. J: Ibid, P. 110.

(2) Kelly De Vries: Acumulative Bibliography of Medieval Military History and Technology, Leiden, Boston, 2002, P. XIX, Dana Carlton: Op.Cit, P. 416, Minote. L: Op. Cit, P. XXVIII, Tyerman. C.J: Op. Cit, P. 31.



على الإسكتلنديين أو إخضاعهم بعد أن تصدت لهم القوات الإسكتلندية بقيادة اندرو موراي<sup>(١)</sup>.

ومن الملاحظ في تلك الفترة أن سفراء البابا بندكت الثاني عشر Benedict XII (١٣٣٤-١٣٤٢) كانوا يحاولون تحقيق السلام بين إنجلترا واسكتلندا، غير أن إدوارد الثالث أبلغ رئيس أساقفة يورك York أن ملك فرنسا ودافيد بروس قد رفضا كل عروض السلام التي تقدم بها، وأن فيليب صرح علناً أنه متعاطف مع شعب اسكتلندا بعد أن وعدهم بمساعدتهم بكل قوة<sup>(٢)</sup>، وأنه يعد أسطولاً لغزو إنجلترا. وعلى الجانب الآخر ازدادت أعمال القرصنة الاسكتلندية، واستولى الإسكتلنديون على سفينة تجارية انجليزية، وقام اسطول بروس يشن هجوم غير ناجح على كل من جيرسي Jersey، وجيورنسي Guernsey، غير أن انتقال الأسطول المعد للقيام بحملة صليبية من ميناء مارسيليا إلى إقليم نورماندي Normandy أفضى إدوارد الثالث بأن فيليب السادس قد عقد العزم على توسيع نطاق تدخله لصالح شعب إسكتلندا، واتهمه بمحاولة انتهاز كل فرصة لمساعدة الإسكتلنديين والدفاع عنهم، ومحاولة توريث إدوارد في الحرب مع اسكتلندا<sup>(٣)</sup>. وكان من الممكن أن تعيش أوروبا

---

(1) Scott. W: Op. Cit, P. 176, FF, Grafton Chronicle, P. 237, FF, Mckisack. M: The Fourteenth century, (1307-1399), Oxford, 1959, P. 118, Verbruggen. J. F: Op. Cit, R. 344., Alastair. J. Macdonald: Op. Cit, P. 35, Ben Dodds: OP. Cit, P. 67.

(2) Grafton's Chronicle, P. 237, FF, Neil Jamiesan: Sons of Iniquity: The Problem of Unlawfulness Land Criminality Amongst Professional Soldiers in the Middle Ages, in. John. C. Appleby & Paul Dalton: Outlaws in Medieval And Early Modern England (1066-1600), Great Britain, 2009, P. 93., Tyerman. C.J: OP.Cit, P 31.

(3) Fawtier. R: Histoire du Moyen age, Tome VI, Premierrepartie (L'Europe age Occidentale de 1270 a 1328), Paris, 1940, P. 484., Mckisack. M: Op. Cit, P. 119.



في سلام لو كان بندكت الثاني عشر راغباً في أن يسمح لفيليب السادس بالذهاب في حملته الصليبية ضد الأتراك. فقد كان هذا البابا يميل إلى الحذر أكثر من سلفه<sup>(١)</sup>. ويبدو مما سبق أن روح المغامرة لم تكن الدافع الوحيد عند إدوارد الثالث، لأن الحرب في تلك الفترة كانت مصدر للحصول على المكافآت المادية، ولاسيما أن فرنسا كانت غنية بخيراتها في ذلك الوقت، وكان من السهل مهاجمتها دون عوائق طبيعية. على عكس تلال اسكتلندا الوعرة، ومستنقعاتها القاحلة. لذلك فإن إغراء المغامرة والرغبة في الحصول على المال بالإضافة إلى الطمع والجشع كل ذلك دفع إدوارد الثالث وشعبه نحو خوض الحروب في تلك الفترة.

ومن الجدير بالذكر أن بعض المؤرخين أطلق على الفترة الممتدة من ١٣٢٩ إلى ١٣٤١م "اسكتلندا بدون ملك"<sup>(١)</sup>. وبعد عودة دافيد بروس إلى اسكتلندا ١٣٤١ استغل

(١) حظيت فكرة إعداد حملة صليبية بالأسبقية على كل القضايا الأخرى في تلك الفترة. على أن تكون هذه الحملة مكونة من جيش ضخم تحت قيادة ملك فرنسا من أجل استعادة الأراضي المقدسة، ولوضع حد لعمليات السلب والنهب التي مارسها الأتراك السلاجقة في منطقة إيجيه، ولإنهاء هجمات المماليك على قبرص. وفي عهد إدوارد الثالث وفيليب السادس كانت هناك عوامل إغراء متمثلة في محاولة القيام بمغامرات تحت راية الصليب تحقيقاً للشهرة والمجد، وبدأ الأمر وكأنه مشروع حملة صليبية مشتركة سيعمل على توثيق عرى الاتفاق بين إنجلترا وفرنسا ١٣٣١م. غير أن البابا بندكت الثاني عشر عاش حالة من القلق من جراء هذه الحملة، ومن اهتمام فرنسا المتزايد باسكتلندا، وفوق كل ذلك فقد خشى من ردود الفعل المحتملة في حالة فشل الحملة في الشرق، وعندما أعلن فيليب أنه مستعد للتحرك أغسطس ١٣٣٦، أفصح البابا عن مخاوفه في خطاب طويل أرسله لفيليب، وشرح فيه وجهة نظره في تأجيله الحملة بل وحاول منع فيليب من التدخل لصالح دافيد ولما وجد فيليب نفسه قد حرم من ثمار جهوده، ومن الأحلام التي راودته إذا ما قام بهذه العملية البطولية، لذلك حول اتجاه الأسطول نحو موانئ بحر المانش، واستعد للتدخل لصالح الشعب الاسكتلندي.

\* Vickers. K. H: England in Later Middle Ages, London, 1913, P. 158, Coville. A: Histoire D: Moyen Age, Tome VI, Duxieme Partie L'Europe Occidentale De 1328 a 1380, Paris, 1941, P. 506, Ramsay. J. H: Genesis of Lancaster, PP. 252, 253.



فرصة إنشغال إدوارد الثالث بحصار كاليه<sup>(٢)</sup> Calais وسيطر على اسكتلندا بمساندة مؤيديه بزعامة روبرت ستيرارت Robert Stewart، وصارت بيرويك فقط تحت سيطرة الإنجليز. واستطاع دافيد بروس عبور الحدود الإنجليزية على رأس جيش كبير، وذلك بتحريض من فيليب السادس، واستولى دافيد بروس على مدينتي ليديل Liddell، ودورام<sup>(٣)</sup> Durham. وعلى الرغم من حرج موقف إدوارد الثالث تمكنت القوات الإنجليزية من إلحاق

---

(1)Barell. A.D: Op. Cit, P. 128.

(٢) كانت كاليه هدفاً مهماً بالنسبة لإدوارد الثالث، إذ كان في حاجة إلى ميناء في القارة الأوربية، وكانت كاليه تمثل الأمل المرتقب. إذ أن امتلاك رأس جسر عبر مضيق دوفر يغنيه عن الاعتماد على الموانئ الفلمنكية، وعن الطريق البحري الطويل إلى جاسكوني Gascony. ولاتخاذها كقاعدة عسكرية لممارسة الأعمال الحربية في الأراضي الفرنسية، وضد سفن القرصنة الفرنسية في بحر المانش. كما يمكن أن تكون المدنية مركزاً تجارياً مهماً لتوزيع السلع الإنجليزية وأهمها الصوف.

=\* Froissart: Op. Cit, pp. 107, 108, Charles. W.Eliot: Op. Cit, P. 33, Peuple Francois: La Legend Des Flamens (Chronique ABrégée), 1558, P. 147, De Freville. E: Des Grands Compagnies Au Quatorzieme Siecle, in. Bibliotheque De L'Ecole Des Chartes, Tome Cinquieme, Paris, 1843, P. 236, Ordericus. Vitalis: The Ecclesiastical History of England And Normandy, TR. By. Thomas Forester, Vol. IV, London, 1856., P. 266, Stephenson. C: Medieval History (Europe From the Second to the Sixteenth Century), U.S.A, 1962, P. 495, Lynn Thorndike: The History of Medieval Europe, Boston, New York, Chicago, 1917, P. 514, Kelly De Vries: Calculating And Losses During The Hundred Years War, in. Lawring Armstrong and Others: Mony, Markets And Trade in Late Medieval Europe, Leiden, Boston, 2007, P. 159, Keen. M: Chivarly and the Aristocracy, in. New Cambridge Dge Medieval History, Cambridge, 2008, P. 398, Craig. L. Lambert: Edward II Siege of Calais: Areappraisl, in. Journal of Medieval History, Jan, 2012. P. 246, FF.

(3) James ESQ. G.R.R: History of the Life of Edward the Black Prince, London, 1836, P. 2, FF, Laurance Harf- Lancer: L'Eclairge Iconographique L'Illustration Des Chronique De Froissart, in. Erik Medieval, Amsterdam, 2008, P. 29, Joncs W: Op. Cit, P. 478, John watts: The Making of Politics, Europe (300-1500), U.S.A, 2009, P. 183.



الهزيمة بالجيش الاسكتلندي، بل وتم أسر دافيد بروس نفسه عند مدينة نيفيل Neville فيما عرف بمعركة نيفيل كروس<sup>(١)</sup> Nevill's Cross (بالقرب من دورام).

(١) بعد الهزيمة في هاليدون هيل قام الملك دافيد بروس بالرحيل سراً مع قلة من رفاقه وزوجته إلى فرنسا، وأحسن الملك الفرنسي استقبالهم، واشترط على دافيد ألا يقوم بالسلام مع إنجلترا دون استشارته. كما أرسل إلى اللوردات في اسكتلندا يتحالف معهم ضد إنجلترا، وكان الملك الفرنسي فيليب السادس يعتقد أن استمرار إثارة المشاكل مع الإنجليز يعوقهم على الحرب ضد فرنسا. وأثناء حصار إدوارد لكاليه قرر الاسكتلنديون الانتقام لما حدث لهم في هاليدون هيل معتقدين أن مملكة إنجلترا ينقصها الرجال للحرب؛ لأن جزء منهم في بريتاني وأخرون في بويتو Poitou وجزء في جاسكوني Gascony، والجزء الأكبر يحاصر كاليه. احتشد الجيش الاسكتلندي بالقرب من الحدود، وعلمت ملكة إنجلترا فيليبيا من هايتوت Philippa of Hainault بأمر الجيش الإسكتلندي، وأرسلت في طلب الرجال، ومكثت في يورك، وتوافد رجال الحرب ورماة السهام حيث توجد الملكة. ورحل الملك دافيد بروس وجيشه ماراً بستيرلنج وادتيرة، ثم حاصروا روكسبرج Roxburg أول حصن إنجليزي، ثم دمروا بلدة نورثمبرلاند Northumberland هذا في الوقت الذي وصلت فيه الملكة إلى نيوكاسل Newcastle حيث تمركزت القوات الإنجليزية. تقدمت القوات الاسكتلندية إلى نيو كاسل بأراضي اللورد نيفيل Neville على بعد ثلاثة أميال حيث التقت مع القوات الإنجليزية، وكانت الملكة تنتقل من ميدان إلى ميدان لحث القوات على القتال. وبدأت المعركة التاسعة صباحاً وتفوق الإنجليز ونالوا النصر، وأسر دافيد بواسطة الفارس John Copelard وتم تسليم دافيد للملكة في يورك، ثم رحلت الملكة إلى لندن، وسجن دافيد في برج لندن.

=\* Froissart: Op. Cit, pp. 110, 111, Labbe.M: Dictionnaire Historique Portatif, Tome. 1, Paris, 1760, P. 444, Gardiner. S.T: English History, Bc 55 To Ad 1886, London, 1892, P. 83 FF, Ainsworth. P: Representing Royalty: Kings, Queens, And Captains in Some Early Fifteenth- Century Manuscripts of Froissart Chorniques, in. Erik Kooper: The Medieval Chronicle, Amsterdam, 2008, P. 8, Afourteenth Century Chronicle From the Grey Frairs At Lynn in. Antonina Gransden. Legends, Traditions and History in Medieval England, Great Britain, 1922, P. 283, Normand. R. Cartier: the Lost Chronicle, in. Speculum, Vol. 36, No. 3 (Jul. 1961), P. 432., Andy King: Scaling Ladder: The Rise And Rise of the Grays of Heaton (1296-1415): In. Christian. D. Liddy & Richard. H. Britnell. North -





وفي الواقع كانت السنوات التي تلت الاستيلاء على كاليه مخيبة لآمال إدوارد الثالث لأن نفوذه بدأ يتقلص في عدة جهات. فبالنسبة لإسكتلندا نجد أنه لم يحدث أن استسلم الشعب الإسكتلندي عندما وقع دافيد بروس في الأسر في نيفيل، على الرغم من أن دافيد بروس كان في موقف صعب، ولم يستطع أن يكون له بصمة أو تأثير على الحكومة الإسكتلندية، خاصة وأنه كان يعاني من المقارنة الدائمة بوالده. وعلى الرغم من تقديم إدوارد باليول وعوداً إلى الملك الإنجليزي بتسليمه كل ممتلكات وصلاحيات دافيد بروس<sup>(١)</sup>؛ إلا أن إدوارد الثالث تجاهل باليول، وأدرك أنه لا بد وأن يتعامل مع دافيد كملك، خاصة بعد أن نجحت الحركة الوطنية في اسكتلندا على يد رئيس البلاط دافيد روبرت ستيوارت. واتفق إدوارد الثالث مع الحكومة الاسكتلندية على فدية مقدارها مائة ألف كروان (حوالي ٦٦.٦٦٧ جنيه إسترليني) يدفعونها على أقساط لمدة عشر سنوات مع احتفاظ إدوارد الثالث لمنطقة محايدة على الحدود. غير أن دافيد الذي قضى فترة طويلة من الوقت في قلعة ملك إنجلترا حتى عام ١٣٥٧، بدا وأنه قد مال إلى الإنجليزية وتأثر بهم، ولذلك وجد نفسه في نزاع مستمر مع شعبه بعد قليل من الوقت<sup>(٢)</sup>. ولم يكن لدافيد عقب، كما شعر بالكراهية تجاه

---

East. England in Later Middle Ages, Great Britain, 2005, P. 65, FF, Keen. M: Medieval warfare, Oxford, 1999, P. 311, Trevelyan. G.M: History of England, London, 1909, P. 228, Dobson. R.B: Durham Priory Cambridge, 1973, P. 30, FF.

(1) Grafton Chronicle, P. 275, FF, Denys Hay: Europe in the Fourteenth and Fifteenth century, London, 1989, P. 116, Penman. M: The Bruce Dynasty, in Journal of Medieval History, Vol. 32, 2006, P. 348.

(2) Minote. L: Op. Cit, P.XXXIII, FF, Scott. W: Op. Cit, P. 188, FF, Nicolas. J. Mayhen: Scotland, Economy And Society, in. S . H. Rigby: A Companion to Britain in Later Middle Ages, United Kingdom, 2003, P. 116, Wormald. J: Op. Cit, P. 110, Denys Hay: Op. Cit, P. 116, John watts: Op. Cit, P. 183.



روبرت ستيوارت Robert Stewart الذي كان وريثه المرتقب<sup>(١)</sup>، والذي لم يكن له دور فعال في معركة نيفيل كروس، وخضع لإدوارد الثالث بعد مهاجمة إدوارد الثالث لأراضي عائلة ستيوارت Stewart. كما كان دافيد خائفاً من إدوارد باليول المرشح الإنجليزي المحتمل<sup>(٢)</sup>. ولذلك في عام ١٣٦٤ اقترح دافيد على إدوارد الثالث توحيد التاجين الإسكتلندي

(١) حاول روبرت ستيوارت ومعه إيرلات دوجلاس Douglas ومار Mare التمرد ضد دافيد في عام ١٣٦٣م، ولكنهم فشلوا. محاولاً إنجاب وريثاً للملكة. وأثناء فترة غياب دافيد كان روبرت ستيوارت حارساً على اسكتلندا في الفترة من (١٣٤٦ إلى ١٣٥٧)، وحاول روبرت فرض سيطرته على اسكتلندا بعقد تحالفات مع Earl of Ross و Lord of Isles. كما حاول السيطرة على Earl of Fife بزواج وريثه إيزابيل Isabelle من ابنه (ابن روبرت) Walter ولكن والتر توفي ١٣٦٢م، فتزوجت إيزابيل بإيعاز من دافيد من فارسه المحبوب Bisset في محاولة من دافيد للتصدي للمدعين والطامعين من النبلاء وعلى رأسهم روبرت ستيوارت. ثم قام بسجن ومصادرة عدد من النبلاء. ولذلك تقرب إليه بعض النبلاء الضعفاء، أما إيرلات دوجلاس ومار ومعهم روبرت ستيوارت فتمردوا ضد دافيد بروس واستغلوا التأثير السيئ على اقتصاد المملكة الإسكتلندية بعد الفدية الضخمة التي وافق عليها دافيد، وعلى الرغم من هذا التمرد سيطر دافيد على اسكتلندا وعلى النبلاء، أما روبرت فلم يكن له التأثير أو الشعبية اللازمة لهزيمة دافيد. وكانت العلاقة بين دافيد وروبرت بعد ١٣٦٣ من الصعب التكهن بها. ولكن زواج أنابيل Annabella ابنة أخ الملكة من الابن الأكبر لروبرت ستيوارت حنا John ربما جعل هناك حالة من القبول بالنسبة لدافيد أن التاج سوف يذهب إلى عائلة ستيوارت إذا هو فشل في إنجاب طفل، خاصة بعد أن منح دافيد إيرلية Carrick لحنا في عام ١٣٦٨. وعندما توفي دافيد ١٣٧١م بدون وريث صار الطريق ممهداً لروبرت للمطالبة بالعرش.

\* Scott. W: Ibid, P. 204, FF, Duncan. A. M: Robert II (1371-1390), in. strayer. J. : Dictionary of the Middle Ages, Vol. 10, New York, 1988, P. 428, Edward. J. Cowan: Robert II of Scotland (1316-1390), in. strayer. J: Dictionary of the Middle Ages, Vol. 10, New York, 1988, P. 428, Tyerman. C.J: Op. Cit, P. 31.  
(2) Cynthia. J. Neville: Op. Cit, P. 51, Barell. A. D: Op. Cit, P. 129, Penman. M: Op. Cit, P. 348, Nicolas. J: Op. Cit, P. 116, Wormald. J: Op. Cit, P. 110.



والإنجليزي تحت حكم حنا من جنت<sup>(١)</sup> John of Gaunt (١٣٤٠-١٣٩٩) في مقابل الإعفاء من الفدية. وكما كان متوقفاً فقد تصدى البرلمان الإسكتلندي لهذا الاقتراح. وعندما توفي دافيد بروس صار الطريق ممهداً أمام روبرت ستيوارت للمطالبة بالعرش وبالفعل توج روبرت ستيوارت (الثاني) في سكون Scone (على مصب نهر تاي) مارس ١٣٧١، وهو أول ملك من أسرة ستيوارت التي حكمت اسكتلندا لمدة ثلاثة قرون<sup>(٢)</sup>.

كان روبرت ستيوارت محظوظاً على عكس دافيد بروس في إنجاب الأبناء<sup>(٣)</sup>، واستطاع روبرت التمكين لنفسه ولأبنائه من بعده في اسكتلندا، وأحكم السيطرة هو وأبنائه

(١) ولد في مدينة جنت Gaunt ، وهو الابن الرابع لإدوارد الثالث، وعم ريتشارد الثاني Richard II ملك إنجلترا (١٣٧٧-١٣٩٩)، تزوج ثلاث مرات جعلته الجد المباشر أو السلف المباشر لعائلات لانكستر ونيودور Tudar والبرتغال والمملكة الإسبانية وهو دوق لانكستر Lancaster وأكوينين Aquitaine ولنكولن Lincoln وليستر Leicester، والوكيل الإقطاعي الأكبر لانجلترا High Seneschall، وصاحب السيادة الشرفية على قشتالة Castile وليون Leon: ولعب دوراً كبيراً في فترة القرن الرابع عشر سياسياً وعسكرياً، وبخاصة في الحملات الإنجليزية على فرنسا.

\* Andrea. C. Ruddick: Gascony and the Limits of Medieval British Isles History, in. Brendan Smith: Ireland and the English World in Late Medieval Ages, 2009, Great Britain, P. 71, Lan Castrian: Politics, the French war and the Rise of the Popular Elements, in. Speculum, Vol. 58, No. 1 (Jan. 1983), P. 102.

(2) Dalrymple. D: Op. Cit, P. 361, Scott. W: Op. Cit, P. 198, Barell. A.D: Op. Cit: P. 137, Hector. L. Maqueen: P. Cit, P. 300, Wormald. J: OP. Cit, P. 110.

(٣) تزوج مرتان من اليزابيث Elizabeth وانجب منها حنا إيرل من كارريك Carrick، ووالتر إيرل من فيف Wlateral Earl of Fife، وروبرت إيرل من مونتيث Monteith، والكسندر إيرل من بوشان Bucha، وأنجب منها ست بنات تزوجت من أكبر عائلات اسكتلندا ثم تزوج من Euphemia وانجب منها أربع بنات، تزوجت أكبرهم من جيمس إيرل دوغلاس James Earl Douglas، والأخريات من أكبر العائلات وكان روبرت حريصاً على تشجيع طموحات أبنائه في الداخل والخارج، فقد شجع أحد أبنائه على غزو إيرلندا.

\* Darlymple. D: Ibid, P. 361, Scott. W: Ibid, P. 198, FF, Barell. A. D: Ibid, PP. 140-142.



على اسكتلندا لفترة طويلة، واستطاع أبنائه تكوين نفوذ سياسي وثروات لأنفسهم، والقضاء على منافسيهم واستطاع روبرت السيطرة على النبلاء خاصة بعد وفاة إدوارد باليول ١٣٦٤م، ويادر بعقد تحالف مع الملك الفرنسي شارل الخامس **Charles V** (١٣٦٤ - ١٣٨٠). ولا شك في أن هذا التحالف الفرنسي - الاسكتلندي يعتبر عملاً عدوانياً موجهاً ضد الإنجليز، كما يلاحظ على حد قول بعض المؤرخين أنه البداية الرسمية للحلف بين الدولتين<sup>(١)</sup>.

وفي تلك الفترة كان الإنجليز يسيطرون على بيرويك وروكسبرج Roxburgh وأناندا Annandale على الحدود بين البلدين. لذلك كان من المهم استنزاف وإثارة الإنجليز بمهاجمة الحصون والمعازل الإنجليزية مثل بيرويك، فقد كانت هناك مناوشات واشتباكات من حين إلى آخر على الحدود في النصف الثاني من حكم روبرت ستيوارت<sup>(٢)</sup>، خاصة بعد أن توقف دفع الفدية المقررة على دافيد بروس بعد وفاة إدوارد الثالث ١٣٧٧، والذي أدرك قبيل وفاته أن كل ما حصل عليه قد كلفه ثمناً باهظاً للغاية من جهد وإراقة للدماء والأموال<sup>(٣)</sup>.

(1) Scott. W: Ibid, P. 210, Hume. D: Op. Cit, P. 180, Bellamy. J: The Law of Treason in England in Later Middle Ages, Combridge, 1970, P. 108, Cuttino. : The Causes of Hunderd Years War, in. speculum, Vol. 31, No. 3 (Jul. 1956), P. 464, Stokstad. M: Medieval Castles, U.S.A, 2005, P. 88., Penman. M: Op. Cit, P. 368.

(2) John. S. Davies: An English Chronicle of the Reigns of Richard II, Henry IV, and Henry VI, London, 1856, P. 2, the Chronica Maiora of Thomas Willsingham (1376-1422), trans. David Breest, Great Britain, 2005, P. 45, Ormrod. W. N: England, P. 277, Barell. A. D: Op. Cit, P. 142, Cynthia. J. Neville: Op. Cit, PP. 53, 54.

(3) Hallam. H: The Constitutional History of England, From Edward I To Henry VII, London, 1869, P. 44, FF, Walburton. W: Edward III, London, 1875, P. 233, A Fourteenth Century, Chronicle from the Grey Frairs At Lynn. in. Antomina Gransden: Legends Traditions And Hisotry in Medieval England, Great Britain, 1922, P. 283, Townsend. G: Op. Cit, P. 806, Kowleski. M: Warfare Fare, Shipping and Crown Patronage: The Impact of



بعد وفاة إدوارد الثالث اعتلى العرش ريتشارد الثاني<sup>(١)</sup> (١٣٧٧-١٣٩٩) ابن الأمير الأسود، وهو صبي لم يتجاوز الحادية عشرة من عمره، فامتألت البلاد في عهده

Hundred Years War on the Port Towns of Medieval England, Leiden, Boston, 2007, P. 253.

(١) ابن الأمير الأسود Black Prince وكونتيس من كنت Contess of Kent (١٣٢٩-١٣٨٥)، ولد في السادس من يناير ١٣٦٧ في بوردو Bordeaux، تولى الحكم بعد جده إدوارد الثالث ١٣٧٧ وهو في سن التاسعة، وتوج في السادس عشر من يولية في ويستمنستر Westminster. وقع تحت سيطرة أعمامه وبخاصة حنا اف جنت، وعدد من الايرلات. تزوج من أن من أبو هيمدا Anne of Bohemia ١٣٨٢ (ت. ١٣٩٤). وأدت سياسته التعسفية إلى نشوب الثورات ضده، فقد كان يتبع سياسة محاباة بعض النبلاء والأمراء على البعض الآخر، وكان يكافئ أصدقائه بالقلع والأراضي، ورفع البعض لدرجة النبالة، مما أغضب الطبقة الارستقراطية من تصرفاته. دخل ريتشارد الثاني في صراع مع النبلاء في معركة Radcot Bridge في Oxford Shire وتسمى بالحرب الأهلية الصغيرة لأنها لم تستمر طويلا، وتخلص ريتشارد من النبلاء بإعدام قادتهم. ولكن كنتيجة لعم استشارته للبرلمان. وسياسته، تم عزله ١٣٩٩ وسجن في قلعة Pontfract وتوفى ١٤٠٠. واشتهرت أعماله من خلال دراما وليم شكسبير " Shakespeare ريتشارد الثاني".

\* Cooke. T: The Life. of King Edward III, London 1737, P. 42, Ainsworth. P: Froissart And His Second Book, in. Allmand. C: War, Government And Power in Late Medieval France, Liverpool, 2000, P. 32, Guessard. M: Gaulute Ou Le Sire De Gaules, (1380-1423), in Bibliotheque De L' Ecole Des Chartes, Tome. Quatrieme, Paris, 1847-1848, P. 443, Tierney. B: Source of Medieval Hisotry, Vol. 1 New York, 1999, P. 297, Roger Mott: Richard II and the Crisis Of July 1397, in. Ian wood And G.A. Loud: Church and Chronicle in the Middle ages, Great Britain, 1991, P. 165, FF, Chris Given- Wilson: Official And Semi Official History in Later Middle ages, the English Evidence in Context, in. Erik Kooper: The Medieval Chronicle Amsterdam, 2008, P. 5, ABram. A: English Life And Manners in the Later Middle Ages, London, 1913, P. 36, Charles. P. Sherman: Abrief History of Medieval Roman Canon Law in England, in. University of



بالقلق الشديد والحزبية البغيضة، والهزقة الدينية التي أذاعتها تعاليم ويكلف وجماعة اللولارية<sup>(١)</sup>، تلك التعاليم التي تحدد نظم البابوية والكنيسة معاً، وأيقظت وعي الطبقات

Pennsylvania Law Review and American Law Register, Vol. 68, No. 3 (Mar. 1920), PP. 244, 245, Claire Valente: The Theory And Practice of Revolt in Medieval England Great Britain, 2003, PP. 171, 172, Marten. M. A & Carter M. A: Histories, Vol. 11 (The Middle Ages), Oxford, 1926, P. 184, FF, Flecher. C: Manhood, Kingship and the Publiclate Medieval England, Paris, 2012, P. 125, Boardman. S & Williams. E: The Cult of Saints. and the Virgin Mary in Medieval Scotland, Great Britain, 2010, P. 96, Monte, L. Bohna: Edward the Black =Prince (1330-1376), Medieval Terms And Phrases, 2004, P. 17, Barron. C: Chivalrey, Pageantry And Merchant Culture in Medieval London, Great Britain, 2002, P. 227, Alan Cooper: Bridges, Lowland power in Medieval England (700-1400), Great Britam, 2006, P. 137, Emmerson. R. K: Key Figures in Medieval Europe, Richard II (1377-1399), Great Britain, 2006, PP. 565, 566, Dorothy. B. Johnston: Richard II in. Medieval Ireland, An Encyclopedia, New York & London, 2005, P. 411, Fulton. K. K: New Direction in Bureaucratic Codicology of Piers Plowmen. in. Drek Persall, New Direction in Late Medieval Manuscripts, York 2000, P. 117.

(١) اسم للحركة الإصلاحية الدينية في إنجلترا في القرن الرابع عشر، ومن رجالها حنا ويكلف John Wycliffe، وهم الذين اتخذوا الوعظ والدعوة إلى مجادلة الكنيسة في أصول الدين هدفهم الأسمى. أما عن حنا ويكلف فاكتمسب شهرة واسعة في تلك الفترة، وجعله الملك الإنجليزي إدوارد الثالث عضواً في بعثة ملكية لمفاوضة مندوبي الباب جريجوري الحادي عشر Gregory XI (١٣٧٠-١٣٧٨) في بعض المسائل المختلفة بين الطرفين. وبعد عودته عكف في أكسفورد على وضع عدة بحوث هامة حول العلاقة بين السلطتين العلمانية والكنسية. وهاجم ويكلف الكنيسة وأن الثروة الواسعة التي تمتعت بها الكنيسة ورجالها مظهر من مظاهر انصراف رجال الدين عن مهمتهم الأساسية، ويعيب على رجال الدين عدم تفرغهم لواجباتهم، واشتغالهم بالسياسة والإدارة، واتهمهم بالفساد، وأن البابا عدو المسيح. في حين اعتبر الديرية فئة من العاطلين، ولهذا انصب جزء كبير من نقد ويكلف على الأديرة ومنظمات الإخوان الرهبان بسبب ممتلكاتهم الواسعة من جهة



وإخفاقهم في إعلاء كلمة الرب من جهة أخرى، وقد صادفت أراء ويكلف هوى في نفس عدد من الأمراء الإنجليز الطامعين في ممتلكات الكنيسة فاستدعوه إلى لندن لشرح أرائه على الملأ مما أثار رجال الدين ضده وأنكر جريجوري الحادي عشر أراء وتعاليم ويكلف. وأرسل البابا إلى إدوارد الثالث لكي يقبض عليه، ولكن إدوارد قد توفى، وانتهى الأمر بطرد ويكلف وشيخته من اكسفورد، فاعتزل في إحدى القرى حتى توفى سنة ١٣٨٣.

\* Murray. T: The Life of John Wycliffe, Edinburgh, 1829, P. 14, FF, Vaughan. R: The Life and Openion of John De Wycliffe, Vol. 1, London, 1831, P. 229, FF, St. Alphonsus. Liguori: The Hisotry of the Heresies and Their Refutation, or the Triumph of the Chruch, TR. By. T. Mullock, Dublin, 1847, PP. 131-134, the Catholic Layman, Vol. V, November 15, No. 59, 1856, PP. 121-123, Hooke W: Lives of the Archbishops of Canterbury, Vol. 3, London, 1865, P. 19, Rudolf Buddensieg: Johnwycliff's De Veritate Sacrae Scripturae, London, 1882, P. 71, FF, Arnold. T. M: Select English Work of John Wycliffe, Vol. 3, Oxford, 1871, P. 6, FF, Life And Times of John Wycliffe the Morning Star of The Reformation, 1884, P. 23, Ff, Simon. N. Forde: Social Outlook and Preaching in Wycliffite Sermones Dominicals Collection, in. Ian Wood & G.A. Loud: Church and Chronicle in the Middle Ages, Great Britain, 1991, P. 179, FF, Shanon Cayk: Image, Text, And Religious Reform in Fifteenth. Century England, Cambridge, 2010, P. 15, FF, Deanesly. M: Op. Cit, P. 220, Michael. D. Bailey: Wicheraft, Heresy, And Reform in Late Middle Ages, U.S.A, 2003, P. 57, Thompson. H: A Conville and Caius Wycliffe Manuscript, in. Speculum , Vol. 8, No. 2 (Apr. 1933), P. 197, Ghosh, K: The Wycliffite heresy, Cambridge, 2004, P 22, FF., Stephen. E. Lahey: John Wycliffe, Oxford, 2009, P. 5, =FF, Forrest. I: The Detection of Heresy in Late Medieval England, U.S.A, 2005, P. 32, FF, Andre. E. Larsen: John Wycliffe, Leiden, Boston, 2006 P. 49, Shogimen. T: Wycliffe's Ecclesiology And Political Thought, P. 140, FF, Harper Bill. C: Studies in The History of Medieval Religion, Vol. XVII, Great Britain, 2001, P. 7, Somerset; Fiom: Clerical Discourse And Lay Audience in Late Medieval England, Cambridge, 1998, P. 7, FF,



الكادحة كنتيجة لمساوى النظم الاجتماعية والاقتصادية السائدة في إنجلترا، فأدرك الفلاحون ما هم فيه من بؤس وشقاء وحرمان، وقاموا بثورتهم التي انتشرت بأرجاء إنجلترا، وأحدثت هزات اجتماعية خطيرة كادت تعصف بعرش ريتشارد وحكومته<sup>(١)</sup>، فيما عرف بثورة الفلاحين<sup>(٢)</sup> ١٣٨١م.

موريس بيشوب: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ت. علي السيد علي، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٤، ص ٣٥١، ٣٥٢.

(1) Eartman. T: Birth of the Leviathan Building States and Regimes in Medieval And Early Modern Europe, Cambridge, 1997, P. 176, Malcolm Vale: The Princely Court (1270-1380)Oxford, 2001, P. 160,

نظير حسان سعداوي: تاريخ إنجلترا وحضارتها في العصور القديمة والوسطى، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٨، ص ١٥٠.

(٢) اندلعت الشرارة الأولى للثورة في بلدة دراتفورد Dratford لمقاطعة كنت Kent حين ذبح فلاح أحد محصلي ضريبة الرأس لأنه أهان ابنته. وامتدت الثورة من تلك المقاطعة إلى سائر الولايات، حيث وجد جماعة اللولادية فرصتهم والهوا شعور الفلاحين وبصروهم بحقيقة أمرهم وأن بيت الداء ليس الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية فقط، بل فساد رجال الدين، وهنا وقف الفلاحون على حقيقة وضعهم في المجتمع، وأنهم ضحية الكنيسة والإقطاع معاً. وأدرك الفلاحون أنه لا سبيل للخلاص إلا بالثورة على الكنيسة والمجتمع معاً. وقاد الثورة مصلحون دينيون على جانب المصلحين السياسيين فكان من أبرز قادتها حنا بول John Ball المعتقد لتعاليم ويكلف. وايضا من قادة الثورة وات تايلور Wat Taylor أحد الجنود المتقاعدين بمدينة كنت. وهاجم الفلاحون قصور الإشراف وأحرقوها، وأطلقوا سراح المسجونين، وقتلوا العديد من رجال الدين، وانتشروا في شوارع لندن يحرقون ويخربون، ولكن فشلت الثورة بعد قتل تايلور واعدام عدد كبير من الفلاحين ومنهم حنابول وجاك سترو Straw قائد الثورة في مقاطعة اسكس Essex. وكانت الثورة إحدى صور القلق الاجتماعي، وبدأت في الأقاليم وانتقلت إلى العاصمة حيث تأمرت عليها الملكية والإقطاع حتى قضى عليها.

\*Froissarl: Op. Cit, P. 250, FF, Myers. A. R: English Historical Documents, Vol. 4, London, 1969, P. 127, FF, Labbe M: Op. Cit, P. 629, Pettit. J: Op. Cit, P. 396, Goodman. A: The Peasant Revolt of 1381, in. Angus Mackay:





وقد تزامن أيضاً اعتلاء ريتشارد الثاني العرش مع تجدد غارات قشتالة والفرنسيين على إنجلترا<sup>(١)</sup>، وهكذا جاء الدور على إنجلترا لتعاني من ويلات غزو الأعداء لها<sup>(٢)</sup>. وبعد ذلك بعام واحد حدث الشقاق في البابوية، والذي يبدو وأنه كان نذير سوء لإطالة أمد الحرب<sup>(٣)</sup>. فقد ظل البابوات يعملون من أجل السلام بين القوى المتصارعة إنجلترا وفرنسا واسكتلندا، وإن كانت جهودهم لم يصادفها التوفيق التام، إذ ورطهم الشقاق في صراع على أحقية خلافة الكرسي البابوي من الناحية الواقعية. فهناك أوربان السادس Urban VI (١٣٧٨-١٣٨٩) في روما، وكلمنت السابع Clement VI (١٣٧٨-١٣٩٤) في أفينون Avignon وكلاهما تتافس على العرش البابوي. ومن ثم سعى كل منهما إلى الحصول على الحلفاء. ونظراً لعدم مقدرة كل منهما على القضاء على الآخر دون مساعدة عسكرية فقد اضطر كل منهما إلى التخلي عن عمله الأساسي في الوساطة وعمل على إشعال نيران الحرب<sup>(٤)</sup>. وعندما أعلنت كل من فرنسا واسكتلندا تأييدها للبابا كلمنت السابع، أعلنت إنجلترا مساندة البابا أوربان السادس<sup>(٥)</sup>.

---

Atlas of Medieval Europe, London & New York; 1997, P. 226, Hilton. R: Medieval Peasant Movements and the English Rising of 1381, London & New York, 2003, P. 136, FF, Wikinson. B: The Peasant Revolt of 1381, in. Speculum, Vol. 15, No. 1 (Jan. 1940), P. 12, FF, Judson Knight: Middle ages Almanac, U.S.A, 2001, P. 216, Hanawalt. B: The Medieval Ages, New York, Oxford, 1988, P. 149, Palliser. D.M: Towns And English State (1066-1500), London, 2000, P. 143, Bailey. M: The Commercialisation of the English Economy (1086-1500), in. Journal of Medieval History, Vol. 24, No. 3, Netherlands, 1998, P. 301.

(1) The Chronica Maiora of Thomas Walsingham, P. 46.

(2) Coville. A: Op. Cit, P. 631.

(3) The Chronica Maiora of Thomas Walsingham, P. 81, Ramsay. J. H: Genesis of Lancaster, Vol. II, P. 111.

(4) M R. Rapin De Thoyras: The History of England, TR. By. Tindal. M., Vol. 1, London, 1743, P. 482, Michelet. J: Histoire De France, Tome. Quatrieme, Paris, 1861, P. 60, FF, Charles Lea. H: A history of Inquisition of the Middle Ages, Vol. 2, London, 1888, P. 131, FF, Austin. F: Op. Cit, PP.



وفي الواقع لم تكن فرنسا أحسن حالاً من إنجلترا في تلك الفترة، فقد توفي شارل الخامس، وجلس على عرش فرنسا شارل السادس<sup>(١)</sup> Charles VI (١٣٨٠-١٤٢٢م)

389, FF, Maxwell Stuart: chronicle of the Popes, Slovenia, 1997, P. 138, FF, Kidd. B.J: Documents Illustrative of the History of the Church, Vol. 3, London, 1941, P. 207, Swanson. R. N: universities, A Cademics and the Great Shism, London, Melbourne, 2002, P. 5, FF, Shepherd Hamm. J: The Paper Resource Guide To Medieval History, U.S.A, 2010, PP. 321, 322, Dyson. R: Medieval Ruler and Political Ideology, United Kingdom, 2009, P. 364, Ullmann. W: Ashort History of the Papacy in the Middle ages, London, & New York, 2003, P. 140, FF, Canning. J: Ahistory of Medieval Political Thought, London & New York, 1996, P. 176, FF, Logan. D: Ahistory of the Church in the Middle Ages, London & New York, 2002, P. 315, FF.

(1) Schuff. P: Op.Cit, PP. 66, FF, Greenwood. T: Cathedra Petrica Political History of the Great Latin Patriarchate, Book. XIV, London, 1872, P. 470, FF, Ann Curry: War or Peace? Philippe De Mezieres, Richard II And Anglo- French Diplomacy, in. Kosinski. B& Petkov. K: Philippe DeMezieres And His Age, Leiden, Boston, P. 306, FF, Andreas Meyer: Papal Monarchy, United Kingdom, 2009, PP. 388, 389, Edward. J. Cowan: Op. Cit, P. 428, Rigby. S: Wisdom And Chivalry (Medieval Political Theory), Leiden, Boston, 2009, P. 156.

(٢) شارل السادس أو الملك التعس على حد قول بعض المؤرخين، الملك القاصر الذي جلس على العرش وعمره لا يتجاوز الثانية عشرة، وكان كل اهتمامه بالمبارزات والحفلات الراقصة. وأصيب بمس أو على حد قول بعض المؤرخين أصبح " مخبولاً " عندما بلغ الرابعة والعشرين عاماً، على الرغم من أنه يحظى ببعض فترات الصفاء الذهني أو التفكير فقضت سياسة الأوصياء أعمامه لويس ويوحنا وفيليب، على ثمار المجهود الإصلاحية لشارل الخامس، وظل الفرنسيون في منازعات وأهملوا القواعد والمبادئ التي خلفها شارل الخامس لتكون أساس التنظيم العسكري.

\* Deloziere. M: De Erreux de date Contenues dans les registre Du trésor Des Chartes, in Bibliotheque De L' Ecole Des Chartes, Tome. Troisieme, Paris, 1857, P. 152, Vallet De Viriville: Essais Critiques Sur Les Historiens Originiaux De Regne De Charles VII Chronique Du Cousinot, in. Bibliotheque De L' Ecole Des Chartes, Tome. Troisieme, Paris, 1857, P. 12, Alphillard De Saint- Aiglan: Notice Sur Jean Botillier, Auteur De Le



خلفاً لأبيه وعمره لا يتجاوز الثانية عشرة، وتعرض كيان الأمة الفرنسية للخطر مرة أخرى، فمرت البلاد بوصاية طويلة على ملك قاصر، وقضت سياسة الأوصياء على ثمار المجهود الإصلاحى لشارل الخامس، وظهرت الحزبية البغيضة والخلافات الداخلية كما حدث في إنجلترا، واستغل الإسكتلنديون تلك الأوضاع لغزو إنجلترا<sup>(١)</sup>. ويلاحظ أنه إذا كان روبرت ستيوارت قد بادر بالتحالف مع شارل الخامس ملك فرنسا كما ذكرت، فقد استمر هذا التحالف مع شارل السادس، وصار العداء واضحاً مع إنجلترا، وصارت هناك رغبة

---

Comme Rural, in. Bibliotheque De L' Ecole Des Chartes, Tome. Quatrieme, Paris, 1847-1848, P. 101, Bisson De Sainte Marie: Jacques De Tarente (Dernier Empereure De Constantinople) En Faveur De Louis D' Anjou (15 Juillet 1383) in Bibliotheque De L'Ecole Des Chartes, Vol. XLV, Paris, 1884, P. 190, Henry Gillard: Essai de Biographic Jean De Foleville (Prevot De Paris Sous Charles, VI, in. Bibliotheque De "Ecole Des Chartes, Vol. LXIX, Paris, 1908, P. 371, Davis, C.M: Hisotry of Holland, Vol. 1, London, 1894, P. 176, Le Soleil: Un Embeme Redo table. Une Lecture Typologique Dela Crise De Folie Du Roi Charles VI, in. Journal of Medieval History, Vol. 24, No. 1, Netherlands, 1998, P. 53, Kibler & Others: Medieval France, An Encyclopedia, London, 1995, P. 378, Harry. A. Miskimin: The Last Act of Charles V, in. Speculum, Vol. 38, No. 3 (Jul., 1963), P. 433.

(1) Himly. A: Publications Historique De La Academie Imperiale De Vienne, Vol. XXXIX, 1878, P. 494, Daveste M. C: Traités Et Droits De Douanes Dans L' Ancienne France, in. Bibliotheque De L' Ecole Des Chartes, Tome. Quatrieme, Paris, 1846, P. 470, Guingant. H: Titres Concernant Raimond Du Temple, Architecte De Roicharles V, in. Bibliotheque De L' Ecole Des Chartes, Tome. Quatrieme, Paris, 1848, P. 56, Norbye. M: A Tous Nobles Qui Aiment Beaux Faits Et Bonnes Histories, Afifteenth- Century Logical Chronicle, in. Erik Kooper: The Medieval Chronicle, Amsterdam, 2008, P. 181, Richard C. Flamigliett: Charles VI, in. Medieval Europe, An- Encyclopedia, New York London, 2006, P. 128, Autrand. F: France Under Charles V & Charles VI, in New Cambridge Medieval History, Vol. VI, Cambridge, 2008, P. P. 429., Lavissee. E: Histoire De France, Paris, 1913, P61.



ملحة لدى اسكتلندا في استرداد المنطقة الواقعة تحت سيطرة إدوارد الثالث على الحدود بين البلدين<sup>(١)</sup>.

بدأ الإسكتلنديون مقدمات المعركة في عام ١٣٧٨ بقيادة روبرت ستيوارت بالاستيلاء على بيرويك Berwick ١٣٧٨، فقد اجتمع إيرلات اسكتلندا<sup>(٢)</sup> في مورلان Morlane واتجهوا إلى بيرويك، وكان حاكمها John Byset ويعاونه الفارس الشجاع Robert Abenton. وأرسل الإسكتلنديون جاسوساً يستطلع لهم الأمور ودخلوا المدينة، وعندما عاد أخبر إيرلات اسكتلندا بما رأى، وعندئذ استطاع حامل درع اسكتلندا الفارس أليساندر Alysander ومعه جماعته العبور خلال خندق، ثم تسلقوا الأسوار ودخلوا المينة واستولوا على قلعتها. وعندئذ أرسل إيرل نورثمبرلاند Northumberland للاستجد بالورد بيرسي Percy لنجدة بيرويك، فأتى حاملي الروح ورماة الرماح والفرسان إلى النويك Alnwick وعلى رأسهم لورد نيفيل Neville ولورد نيوكاسل New Castle والفارس الشجاع موسجراف Mosgrave ومعهم عدد كبير من الفرسان وحاصروا القلعة وذبخوا

(1) The Bruce of the Book of the Most Excellent And Noble Prince Robert De Broys, King of Scots Compiled By Master. John Barbour, Archdeacon of Aberdeen, Ed. Walter. W. Skeat, London & New York, 1875, P. 110, Grafton's Chronicle, PP. 413, 414, Lingard. J: History of England, London, 1825, P. 228, Archibald. R. Lewis: Op. Cit, P. 480, Alexander. Grant: OP. Cit, P.353.

(٢) إيرل دوجلاس Earl of Duglas ، وإيرل مور Earl of Maure ، وإيرل سورلانت Surlant ، كونستابل اسكتلندا Constable of Scotland ، والمارشال أف هوست Hoost ، وروبرت أف فيرسي Robert Of Versy ، والسير أرشمبالت دوجلاس Sir Archambalt Duglas ، وحامل درع اسكتلندا أليساندر Allysander.

\* Froissart: Chronicle Of Froissart, trans. Bouchier. J, Vol. II, London, 1901, P. 491, FF the Chronica Moiora of Walsingham, P. 78, John. S. Davies: Op. Cit, P. 3, Dobson. R.B: Op. Cit, P. 318, Barell. A. D: Op. Cit, P. 142.



العديد من فرسان اسكتلندا، ووقع أليساندر في الأسر، وعادت القلعة تحت سيطرة الإنجليز<sup>(١)</sup>.

وفي نفس العام ١٣٧٨ قرر إيرلات نور ثمبرلاند ونوتينجهام Notyngham الانتقام من الإسكتلنديين واللاحق بهم بعد استرداد بيرويك، ولكن القوات الاسكتلندية بقيادة روبرت دوجلاس Robert Douglas وابنه جيمس دوجلاس James Douglas استطاعت دحر القوات الإنجليزية، وانسحبت القوات الإنجليزية بأمر من اللورد بيرسي<sup>(٢)</sup>. وفي عام ١٣٨١ عندما علم حنا من جنت عم الملك ريتشارد الثاني بثورة الفلاحين، عقد هدنة مع الاسكتلنديين لمدة سنتين وعاد لإنجلترا<sup>(٣)</sup>. وتوالت المناوشات والمعارك على الحدود بين الطرفين<sup>(٤)</sup>، وقام الاسكتلنديون بعمليات سلب ونهب في نورثمبرلاند ونوتينجهام وموبراي

(1) Froissart: Ibid, Vol. II, P. 491 FF, Lingard. J: Op. Cit, P. 228, Scott. W: Op. Cit, P. 211.

(2) Froissart: Op. Cit, Vol. II, P. 498, FF, Lingard. J: Ibid, P. 228, John. S. Davies: Op. Cit, P. 3, Penman. M: Op. Cit, P. 368, Burns. W. E: Op. Cit, P. 90.

(3) The Chronica Maiora of Walsingham, P. 167.

(٤) في بداية عام ١٣٨٤ هجم الإنجليز بجيش بقيادة توماس أف وودستوك Thomas of Woodstock، واستطاع الإسكتلنديون أيضا في نفس العام بقيادة ارشيبالد دوجلاس Archibald Douglas (الشرس) السيطرة على قلعة Lochmaben، وأعاد إيرل دوجلاس السيطرة على Teviotdale فيما عدا روكسبرج Roxburgh وجيدبرج Jedburgh. وقد استحسن روبرت ستيوارت هذه المحاولات لإعادة السيطرة على الأراضي الاسكتلندية، وإن كان في بداية حكمه لم يحقق النجاح في الحروب الأسكتلندية - الإنجليزية، إلا أنه اعتمد على أبنائه حنا إيرل كارريك John Earl of Carrick وروبرت إيرل فيف Robert Earl of Fife اللذان لعبا دورا بارزا في الحروب الاسكتلندية - الإنجليزية. وكرد فعل للقوات الإنجليزية قام حنا من جنت بتدمير هيدنجتون Heddington.

\* Froissart: Chronicle of Froissart, Vol. III, London, 1901, P. 476, Alexander Grant: Op. Cit, P. 353, Barell. A. D: Op. Cit, P. 142, Thea Summer Field, Op. Cit, P. 109.



Moubray وروزبورج Rosebource بمساعدة الفرنسيين. فرد الإنجليز بقية حنا من جنت وشقيقه توماس من وودستوك Thomas of Woodstock بالهجوم لتأديب الاسكتلنديين. ولكن في نهاية ١٣٨٤ قام إيرل نورثمبرلاند وايرل نوتينجهام بالذهاب إسكتلندا ومعهم سفراء من فرنسا لإخبار الاسكتلنديين بأن هناك سلام بين فرنسا وانجلترا<sup>(١)</sup>، بغرض تحسين العلاقات في تلك الفترة ليس بين البلدين فقط بل وبين النبلاء أيضاً<sup>(٢)</sup>.

عقب الهدنة التي لم تدم طويلاً، اجتمع قادة فرنسا مع قادة اسكتلندا تحت رعاية روبرت دوجلاس في عام ١٣٨٥م، وحاول الجميع خلق ثغرة داخل انجلترا، خاصة وأن الإسكتلنديين كانت لديهم الرغبة في الانتقام والثأر مما حدث لهم في عهد إدوارد الثالث<sup>(٣)</sup>. ولذلك تم تجهيز جيش كبير بقيادة أدميرال فرنسا Admiral of France جان دي فيين Jean De Vienne الذي حضر ومعه إعانة مالية كبيرة لاسكتلندا، وكان معجباً بحماس القوات الاسكتلندية. اتجه الجيش الاسكتلندي إلى روزبورج، ثم إلى نورثمبرلاند حتى وصلت القوات الاسكتلندية إلى ديررموروس Mauros، ثم اتجهوا إلى مورلان Morlan وعبروا

(1) Froissart: Ibid, Vol. III, P. 472, FF, the Chronica Maiora Of walsingham, PP. 213-215, Scott. W:Op. Cit, P. 212, Pettit, J: Op. Cit, P. 400, John. S. Davies: Op. Cit,P. 4, Grant. A: The Scottish wars of Independence, in. Angus Mackay: Atlas of Medieval Europe, London & New York, 1997, P. 164, James. P. Ward: The Military Role of the Magistrate In Holland During The Guelderswar, in. Clifford. J. Rogers and Others, Journal of Medieval Military History, Vol. IV, Great Britain, 2006, P. 96.

(2) Chronique Des Comtes D' Eu Depuis 1130 Jusque'en 1390, in. R. H.G.F, Tome XIII. Paris, 1894, P. 448.

(3) Froissart: Chronicle of Froissart, Vol. IV, London, 1902, P. 22, the Chronica Maiora of Walsingham, P. 218, Pettit.J: Op. Cit, PP. 401-403, Frank Bright. J: Ahistory of England, London, 1889, P. 246, Andy King: Op. Cit, P. 60 Craig Taylor: War Propaganda And Diplomacy in Fifteenth Century France And England, in. Allmand. C: War Government And Power. in Late Medieval France, Great Britain, 2000, P. 84, Christian. D. Liddy: The Bishoric of Durham in the Middle Ages, Great Britain, 2008, P. 212, Stokstad. M: Op. Cit, P. 88, Alexander Grant; Op. Cit, P. 353.



النهر إلى بيرويك، ثم استولوا على قلعة فارلي Varley وقتلوا عدد كبير من الفرسان، وقاموا بسلب ونهب مدن نورثمبر لاند<sup>(١)</sup>، مما أثار الرغبة الانتقامية لريتشارد الثاني فاتجه هو وأعمامه إلى القوات الإسكتلندية ومعهم عدد كبير من البارونات والفرسان<sup>(٢)</sup> لمطاردة رماة الرماح والسهام الإسكتلنديين حتى انسحبت القوات الإسكتلندية- الفرنسية بعدما أحدثت خسائر كبيرة بالقوات الإنجليزية<sup>(٣)</sup>.

في نفس العام ١٣٨٥ وكرد فعل على ما قامت به القوات الإسكتلندية من عمليات سلب ونهب وتدمير، قام ملك إنجلترا ريتشارد الثاني بالزحف على اسكتلندا حتى وصل إلى بيرويك، بعد ما أبدى اعتراضه على محاربة القوات الفرنسية بجانب القوات الإسكتلندية<sup>(٤)</sup>.

---

(1) Boardman.S: Apeople Divided Language, History And Anglo- Scottish Conflict in the Work of Andrew of Wyntoun, in. Brendan Smith: Ireland And English World in the Late Medieval Ages, Great Britain, 2009, P. 117, Grafton's Chronicle, P. 412, Pettit, J: Ibid, P. 403, Scott. W: Op. cit, PP. 213-215, Lingard. J: Op. Cit, P. 271, Frank Bright. J: Ibid, P. 246, Edward. J. Cowan: Op.Cit, P. 428, Penman. M: Op. Cit, P. 368.

(٢) مثل إيرل من كامبرج Earlof Cambridge، وسيرتوماس هولاند Thomas Holand وبارل من ساليزبرج Earl of Salisburg، وأيرل من ارندال Earl of Arundall، وأيرل من بمبروك Earl of Pembroke، ولورد سبنسر Lord of Spensar، موايرل من ستافورد Earl of Stafford.

\* Froissart: Op. Cit, Vol. IV, P. 22.

(3) The Chronica Maiora of Walsing Ham, P. 218, FF, Pettit. J: Op.Cit, P. 403 LIngard. J: Ibid, P. 272, Frank Bright: Ibid, P. 246, Bothwell, J. S: Edward III and the English Peerage, Great Britain, 2004, P. 158.

(4) The Chronicle of Enguerrand De Monstrelet, TR. By. Thomas ESQ, Vol. 1, London, 1810, P. 189, Lionel Duke of Clarerce: Astatute of the Fortienth Year of King Edward III, TR. By. James Hardiman, Dublin, 1843, P. 49, the Annales of Rogerde Hovden, TR. BY. Riley. T, London, 1853, P. 318, FF, Trevelyan. G. M: England in the Age of Wycliffe, London, 1899, P. 284, FF, Rosemary H & Ormrod.M: Asocial Hisotry of England (1200-1500)< Cambridge, 2006, P. 78.



وعندئذ اتفقت القوات الفرنسية - الاسكتلندية بقيادة جان دي فيين<sup>(١)</sup> على عدم مواجهة ريتشارد الثاني، بل على العكس قرروا ضرب انجلترا في ويلز Wales، فاتخذوا طريق الغابات والجبال عبر اسكتلندا بين نورثمبرلاند واسكتلندا، ودخلوا أراضي ويلز وسلبوا ونهبوا أراضي موبراي Moubray حتى وصلوا إلى كارليل<sup>(٢)</sup> Carlisle. هذا في الوقت الذي دخل فيه ريتشارد وأعمامه اسكتلندا وبالتحديد في أدبرة Edinburgh أهم مدن اسكتلندا، وظل بها خمسة أيام، وعندما تركها كانت قد سلبت ونهبت وحرقت فيما عدا القلعة المحصنة<sup>(٣)</sup>.

رحل الملك الإنجليزي من أدنبرة وتوجه إلى إسترولين Estrulen وهي مدينة تحظى بأهمية كبيرة لدى الإسكتلنديين، حيث يوجد بها دير كبير للرهبان السود Black Monks ودفن هناك معظم ملوك اسكتلندا، وظل الملك ريتشارد الثاني بالدير وعند رحيله

---

(١) كان مع أدميرال فرنسا جان دي فيين إيرل Grauntpre، ولورد Sayntcrois، والسير William Brume، والسير James of Boesme، ولورد Hees، ولورد Maruell، والسير Valeran of ranevall، وبارون Fountayns، ولورد Croye، والسير Brake of Brqumont، ولورد Landury. وعدد كبير من رماة الرماح والسهام.

\* Froissart: Op. Cit, Vol. IV, PP. 56-58.

(2) Froissart: Ibid, Vol. IV, PP. 56-58, Pettit. J: Op. Cit, P. 403, Franck Bright: Op. Cit, P. 246, Trevelyan. G. M: Ibid, P. 284, FF, Davies. R.R: Lords And Lordship in the British Isles in the Late Medieval ages, U. S.A, 2009, P. 117, Gwilym Dodd: Richard II and the Fiction of Majority Rule in. Charles Beem: The Royal Minority of Medieval And Early Modern England, U.S.A, 2008, P. 1399, Brook. C & Mack Smith: History of England (The Later Middle Ages) 1272-1485, U. S.A, 1966, P. 99 Sebastain. I. Sobeck: The Sea and the Englisness in the Middle Age, Great Britain, 2011, P. 120.

(3) Froissart: Ibid, Vol. IV, PP. 59, 60, the Chronicle of Enguerrand, Op. Cit P. 189, the Annales of Roger De Hovden: Op. Cit, P. 318, FF, Trevelyan. G.M: Op. Cit, P. 284, FF, Emmerson. R. K: Op. Cit, P. 565, Brook. C: Ibid, P. 99, Sebastian. I. Sobeck: Ibid, P. 120.





أحرق الدير وما حوله، ثم عبر نهر Taxe الذي يصل إلى مدينة القديس حنا Saint John عند قلعة سترولين Strulyn وقام بحرق أراضي اللوردات هناك. ثم اتجهت القوات الإنجليزية لمطاردة القوات الاسكتلندية - الفرنسية في ويلز<sup>(١)</sup>، وظن الجميع أنه سوف تحدث مواجهة على الحدود الإنجليزية - الاسكتلندية، وأحرقت القوات الإنجليزية في طريقها مدينة دوند Donde، وأحرقوا الأديرة والرهبان، ثم اتجهوا إلى بريدان Bredan وفعلوا نفس الشيء<sup>(٢)</sup>.

وكما فعل الإنجليز في اسكتلندا فعل الفرنسيون والإسكتلنديون في إنجلترا في نورثمبرلاند وويلز، فكانوا كلما ذهبوا إلى مكان أحرقوه، فأحرقوا في طريقهم العديد من المدن والقرى حيث لم يكن هناك رجال حرب، فقد كان الجميع مع ملك إنجلترا. وصلت القوات الاسكتلندية - الفرنسية إلى مدينة كارليل كما ذكرت، وكانت المدينة محصنة، وبها حامية سيركلييفورد Clyfforde وشقيقه السير وليم نيفيل William Nevell، وأيضا السير موسجراف Mosgrave والعديد من الفرسان<sup>(٣)</sup>. وعندئذ أدرك ملك إنجلترا أنه يجب محاربة الاسكتلنديين، ووافق في الرأي أعمامه وعلى رأسهم حنا أف جنت دوق لانكستر، وقرر الجميع محاربة الجيش الاسكتلندي - الفرنسي. غير أن مستشار الملك إيرل أوكسينفورد Oxenforde حذره من مغبة مطاردة القوات الاسكتلندية - الفرنسية، وأنه من الممكن أن يفقد حياته ويتولى العرش مكانه حنا من جنت. وعلى الرغم من أن الملك لم يكن يثق في

(1) Froissart: Ibid, Vol. IV, P. 60, Lingard. J. Op. Cit, P. 272, John S. Davies: Op. Cit, P. 4, Penman. M: Op. Cit, P. 368, Bothwell. J. S: Op. Cit, P. 158.

(2) Froissart: Op. Cit, Vol. IV, P. 60, Lingard. J: Op. Cit, P. 272, Trevelyan. G. M: Op. Cit, P. 284, FF, Brook. C: Op. Cit, P. 99, Penman. M: Op. Cit, P. 368.

(3) Froissart: Ibid, Vol. IV, P. 60, Lingard. J: Ibid, P. 272, Trevelyan. GM: Ibid, 284, FF, Wagner. J. A: Encyclopedia of the Wars of the Roses, Santabarbara, Denever, Oxford,, 2001, P. 244, Christian. D. Liddy: Op. Cit, P. 212.



أحد لدرجة كبيرة إلا أنه استمع لحديث مستشاره، وعندما طلب منه عمه حنا التقدم، أخبره ريتشارد الثاني بأنه لا يريد أن يخاطر ويريد العودة إلى إنجلترا وقال " أن من يجبنا سوف يتبعنا"، فأخبره حنا بأنه سوف يتبعه هو وأعمامه<sup>(١)</sup>، خاصة بعد أن تعرض الجنود للمرض والجوع ونقص الامدادات<sup>(٢)</sup>.

قرر الملك ريتشارد الثاني العودة من نفس الطريق الذي أتى منه، وعندما بلغت هذه الأخبار لأدميرال فرنسا قرر العودة إلى إسكتلندا بعد أن دمرت القوات الإسكتلندية-الفرنسية أسواق كارليل، وأراضي السير كليفورد، واسقفية كارليل. وعند عودة جان دي فيين من اسكتلندا تعرض لنقص المؤن والعتاد، فأرسل رسالة إلى ملك فرنسا شارل السادس لإمداده بالأموال لكي يدفع للفرسان الفرنسيين والاسكتلنديين، خاصة بعد أن بلغه أن الإسكتلنديين يتهايمسون بأنهم يحاربون من أجل فرنسا وليس من أجل اسكتلندا. رحل جان دي فيين بعد ما دفع كل الأموال والرواتب المتأخرة، وأبلغ قادة الجيش الإسكتلندي برحيله<sup>(٣)</sup>. وفي عام ١٣٨٨ زادت حدة المشاكل والأزمة بين ريتشارد الثاني وأعمامه، بالإضافة إلى المشاكل الداخلية بين النبلاء، والمشاكل الاقتصادية والمالية، وكان هناك نزاع بين النبلاء على الحدود الاسكتلندية الإنجليزية، لذلك قرر قادة اسكتلندا غزو إنجلترا، والثأر والانتقام من الإنجليز، والسيطرة على كارليل وكومبرلاند Comberland لدفع الإنجليز للتسليم بحق اسكتلندا في الأراضي القائمة جنوب إسكتلندا. وأدرك قادة اسكتلندا أن هذا هو الوقت المناسب للغزو والانتقام<sup>(٤)</sup>.

(1) Froissart: Ibid, Vol. IV, PP. 61, 62, the Annales of Roger De Hovden: OP. Cit, P. 318, FF, the Chronica Maiora of Walsingham, P. 226, John. S. Davies: Op. Cit, P. 4, Grafton's Chronicle, P. 442, Lingard. J: Ibid, P. 272, Trevelyan. G. M: Ibid, P. 284, FF, Bothwell. J. S: Op. Cit, P. 158.

(2) The Chronica Maiora of Walsingham, P. 229.

(3) Froissart: Op. Cit, Vol. IV, PP. 64-66, Grafton's Chronicle, P. 442, Lingard. J: Op. Cit, P. 272, John. S. Davies: Op. Cit, P. 4, Trevelyan. G. M: Op. Cit, P. 284, FF, Pettit. J: OP. Cit, PP. 401-403.

(4) Froissart: Chronicle of Froissart, Vol. V, London, 1902, PP. 206, 207, Donovan. T: Shakespeare, Richard II. in English History Plays, Vol. 1,



اجتمع كل قادة إسكتلندا<sup>(١)</sup> في منتصف شهر أغسطس ١٣٨٨ في مدينة بيردان Berdane حيث قلعة جيدور Gedour في الغابة، وكان عدد الجيش الاسكتلندي حوالي ستة آلاف منهم حوالي ألف وخمسمائة من رماة الرماح والسهام، بالإضافة إلى حاملي الفؤوس والبلطة. وكان الجيش تحت قيادة إيرل من فيف Earl of Fife ابن روبرت ستيوارت ، ولكن آمال الاسكتلنديين كانت معلقة بالبطل جيمس من دوجلاس<sup>(٢)</sup> James of Douglas . وعلى الرغم من حرص قادة اسكتلندا على السرية التامة ؛ إلا أن أخبار هذا التجمع بلغت مسامع لوردات انجلترا، فأرسلوا أحد الجواسيس (يعرف بحامل الدرغ) وكان

London, 1896, P. 233, FF, Michelet. J: Op. Cit, P. 12, , Adrian. R. Bell: The Fourteenth Century Soldier more Chuser's Kinght of Medieval Career, in. John France: Mercenaries And Paidmen (The Mercenary Identity) in the Middle Ages, Leiden, Boston, 2008, P. 303, Mc Farlane. K: England in the Fifteenth Century, Great Britain, 1981, P. 32, Lynn Staley: Richard II, Henry of Derby, and Business of Making Culture, in. Speculum, Vol. 75, No. 1 (Jan., 2000), P. 70, Rousseau. M. H: Saving The Souls of Medieval London (Perpetual Chantries At St Paul's Cathedra (1200-1548), P. 89, Rosemary. H: England: Kingship and the Political Community (1377-1500), in. S. Hrigby: A Companion to Britain in Later Middle ages, United Kingdom, 2003, P. 234.

(١) ومنهم إيرل دوجلاس Douglas، وسيرموريت Morette، وإيرل مارش ودينبار March And Durbar وستيفن إيرل مونستر Monstre، وسيرروبرت كريك Creque، وسير وليم ليمس Lymse، وسيرتوماس من بيرري Berry، وسير اليساندر Alysander، وسير باتريك من هوت بورن Hoteborne، وسيرسونيتو Sonneto، وسير وليم بيدورن Bedurn، وسير روبرت لودر Lauder، وسيروليم موربيرث Morbereth، وسير موبيرت هير Maubert Here، وسير مونستان Monstan، والعديد من الفرسان ورماة الرماح.

\*Froissart.Op.Cit, Vol. V, PP. 207, 208.

(2) Jordan. M. Fantomes: Chronicle of the War Between the English and the Scots,in. The Chrurch Historiens of England, TR. By. Joseph Stevenson, Vol. IV, Part 1, London, 1856, Charles. W. Eliot: OP. Cit, P. 83, FF, Scott. W: OP. Cit, P. 215, John. S. Davies: Op. Cit, PP. 5, 6, Andy King : Op.Cit, P. 60, Jim Bradbury: Medieval Warfare, London & New York, 2004, P. 225, Alastair. J. Macdonald: OP. Cit, P. 31, Davies. R.R: Op. Cit, P. 120.



يعرف اسكتلندا جيداً وبخاصة غابة جيدور، وتتكبر الجاسوس في ملابس الخدم، وعلم عندئذ الخطط العسكرية الإسكتلندية، وعندما حاول الفرار تم القبض عليه وسجنه، وعلم قادة اسكتلندا منه الخطط العسكرية للإنجليز، وأنهم سوف يهاجمون بيرويك ثم دنبار Dunbar ثم أدنبره. وعندما علم الاسكتلنديون بخطط الإنجليز ظهرت الخبرة العسكرية لديهم، وقرروا تقسيم الجيش إلى قسمين<sup>(١)</sup>، مع الحرص على أن لا يعرف الإنجليز اتجاه الجيشين. القسم الأول وهو أفضل جزء من الجيش يتجه إلى كارليل، والقسم الثاني وبه عدد كبير من حاملي الدروع والفرسان ويتجه إلى نيوكاسل New Castle عبر نهر تاين Tyne، ويدخلون أسقفية دورام Durham، ويحرقون كل ما يقابلهم، وعندئذ سوف يتبعهم الإنجليز فيتخذ الإسكتلنديون الموقع المناسب للقتال معهم، وعندئذ يثارون لما حدث لهم على أيدي الإنجليز من قبل، خاصة وأن الإنجليز لن يستطيعوا محاربة الجيشين إلا إذا اجتمعا معا، ومن ثم رحل الجيشان من جيدور صباحاً<sup>(٢)</sup>.

على الجانب الآخر أدرك الإنجليز أن الجاسوس تم القبض عليه، وحاولوا أن يكونوا على أهبة الاستعداد تحسباً لأي هجوم اسكتلندي، أما إيرل جيمس دوغلاس ومن معه اتجهوا إلى كارليل مسرعين حتى وصلوا إلى أراضي اللورد بيرسي Percy، وعبروا نهر تاين Tyne (على بعد ثلاثة فراسخ من نيوكاسل)، ثم دخلوا أسقفية دورام، وبدأت الحرب بعمليات السلب والنهب والحرق وذبح كل من يقابلهم. وعندما بلغت الأخبار إيرل

---

(١) على رأس القسم الأول السير Archabas Douglas، وإيرل Fenne، وإيرل Surlancke، وإيرل Monster، وإيرل Mar، وإيرل Astroderne، والسير Stephen Freseyle، والسير Cgeorge of Donbare، وحوالي ستة عشر لورد من لوردات اسكتلندا. أما القسم الثاني فعلى رأسه إيرل Douglas، والسير Org، وإيرل Morette، ومعهم عدد كبير من حاملي الدروع.

\*Froissart: Op. Cit, Vol. V, P. 211.

(2) Froissart: Ibid, Vol. V, P. 211, Richard Grafton: OP. Cit, PP. 343, 344, Jordan. M. Fantosme's: Ibid, P. 245, FF, Charles. W. Eliot: Ibid, P. 83, FF, John. S. Davies: Ibid, PP. 5, 6, Tony, Jaques: Op. Cit, P. 763, Alastair. M. Maedonald: OP. Cit, P. 31.



نورثمبرلاند بما فعله الاسكتلنديون أرسل ولديه هنري بيرسي Henry Percy (العنيف) ورالف بيرسي Ralph Percy إلى نيوكاسل، أما الأيرل Percy فتوجه بنفسه إلى النويك Alnwick لعلمه أن الاسكتلنديين سوف يمرون من هناك ليتصدى لهم<sup>(١)</sup>.

أسرع هنري ورالف تنفيذاً لأوامر إيرل نورثمبرلاند. أما الاسكتلنديون فقد استمروا في عمليات السلب والنهب والحرق حتى وصلت الحرائق إلى نيوكاسل، ووصل الاسكتلنديون إلى بوابات دورام وحدثت بعض المناوشات، وظل الاسكتلنديون قريباً من المكان تنفيذاً للخطة الموضوعة من قبل، وكانوا يدمرون كل شيء في طريقهم بين دورام ونيوكاسل، ثم أعادوا عبور نهر تاين مرة أخرى وحضروا أمام نيوكاسل وتمركزوا هناك، وعندئذ وصل فرسان الإنجليز<sup>(٢)</sup>، وحاملي الدروع في يورك York وأسقفية دورام أمام نيوكاسل<sup>(٣)</sup>.

دخل الاسكتلنديون أسقفية دورام كما ذكرت، وتسببوا بكثير من الألم للإنجليز، ثم عادوا إلى نيوكاسل وتمركزوا هناك لمدة يومان حدثت خلالهما مناوشات أثبت فيها أبناء إيرل نورثمبرلاند لاند هنري ورالف جدارتهما. وأثناء تلك المناوشات كانت هناك أعمال

---

(1) Froissart: Op. Cit, P. 370, Richard Grafton: OP. Cit, PP. 343, 344, Jordan. M. Fantosme's: Op. Cit, PP. 5, 6, Charles. W. Eliot: Ibid, P. 83, FF, John. S. Davies: Ibid, PP. 5,6, Jim Bradbury: Medieval warfare, P. 225, Tony Jaques: Op. Cit, P. 763.

(٢) منهم السيرماتيو ريدمان Matthew Redman، والسير رالف لوملي Ralph Lumly، والسير توماس جراي Thomas Grey، والسير روبرت أوغل Robert Ogle، والسير توماس هولتون Thomas Holton، والسير حنا فيلتون John Felton، والسير توماس ابينجدون Thomas Abingdon، وبارون هيلتون Baron Hilton، والوكيل الإقطاعي ليورك York، والعديد من الفرسان.

\*Froissart: Ibid, P. 371.

(3) Froissart: Ibid, P. 371, The Chronica Maiora of Walsingham, P. 265, Scott. W: Op. Cit, P. 216, Richard Grafton: Ibid, P. 343, FF, Jordan. M. Fantosme's: Ibid, P. 245, FF, Charles. W. Eliot: Ibid, P. 83, FF, John. S. Davies: Ibid, PP. 5, 6, Alastair. J. Macdonald: Op. Cit, P. 31.



بطولية مميزة وقتال يداً بيد بين طرفي القتال إيرل دوجلاس وهنري بيرسي، وفي هذا القتال أنتزع إيرل دوجلاس راية هنري برسي الملكية (راية مطرزة من الحرير) مما سبب ألماً وأسى عند الإنجليز، وأنسحب الإسكتلنديون إلى مواقعهم وهم سعداء بالحوار الذي دار بين إيرل دوجلاس وهنري بيرسي<sup>(١)</sup>، وكيف توعد كل منهما الآخر<sup>(٢)</sup>.

وفي اليوم التالي توجه الإسكتلنديون إلى قلعة بونتلاند Pontland، وكان حاكمها يدعى السير ادموند Edmund، وحاصروا القلعة وتمكنوا من الاستيلاء عليها وإحراقها، ثم توجهوا إلى مدينة أوتربرن (أوتربورن) Otterburn (Otterbourn) وقلعتها الحصينة المحاطة بالمستنقعات بالقرب من نيوكاسل، وتمركزوا هناك ولم يهاجموا القلعة، ولكن في اليوم التالي هاجموا القلعة واستمر الهجوم طوال اليوم، حتى بلغ الإسكتلنديون درجة كبيرة من الإرهاق دون جدوى، فعادوا إلى ثكناتهم مرة أخرى وعندئذ عقد قادة اسكتلندا إجتماعاً لكي يقرروا مواصلة الهجوم أم الانسحاب، فأعرب الأغلبية عن نيتهم في الانسحاب في اليوم التالي والاتجاه إلى كارليل ولكن إيرل دوجلاس رفض الانسحاب، وغرس في نفوس الجميع الحماسة<sup>(٣)</sup>، ووعدهم بأنهم سوف يحصلون على الشرف العظيم عند الانتصار<sup>(١)</sup>.

---

(١) قال إيرل دوجلاس لهنري بيرسي " سيدي سوف أحمل هذه الراية الدالة على شجاعتك وبسالتك إلى اسكتلندا وسوف أرفعها على قلعتي في دالكيث Dalkeith والتي ربما تكون بعيداً. قال السير هنري بيرسي كن متأكداً أنك لن تعبر الحدود لهذا البلد دون عقاب. قال إيرل دوجلاس حسناً يا سيدي تعالي هذه الليلة إلى حيث أكون (معسكري) ودافع عن رايتك التي سوف أدافع عنها بكل ما أوتيت من قوة وسوف نرى أتأخذها أم لا.

\*Froissart: Op. Cit, P. 371, Scott. W.: Ibid, P. 216, Charles. W. Eliot: Ibid, P. 83, FF.

(2) Froissart: Ibid, P. 371, Scott. w: Ibid, P. 216, Charles. W. Eliot: Ibid, P. 83, Ff, Alastair. J. Macdonald: Ibid, P. 31.

(٣) قال إيرل دوجلاس " على الرغم من أن السير هنري ذكر أنه سوف يأتي ويسترد رايته الملكية ويقوم بالهجوم علينا إلا أنه لا بد وأن ننتظر يومين أو ثلاثة ونهاجم هذه القلعة التي تعد غير منيعة



وعندئذ وافق الجميع في المعسكر الاسكتلندي على رأي إيرل دوجلاس لكي يحصلوا على الشرف، لأنهم كانوا يقدرونه ويحترمونه ويحبونه وهذه سمات القائد، خاصة وأنهم يقومون بالهجوم ولا يتعرضون للهجوم ولم تواجههم مشاكل أو أزمات حتى ذلك الوقت<sup>(١)</sup>.

وفي تلك الأثناء قام الاسكتلنديون بعمل العديد من التكنات المحاطة بالأغصان المتشابكة والحشائش الطويلة، وكان المعسكر الاسكتلندي محصن طبيعياً بواسطة المستنقع حيث كانت عرباتهم وخيولهم، وكانوا على استعداد للهجوم في اليوم التالي، خاصة أن إيرل دوجلاس استطاع استكشاف المكان جيداً قبل أن تعسكر قواته<sup>(٢)</sup>. أما عن السير هنري بيرسي وشقيقه رالف فقد أحسوا بفقدان كثير من الشرف العسكري بفقدان الراية الملكية، وأنهم لا بد وأن يستعيدوا الراية الملكية كما ذكرت. ولقد أدرك قادة الجيش الإنجليزي أن جماعة إيرل دوجلاس سوف تكون في المقدمة وأنهم سوف يقاثلون بشراسة، ولذلك حذروا هنري بيرسي من التهور والاندفاع من أجل استرداد الراية الملكية، فترجع هنري وشقيقه عن الاندفاع والمغامرة، وحاولوا معرفة مواقع المعسكر الاسكتلندي وكيفية تمركزهم<sup>(٣)</sup>.

علم الإنجليز من خلال تتبع الجيش الاسكتلندي سراً أنهم أسروا السير إدموند واتجهوا لى أوتريرين، وعندئذ صار الإنجليز على أهبة الاستعداد للهجوم على المعسكر

---

ومن الممكن اقتحامها وبذلك نحصل على الشرف مرتين، ودعونا ننتظر هنا قدوم هنري بيرسي ليسترد رايته الملكية أولاً يستردها"

\*Froissart: Ibid, P. 371, Scott. W. Ibid, P. 216, Charles. W. Eliot: Ibid, P. 87.

(1) Froissart: Ibid, P. 371, Richard Carfton: Op. Cit, P. 344, Jordan. M. Frantosmes: Op. Cit, P. 245, Ff, John. S. Davies: Op. Cit, PP. 5, 6, Deborah. A. Fraioli: Joan of Arc and the Hundred Years war, U. S. A, 2005, P. 33.

(2) Scott. W: Op. Cit, P. 216, Charles. W. Eliot: Op. Cit, P. 87.

(3) Froissart: Op. Cit, P. 272, Morgan. P: The Naming of Battle Fields in the Middle Ages, In. Diana Dunn: War And Society In Medieval And Early Modern Britain, Liverpool, 2000, P. 48.

(4) Froissart: Ibid, P. 372, Lingard. J: Op. Cit, P. 303, Jordan. M. Fantosmes' : Op. Cit, P. 245, FF, Charles. W. Eliot: Op. Cit, P. 87, FF.



الاسكتلندي<sup>(١)</sup>. وفي نفس الليلة جاء أسقف دورام Durham ومعه عدد كبير من الفرسان إلى نيوكاسل بعد علمه بمهاجمة الجيش الإسكتلندي لنيوكاسل، وأن الإنجليز بقيادة هنري بيرسي سوف يهاجمون. ولكن السير هنري بيرسي لم ينتظر قدوم الأسقف وجيشه. ورحل إلى نيوكاسل ومعه ستمائة من حاملي الدروع ورماة السهام، وثمانية آلاف من المشاة، وكان الإنجليز يعتقدون أنه عدد كافٍ لقتال الإسكتلنديين، خاصة وأنه كان يفوق عدد الجيش الإسكتلندي. سلك بيرسي وجيشه نفس الطريق الذي سلكه الجيش الاسكتلندي إلى أوتريرن. وكان الاسكتلنديون في ذلك الوقت قد تناولوا العشاء ونالوا قسطاً من الراحة بعدما أصابهم من إرهاق نتيجة الهجوم المتواصل على القلعة طوال اليوم كما ذكرت، وقرر قادة اسكتلندا مواصلة الهجوم صباحاً، غير أنه هجم الإنجليز فجأة على التكنات الاسكتلندية معتقدين أنها للسادة، ولكنها لم تكن سوى للخدم وغللمان الفرسان الذين أرسلهم قادة اسكتلندا لمناوشة الإنجليز بعدما تعالت صيحات الإنجليز "بيرسي بيرسي". أما اللوردات فقد استعدوا لصد الهجوم، وكان ذلك حوالي الساعة السابعة مساءً على حد قول بعض المؤرخين، ولكن القمر كان يضيء المكان وكأنه النهار في ليلة التاسع عشر من أغسطس ١٣٨٨، وكان الطقس معتدلاً<sup>(٢)</sup>. وتحت الضغط المفاجئ للإنجليز تراجع الاسكتلنديون في نظام ودون إحداث ضوضاء إلى قمة جبل متوسط الارتفاع مما أعطاهم الأفضلية طوال اليوم، خاصة وأنهم قد درسوا المكان جيداً كما ذكرت، وخططوا لهذا التراجع في حال مجيء الإنجليز. وكان النهر يغطي جانب واحد والتلال والمستنقعات تحمي الجانب الآخر وفي نفس الوقت يقع الوادي خلف نهر ريد Rede ويشكل الطريق الوحيد للهروب أو الانسحاب إذا كان ذلك ضرورياً ومن هنا تأتي أهمية الموقع في المعركة<sup>(٣)</sup>.

(1) Froissart: Ibid, P. 372, Charles. W. Eliot: Ibid, P. 87, FF, Richard Grafton: Op. Cit, PP. 343, 344.

(2) Scott. W: Op. Cit, P. 216, Jordan. M. Fantomes: Op. Cit, P. 245, FF, Lingard. J: Op. Cit, P. 303, Tony Jaques: Op. Cit, P. 763.

(3) Jordan. M. Fantome's : Ibid, P. 245, FF, Morgan. P: Op. Cit, P. 48, Keen. M: Medieval Warfare, P. 224.





أما الإنجليز فواصلوا الهجوم على المشاة من غلمان الفرسان والخدم، وحاولوا تطويق الجيش الإنجليزي، وكلما تقدموا في المعسكر الإسكتلندي وجدوا رجالاً يشتبكون معهم. وفجأت هجم الإسكتلنديون من الجبل، وتعالت صيحاتهم "دوجلاس دوجلاس" أما الإنجليز فعلت صيحاتهم "بيرسي بيرسي"<sup>(١)</sup>. وبدأت المعركة التي أطلق عليها المؤرخون كثير من الألقاب، وبعثوها بالقاسية والمؤلمة، والمطاردة الجبارة، والأكثر ضراوة، بالإضافة إلى اللقب الذي اشتهرت به المعركة "معركة الرجل الميت" واستخدم فيها المحاربون الرماح والسيوف والبلطة التي اشتهر الإسكتلنديون باستخدامها في القتال، والخناجر والأقواس الطويلة التي اشتهر بها الإنجليز، كما أظهرت هذه المعركة التكتيكات الحربية التي تتناسب مع هذه الفترة<sup>(٢)</sup>، وتحمل الطرفان كثير من القسوة والألم طوال المعركة. مما جعل بعض المؤرخين مثل فرواسار يذكر أنها معركة لم يحدث مثلها من قبل بهذه الحماسة والقوة. ويختلف الباحث مع هذا الرأي وأكبر دليل على ذلك أن فرواسار نفسه شبهها بمعركة كوشريل<sup>(٣)</sup> Cocherel ١٣٦٤.

(1) Froissart: Op. Cit, P. 373, Scott. W: Op. Cit, P. 217, Lingard. J: Op. Cit, P. 303.

(2) Oman. W.C: The Art of War in the Middle Ages, Oxford, 1885, P. 96, Ann Curry: Medieval Warfare, England and Her Continental Neighbours, Eleventh to the Fourteenth Centuries, in. Journal of Medieval History, Vol. 24, No. 1, Netherlands, 1998, P. 99 Waldman. J: Hafted Weapons in Medieval And Renaissance Europe, in. Kelly De Vries & Others: History of warfare, Vol. 31, Leiden, Boston, 2005, P. 195, Ruth. A. Johnston: All Things Medieval, An Encyclopedia of Medieval World, U.S.A, 2011, P. 723.

(٣) حقق الفرنسيون انتصاراً كبيراً في هذه المعركة على التحالف الإنجليزي-النافاري، وثبت الملك الفرنسي شارلي الخامس Charles V أقدامه في حكم فرنسا، وتنازل شارل ملك نافار Navarre عن إدعاءاته في العرش الفرنسي بموجب معاهدة أفينون أذار ١٣٦٥، واستطاع الفرنسيون إجلاء الجيوش الإنجليزية عن الأراضي الفرنسية، فيما عدا بايو Bayeux، وبوردو Bordeaux، وكاليه Calais.



في بداية المعركة سقط الكثير من القتلى من الجانبين، وكان الإنجليز لديهم رغبة قوية في قهر الاسكتلنديين بعد فقدانهم للراية الملكية. أما الاسكتلنديون فعندما أحسوا بالخطر وأنهم على وشك الهزيمة، اندفع إيرل دوجلاس وبيده البلطة وسط أرض المعركة، وهو حاسر الرأس يتلقى الضربات بشجاعة، ولذلك شبهه فرواسار بهكتور Hector (بطل طروادة)، ولكن أثناء اندفاعه وسط القوات الإنجليزية أصيب بثلاثة رماح في كتفه وصدرة وقدمه، وأدرك الإنجليز أنهم اسقطوا فارساً على أرض المعركة، ولكنهم لم يعلموا هويته، لأنهم لو أدركوا ذلك لكان النصر قريب بالنسبة لهم. ولم يعلم الاسكتلنديون أيضاً في البداية، وإلا انهارت قواهم وآمالهم ومعنوياتهم، واستمرت المعركة<sup>(١)</sup>.

وعلى الجانب الآخر حارب الإنجليز بشجاعة وبسالة، فاندفع السير رالف وسط القوات الاسكتلندية، فجرح وأسُر على يد الفارس الاسكتلندي حنا ماكسويل John Maxwell، وهو من فرسان إيرل موراي<sup>(٢)</sup> Moray. وفي تلك الأثناء تتبع رجال الحرب الاسكتلنديين إيرل دوجلاس، فأتى إليه ابن عمه جيمس ليندسي James Lindsay، والسير والترسينكلير Walter Sinclair، وعدد من الفرسان وحاملي الدروع، وفارس يدعى وليم William of North Berwick كان يتبع إيرل دوجلاس طوال المعركة لحمايته، وحزن كثيراً لجرحه الميت، ووجده الجميع ومعه الفارس روبرت هارت Robert Hart بجانبه. وكان إيرل دوجلاس حريصاً على أن لا يعلم الإنجليز خبر مقتله حتى لا ترتفع

---

\* Oman. W. C: Ibid, P. 107, Bainville. J: Histoire De France, Paris, 1924, P. 58, Seward. D: The Hundred Years War (1337-1453), New York, 1982, P. 104.

(1) Froissart: Op. Cit, P. 374, Scott. W: Op. Cit, P. 217, Tony Jaque: Op. Cit, P. 763.

(2) Charles. W. Eliot: Op. Cit, P. 91 FF, Lingard. J: Op. Cit, P. 303, Jordan. M. Fantosme's : OP. Cit, P. 245, Ff, Christian. D. Liddy: Op. Cit, P. 102.



روحهم المعنوية<sup>(١)</sup>. ونفذ القادة أوامر إيرل دوجلاس، ورفعوا رايته وهتفوا باسمه، بعد ما غرس إيرل دوجلاس الحماسة في نفوسهم، فوجهوا إلى الإنجليز ضربات موجعة وقتلوا منهم الكثير، مما أدى إلى إرتباك الإنجليز<sup>(٢)</sup>.

ويذكر بعض المؤرخين أن الإنجليز تعرضوا للإرهاق والألم أكثر من الاسكتلنديين، مما كان له أكبر الأثر في رجحان كفة الجيش الاسكتلندي على الرغم من تفوق الإنجليز عددياً. ويتفق الباحث مع هذا الرأي خاصة وأن الإنجليز جاؤوا في ذلك اليوم من نيوكاسل على نهر تاين Tyne على بعد حوالي ستة أميال بسرعة كبيرة حتى يجدوا الاسكتلنديين، بينما وصل الإسكتلنديون قبلهم ونالوا قسطاً من الراحة وكانوا مستعدين لمواجهة الإنجليز. ولذلك أثناء الاشتباك الأخير في المعركة ضغط الاسكتلنديون على الإنجليز وأجبروهم على التراجع، ولم يستطع الإنجليز التجمع مرة ثانية، فتغلغل الاسكتلنديون في صفوف الإنجليز واخترقوا صفوفهم. هذا بجانب حسن حظ الإسكتلنديين بعد أسر القائد هنري بيرسي<sup>(٣)</sup> على يد الفارس الاسكتلندي لورد اف مونتجُمري Montgomery، وأسر من معه من الفرسان

---

(١) دار حوار بين إيرل دوجلاس والسير والتر " قال دوجلاس أنه على وشك الموت ولكنه يشكر الرب، وذلك أن القليل من أسلافه ماتوا على أسرته، وأنه سوف يموت ولا بد من الانتقام له من الإنجليز، وطلب من والتر أن يرفع رايته مرة أخرى بعد أن سقطت أرضاً، ويأمن حامل الدرع التابع له Davie Collemin ذبح، وبأنه يحرص على أن لا يعلم الإنجليز بموته لأنهم سوف ترتفع روحهم المعنوية".

\*Froissart: Op.Cit, P. 375, Scott.W:Op.Cit,P.217.

(2)Froissart: Ibid, P. 375, Charles. W. Eliot: Ibid, P. 94, Jordan. M. Fantosme's : Ibid, P. 245, FF.

(3) Froissart: Ibid, P. 376, Scott.W:Op.Cit, P. 218, . Adrian. R. Bell: Op. Cit, P. 305, Lingard. J: Op. Cit, P. 303, The Chronica Maiora of Walsingham, P. 265, Prestwich. M: The Enterprise Of war, in. Rosemary Horrox & Mark Ormrod: A social History of England (1200-1500), Cambridge, 2006, P. 82, Rosemary. H: Op. Cit, P. 82, Davies. R.R: Op. Cit, P. 128, Jim Bradbury: Medieval Warfare, P. 225.



وحاملي الدروع<sup>(١)</sup>. وسارت المعركة على غير ما تمنى الإنجليز، وأحرز الإسكتلنديون نصراً كبيراً كان له أكبر الأثر في الفترة التالية من العلاقات بين البلدين. وللدلالة على بشاعة الكارثة التي حلت بالإنجليز وجود قائمة طويلة للنبلاء الذين لقوا حتفهم على أيدي الإسكتلنديين، بينما فرت القوات الإنجليزية المتبقية خوفاً على حياتهم، ومنهم القائد الذي كان له دور كبير في المعركة ماثيو ريدمان<sup>(٢)</sup> Captin of Berwick Mathew Redman.

أما عن أسقف دورام بعد وصوله إلى نيوكاسل كما ذكرت، نال قسطاً من الراحة ثم اتجه إلى أوتربرن ومعه خمسة آلاف من المشاة، والفين من الفرسان، وعندما ساروا لمسافة ميلين من نيوكاسل بلغتهم الأنباء عن المعركة، خاصة بعد أن وصلت مجموعات من جنود الإنجليز هاربة من أرض المعركة وهم في حالة يرثي لها، وأخبروا الأسقف بما حدث، وبأنهم حدثت لهم كارثة، وأنهم انسحبوا بعد مقتل عدد كبير وأسر عدد كبير أيضاً منهم، وأن القوات الإسكتلندية تطارهم. مما كان له أكبر الأثر في اضطراب وارتباك جيش الأسقف، وتفرق الجند ولم يتبق معه سوى خمسمائة جندي، وحاول الأسقف رفع الروح المعنوية لقواته بقدر الإمكان، ولكنه رأى رجاله يهربون كالأخرين (الفارين من المعركة). وعندئذ طلب المشورة من بعض القادة الإنجليز ومنهم السير وليم لوسي William Lucy

(١) وممن أسروا معه سير مارك ادريمان Mark Adreman، والسير توماس ليندسي Thomas Lindsay، ولسير حنا من مورو John of Moreau، والسير روبرت كوليمين Robert Collemine، وولديه حنا John وروبرت Robert، والسير باتريك أف دنبار Patrick of Dunbar.

\*Froissart: Ibid, P.376.

(2) Childs. W.R: Welcome My Brother: Edward II, John of Powderham and the Chronicles, 1318, in. Ian Wood And G. A. Loud: Chrch And Chronicle in the Middle Ages, Great Britain, 1991, P. 151, The Chronica Maiora of Walsingham, P. 265, Adrian. R. Bell: Op. Cit, P. 305, Charles. W. Eliot: Op. Cit, P. 94, FF, Lingard. J: OP. Cit, P. 303, Clayton. J. drees: Op. Cit, P. 138, Brook. C & Mack Smith: Op. Cit, P. 99.



والسير توماس كليفورد Thomas Clifford، وقرر الجميع عدم تعرض الجميع للخطر مرة أخرى بعد الهزيمة في أوتربرن، وقرروا العودة إلى نيوكاسل. ويرى البعض ويتفق الباحث معهم أن هذا كان أحد أسباب النصر الذي حققه الاسكتلنديون، خاصة بعدما تقابل أسقف دورام مع ماثيو ريديمان الهارب، وقص له عن الهزيمة والكارثة التي حلت بالإنجليز في أوتربرن<sup>(١)</sup>.

بعد المعركة تجمع الاسكتلنديون وأرسلوا عيونهم لاستكشاف الطريق إلى نيوكاسل، وهل توجد كمائن إنجليزية أم لا. أما أسقف دورهام فقد عاد إلى نيوكاسل. تذكر الجميع قتلى الإنجليز وأسراهم في المعركة، وأخذتهم الحماسة، فأستدعى الأسقف الفرسان وحاملي الدروع والمشاة في مدينة نيوكاسل، وقال لهم "سوف تحملون عار الهزيمة إذ لم تواجهوا الإسكتلنديين". وعندئذ اجتمع الفرسان والمشاة عند شروق الشمس واتجهوا إلى أوتربرن وكانوا حوالي عشرة آلاف. ولم تكد القوات الإنجليزية تسير ميلين من نيوكاسل، إلا وقد علمت القوات الاسكتلندية عن طريق الكشافة بمقدم أسقف دورام وقواته. وأقسم الإسكتلنديون ما بين مؤيد للرحيل ومؤيد للحرب، خاصة وأنهم في موقع جيد، ولديهم العديد من الأسرى والكثير من المصابين ولن يستطيعوا تركهم إذا رحلوا<sup>(٢)</sup>.

استخدم الإسكتلنديون في ذلك الوقت تكتيك الحرب النفسية، حيث استخدموا الآلات الموسيقية وقاموا بالنفخ فيها بأعلى صوت حتى تحدث ضجة مخيفة لمن يسمعها، وحمل المشاة الأبواق وانطلق النفير بجميع الأبواق، مما أحدث صخباً وصل إلى مسامع الإنجليز وأحدث ارتباك بينهم، وثقة في نفوس الإسكتلنديين. وعندما اقترب أسقف دورام وجيشه حوالي فرسخ استمر الاسكتلنديون في نفير الأبواق بهذه الطريقة الصاخبة، مما أحدث إلى ارتباك بين الجنود وكلما اقترب الإنجليز أكثر من أرض المعركة، كرر

(1) Froissart: Op. Cit, P. 376, Scott. W: Op. Cit, P. 218, Richard Grafton: Op. Cit, P. 344, Charles. W. Eliot: Op. Cit, P.97, FF, Lingard. J: Ibid, P. 303.

(2)Froissart: Op.Cit, PP. 278, 279, Scott.W: Op. Cit, P. 217, Charles. W. Eliot: Op. Cit, P. 97, FF.



الاسكتلنديون النفير في الأبواق بصوت عال وصاحب مما سبب القلق والاضطراب في صفوف الجنود. وعندما اقترب أسقف دورام من أرض المعركة رأى الإسكتلنديون وهم ينفخون في الأبواق، ولاحظ موقعهم القتالي المتميز، وعندئذ أشار عليه القادة باستحالة الدخول وسط الجيش الإسكتلندي المتماسك والهجوم عليه، وأنهم إذا فعلوا هذا فسوف تتكرر الهزيمة. وعندما رأى الإسكتلنديون تراجع الإنجليز عادوا إلى تكناهم بعد ارتفاع روحهم المعنوية، وقرروا الرحيل من أرض المعركة<sup>(١)</sup>.

كانت خسارة الإنجليز كبيرة، حوالي ثلاثة آلاف ما بين قتيل وجريح وأسير، أما الإسكتلنديون فقتل منهم عدد قليل، ويحسب للإسكتلنديين على حد قول المؤرخ فرواسار حسن معاملة أسرى الإنجليز<sup>(٢)</sup>. وبعد انتهاء المعركة حمل إيرل دوجلاس وروبرت هارت Robert Hart وسيمون (ابن عم روبرت ستيوارت) من أرض المعركة، وكان مع الاسكتلنديون السير هنري بيرسي وعدد كبير من فرسان انجلترا، وساروا في طريق دير ميلروز Melrose بعد أن أحرقوا تكناهم، وساروا طوال الليل على الأراضي الإنجليزية، ولم يتعرض لهم أحد. وفي اليوم التالي وصلوا إلى دير ميلروز (للرهبان السود) وهو دير على الحدود الإنجليزية - الاسكتلندية، حيث دفن إيرل دوجلاس في قبر من الصخر وضعت عليه رايته<sup>(٣)</sup>. وعاد الاسكتلنديون إلى اسكتلندا وظل معهم بعض الأسرى بعد أن دفع بعض الفرسان وحاملي الدروع والرماح الفدية عن أنفسهم، ثم قاموا بتسريح الآخرين بعد أن قاموا بدفع الفدية المقررة عليهم حوالي الفين فرانك عن كل أسير. وانتصر الاسكتلنديون

(1) Froissart: Ibid, P. 279, Scott.W: Ibid, P. 218, Charles. W. Eliot: Ibid, P. 97, FF.

(2) Froissart: Ibid, P. 379, Charles. W. Eliot; Ibid, PP. 103, 104.

(3) Froissart: Ibid, PP. 379, 380, Lingard. J: OP. Cit, P. 303, Brendan. S: The British Isles in the Late Middle Ages Shaping the Regions, Great Britain, 2009, P. 9, Jim Bradbury: Medieval War Fare, P. 225.



في معركة من أشرس المعارك في تلك الفترة، ونجحوا في غزو إنجلترا<sup>(١)</sup>، مما كان له أكبر الأثر على العلاقات الإنجليزية - الإسكتلندية في المرحلة التالية<sup>(٢)</sup>.  
ويذكر بعض المؤرخين أنه عندما بلغ ريتشارد الثاني أخبار الهزيمة كان هناك حاجة إلى كبش فداء يتحمل وزر الهزيمة، وعلى الرغم من قرارات هنري بيرسي المتهوررة والمندفة، ألقى اللوم على أسقف دورام لأنه أتى متأخراً. ونظر لهنري بشكل رومانسي على حد قول البعض أكثر من كونه قائد لم يكن لديه الخبرة العسكرية الكافية، وصار بطل دفع ريتشارد فديته من ماله الخاص<sup>(٣)</sup>.

أعتقد الاسكتلنديون وهم في نشوة الانتصار أنه من الممكن أن يستغلوا الأوضاع المضطربة الموجودة في إنجلترا تحت حكم ريتشارد الثاني، وإجبار إنجلترا على عمل معاهدة سلام مرضية بالنسبة للاسكتلنديين مثلما حدث في معاهدة نورثامبتون ١٣٢٨. وقد أدت الحرب إلى سلسلة من المفاوضات والهدن بداية من عام ١٣٨٩<sup>(٤)</sup>. فقد حاول أسقف دورام والترسكيلو Walter Skirlaw، والفرسان نيكولاس داجورث Nicolas Dagworth، وحنا كلانرو John Clanrow، الحصول على موافقة ملك فرنسا شارل السادس، ولكن رفض الفرنسيون الهدنة إلا بعد مشاركة اسكتلندا كحليف لفرنسا، فتجددت المفاوضات مرة أخرى

(١) تغنت بهذا النصر العديد من الأغاني والقصائد الشعبية. ومن الملاحظ أن شعراء اسكتلندا كانوا يعبرون في أشعارهم عن هذا الخلاف والتخاصم والعداء بين الطرفين، وكان يطلق على المعركة في القصائد الشعبية المطاردة (الجبارة أو الشرسة).

\*Griffiths. R: The Island of England in the Fifteenth Century Perceptions of the Peoples of the British Isles, in. Journal of Medieval History, Vol. 29, 2003, P. 185, Jim Bradbury: Medieval warfare, P. 225.

(2) Froissart: Ibid, P. 380, Rosemary. H: OP. Cit, P. 82, Christian. D. Liddy: OP. Cit, P. 212, Edward. J. Cowan: Op. Cit, P. 428, Brendan. S: Ibid, P. 9.

(3) Joel. T. Rosental: Sources And Narration In Late Medieval England, U.S.A, 2003, P. 48.

(4) Vallet De Viriville: Op. Cit, P. 217, Scott. W: Op. Cit, P. 218, Alexander Grant: OP. Cit, P. 353, Craig Taylor: OP. Cit, P. 15, Ramsay. J. H: OP. Cit, P. 32.



بواسطة الفارس حنا كلانرو والمبعوث الملكي ريتشارد رونهال Richard Ronhale، وأرسل الملك الفرنسي للملك الاسكتلندي بأمر الهدنة فوافق روبرت ستيوارت والنبلاء على مشاركة فرنسا الهدنة كحليف<sup>(١)</sup>.

وفي الحقيقة أنه منذ معاهدة بريتاني<sup>(٢)</sup> Bretagne ١٣٦٠ لم يكن الإنجليز والفرنسيين لديهم الرغبة في التنازل عن جويين Guienne، حتى بدأت المفاوضات مرة أخرى ١٣٩٣ تحت رعاية حنا أف جنت عم الملك ريتشارد الثاني فيما عرف بمعاهدة ليولنغين (ليولنجين) Leulinghen، إلا أنها فشلت<sup>(٣)</sup>. ظلت المفاوضات حتى عام ١٣٩٤ في عهد ملك اسكتلندا روبرت الثالث Robert III (١٣٩٠-١٤٠٦)، حيث بدأ ريتشارد الثاني بمحاولة تحسين العلاقات الخارجية مع أعدائه فرنسا واسكتلندا خاصة بعد فشل مفاوضات عمه حنا أف جنت، وبالفعل تم فتح باب المفاوضات مع شارل السادس منذ عام ١٣٩٥، ووضعت مسألة النسب بينهما محل النقاش. وفي الثامن من يولييه ١٣٩٥ أرسل ريتشارد الثاني سفرائه إلى فرنسا لطلب جويين كاملة، ويونثيو Ponthieu، وكاليه Calais لأنهم ذكروا في معاهدة بريتاني، وطلب إرسال مبلغ مليوني فرانك مع زوجته المستقبلية إيزابيل Isabell (ابنة شارل السادس)، بالإضافة لبعض الإدعاءات في اقطاعات في

(1) The Chronica Maiora of Walsingham, PP. 266-268.

(٢) بناء على هذه المعاهدة تحققت لادوارد الثالث السيطرة الكاملة على جاسكوني Gascony، وبويتو Poitou، وليموج Limoges، ويونثيو Ponthieu، وجويين Guienne، وكاليه Calais وإقطاعية مارك Mark، في مقابل تخلي إدوارد الثالث عن المطالبة بعرش فرنسا.

\*Jean Venette: The Chronicle of Jean Venette, TR: By. Jean Birdsall, New York, 1953, PP. 93-93, Karl Heinz Zigler: The Influence of Medieval Roman Law of Peace Treaties, in. Randal Less Affer: Peace Treaties And International Law in European Hisotry, Cambridge, 2004, P. 149.

(3) Philip Otts. C: The Fate of the Truce of Paris (1396-1415), in. Journal of Medieval History, Vol. 24, No. 1, 1998, Netherlands, P. 62.





فرنسا، وتحقيق السيادة الكاملة على اسكتلندا لهم ولأبنائهم، ولكن هذه الشروط لم توافق عليها فرنسا كحليف لإسكتلندا<sup>(١)</sup>.

أصر ريتشارد الثاني على نجاح المفاوضات، فأرسل سفارة أخرى في أكتوبر ١٣٩٥، ونجحت المفاوضات بالفعل، وتمت الموافقة على زواج إيزابيل ابنة شارل السادس من ملك إنجلترا ريتشارد الثاني، وتكون المعاهدة لمدة ثمانية وعشرين عاماً، وتشمل هذه المعاهدة حلفاء فرنسا وإنجلترا وبالتالي فهي تتضمن اسكتلندا كحليفة لفرنسا. وفي مارس ١٣٩٦، تمت الموافقة على المعاهدة<sup>(٢)</sup>، وتم الزواج في الرابع من نوفمبر بمهر حوالي

(1) Duckett Bart. G. F: Op. Cit, P. 18, Anne Curry: War And Peace, P. 295, Johnston. C: An Abortive Passage of Arms in Fourteenth Century, in. Speculum, Vol. 2 (Apr. 1927), P. 110, Philip Otts. C: Ibid, P. 62.

(٢) تم السلام النهائي مارس ١٣٩٦، وتقابل الملكان بناء على المفاوضات السابقة، وفي ٢٦ أكتوبر ترك ملك إنجلترا كاليه إلى قلعه في Guisnes وبصحبه دوق بيرري Berry، الذي تم إرساله ليحصل على قسم الملك الإنجليزي. وفي اليوم التالي تقابل الملكان، ملك إنجلترا وبرفته دوقات فرنسا تادوق بيرري وبرجنديا Burgundy، وأورليان Orleans، وبوريون Bourbon، ولورد دي بواسي Boissay، وأسقف فالنس Valence، وفايكونت ميلون Vicount De Melun. أما الملك الفرنسي فيرافقه دوق لانكستر Lancaster، ودق جلوسيستر Gloucester، وأيرل ديربي Derby، وهنري أف بولينج بروك Bolingbroke، وأيرل روتلاند Rutland، وأيرل نورثمبر لاند Northumberland هنري بيرسي Percy. وفي يوم الأحد ٢٨ أكتوبر اتفق الملكان على نقاط المعاهدة. وبعد ذلك اقساموا على الإنجيل على الحفاظ على هذه الاتفاقية. ثم دعا الملك الإنجليزي ريتشارد الثاني الملك الفرنسي شارل السادس للعشاء في يوم الاثنين في خيمته (خيمة ريتشارد). وأحضر معه الأميرة إيزابيل صاحبة الثماني سنوات (والبعض يذكر عشر سنوات) للزواج من ريتشارد الثاني ورحب الملك وشكر الملك الفرنسي على هذا الشرف. وذهبت إيزابيل مع زوجات دوق لانكستر وجلوسيستر وستافورد وباقي زوجات النبلاء، ورافقوها إلى كاليه مع الحرس والخدم وعاد الملك الفرنسي إلى أردس Ardes والإنجليزي إلى كاليه.

\*The Chronica Maiora of Walsingham, PP. 296, 297.



ثمانمائة ألف فرانك تدفع منها ثلاثمائة ألف أثناء كتابة العقد ومائة ألف سنوياً وكان شارل السادس يطلق على إيزابيل " الضامنة للسلام الدائم". أما ريتشارد فشكر الملك شارل السادس على هذا الشرف، وأن هذا الزواج سيساعد المملكتين على العيش بسلام حقناً لدماء المسيحيين، كما ترك إيداع " ملك فرنسا وإنجلترا" المكتوب على العملة الملكية الإنجليزية<sup>(١)</sup>. بل ويذكر بعض المؤرخين تعهد الطرفان على قيام تحالف انجليزي - فرنسي، والقيام بحملة صليبية مشتركة ضد العثمانيين الأتراك<sup>(٢)</sup>.

ويتضح مما سبق أنه على الرغم من محاولات الإنجليز ضم اسكتلندا منذ عهد وليم الفاتح بهف توحيد الجزر الإنجليزية، إلا أن الإسكتلنديين لم يرضخوا لهذا الوضع وواجهوا الإنجليز في معارك واشتباكات كثيرة وبخاصة على الحدود، بل وحاول الإسكتلنديون غزو إنجلترا أكثر من مرة وبخاصة في عهد مالكولم الثالث ودافيد الأول، إلا أن النتائج لم تكن حاسمة، بل وتغيرت الأوضاع وخضعت إسكتلندا لإنجلترا منذ عهد هنري الثاني بعد أسر الملك الاسكتلندي وليم الأسد. ثم تباينت العلاقات الإسكتلندية - الإنجليزية ما بين العداء أحيانا والسلم أحيانا أخرى. واستمرت هذه الأوضاع إلى عهد الملك الإنجليزي

(1) Fabian. R: The Chronicle of England And France, London, 1811, P. 477, Figeac. C: Collection De Documents Ineditssu L' Histoire De France Par Order Ou Roi Lettres des Rois Reignes Et Autres Presonnage, Tome. 11, Paris, 1847, P. 290, Jules Qucherat. M: Recherches Sur Le Chroniqueure Jean Castel, in. Bibliothique Del L' Elole Des Chartes, Tome. Duxieme, Paris, 1810-1811, P. 462, E.S.A: Welsh Sketches, London, 1853, P. 39, Capgrave. J: The Chronicle of England, London 1858, P. 253, James. L: Gillespie: Richard 11 (1367-1400), in. Strayer. J: Dictionary of the Middle ages, Vol. 10, New York, 1988, P. 384, Adrian Alies: Heraldry in Medieval England, Sympols of Politics And Propaganda, Great Britain, 2002, P. 95, Winthrop Wetherbee: Geoffrey Chauser (The Canterbury Tales), U.S.A, 2004, P. X, Joanna Summers: Late Medieval Prison, Writing and the Politics of Auto Biography, U.S.A, 2004, P. 90, Deborah. A. Fraioli: Op. Cit, P. IX& P. 78, Philip Otts: Op. Cit, P. 63.

(2) Kelly De Vries & Robert. D. Smith: OP. Cit, P. 147.



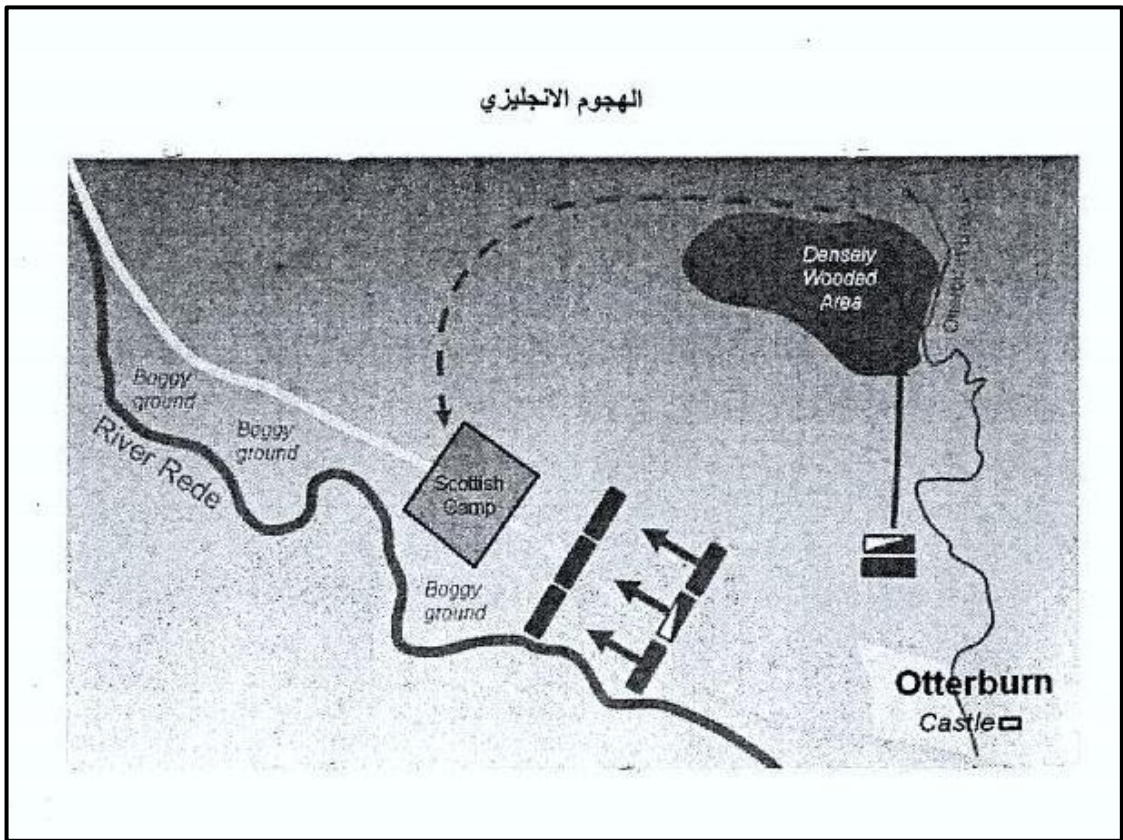
إدوارد الأول الذي سيطر على اسكتلندا تماما بعد واقعة فالكيرك. وإذا كان إدوارد الثاني ملك إنجلترا قد هُزم في بانوكبرن ١٣١٤، وتم الاعتراف باستقلال اسكتلندا ١٣٢٨، إلا أن وفاة روبرت بروس ملك اسكتلندا جاءت إيذانا بخضوع اسكتلندا لإنجلترا مرة أخرى في عهد إدوارد الثالث، وتعرض الاسكتلنديين لهزائم متتالية في هاليدون هيل ونيفيل كروس. تغيرت الأوضاع تماما في عهد روبرت ستيوارت (الثاني) وروبرت الثالث من بعده، واستغل الإسكتلنديون سوء الأوضاع الداخلية في إنجلترا في عهد ريتشارد الثاني. وجاء الانتصار في معركة أوتربرن ١٣٨٨ ليحقق لإسكتلندا الاستقرار والسيطرة لفترة طويلة، وبخاصة على الحدود بين البلدين بعد معاهدة ١٣٩٦ التي فعلت استقلال اسكتلندا بعد أن ظهرت كحليف لفرنسا في المعاهدة. بل وتجراً الإسكتلنديون بعد غزو إنجلترا على التدخل في الاضطرابات التي كانت تحدث في شمال إنجلترا، وسيطروا على الحدود بين البلدين لفترة.

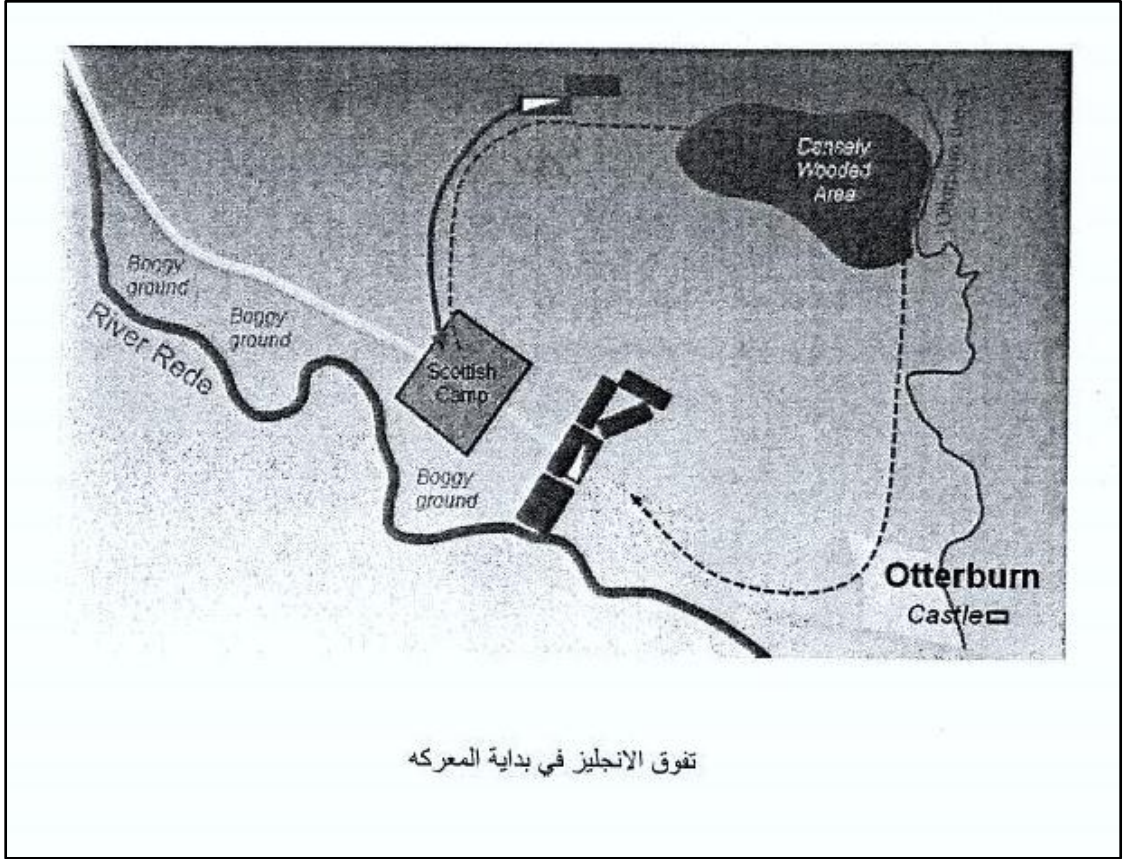
\*Grant. A: The Scottish wars of Independence in  
Mackay. A: Atlas of Medieval Europe, P. 177.

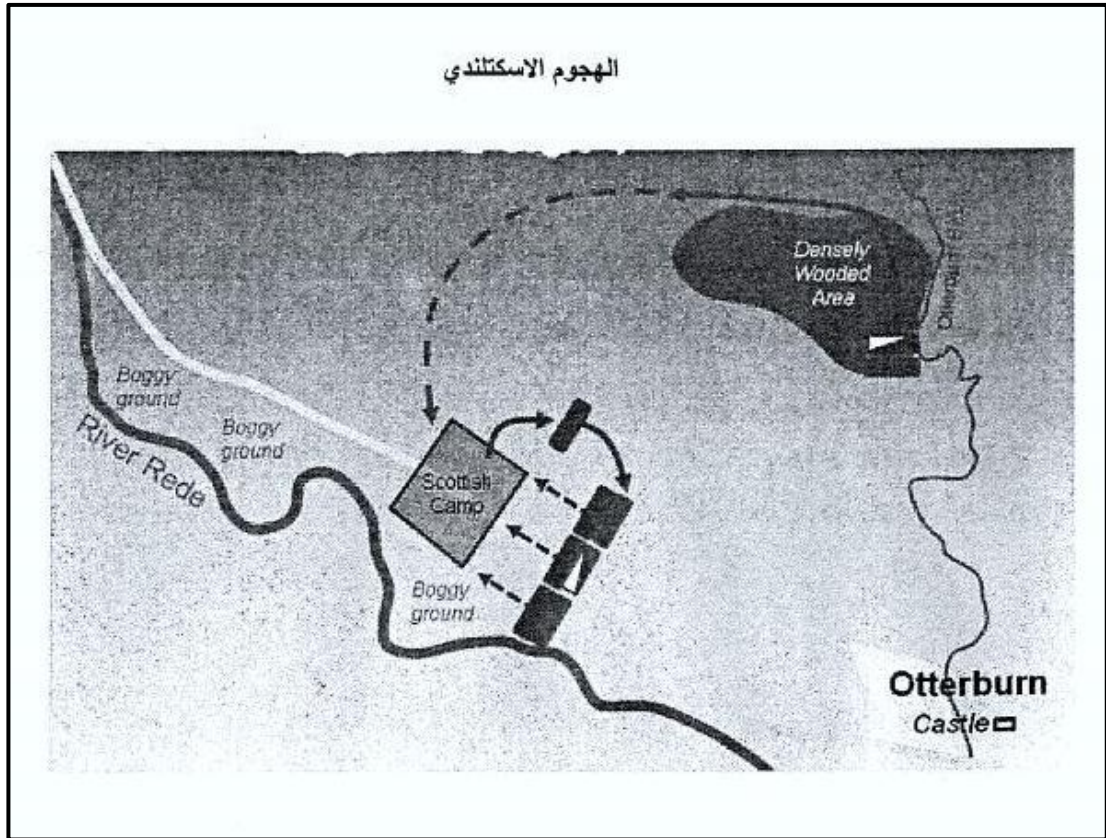
\*www.douglas  
(The Douglas)

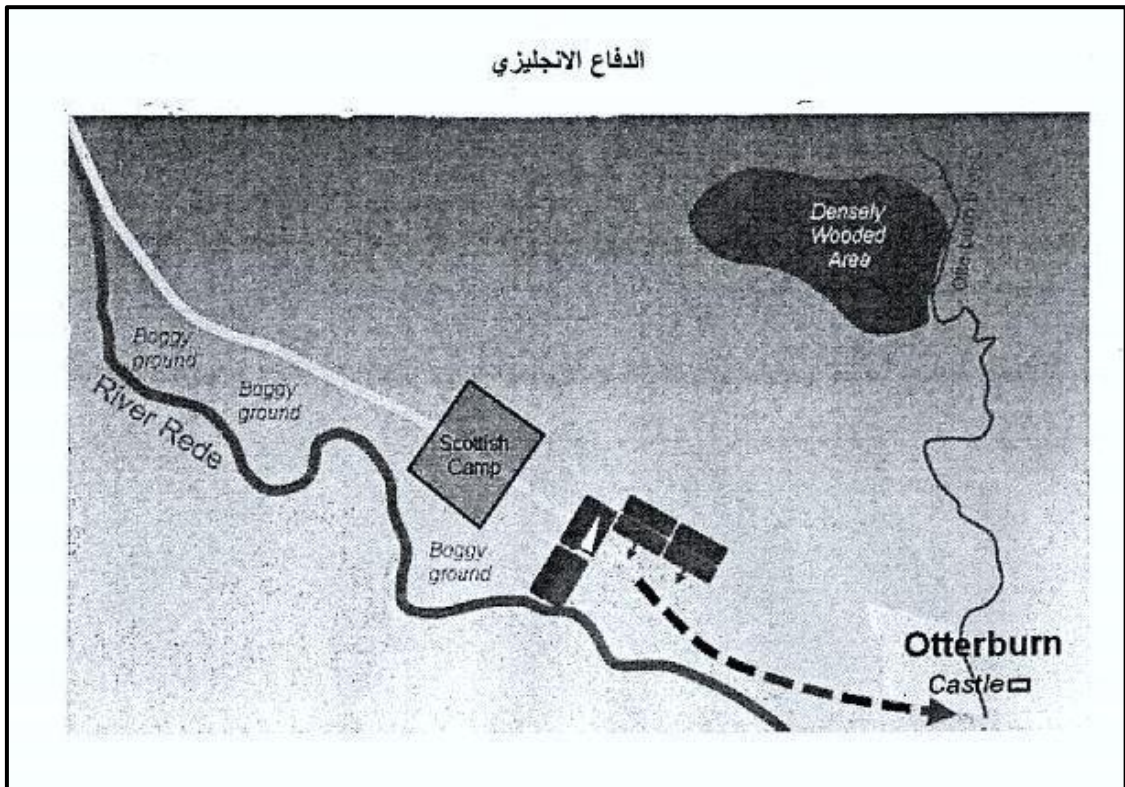


راية بيرسي













قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المصادر:

- 1- Adrian R. Bell: The Fourteenth Century Soldier More Chuser's Kinght of Medieval Career, In. John France: Mercanaries and Paidmen (The Mercanary Identity) In the Middle Ages, Leiden, Boston, 2008.
- 2- Afourteenth Century Chronicle From the Grey Frairs At Lynn In. Antonina Gransden. Legends, Traditions And History In Medieval England, Great Britain, 1922.
- 3- Ainsworth. P: Froissart And His Second Book, In. Allmand. C: War, Government And Power In Late Medieval France, Liverpool, 2000.
- 4- Representing Royalty: Kings, Queens, And Captains in. Some Early Fifteenth- Century Manuscripts of Froissart Chroniques, in. Erik Kooper: The Medieval. Chronicle, Amsterdam, 2008.
- 5- Alphillard De Saint Aiglan Natice Sur Jear Boutinery Auteur De Le Comme Ruler, In. Bibliotheque De L'ecole Des Chartes, Tome Quatrieme, Paris, 1847.
- 6- Alphonsus Ligouri: The History of Heresies and their Refutation OR the Truimph of the Chruch, trans. T. Mullack, Dublin, 1847.
- 7- Andy King: Scalling Ladder: The Rise and Rise of the Grays of Heaton (1296-1415): In Christian. D. Liddy & Richard H.



- Britnell: North- East England In Latter Middle Ages, Great Britain, 2005.
- 8- Ann Curry: War OR Peace? Philippe De Mezieres, Richard II. And Anglo- French Diplomaty, In. Kosinki. B. & Petkov. K: Philippe De Mezieres and His Age, Leiden, Boston.
- 9- Arnold. T. M: Select English Work of John Wycliffe, Vol. 3, Oxford, 1871.
- 10-Austin. F. O: Sources Book of Medieval History, New York, Chicago, Cincennati, 1907.
- 11-Bisson De Sainte Mar: Jacques De Tarente (Demier Empereux De Constantinople) En Faveur De L'Ecole Des Chartes, Vol. XLV, Paris, 1884.
- 12-Boardman. S: Apeople Divided Language, History and Anglo - Scottish Conflict In the Work of Andrew Wyntoun, In. Brendan Smith: Ireland and English World In Late Medieval Ages, Great Britain, 2009.
- 13-Capgrave. J: The Chronicle of England, London, 1858.
- 14-Charles Lea. H: Ahistory of Inquisition of the middle Ages, Vol. 2, London, 1888.
- 15-Chrles. W. Eliot: Chronicle and Romance, Froissart, Malory, Holinshed, New York, 1910.
- 16-Childs. W. R: Welcome My Brother: Edward II, John of Powderham and Chronicle In the Middle Ages, Great Britain, 1991.



- 17-Chris Given Wilson: Official and semi Official History in Later Middle Ages: The English Evidence In Context, In. Erik Kooper: The Medieval Chronicle, Amsterdam, 2008.
- 18-Chronico Rotomagensi, In. R. H. G.F, T. XXIII, Paris, 1894.
- 19-Chronicon Girardi De Fracheto, In. R.H. G. F, Tome. XXI, Paris, 1855.
- 20-Chronique Des Comtes D'Eu Depuis 1130, Jusque en 1390, In. R. H. G. F, Tome. XXIII, Paris, 1894.
- 21-Cooke. T: The Life of King Edward III, London, 1737.
- 22-Dalrymple. D: Annals of Scotland From the Accession of Malcolm III Surnamed Canmore To Accession of Robert, Edinburgh, 1776.
- 23-Daniel. K. Cornolly: Coping Maps By Mathewparis Itineraries Fit For Aking, In. Palmira Brummett: The Book of Travels Genre, Ethnology, and Pilgrimage (1250-1700), Leiden, Boston, 2009.
- 24-Daveste. M. C: Traits Et Droit De Douanes Dans L'Ancienne France, In. Bibliotheque De L'Ecole Des Chartes, Tome. Quatrieme, Paris, 1846.
- 25-Davis. C. M: History of Holland, Vol. 1, London, 1894.
- 26-De Freville. E: Des Grands Compagnies Au Quatorzieme Siecle In. Bibliotheque De L'Ecole Des Chartes, Tome. Cinquieme, Paris, 1843.



- 27-Deloziere. M: De Erreux De Date Contenues Dans Les Registre Du Tresor Des Chartes, In. Bibliotheque. De L' Ecole Des Chartes, Tome. Troisieme, Paris, 1857.
- 28-Donovan. T: Shakespeare, Richard II, In English History plays, Vol. 1, London, 1896.
- 29-Dukett Bart. G. F: Record Evidence of Cluni From 1077 To 1534, Paris, 1886.
- 30-Edwardi Secundi, TR. By. Wendy. R. Childs, U.S.A, 2005.
- 31-E.S.A: Welsh sketches, London, 1853.
- 32-Extrait D'une Chroniques Anonyme: Anciennes Chronique De Flandre, In. R.H. G. F, T. XX11, Paris, 1878.
- 33-Eyton. R.W: Antiquities of Shropshire, Vol. 1, London, 1854.
- 34-Fabian. R: The Chronicle of England and France, London 1811.
- 35-Figeac. C: Collection De Documents Inedits Su L'Histoire De France, Parordre Ou Roi Letters De Rois Reignes Et Autres Personage, Tome. II, Paris, 1847.
- 36-Frank Bright. J; A history of England, London , 1889.
- 37-Froissart: The Chronicle of Froissart, trans. Bouchier. J, Vols. II, IV, V, London, 1901-1902, 1930.
- 38-Gardiner. S. T: English Hisotry, Bc 55 To AD 1886, London 1892.
- 39-Glaber. R: The Five Books of the Hisotries, TR. By. John France, U.S.A, 1989.



- 40-Grafton's Chronicle OR History of England From Year 1189 To 1558, Vol. 1, London, 1809.
- 41-Green Wood. T: Cathedra Patrica Political History of the Great Britain Patriarchate, Book, XIV, London, 1872.
- 42-Gvillemi Nevbrigensis Historiarum, Paris, 1810.
- 43-Guessard. M: Gauluet Ou Les Sire De Gaules (1380-1423), In Bibliotheue De L'Ecole Des Chartes, Tome. Quatrieme, Paris, 1847-1848.
- 44-Guingant. H: Titres Concrnant Raimond Du Temple, Architecte Roi Charles V, In. Bibliotheque De L' Ecole Des Chartes, Tome Quatrieme, Paris, 1846.
- 45-Gutch. J.: History, and Antiquities of England and Ireland, Vol. 1, London & Cambridge, 1781.
- 46-Hallam. H: The Constitutional History Of England From Edward To Henry VII, London, 1869.
- 47-Hardy. T. D: Syllabus of the Documents Relating To England and Other Kingdoms (1066-1377), Vol.1, London, 1869.
- 48-Hartmilan. D: History of Latin Christianity, Vol. 111, Lodnon, 1872.
- 49-Henry Gillard: Essai De Biographic Jean De Folville, Privot De Paris Sous Charles VI, In. Bibliotheque De L'Ecole Des Chartes, Vol. LXIX, Paris, 1908.



- 50-Himly. A: Publications Historique De L' A Cademie Imperiale De Vienne, Vol. XXXIX, 1879.
- 51-Hooke. W: Lives of the Archbishops of Canterbury, Vol. 3, London, 1865.
- 52-James ESQ. G: History of the Life of Edward the Blackprince, London, 1836.
- 53-Jean Venette: The Chronicle of Jean Venette, TR. By. Jean Birdsall, New York, 1953.
- 54-Joel. T. Rosental: Sources and Narration In Late Medieval England, U.S.A, 2003.
- 55-John Levis: The History of the Life and Suffering of Reverend and Learned John Wycliffe, London, 1720.
- 56-John Marquess of Bute: Early Days of Sir William Wallace, Paisley, 1876.
- 57-John. S. Davies: An English Chronicle of the Reigns of Richard II, Henry IV, and Henry VI, Lodon, 1856.
- 58-Joncs. W: Ecclesiastical History, Vol. III, London, 1838.
- 59-Jordan. M. Fantosme's Chronicle of the War Between the English and the Scots, In. the Church Histories of England, TR. By. Joseph Stevenson, Vol. IV, Part. 1, London, 1856.
- 60-Jules Qucherat: Recherches Sur Le Chroniqueur Jean Castel, In. Bibliotheque De L'Ecole Des Chartes, Tome Duxieme, Paris, 1810-1811.



- 61-Kidd. B. J: Documents Illustrative of the History of the Church, Vol. 111 (500-1500), London, 1941.
- 62-Kidd. D.D: Documents Illustrative of the History of the Chruch, Vol. 111 (500-1500), London, 1941.
- 63-Kidder. D. P: The Lives of the Popes, New York, 1853.
- 64-Labbe'. M: Dictionnaire Historique Portatife, Tome. 1, Paris, 1760.
- 65-Laurance Harf- Lancer: L'Eclairge Iconographque L' Illustration Des Chronique De Froissart, In Erik Kooper: Medieval Chronicle, Amsterdam, 2008.
- 66-Life and Times Of John Wycliffe, the Morning Star of the Reformation, 1884.
- 67-Lingard. J: History of England, London, 1825.
- 68-Lionel Duke of Clarence: Astatute of the Fortieth Year of King Edward III, TR. By. James Hardiman, Dublin, 1843.
- 69-Maitland. F. M: The History of English Law, Vol. 1, Cambridge, 1895.
- 70-Masselino. J: Ex Altera Chronici Rotomagensis, In. R. H. G.F, Tome. XXIII, Paris, 1894.
- 71-Maxwell Stuart: Chronicle of the Popes, Slovenia, 1997.
- 72-Michelet. J: Histoire De France, Tome. Quatrieme, Paris, 1861.
- 73-Minote. L: Poems On Interesting Events In the Reign of Edward III, London, 1795.



- 74-MR Rapin De Thoyras: The History of England, TR. By. Tindal. M, Vol. 1, London, 1743.
- 75-Murray. T: The Life Of John Wycliffe, Edinburgh, 1829.
- 76-Myers. A. R: English Historical Documents, Vol. 4, London, 1969.
- 77-Norbye. M: Atous Nobles Qui Aiment Beaux Faits Et Bonnes Historiens, A Fifteenth- Century Logical Chronicle, In. Erik Kooper: The Medieval Chronicle, Amsterdam, 2008.
- 78-Normad. R. Cartier: The Lost Chronicle, In. Speculum, Vol. 36, No. 3 (Jul., 1961).
- 79-Oman. W.C: The Art of War In the Middle Ages, Oxford, 1885.
- 80-Grdericus Vitalis: The Ecclesiastical History of England and Normandy, trans. Thomas Forester, Vo. IV, London, 1856.
- 81-Pettit. J; History of Great Britain, London, 1794.
- 82-Peuple Franois. La Legend Des Flamens (Chronique Abregee), 1558.
- 83-Pierre De Langtoft: Chronicle De Pierre De Langtoft (From the Earliest Period. To the Death of King Edward I), Vol. II, London, 1868.
- 84-Radulphiae Coggeshall Chronicon Anglicanum De Expugantione TerrAE Sanctae Li Bellus, Thomas Angellus De Mort Et Sepultura Henrici Regis Angliae, Junioris, Gesta





- Fulconis Filii Warini, Ecerpta Exotis Imperialibus Geovassi Tideburiensis, Ed. By Joshephu Stevenson, London, 1875.
- 85-Richard Crafton: The Chronicle of John Hardyng, London, 1543.
- 86-Roberston. W: Scotland under Early kings, Vol. 1, Edinburgh, 1862.
- 87-Roger Mott: Richard II and the Crisis of July 1397, In. Ian Wood and G. A. Loud: Church and Chronicle In the Middle Ages, Great Britain, 1991.
- 88-Rudolf Buddensieg : John Wycliff's De Veritate Sacrae Scripturae, London, 1882.
- 89-Schuff. P: History of the Christian Church (Middle Ages), Vol. VI, 1882,
- 90-Scott. W: Scotland, Vol. 1, Philadelphia, 1830.
- 91-Shanon Cayk: Image, Text, and Religious Reform In Fifteenth Century England, Cambridge, 2010.
- 92-Simon. N. Forde: Social Outlook and Preaching In Wycliffite Sermons Dominicals Collection, In. Ianwood and G. A. Loud: Church and Chronicle In the Middle ages, Great Britain, 1991.
- 93-Stubbs. W: Chronicle and Memorial of Great Britain and Ireland During the Middle Ages, Vol. 1 London, 1864.
- 94-The Annales of Roger Hovden, trans. Riley. T, London 1853.



- 95-The Bruce of the Booke of the Most Excellent and Noble Prince Robert De Brayss, King of Scots Complied By Master, John Barbour, Archdeacon of Aberdeen, ed. Walter. W. Skeet, London & New York, 1875.
- 96-The Catholic Layman, Vol.V, V, November 15, No. 59, 1856.
- 97-The Chronica Maiora of Thomas Walsingham (1376-1422), TR. By. David Breest, Great Britain, 2005.
- 98-The Chronicle of Enguerrand De Monstrelet. TR By. Thomas ESQ, Vol. 1, London, 1810.
- 99-The Chronicle Roger of Hovden, Vol. IV, In. Historical Intrdouction to the Rolls Series By Stubbs W, London, New York, and Bombay, 1902.
- 100- Tierney. B: Sources of Medieval History, Vol. 1 New York, 1999.
- 101- The Acts and Monuments of John Foxe, Vol. 11, London, 1837.
- 102- Trevelyan. G. M: England In the Age of Wycliffe, London, 1899.
- 103- Vallet De Viriville: Essais Critique Sur Les Historiens Originaux De Regne De Charles VII Chronique De Cousinot,In. Bibliotheque De L' Ecole Des Chartes, Tome. Troisieme, Paris, 1857.



- 104- Vaughan. R: The Life and Openions of John Wycliffe, Vol. 1, London, 1831.
- 105- Walburton. W: Edward III, London, 1875.
- 106- Walsh. W: England Figh with the Papacy, London, 1867.
- 107- Willelmi Parvi: Historiarum Anglicarum, Vol. 1, Londini, 1856.
- 108- William of Malmesbury: Gesta Pontificum Anglorum, TR. By. Thompson. R.M, Vol. 11, Oxford, 2007.
- 109- Winthrop Wetherbee: Geoffrey Chauser (The Canterbury Tales), U.S.A, 2004.

ثانياً: المراجع

- 1- A Bram. A: English Life and Manners in the Later Middle ages, London, 1913.
- 2- Adrian Alies: Heraldry Medieval England, Sympols of Politics and Proganda, Great Britain, 2002.
- 3- Aird. W: Northumbria, In. Paulin Stafford, A companion to the Early Middle Ages (Britain and Ireland) 1100-1500, United Kingdom.
- 4- Alan Kooper : Bridges, Law Land Power In Medieval England (700-1400), Great Britain, 2002.
- 5- Alan Williams: The Knight and the Blast Furance, Leiden, Boston, 2003.
- 6- Alastair. J. Macdonald: John Hardyng, Northumbrian Identity and Scots In North – East England In Later Middle Ages, By.



- Christine. D. Liddy & Richard. H. Britnell, Great Britain, 2005.
- 7- Alexander Grant: Fourteenth century (Scotland In. New Cambridge Medieval History, Vol. VI, Cambridge, 2008.
- 8- Allmand. C: The Report of War in the Middle Ages, Liverpool, 2000.
- 9- Andre. E. Larsen: John Wycliffe, Leiden, Boston, 2006.
- 10- Andrea. C. Ruddick: Gascony and the Limits of Medieval British Isles History, In. Brendan, Smith: Ireland and the English World In Late Medieval Ages, Great Britain, 2009.
- 11- Andreas Meyer: Papal Monarchy, United Kingdom, 2009.
- 12- Ann Curry: Medieval Warfare England and Her Continental Neighbours, Eleventh to the Fourteenth Centuries, In. Journal of Medieval History, Vol. 29, No. 1, Netherlands, 1998.
- 13- Archibald. R. Lewis: The Closing of the Medieval Frontier (1250-1350), In. Speculum, Vol. 33, No. 4 (Oct., 1958).
- 14- Autrand. E: France Charles V & Charles VI, In. New Cambridge Medieval History, Vol. VI, Cambridge, 2008.
- 15- Bailey. M: The Commercialization of English Economy (1086-1500), In. Journal of Medieval History, Vol. 24, No. 3, Netherlands, 1998.
- 16- Bainville : Histoire De France, Paris, 1924.
- 17- Barell. A. D.: Medieval Scotland, Cambridge, 2003.



- 18- Barron. C: Chivalry Pagentry and Merchant Culture In Medieval London, Great Britain, 2002.
- 19- Barrow. G.W: Scotland (1000-1306), Great Britain, 1981.
- 20- Bartlette. R: The Celtic Lands of British Isles, In. New Cambridge Medieval History, Vol. VI, Cambridge, 2008.
- 21- Bellamy. J: The Law of Treason In England In Later Middle ages, Cambridge, 1970.
- 22- Ben Dodds: Peasant and Production in the Middle North - East (1270-1536), Great Britain, 2007.
- 23- Black. J. G: Edward and Gascony in 1300, in English Historical Review, Vol. 17, July, 1902.
- 24- Boardman. S & Williams. E.: The Cult of Saints and Virgin Mary in Medieval Scotland, Great Britain, 2010.
- 25- Bothwell. J. S: Edward III and the English Peerage, Great Britain, 2004.
- 26- Brendan. S: The British Isles in the Late Middle Ages Shaping the Regions, Great Britain, 2009.
- 27- Brook. C & Mack Smith: History of England (The Later Middle Ages) 1272-1485, U.S.A, 1966.
- 28- Burns. W. E: Abrief History of Great Britain, U.S.A, 2010.
- 29- Canning. J: Ahistory Of Medieval Political Thought, London, & New York, 1966.
- 30- Carvett, C: English Medieval Knight (1200-1300) Great Britain, 2002.



- 31- Charles. T. Wood: Edward III of England, In. Strayer. J: Dictionary of the Middle ages, Vol. 4, New York, 1984.
- 32- Charles. P. S. Sherman: Abrief History Of Medieval Canon Law, In England, In. University of Pennyslvania Law Review and American Law Register, Vol. 68, No. 3, (Mar., 1920).
- 33- Christian. D. Liddy: The Bishopric of Durham the Middle Ages, Great Britain, 2008.
- 34- Claire Valente: The Theory and Practice of Revolt In Medieval England, Great Britain, 2003.
- 35- Clayton. J. Drees: The Late Medieval Age of Crisis and Renewal (1300-1500), U.S.A, 2001.
- 36- Clifford. J. Rogers: The Practice of War, In. Carol Lansing & Edward. D. English: Acompanion to the Medieval World, United Kingdom, 2009.
- 37- Coredon. C & Ann Williams: Dictionary of Medieval Terms and Phrases, 2004.
- 38- Coville. A: Histoire Du Moyen Age, Tome. VI, Duxieme Partie, L'Europe Occidentale De 1328. A' 1380, Paris, 1941.
- 39- Craig. L. Lambert: Edward III Siege of Calais: A reappraisal, In. Journal of Medieval History, Jan. 2012.
- 40- Craig Taylor: War Propaganda and Diplomacy in Fifteenth Century France and England in. Allmand. C: War, Government, and Power in Late Medeival France, Great Britain, 2000.



- 41- Cuttino. G: The Causes of Hundred Years War, in, Speculum, Vol. 31, No. 3 (Jul., 1956).
- 42- Cynthia. J. Neville: Remembering the Legal Past: Anglo-Scottish Border Law and Practice In Later Middle Ages, Great Britain, 2005.
- 43- Dalton. P: The Outlaw Hereward " The Wake" His Champion and Enemies, In. John. C. Apple By & Dalton P.: Outlaws In Medieval and Modern England (1066-1600), Great Britain, 2009.
- 44- Dana Carlton: The Middle Ages (395-1500), New York & London, 1921.
- 45- David. G. Sylvester: Communal Piracy In Medieval England Cinque Ports, in. Maya Yazgi & Niall Christi: Noble Ideals and Bloody Realities Warfare in the Middle Ages, Leiden, Boston, 2006.
- 46- Davies. R.R: Lords and Lordship in the British Isles in Later Medieval Ages, U.S.A, 2009.
- 47- Deansely. M: A history of the Middle Church (500-1500),New York, 2005.
- 48- Deborah. A Fraioli: Jean of Arc and the Hundred Years War, U. S. A, 2005.
- 49- Denys Hay: Europe in the Fourteenth & Fifteenth Century, London, 1989.



- 50- Deprez. E: Les Preliminaire De La Gurre De Cent Ans, Paris, 1902.
- 51- Dickinson. W: Scotland From the Earliest Time to 1603, in. Strayer. J: Dictionary of the Middle Ages, Vol. 11, New York, 1988.
- 52- Dobson. R. B: Durham Priory, Cambridge, 1973.
- 53- Dorothy. B. Johnston: Richard II In Medieval Ireland, An Encyclopedia, New York & London, 2005.
- 54- Dubabin. J: Captivity and Imprisonment In Medieval Europe (1000-1300), China, 2000.
- 55- Duncan. A.M: Robert II (1371-1390), In. Strayer. J: Dictionary of the Middle Ages, Vol. 10, New York, 1988.
- 56- -----:Robert 1 Of Scotland (1272-1329), In. Strayer. J: Dictionary of the Middle Ages, Vol. 10, New York, 1988.
- 57- Dyson. R: Medieval Ruler and Political Ideology, United Kingdom, 2009.
- 58- Eartman. T: Birth of the Leviathan Building states and Regimes In Medieval and Early Modern Europe, Cambridge, 1997
- 59- Edward. D. English: Wallace, William, Encyclopedia of Medieval World, U.S.A, 2005.
- 60- -----:Wallace, William, Encyclopedia of Medieval World, U.S.A, 2005.





- 61- Edward. J. Cowan: Robert II of Scotland (1316-1390), In. Strayer. J: Dictionary of the Middle Ages, Vol. 10, New York, 1988.
- 62- Fasolt. C: Council and Hierarchy, Cambridge, 1991
- 63- Fawtier. R: Histoire Du Moyen Age, Tome VI, Premier Partie (L'Europe Occidentale De 1270 a 1328), Paris, 1940
- 64- Flecher. C: Manhood, Kingship and the Public Late Medieval England, Paris, 2012.
- 65- Forrest. I: Detection of Heresy In Late Medieval England, U. S.A., 2005.
- 66- Fulton. K. K: New Direction In Bureaucratic Codicology of Pires Plowmen, In. Drek Persall, New Direction in Late Medieval Manuscripts, York, 2000.
- 67- Garski. R: Justice and Injustice, England's Local Officials in Later Middle Ages, Great Britain, 2009.
- 68- Ghosh. K: The Wycliffite Heresy, Cambridge, 2004.
- 69- Gillingham. J & Griffiths. R: Medieval Britain, Oxford, 2000.
- 70- Goodman. A: The Peasant Revolt of 1381, in. Angus Mackay: Atlas of Medieval Europe, London & New York, 1997.
- 71- Grant. A: The Scottish wars of Independance In. Macky.A: Atlas Of Medieval Europe, London, & New York, 1997.



- 72- Gwilym. Dodd: Richard II and the Fiction of Majority Rule In Charles Beem: The Royal Minority of Medieval and Early Modern England, U.S.A, 2008.
- 73- Griffiths. R: The Island of England in the Fifteenth Century Perceptions of the Peoples of the British Isles, in. Journal of Medieval History, Vol. 29, 2003.
- 74- Hanawalt. B: The Medieval Ages, New York, Oxford, 1988.
- 75- Harper Bill. C: Studies in the History of Medieval Religion, Vol. XVI, Great Britain, 2001.
- 76- Hector. L- Maqueen: Scotland Politics, Government, and Law, In. Rigby. S. H: A Companion To Britain In Later Middle Ages, United Kingdom, 2003.
- 77- Hilton, R: Medieval peasant Movements and the English Rising of 1381, London, & New York, 2003.
- 78- Holmes. D: The Later Middle Ages (1272-1485), New York, 1966.
- 79- Hosler. D. J: Henry II, A medieval Soldier At war (1147-1189), Leiden, Boston, 2007.
- 80- Hume. D: Hisotry of England, London, 1910.
- 81- Ilana Krug: Wartime Corruption and Complaints of the English Peasantry, In. Vazigi. M & Christie. N: Noble Ideals and Bloody Realihes (Warfare In The Middle Ages, Leiden, Boston, 2006.



- 82- James. L. Gillespie: Richard II (1367-1400), in Strayer. J: Dictionary of the Middle Ages, Vol. 10, New York, 1988.
- 83- James. P. Ward: The Military role of the Magistrate in Holland During the Guelders War, in. Clifford. J. Rogers and Others, Journal of Medieval Military History, Vol. IV, Great Britain, 2006.
- 84- Jennifer. C. Ward: Noblewomen Family and Identity in Later Medieval Europe, Great Britain, 2000.
- 85- Jim Bradbury: The Medieval Archer, Great Britain, 1985.
- 86- Joanna Summers: Later Medieval Prison, Writing and the Politics of Autobiography, U.S.A, 2004.
- 87- Johnston. C: An Abortive Passage of Arms In Fourteenth Century, In. Speculum, Vol. 2 (Apr., 1927).
- 88- John Watts: The Making of Politics, Europe (300-1500), U.S.A, 2009.
- 89- Jones. M: The Hundred Years War, In. Mackay. A: Atlas of Medieval Europe, London, New York, 1997.
- 90- Jordan. C: Richard II (1367-1400). The Middle ages, an Encyclopedia, Vol. 4, New York , 1996.
- 91- Jotisky. A & Hull.C: The Penguin Historical Atlas of the Medieval World, Italy, 2005.
- 92- Judson Knight: Middle Ages Almanac, U.S. A, 2001.



- 93- Karl Heinz Ziegler. The Influence of Medieval Roman Law of Peace Treaties, In. Randal Less Affel: Peace Treaties and International Law In European History, Cambridge, 2004.
- 94- Kaeuper. W: Chivalry Violence. In Medieval Europe, Oxford, 1999.
- 95- Keechang Kim: Aliens In Medieval Law, Cambridge, 2004.
- 96- Keen. M: Chivalry and Aristocracy In: New Cambridge Medieval History, Cambridge, 2008.
- 97- -----: England in the Late Middle Ages, London & New York, 2003.
- 98- -----: Medieval Warfare, Oxford, 1999.
- 99- Kelly De Vries: A Cumulative Bibliography of Medieval Military History and Technology, Leiden, Boston, 2002.
- 100- -----: Calculating and Losses During the Hundred Years War, In. Lawring Armstrong and Others: Money, Markets and Trade In Late Medieval Europe, Leiden, Boston, 2007.
- 101- Kelly De Vries & Robert. D. Smith: Medieval Weapons, U.S.A, 2007.
- 102- Koaleski. M: Warfare, Shipping and Crowing Patronage: The Impact of Hundred Years War on the Port Towns of Medieval England, Leiden, Boston, 2007.



- 103-Lan Castrian: Politics, the French War and the Rise of the Popular Elements, in Speculum, Vol. 58, No. 1 (Jan. 1983).
- 104-Lavissee. E: Histoire De France, Paris, 1913.
- 105-Le Soliel Un Embeme Redotable Une Lecture Typologique De La Crise De Folie Du Roi Charles VI, In. Journal of Medieval, History, Vol. 24, No. 1, Netherlands, 1998.
- 106-Lodge. R: The Close of the Middle Ages (1272-1494) London, 1924.
- 107-Logan. D: A history of the Church in the Middle Ages, London, & New York, 2002.
- 108-Lunt. W. W: A history of England, London, 1928.
- 109-Lynn. Staley: Richard II, Henry of Derby and Business of Making Culture, in. Speculum, Vol. 75, No. 1 (Jan. 2000).
- 110-Lynn Thorndike: The History of Medieval Europe, Boston, New York, Chicago, 1917.
- 111-Mackay. A & Ditchburn. D: Atlas of Medieval Europe, London, New York, 1997.
- 112-Malcolm Vale: The Princely Court (1270-1380), Oxford, 2001.
- 113-Marten. M. A & Carter. M. A: Histories, Vol. 11 ( The Middle Ages), Oxford, 1926.
- 114-Mc Farlan. K: England in the Fifteenth Century, Great Britain, 1981.



- 115-MCGlynn. S: Medieval Warfare In European Review of History- Reviue Europeenne D' Histoire, Vol. 4, No. 2, 1997.
- 116-Mckisack. M: the Fourteenth Century (1307-1399), Oxford, 1959.
- 117-Michael. D. Bailey: Wichcraft, Heresy, and Reform In Late Middle Age, U.S. A, 2003.
- 118-Miskimin: The Last Act of Charles V In, Speculum, Vol. 38, No. 3 (Jul., 1963).
- 119-Monte. L: Bohna: Edward the Black Prince (1330-1376), Medieval France, an Encyclopedia, New York and London, 1995.
- 120-Morgan. P: The Naming of Battle Fields in the Middle Age, in. Diana Dunn: War and Society, in Medieval and Early Modern Britain, Liverpool, 2000.
- 121-Murray. A: The Crusades, an Encyclopedia, Vol. IV, California, Oxford, 2006.
- 122-Neil Jamieson: Sons of Inquity: The Problem of Unlaufuress Land Criminality Amongst Professional Soldiers in the Middle Ages, in. John. C. Appleby & Paul Dalton: Outlaws in Medieval and Early Modern England (1066-1600), Great Britain, 2009.



- 123-Niav Gallagher: The France and Scottish Wars of Independence, An Irish Perspective, in. Journal of Medieval History, Vol. 32, 2006.
- 124-Nicolas. J. Mayhen: Scotland Economy and Society, in. S.H. Rigby: Acompanion To Britain in Later Middle Ages, United Kingdom, 2003.
- 125-Ormrod. W. M: England, Edward II and Edward III, in. Cambridge Medieval History, Vol. VI ( 1300-1415), Cambridge 2008.
- 126-----:The Personal Religion of Edward III, in. Speculum, Vol. 64, NO. 4 (Oct. 1989).
- 127-Paliser. D. M: Towns and English State (1066-1500), London, 2000., Vol. 64, No. 4 (Oct. 1989).
- 128-Penman. M: The Bruce Dynasty, in. Journal of Medieval History, Vol. 32, 2006.
- 129-Philip Otts: The Fate of The Truce of Paris (1396-1415), in. Journal of Medieval History, Vol. 24, NO. 1, Netherland, 1998.
- 130-Powicke. M: Edward II and Military Obligation, in. Speculum, Vol. 31, No. 1 (Jan. 1956).
- 131-----:The English Commons in Scotland in 1322 and the Deposition of Edward, in. Speculum, Vol. 39, No. 4 (Oct, 1960).



- 132-Prestwich. M: The Enterprise of War, in. Rosmary Horrox & Mark Ormrod: Social History of England (1200-1500), Cambridge, 2006.
- 133-Ramsay. J. H: Genesis of Lancaster OR. The Three Reigns of Edward II, Edward III, and Richard II (1307-1399), Vol. 1, 1913.
- 134-----:The Dawn of Constitution OR the Reigns of Henry III and Edward I (1216-1307), Oxford, 1908.
- 135-Richard Flamingliett: Charles VI, in Medieval Europe, an Encyclopedia, New York & London, 2006.
- 136-Rigby. S: Wisdom and Chivalry (Medieval Political Theory), Leiden, Boston, 2009.
- 137-Rosemary H & Ormrod. M: A social History of England (1200-1500), Cambridge, 2006.
- 138-Rosemary. H: England: Kingship and the Political Community (1377-1500), In. S H. Rigby: Acompanion to Britain in Later Middle Ages, United Kingdom, 2003.
- 139-Rousseau. H: Saving the Souls of Medieval London Perpetual Chantries at St. Paul's Cathedra (1200-1548).
- 140-Ruth. A. Johnston: All Things Medieval, an Encyclopedia of Medieval World, U.S.A, 2011.





- 141-Ruth Brand: Galloway the Solway Shore and the Nature of Borders, In. Brendan Smith : Ireland and English World in Late Medieval Ages, Great Britain, 2009.
- 142-Scott. L. Waugh: Edward III (1327-1377), in. Emmerson. R. K; Key Figures, in Medieval Europe, an Encyclopedia, New York & London, 2006.
- 143-Sebastian. I. Sobeck: The Sea and the Englishness in the Middle Ages, Great Britain, 2011.
- 144-Seward. D: The Hundred Years War ( 1337-1453), New York, 1982.
- 145-Shenton. C: Edward III and the Symbol of the Leopard in Peter Cross & Maurice Keen: Heraldry Pageantry and Social Display in Medieval England, Great Britain, 2002.
- 146-Shepherd Hamm. J: The Paper Resource Guide to Medieval History, U.S.A, 2010.
- 147-Shogiment. T: Wycliffe's Ecclesiology and Political Thought, Leiden, Boston, 2006.
- 148-Somerset; Fiom: Clerical Discourse and Lay Audience in Late Medieval England, Cambridge, 1998.
- 149-Stephen. E. Lahey: John Wycliffe, Oxford, 2009
- 150-Stephenson. C: Medieval History (Europe From the Second to the Sixteenth Century), U.S.A, 1962.
- 151-Stokstad. M: Medieval Castles, U.S.A, 2005.



- 152–Streissguth. T: The Green Haven Encyclopedia of the Middle Ages, U.S.A, 2003.
- 153–Swanson. R. N: Universities, A Cademics and the Great Shism, London, Melbourne, 2002.
- 154–Thea Summer Fiedl: Barbour’s Bruce: Written War. Medieval Literacy Responses to Warfare, Great Britain, 2004.
- 155–-----:The Testimony of Writing: Pierre De Langtoft and the Appeals to History (1291–1306), Great Britain, 2005.
- 156–Thompson. H: A Convill and Caious Wycliffe Manuscript, in. Speculum, Vol. 8, No. 2 Apr. 1933.
- 157–Tony Jaques: Dictionary of Battles and sieges, London, 2007.
- 158–Tout T.F: The Hisotry of England From the Accession of Henry III to the Death of Edward III (1216–1377), London and, New York, 1905.
- 159–Trevelyan. G.M: History of England, London, 1909.
- 160–Terman. C.J: Philip VI and the Recovery of the Holyland, in. English Historical Review, Vol. 100, No. 394 (Jan. 1985).
- 161–Ullman. W: Ashort History of the papacy in the Middle Ages, London & New York, 2003.



- 162-Verbruggen. J. F: The art of War in Western Europe During the Middle Ages, TR By. Summer Willard & Southern. R. W, Great Britain, 1997.
- 163-Vickers. K. H: England in Later Middle Ages, London, 1913.
- 164-Wagner. J. A: Encyclopedia of the Wars of the Roses, Oxford, 2001.
- 165-Waldman. J: Hafted Weapons in Medieval and Renaissance Europe, IN. Kelly De Vries & Others: History, of Warfare, Vol. 319 Leiden, Boston, 2005.
- 166-Westernhof. D: Death and Noble Body in Medieval England, Great Britain, 2008.
- 167-Wikinson. B: Coronation Oath of Edward II and the Statute of York, IN. Speculum, Vol. 19, No. 4 (Oct. 1944)
- 168-----:The peasant Revolt of 1381, In. Speculum, Vol. 15, No. 19 (Jan.1940)
- 169-Willard. J. F: In Land Transportation in England During the Fourteenth Century, in. Speculum, Vol. 1, No. 4 (Oct. 1926).
- 170-Whetham. D: Just Wars and Moral Victories, Leiden, Boston, 2009.
- 171-Wormald. J: Scotland History, in. Strayer. J: Dictionary of the Middle Ages, Vol. 11, New York, 1988.

ثالثًا: دوائر المعارف:



- 1- All Things Medieval, An Encyclopedia of Medieval World, U.S. A, 2011.
- 2- Dictionary of the Middle Ages, Vols (4, 10, 11), 1982, 1988.
- 3- Encyclopedia of Medieval World, U.S. A, 2005.
- 4- Encyclopedia of the Wars of the Roses, Oxford, 2001.
- 5- English Historical Review, Vols, 17, 100, 1902, 1985.
- 6- European Review of History- Review, Vol. 4, No. 2, 1997.
- 7- Journal of Medieval History, Vols (42, 29, 32), 2003, 2006, 2012.
- 8- Journal of Medieval Military History, Vol. IV, Great Britain, 2006.
- 9- Key Figures in Medieval Europe, an Encyclopedia, New York and London, 2006.
- 10- Medieval France, An Encyclopedia, New York & London, 1995.
- 11- Medieval Ireland, An Gncyclopedia, New York and London, 2005.
- 12- Speculum, Vols 2, 15, 31, 35, 38, 56, 64, 75, 1927, 1940, 1944, 1956, 1958, 1960, 1963, 1983, 1989, 2000.
- 13- The Catholic Layman, Vol. V, No Rember 15, No. 59, 1856.
- 14- The Crusades, and Encyclopedia, Vol. IV, California, Oxford, 2006.
- 15- The Green Haven Encyclopedia of the Middle ages, U.S. A, 2003.

16-The Middle Ages, an Encyclopedia, Vol. 4 New York, 1996.

17-University of Pennsylvania Law Review and American Law Register, Vol. 68, No. 3, (Mar. 1920).

رابعاً: المراجع العربية والمعربة:

- ١- موريس بيشوب : تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ت. علي السيد علي، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٤.
- ٢- نظير حسان سعداوي: تاريخ إنجلترا وحضارتها في العصور القديمة والوسطى، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٨.

## النائب سودون الشيوخوني ودوره في الدولة المملوكية في فترة حكم السلطان برقوق

أ.د.م : هويدا سيد على محمد

أستاذ مساعد تاريخ العصور الوسطى

كلية الآداب - جامعة حلوان

### الملخص:

كان الأمير سودون بن عبد الله الشيوخوني الفخري والذي لقب بالأمير سيف الدين سودون الشيوخوني واحداً من أهم المماليك الذي جلبوا إلى مصر وإن لم يتول السلطنة إلا أنه لعب دوراً كبيراً في أثناء فترة حكم السلطان برقوق .

وكان سودون الشيوخوني مثله مثل كثير من الأمراء حيث طغي الغموض علي أصلهم ونشأتهم الأولى أو تضاربت الروايات حول أصلهم ونشأتهم إلا أنهم وصلوا لأعلي المناصب بالدولة حيث تزوج سودون من بنت أستاذه شيخون العمري الناصري وظل يتدرج في الوظائف حتى استقر حاجباً للديار المصرية عام ٧٧٨ هـ في سلطنة الأشرف شعبان . وفي عام ٧٨٤ هـ أصبح حاجب الحجاب بالديار المصرية في سلطنة الملك الصالح صلاح الدين حاجي بن شعبان .

ظهر سودون علي مسرح الأحداث السياسية أثناء صراع الظاهر برقوق للوصول لكرسي السلطنة حيث وقف بجانبه وساعده في الوصول للحكم ومن ثم عندما وصل برقوق لمنصب السلطنة تولى سودون نائب السلطنة بالديار المصرية .

ومنذ تولية سودون لمنصب النائب بدأت مرحلة جديدة في تاريخ سودون الشيوخوني وهي مرحلة بداية ازدياد نفوذه وعلو جاهه وقوة سطوته . وبدأ وكان الأحداث لا تسير وفق أوامر السلطان فقط بل وأوامر النائب سودون الشيوخوني الذي كان شخصاً محبوباً من الجميع . كما أنه استطاع درأ الخطر عن السلطنة وصد كثير من الأمراء الذين ثاروا علي برقوق وتحمل الكثير حتى أنه تم عقابه بعد خلع برقوق للمرة الأولى ثم عاد لمكائته بعد عودة برقوق للسلطنة وبالتالي عاد سودون لممارسة دوره وأصبح كنائب للسلطان ذو تأثير كبير علي مسرح الأحداث حتى اعتزاله للمنصب بنفسه .

### **Abstract**

Prince Soudoun ibn Abdullah al-Shaykhuni al-Fakhmi, who was called Prince Seif al-Din Soudoun al-Shaykhuni, was one of the most important Mamluks who were brought to Egypt, although he did not assume the sultanate, but he played a major role during the reign of Sultan Barquq. Soudoun al-Shaykhuni was like many of the princes, as their origin and initial upbringing were ambiguous, or there were conflicting accounts about their origin and upbringing, but they reached the highest positions in the state. Ashraf Shaban. In the year 784 AH, he became the Hajeb in the Egyptian lands during the rule of the king Salah al-Din Haji ibn Shaaban.

Soudoun appeared on the scene of political events during the struggle of Al-Zahir Barquq to reach the seat of the Sultanate. Since Soudoun's assumption of the position of deputy, a new stage began in the history of Soudoun Al-Sheikhoni, which is the stage of the beginning of the increase in his influence and the rise of his prestige and the strength of his power. And it began and the events were not proceeding according to the orders of the Sultan only, but also the orders of Soudoun Al-Sheikhoni, who was a person loved by all. He was also able to ward off the danger from the Sultanate and repel many of the princes who revolted against Barquq and endured so much that he was punished after Barquq was deposed for the first time and then returned to his position after Barquq's return to the Sultanate. And as a deputy to the Sultan, he had a great influence on the scene of events until he retired from the position by himself.

## المقدمة:

كان للمماليك مكانة بارزة في تاريخ مصر، فكانوا في البداية من الرقيق الأبيض الذين توافدوا على بلاد العالم الإسلامي، وقد كثر استخدامهم في جيوش الدولة الإسلامية، ووصلوا إلى أعلى القيادات فيها حتى صاروا أرباب النفوذ والسلطان فيها<sup>(١)</sup> والمماليك مفردتها مملوك وتعني العبد المولى، وهم جماعة عسكرية ترجع أصولهم إلى الأتراك أو المغول أو الجراكسة وغيرهم من الأجناس الأخرى<sup>(٢)</sup> واهتم السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي بشراء المماليك ثم أخوه الملك العادل ومن بعده ابنه الكامل. وأول من استكثر منهم هو الملك الصالح نجم الدين أيوب<sup>(٣)</sup>. فالمماليك هم الرقيق الأبيض، وكانوا معظمهم يجلبون من منطقة التركستان الروسية، في البلاد التي عرفها المسلمون باسم بلاد ما وراء النهر، وكانت هذه البلاد سوقاً لتجارة الرقيق الأبيض. وينسب المملوك إلي صاحبه الذي اشتراه من تجار الرقيق مثل المماليك الصلاحية نسبة إلى السلطان صلاح الدين الأيوبي، والصلاحية إلى السلطان الصالح نجم الدين أيوب<sup>(٤)</sup>

ورغم أنهم رقيق وعبيد لأسياهم وسلاطينهم، لكنهم استطاعوا تغيير أوضاعهم، كل حسب كفاءته وقدرته، ولما ساحت لهم الفرصة أصبحوا أسياد البلاد<sup>(٥)</sup> وذلك لم يأت من فراغ، وإنما جاء لاهتمام السلاطين اهتماماً كبيراً بتربية مماليتهم. فكانت المماليك الطبقة العسكرية

(١) إلهام الدجاني: السلطان الظاهر برفوق وتأسيس دولة المماليك الجراكسة في مصر، مجلة التاريخ والمستقبل، قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة المنيا، عدد يناير ٢٠٠٧م، ص ٢٦٩.

(٢) فتحي سالم حميدي اللهيبي، فائز علي بخيت الحديدي: جوانب من الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية في العصر المملوكي، ط١، ٢٠١٤م، ص ١٧.

(٣) النويري (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت ٧٧٣هـ): نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق: بخيت مصطفى فواز، وحكمت كشلي فواز، د ٢٩، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، دت، ص، ص ٢٦٨، ٢٦٩، ابن إياس (محمد ابن إياس الحنفي المصري) ت ٩٣٠ هـ / ١٢٥٣م: بدائع الزهور في وقائع الدهور، ح، ١، ق ١، تحقيق: محمد مصطفى، ط١، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٧٥ م، ٢٦٩.

(٤) إلهام الدجاني: المرجع السابق، ص ٢٦٩.

(٥) هاني فخري عطية الجزائر: النظام العسكري في دولة المماليك (٦٤٨-٩٢٣ هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧م) رسالة ماجستير، الجامعة الإسلامية - غزة، كلية الآداب - قسم التاريخ والآثار، ٢٠٠٧م، ص ٤٤.



المتمازة التي سيطرت على البلاد وأهلها، وشكل المماليك فئة كبيرة احتكرت السلطة والنفوذ والمال<sup>(١)</sup>.

ولما كانت هذه الفئة تنشأ نشأة حربية، كان أسعدهم حظاً وأعظمهم مقدرة من يعتق، ويصبح حراً بأمر السلطان، وبذلك أخذ عددهم يتضاعف بشراء ممالك جدد كانوا ينالون ما نال أمراؤهم من الحرية والثراء. ومن ذلك نلاحظ كيف كانت تطمع نفس المملوك إلى السلطنة وهو لا يزال في الطريق إلي مصر<sup>(٢)</sup> وخلاصة القول: إن المماليك قد وجدوا الرعاية والرفاهية من سلاطينهم<sup>(٣)</sup>.

وعرفت المماليك الأولى التي جلبها السلطان الصالح نجم الدين أيوب باسم المماليك البحرية<sup>(٤)</sup> وقد وصل السلطان الصالح إلى الحكم بمساعدة هؤلاء المماليك<sup>(٥)</sup> فمكّن لهم وفتح أمامهم الأبواب<sup>(٦)</sup> فكان لهم دور مهم في وقف كل من الصليبيين والمغول وزحفهم على بلاد المسلمين<sup>(٧)</sup>.

ولكن السلطان المنصور قلاوون (٦٧٨هـ / ١٢٧٩م) أعرض عن شراء المماليك الأتراك<sup>(٨)</sup> واختار أن ينشئ فرقة جديدة من المماليك. عرفت باسم المماليك البرجية أو

(١) علي عبد الله صالح السبعوي: الأوبئة والكوارث الطبيعية وآثارها على مصر خلال العصر المملوكي (٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م) رسالة ماجستير، جامعة آل البيت، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم التاريخ، ٢٠١٥م ص ١٩.

(٢) أنور زقلمة: المماليك في مصر، ط١، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط١، ١٩٩٥م، ص ٢٢، ٢٣.

(٣) السبكي (تاج الدين أبي نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي، (٧٢٧-٧٧١هـ): رفع الحاجب عن مختصر ابن الحاجب، ج١، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، عالم الكتب دت، ص ٤١.

(٤) المقرئ (تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي بن عبد القادر العبيدي) ت: ٨٤٥هـ: السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، ج١، ط١ دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ١٩٩٧م، ص ٤٤٣.

(٥) إلهام الدجاني: المرجع السابق، ص، ص ٢٦٩، ٢٧٠.

(٦) ابن إياس: المصدر السابق، ج١، ق١، ص ٢٨٩.

(٧) محمد سهيل طقوش: تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، ط١، دار النفائس، ١٩٩٧، ص ٩.

(٨) محمد عادل عبد العزيز: تاريخ الأيوبيين والمماليك، دار الكتب والوثائق القومية، ٢٠٠٤م، ص ٢٨٣.

الجراكسة<sup>(١)</sup>. والمماليك الجراكسة هم الذين مثلوا العصر الثاني من دولة المماليك، وهم الذين سكنوا برج القلعة، وأتوا من بلاد الجركس أو الشركس، جلب هذا العنصر بكثرة زمن السلطان المنصور قلاوون<sup>(٢)</sup> وكانوا يستوطنون المناطق الواقعة إلي الشمال من بحر قزوين وشرق البحر البخر الأسود وأسكنهم قلاوون في أبراج القلعة ولذلك أطلق عليهم اسم المماليك البرجية واهتم بتدريبهم عسكرياً<sup>(٣)</sup>. وقد سار أبناء المنصور قلاوون على سياسته في الاهتمام بطائفة المماليك المماليك الجراكسة مما جعل طوائف المماليك الأخرى تحس مشاعر الحقد والغيرة من المكانة والنعمة التي حظي بها المماليك الجراكسة واهتمام السلاطين بهم والاعتماد عليهم<sup>(٤)</sup>، ولذلك قويت شوكة المماليك وعظم نفوذهم.

وكانت فرصة للأمراء الجراكسة حين اعتلى الأمير بيبرس الجاشنكير عرش السلطنة ولكن المماليك الأتراك رفضوا قبول الأمر وأبدوا معارضة عنيفة لحكم الجراكسة، وهرب بيبرس الجاشنكير من سلطنته التي مكث فيها عامين أو أقل ٧٠٨ هـ - ٧٠٩ هـ / ١٣٠٨ - ١٣٠٩م لعدم استطاعته المقاومة<sup>(٥)</sup> ولصغر سن أبناء وأحفاد السلطان الناصر محمد كانوا في الغالب صغاراً بحيث صار كبار الأمراء الجراكسة يحركونهم وفق هواهم، ومرة أخرى عانت قوة الجراكسة للظهور على مسرح الأحداث. عندما ظهر الأمير برقوق كواحد من كبار الأمراء الجراكسة<sup>(٦)</sup>.

(١) قاسم عبده قاسم، في تاريخ الأيوبيين والمماليك، دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ٢٠١٤م، ص ٢٩٣.

(٢) السيد الباز العريني: المماليك، دار النهضة العربية، ١٩٦٧م، ص، ص ٥٦، ٥٧.

(٣) قاسم عبده قاسم، علي السيد علي: الأيوبيون والمماليك التاريخ السياسي والعسكري، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، د.ت، ص ٢٠٣، إلهام الدجاني، المرجع السابق، ص ٢٧٠.

(٤) قاسم عبده قاسم: في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص ٢٩٣.

(٥) قاسم عبده قاسم، علي السيد علي: الأيوبيون والمماليك التاريخ السياسي والعسكري، ص ٢٠٤، مفيد الزيدي: موسوعة التاريخ الإسلامي العصر المملوكي (٦٤٨-٩٢٣ هـ / ١٢٥٨ - ١٥١٧ م)، دار أسامة الأردن - عمان، ٢٠٠٣، ص ٧٧.

(٦) قاسم عبده قاسم، علي السيد علي: الأيوبيون والمماليك، ص ٢٠٥.

وأصبح برقوق وزميله الأمير بركة أصحاب الحل والعقد<sup>(١)</sup>، ويصور لنا المؤرخ ابن تغري بردي قوة نفوذهما بقوله "والمعول على الاثنين برقوق وبركة حتى لهجت الناس بقولهم: برقوق وبركة نصبا على الدنيا شبكة"<sup>(٢)</sup>.

ومن الطبيعي أن يتخلص الأمير برقوق من زميله الأمير بركة حتى يخلو له الحكم وبالفعل هزم برقوق بركة وتفردت عساكره وقبض عليه برقوق وسجنه في الإسكندرية مع عدد من أتباعه وصادر أمواله، ثم قتله<sup>(٣)</sup>.

وتتبع الأمير برقوق أصحاب الأمير بركة ومماليكه<sup>(٤)</sup>. ثم ملأ وظائف الدولة التي شغرت بمماليكه البرجية ووزع عليهم إقطاعات الأمراء الأتراك وفعل مثل ذلك في بلاد الشام، وأخذ يتقرب من الناس عن طريق إلغاء بعض المكوس<sup>(٥)</sup>. واستطاع بذلك الأمير برقوق التغلب على الصعوبات التي واجهته، فإنه اهتم بزيادة عدد المماليك الجراكسة ليتمكن ذلك من الإقدام على الخطوة الجريئة وهي نقل السلطة من المماليك الترك إلى المماليك الجراكسة<sup>(٦)</sup>.

ونتيجة لتزايد نفوذ الأمير برقوق، وقوته خشى أعداؤه على أنفسهم فدبروا مؤامرة لقتله، وكانت هذه المؤامرة آخر حلقة في سلسلة المؤامرات التي حيكت للوقوف بوجه العنصر الجركسي ومنعه من الوصول للحكم. وبفشل المؤامرة كانت إيذاناً بقيام دولة المماليك الثانية المعروفة باسم المماليك البرجية أو الجراكسة<sup>(٧)</sup>. وتولى برقوق سلطنة مصر وبلاد الشام سنة

(١) محمد سهيل طقوس: المرجع السابق، ص ٣٤٥.

(٢) بن تغري بردي (جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي ت ٨٧٤ هـ / ١٤٧٠م : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج ١١، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٨م، ص ١٦٣.

(٣) محمد سهيل طقوس: المرجع السابق، ص، ص ٣٤٧، ٣٤٨.

(٤) بن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ١٧٨.

(٥) محمد سهيل طقوس: المرجع السابق، ص ٣٤٨، مفيد الزبيدي: المرجع السابق، ص ٨٦.

(٦) إلهام الدجاني: المرجع السابق، ص ٢٧٧.

(٧) محمد سهيل طقوس: المرجع السابق، ص، ص ٣٤٩، ٣٥٠.

(١٣٨٢هـ/١٧٨٤م)، وهكذا أضحى مملوك الأمس سلطاناً<sup>(١)</sup>. وبعثلاء الأمير برقوق عرش السلطنة انتهى ملك بيت قلاوون وانتهت دولة المماليك البحرية التي حكمت زهاء مائة وثلاثين عاماً وقامت دولة المماليك البرجية<sup>(٢)</sup>. فمدة حكم هؤلاء المماليك لا يمكن أن يجد لها الإنسان مثيلاً في تاريخ العالم كله، فقد أصبح الأرقاء المشترون بالأموال من أسواق آسيا يحكمون قطراً غنياً كمصر ويصبح مملوك اليوم منهم حاكم الغد<sup>(٣)</sup>.

فالدولة المملوكية من أغنى الدول بحكامها الأقوياء الذين أسسوا دولة واسعة الأرجاء على بقايا الصليبيين، وأوقفت الزحف المغولي على بلاد المسلمين، وخطب ودها ملوك أوروبا وآسيا، وانتقل في عهدها مقر الخلافة العباسية من بغداد إلى القاهرة. وطبعت البلاط المملوكي بنظام خاص لم يكن موجوداً من قبل. فأصبحت مصر في العصر المملوكي مركزاً للتجارة العالمية، والطريق الرئيسي لتجارة الشرق، وبوابة العبور إلى أوروبا. بالإضافة لكثرة المنشآت العمرانية والاقتصادية والثقافية والدينية<sup>(٤)</sup>.

ولأهمية هذه الفترة وكثرة أحداثها التاريخية وقع اختياري على شخصية مهمة، وهو الأمير سودون الشيشوني لما له من مكانة مهمة، ومؤثرة في تاريخ هذه الفترة.

وهو الأمير سودون بن عبد الله الشيشوني الفخري، ويلقب بالأمير سيف الدين<sup>(٥)</sup>. ومثله مثل الكثير من الأمراء المماليك امتاز تاريخهم في أدوارهم الأولى بالغموض، وتضاربت

(١) ابن العماد: (الامام شهاب الدين أبي الفلاح عبد الحي بن أحمد بن محمد العكري الحنبلي الدمشقي (١٠٣٢ - ١٠٨٩هـ): شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط، محمود الأرناؤوط، ح٨، دار ابن كثير دمشق - بيروت، ط١، ١٩٩٢ م، ص ٤٨٧، بن تغرى بردي: النجوم الزاهرة، ح ١١، ص ٢٢١.

(٢) محمد سهيل طقوش: المرجع السابق، ص ٣٥١.

(٣) أنور زقلمة: المرجع السابق، ص، ص ٢١، ٢٢.

(٤) محمد سهيل طقوش: المرجع السابق، ص ٩.

(٥) ابن الفرات (ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم): تاريخ ابن الفرات، تحقيق: قسطنطين زريق، نجلاء عز الدين، المجلد التاسع، ج ٢، المطبعة الأمير كائنه - بيروت، ١٩٣٨م، ص ٤٤٧، ابن تغرى بردي (جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردي الأتابكي) ت ٨٧٤ هـ - ٤٧٠م): المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، تحقيق: محمد محمد أمين، ١٩٩٠ م، ص ١٠٤.

الروايات حول أصلهم ونشأتهم ، ولذلك لا نعلم تاريخ ولادته؛ لأنه لم تنصب عليه الأضواء إلا بعد ما تولى منصب نائب السلطنة للديار المصرية في عصر السلطان الظاهر برقوق . ومعنى اسمه سودون Seudin أحببت وشيخون Seyhun اسم نهر<sup>(١)</sup>. وكان من مماليك الأمير شيخون العمري الناصري<sup>(٢)</sup>. وتقل بعد أستاذه شيخون العمري في الخدم إلى أن صار أحد أمراء مصر<sup>(٣)</sup>. ثم ترقى الأمير سودون الشيخوني في الدولة المملوكية ومن حسن حظه أنه تزوج بنت أستاذه<sup>(٤)</sup>. وظل يتدرج في الوظائف. رغم أن فرص الترقى لم تكن مهياة لجميع المماليك على قدم المساواة<sup>(٥)</sup>. فلا يمكن تجاهل تنافس أمراء المماليك وتنازعهم على السلطة<sup>(٦)</sup>. ومن المعروف أن الأمير يرتقي في الوظائف والرتب في عهد السلطان الذي أمره، ويجوز له أن يتولى السلطنة إذا وافته الفرصة<sup>(٧)</sup>.

(١) عبد الله عطية عبد الحافظ: معجم أسماء السلاطين وأمراء المماليك في مصر والشام، دار النيل، د.ت، ص ٩٢ ، ٩٣ .

(٢) ابن الفرات: المصدر السابق، المجلد التاسع، ج ٢ ، ص ٤٤٧ . ابن حجر العسقلاني (شهاب الدين أحمد بن حجر العسقلاني: (ت ٨٥٢هـ / ١٤٨٨م) : إنباء الغمر بإنباء الغمر، تحقيق حسن حبشي، القاهرة، ص ٥١٧ . بن تغرى بردي (جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردي الاتابكي) ت ٨٧٤هـ / ١٤٧٠م: الدليل الشافي على المنهل الصافي .، د ١ . تحقيق: فهيم شلتوت، مكتبة الخانجي، ١٩٧٩م، ص ٣٢٨ . بن تغرى بردي (جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردي الاتابكي) ت ٨٧٤هـ / ١٤٧٠م: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، د ١٢، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٨ م ، ص ١٥١ .

(٣) المقرئ (نقي الدين أحمد بن علي المقرئ) (٧٦٦-٨٤٥هـ / ١٣٦٥ - ١٤٤٢م): درر العقود الفريدة في تراجم الاعيان المفيدة ، د ٢، تحقيق: محمود الجليلي، ص ١٠٠ .

(٤) ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر بإنباء الغمر، د ١، ص ٥١٧ .

(٥) على عبد الله صالح السبعواوي: المرجع السابق، ص ٢٠ .

(٦) هاني فخري عطية الجزار: المرجع السابق، ص ٤٤ .

(٧) السيد الباز العريني: المرجع السابق، ص ١٥٤ .

## وظائفه:

ففي عام ٧٦٥هـ في سلطنة الملك الأشرف شعبان بن حسين (٧٦٥ - ٧٧٨هـ) أنعم على الأمير سودون الشبخوني بإمرة عشرة<sup>(١)</sup> ثم أنعم عليه في عام ٧٦٨هـ بإمرة طبليخاناه<sup>(٢)</sup> وفي عام ٧٧٨هـ خلع على الأمير سودون الشبخوني واستقر حاجباً للديار المصرية<sup>(٣)</sup> وأنعم عليه بجميع موجود الأمير مبارك شاه الطازي<sup>(٤)</sup>

(١) بن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ١١، ص ٣٤، ابن إياس: المصدر السابق، ١، ق ٢، ص ٥٩. إمرة عشرة: هو من يرأس عشرة من فرسان المماليك: محمد بن عيسى بن كنان (١٠٧٤هـ - ١١٥٣م): حدائق الياسمين في نكر قوانين الخلفاء والسلاطين، تحقيق: عباس صباغ، دار النفائس، ط ١، ١٩٩١م، هامش (٤)، ص ٤٨. وربما كان فيهم من له عشرون فارساً ولا يعد إلا في أمراء العشرات. وهذه الطبقة أيضاً لا ضابط لعدة أمرائها بل تزيد وتنقص. الفلقشندي: ضوء الصباح المسفر وجنى النوح المثمر (مختصر صبح الأعشى في كتابة الأنشأ: تحقيق: محمود سلامة، ط ١، مطبعة الوعظ، ١٩٠٦م، ص ٢٤٥.

(٢) المقرئزي: السلوك، ٤، ص ٣٠٧، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ١١، ص ٣٤، ابن إياس: المصدر السابق، ١، ق ٢، ص ٥٩.

\*الطبلخاناه معناه بيت الطبول التي تدق على باب السلطان. ويشمل بيت الطبول على الطبول والأبواق وتوابعها من الآلات ويحكم على ذلك أمير من أمراء العشرات يعرف بأمر علم، يقف عليها عند ضربها في كل ليلة، ويتولى أمرها في السفر، وله رجال تحت يده وهي تعتبر مرتبة عسكرية يتولى صاحبها أمرة أربعين فارساً وقد تزيد إلى الثمانين:

الفلقشندي أبي العباس أحمد، (ت ٨٢١/هـ/٤١٨م): صبح الأعشى في صناعة الإنشأ، ٤، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٩١٤م، ص ١٣، ابن حجر (ابن الفضل شهاب الدين أحمد بن علي): نيل الدر الكامنة، تحقيق: عدنان درويش، القاهرة، ١٩٩٢م، حاشية رقم (٢) ص ١٠٥، ابن زنيل (الشيخ أحمد الرمالي): آخرة المماليك، تحقيق: عبد المنعم عامر، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٩٨م، ص ٣٠٧. (٣) بن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ١١، ص ١٥٣.

\*حاجب الحجاب: هو المشار إليه من الباب الشريف والقائم مقام النائب في كثير من الأمور. الفلقشندي: صبح الأعشى، ٤، ص ١٩، السبكي (تاج الدين عبد الوهاب) (ت ٧٧١م): معيد النعم ومبيد النقم، مؤسسة الكتاب الثقافية، ط ١، ١٩٨٦م، ص ٣٨.

(٤) ابن إياس: المصدر السابق، ١، ق ٢، ص ١٩.

وفي هذه السنة خرج السلطان الأشرف شعبان إلي الحج، فأرسل أخوته وأولاد أعمامه إلى الكرك وأرسل معهم الأمير سودون الشبخوني ليقيموا هناك مدة غيبته في الحجاز<sup>(١)</sup> وفي عام ٧٧٩هـ في سلطنة الملك المنصور علي بن الأشرف (٧٧٩-٧٨٢هـ) خلع علي الأمير سودون الشبخوني حاجباً ثانياً<sup>(٢)</sup>. وفي عام ٧٨١هـ استقر الأمير سودون الشبخوني حاجباً ثالثاً بمصر<sup>(٣)</sup>. واستمر الأمير سودون الشبخوني في الترقى في الوظائف داخل الدولة المملوكية ففي سنة ٧٨٣هـ أنعم عليه بتقدمه ألقاً<sup>(٤)</sup>.

(١) ابن العراقي (ولي الدين أبو زرعة أحمد بن عبد الرحيم بن الحسين (ت ٨٢٦هـ / ١٤٢٣م) : الذيل على العبر في خبر من عبر، تحقيق: صالح مهدي عباس، ق ١، ط ١، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٩م، ص ٤٢٨. ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد بن خلدون: (ت ٨٠٨هـ/١٤٠٥م) : ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر، تحقيق: خليل شحادة، د ٥، دار الفكر، بيروت، ٢٠٠٠م، ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ح ١، ص ١٢٨.

(٢) ابن العراقي: المصدر السابق، ص ٤٦٠، ابن إياس: المصدر السابق، د ١، ق ٢، ص ٢٠٠.

(٣) ابن شهبه (نقى الدين أبو بكر بن أحمد بن عمر بن محمد الدمشقي: (ت ٨٥١هـ/١٤٤٧م) : تاريخ ابن قاضي شهبه، تحقيق: عدنان درويش، د ٣، دمشق، ١٩٧٧، ص ٧.

(٤) ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، د ١، ص ٢٣٢. عبد الباسط بن شاهين بن خليل (زين الدين عبد الباسط بن خليل ابن شاهين الظاهري الحنفي (٨٤٤-٩٢٠هـ): نيل الأمل في نيل الدول، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، د ١، ق ٢، ط ١، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ٢٠٠٢م، ص ١٧٧. المقرئزي: السلوك د ٥، ص ١١٩.

\*تقدمه: تقدمه المماليك وظيفة كان صاحبها هو المتحكم في المماليك السلطانية وله الحكم عليهم، وكان يعين صاحبها من الخدام، والغالب كان من أمراء الطبلخانا وله نائب أميرة عشرة: القلقشندي: صبح الأعشى، د ٤، ص ٢١. اليوسفي (موسى بن محمد بن يحيى): نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر (٧٣٣-٧٣٨هـ) تحقيق: أحمد حطيط، ط ١، بيروت، ١٩٨٦، ص ١٣٦، ابن شهبه: المصدر السابق، المجلد الثاني، د ١، ص ٤٢٣، محاسن الوقاد: صرغتمش الناصري الأمير الحاكم دراسة في السيرة الذاتية ٧٣٧-٧٥٩هـ / ١٣٣٦-١٣٥٧م، المؤرخ المصري، جامعة القاهرة، العدد الخامس والعشرون، يناير ٢٠٠٢، ص ١٣٢.

تقدمه الف: هو من له التقدمة على الف فارس ممن دونه من الأمراء، وهو يمثل أعلى مراتب الأمراء، ومنهم يكون أكابر أرباب الوظائف والنواب: القلقشندي: صبح الأعشى، د ٤، ص ١٤. بن تغري بردي: النجوم الزاهرة، د ١٣، هامش ٢، ص ٦.

وفي عام ٧٨٤هـ استقر الأمير سودون الشبخوني حاجب الحجاب بالديار المصرية<sup>(١)</sup> في سلطنة الملك الصالح صلاح الدين حاجي بن شعبان (٧٩١ - ٧٩٢هـ / ١٢٨٨ - ١٣٨٩م)<sup>(٢)</sup>.

وبذلك زادت أهمية ومكانة الأمير سودون الشبخوني وزاد تعرف الأمير برقوق قبل توليه السلطنة على شخصية الأمير سودون الشبخوني، ولذلك ألزمه برقوق بمهمة إيصال مجموعة من المماليك المقبوض عليهم لمحاولتهم قتل برقوق قبل توليه السلطنة، وكان عددهم أربعين مملوكاً الذين تم القبض عليهم وأخذهم الأمير سودون الشبخوني حاجب الحجاب ومعه نقيب الجيش وهم مقيدون إلى مصر القديمة وأنزلوهم إلى المراكب، فتوجهوا بهم إلى قوص<sup>(٣)</sup>. ولاحظ أن الأمير سودون الشبخوني وقف بجانب السلطان الظاهر برقوق وشد من أزره قبل أن يصبح سلطاناً. فكان الأمير سودون حاجب الحجاب وساعد برقوق في الوصول للسلطنة، فنجده يقوم بدور مهم حيث طلب من الأمراء سراً حتى استرضاهم حتى يقتنعوا الأمير برقوق في أمر توليه السلطنة بعد تهيئة الأوضاع واستقرارها لصالح الأمير برقوق<sup>(٤)</sup>. ونتيجة لمكانة الأمير سودون الشبخوني عندما تسلطن السلطان الظاهر برقوق، اخلع عليه سنة ٧٨٤هـ، باستقراره نائب السلطنة بالديار المصرية<sup>(٥)</sup>.

وتولى الأمير سودون الشبخوني هذه الوظيفة ليس فقط لموهبته، ولكن لأن السلطان الظاهر برقوق كان يحترمه ويعظمه<sup>(٦)</sup>، والدليل على ذلك استمرار الأمير سودون الشبخوني في

(١) المقرئزي: ندر العقود الفريدة، المجلد الثاني، ٢٥٥، ص ١٠٠، المقرئزي: السلوك، ٥٥، ص ١٣٥.

(٢) بن تغرى بردي: النجوم الزاهرة، ١٢، ص ١٥١.

(٣) بن تغرى بردي: النجوم الزاهرة، ١١، ص ٢١٣.

(٤) بن تغرى بردي: النجوم الزاهرة، ١١، ص ٢١٤، ٢١٥.

(٥) ابن شهيه: المصدر المصدر السابق، ٣، ص ٥٩٦، العراقي: المصدر السابق، ص ٥٣٢، الصيرافي الخطيب الجوهري بن علي بن داود (ت ٨٧٩هـ / ١٤٧٥م) : نزهة النفوس والأبدان في تواريخ أهل الزمان، ١، تحقيق: حسن حبشي، مطبعة دار الكتب، ١٩٧٠ م، ص ٤٧، ابن حبيب الحلبي (الحسن بن عمر بن الحسن): ندر الأسلاك في دولة الأتراك، د.ت، ص ٢٥٨، المقرئزي السلوك، ٥٥، ص ١٤٢، ابن إياس: المصدر السابق، ١، ص ٢، ابن خلدون: المصدر السابق، ٥٣٨، ص ٥٣٨.

(٦) ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ١، ص ٥١٧.



في النيابة للديار المصرية سنين كثيرة حتى قبيل وفاته عندما طلب من السلطان الظاهر برفوق أن يعفيه من هذه الوظيفة نظراً لظروفه الصحية وكبر سنه ، وبالفعل أعفاه الملك الظاهر برفوق تقديراً منه لظروفه. ولم يعط هذه الوظيفة لأحد بعده وقرر له راتباً فلزم الأمير سودون الشبخوني، داره حتى مات<sup>(١)</sup>

فكان الأمير سودون الشبخوني مهاباً، وافر الحرمة وقدوة للسلطان الظاهر برفوق في جميع أموره لا يخرج السلطان برفوق عن رأيه ولا على ما يشير إليه البتة<sup>(٢)</sup>. ومنذ أن تولى الأمير سودون الشبخوني وظيفة النائب للسلطنة المملوكية، وبدأت مرحلة جديدة في تاريخ الأمير سودون الشبخوني وهي مرحلة بداية ازدياد نفوذه وعلو جاهه وقوة سطوته.

فقد ورث المماليك كثيراً من النظم الخاصة بالحكم والإدارة من الدولة الأيوبية ومن بينها وظيفة نائب السلطنة<sup>(٣)</sup> ثم تم تطويرها<sup>(٤)</sup> بما يناسب الدولة المملوكية. ونجد أن من يتولى الوظائف القريبة من السلطان لابد أن يتمتع بالعديد من الاعتبارات والمؤهلات التي تؤهله للوصول إلى أعلى المراتب ومن أهمها الشجاعة والبسالة<sup>(٥)</sup>.

وتعد وظيفة نيابة السلطنة أرفع الوظائف الإدارية في الدولة المملوكية، وتأتي في المرتبة الثانية من هرم السلطة المملوكية بعد السلطان مباشرة، ولها من المكانة والتأثير والنفوذ ما يكفل لمتوليها تصريف شئون الدولة في حضور السلطان<sup>(٦)</sup>. ولذلك لعب نائب السلطنة دوراً مهماً في سير الأحداث داخل مصر على اعتبار انه كان بمثابة الرجل الثاني في الدولة المملوكية

(١) المقرئزي: درر العقود الفريدة، ص ٢، ص ١٠٠ بن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ح ١٢، ص ١٥١ .

(٢) بن تغري بردي: المنهل الصافي، ح ٦، ص ١٠٤ بن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ح ١٢، ص ١٥١ .

(٣) محمد عبد الغني الأشقر: نائب السلطنة المملوكية في مصر (من ٦٤٨-٩٢٣ هـ / ١٢٥٠-١٥١٧ م)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩ م، ص ٦٧

(٤) حمود بن محمد النجدي: نيابة السلطنة في مصر المملوكية، مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية السعودية، العدد ١٨، إبريل ١٩٩٧ م، ص ٣٧٧.

(٥) شريفة بنت ردة بن عطية المالكي: الأمراء المماليك في القاهرة خلال عصر المماليك البحرية (٦٤٨ - ٧٨٤ هـ / ١٢٥٠ - ١٣٨٢ م) رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، ٢٠٠٦ م، ص: ٧٣ - ٧٦.

(٦) حمود بن محمد النجدي: المرجع السابق، ص ٣٧٨، شريفة بنت ردة: المرجع السابق، ص ١٨٦.

بعد السلطان<sup>(١)</sup>. فكانت وظيفة نائب السلطنة تسمى بالنيابة العظمى أو الشريفة ، وهي من أرباب الوظائف بالحضرة<sup>(٢)</sup> ضمن أرباب السيوف<sup>(٣)</sup> ، فهي أولى الوظائف التي يتولاها عسكريون بحضرة السلطان<sup>(٤)</sup>. فشارك أمراء أرباب السيوف في عدة وظائف في الدولة أسهمت أسهمت في إدارة النظام الإداري للسلطنة<sup>(٥)</sup>، ولذلك كان متوليها من الأمراء المقدمين<sup>(٦)</sup> وكان يلقب نائب السلطنة بالنائب الكافل وكافل الممالك الإسلامية<sup>(٧)</sup>، والكفالة هي أعلى رتب نيابة السلطنة فهو يحكم في كل ما يحكم فيه السلطان<sup>(٨)</sup> .

وبذلك كان على عاتق من يتولى نيابة السلطنة مثل ما على السلطان<sup>(٩)</sup>. وينوب عنه في جميع الأمور<sup>(١٠)</sup>. فكان سائر نواب الممالك الشامية وغيرها تكاتبه في غالب ما تكاتب فيه السلطان<sup>(١١)</sup>. ولذلك كان لنائب السلطنة مقر يمارس منه عمله وهو ما عرف بدار النيابة<sup>(١٢)</sup>.

(١) محمد عبد اللغني الأشقر: المرجع السابق، ص ١٧٥.

(٢) ابن الطوير (ابو محمد المرتضى عبد السلام بن الحسن القيسراني) ٥٢٤ - ٦١٧هـ / ١١٣٠ / ١٢٢٠م): نزهة المقاتلين في أخبار الدولتين، تحقيق: أيمن فؤاد سيد، ط١، فرانتش شتايز شتوتفارت، ١٩٩٢م ، ص ١١٧، العمري القاضي ابن فضل الله شهاب الدين أحمد بن يحيى (٧٠٠هـ - ٧٤٩هـ) : التعريف بالمصطلح الشريف، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨، ص ٩٤.

(٣) أرباب السيوف: مقدموا الألواف وعدة مضافات كل منها مائة فارس، وربما زاد الواحد منهم العشرة والعشرين وله التقدمة على ألف فارس ممن دونه من الأمراء. وهذه الطبقة هي أعلى مراتب الأمراء على تفاوت درجاتهم . القلقشندي: ضوء الصبح المسفر، ص ٢٤٤.

(٤) العمري: المصدر السابق، ص ٦٨.

(٥) نهلة أنيس محمد مصطفى: أولاد الناس في مجتمع عصر سلاطين المماليك، دورية كان التاريخية، العدد الخامس، سبتمبر 2009م ، ص ٥.

(٦) بن كنان : المصدر السابق، ص ٢٧

(٧) القلقشندي: صبح الأعشى، ١١١، ص ١٦. ، القلقشندي، ضوء الصبح المسفر، ص ٢٤٥.

(٨) بن كنان: المصدر السابق، ص ١١٢. القلقشندي: صبح الأعشى، ١١١، ص ١٣٤.

(٩) السبكي : معيد النعم ، ص ٢٤.

(١٠) ابن شاهين (غرس الدين خليل بن شاهين، ت ٨٧٣ هـ / ١٤٦٨م) : زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، تحقيق: بولس راويس مطبعة الجمهورية ، باريس ، ١٨٩١م، ص ١١٢.

(١١) القلقشندي: ضوء الصبح المسفر، ص ٢٤٥.

حيث يمارس منه النائب مهامه<sup>(١)</sup>، وقد أبطلت النيابة للسلطنة وقيمت كذلك حتى أيام المماليك الجراكسة حيث أعيدت في عهد السلطان الظاهر برقوق في سنة ٧٨٤ هـ / ١٣٨٢م وتولاها الأمير سودون الشبخوني واستقر بها<sup>(٢)</sup>. فكانت النيابة في أيام السلطان الظاهر برقوق تسير على القوانين المعهودة<sup>(٣)</sup>. تحت إشراف الأمير سودون الشبخوني ولم يصبها الوهن أو الضعف<sup>(٤)</sup>.

وكيفما كان الأمر، فقد تمتع الأمير سودون الشبخوني بسلطة واسعة ومهام عظيمة في الدولة المملوكية. فكان يحكم في كل ما يحكم فيه السلطان<sup>(٥)</sup>. حتى إنه كان ينوب عن السلطان في غيابه وهو ما عرف باسم نائب الغيبة<sup>(٦)</sup>. ففي سنة ٧٩٦ هـ قصد السلطان الظاهر برقوق التوجه إلي البلاد الشامية وأقام الأمير سودون الشبخوني في نيابة الغيبة إلي أن يعود من السفر<sup>(٧)</sup>. وبذلك كان للأمير سودون الشبخوني مكانة رفيعة في الدولة المملوكية بالإضافة لمكانته عند السلطان برقوق من تقدير واحترام.

#### دور سودون الشبخوني كنائب:

كان لنائب السلطنة دور مهم في نظم الحكم والإدارة ولذلك كان مسئولاً عن العديد من المهام في الدولة المملوكية، فكان من مهام نائب السلطنة تعيين وعزل الأمراء من وظائفهم فكان على النائب إذا قام السلطان بعرض المماليك وعزل بعضهم أن يتولى النائب أمر تعيينهم. وأيضاً منح لقب الإمارة، واختيار كبار موظفي الدولة<sup>(٨)</sup>.

(١) دار النيابة: كانت بقلعة الجبل ويناها السلطان الناصر محمد بن قلاوون في سنة ٧٣٧ هـ وأبطل النيابة فصار موضع دار النيابة ساحة، المقريري: الخطط، ٣، ص ٩٦٥، بن تغري بردي: النجوم، ١٠، هامش (٤)، ص ٢١.

(٢) حمود بن محمد النجدي: المرجع السابق، ص ٣٨٢.

(٣) حمود بن محمد النجدي: المرجع السابق، ص ٣٩١، محمد عبد الغني الأشقر: المرجع السابق، ص، ٣٢٢، ٣٢٣.

(٤) المقريري: الخطط، ٣، ص ٦٩٦.

(٥) حمود بن محمد النجدي: المرجع السابق، ص ٣٩١.

(٦) القلقشندي: صبح الأعشى، ١١، ص ١٣٤.

(٧) الصيرفي: المصدر السابق، ١، ص ٣٣١، بن تغري بردي: النجوم، ١٢، ص ٢٧.

(٨) ابن شاهين: نيل الأمل، ص ٣٤٤، ابن إياس: المصدر السابق، ١، ق ٢، ص ٤٦٨.

(٩) شريفة بنت ردة: المرجع السابق، ص ١٨٧.

ففي سنة ٧٨٥هـ/١٣٨٣م قام السلطان برقوق بعرض المماليك الأشرفية وعزل منهم خمسة ليكونوا طرخان<sup>(١)</sup>. وأرسل تعيينهم إلي الأمير سودون الشبخوني<sup>(٢)</sup> وأيضاً سنة ٧٩٣هـ رسم السلطان برقوق بعزل ولاية مصر وترك الأمر للنائب الأمير سودون الشبخوني أن يختار والياً من مقدمي الحلقة<sup>(٣)</sup>. كما ورد مرسوم السلطان برقوق في سنة ٧٩٦هـ لنائبه الأمير سودون الشبخوني بأن يخلع على الأمير سيدي أبو بكر بن الأمير شمس الدين سنقر الجمالي ويستقر به حاجباً<sup>(٤)</sup>. وفي عام ٧٩٧هـ، خلع النائب سودون الشبخوني على القاضي تقي الدين ابن الكفري بإذن من السلطان<sup>(٥)</sup>. ويستقر به حاجباً<sup>(٦)</sup>. وفي عام ٧٩٧هـ خلع النائب سودون الشبخوني على القاضي تقي الدين بن الكفري بإذن من السلطان<sup>(٧)</sup>.

وقد لعب الأمير سودون الشبخوني دوراً مهماً أيضاً بصفته نائب السلطنة، فكان ينوب عن السلطان في استقبال كبار الشخصيات الوافدة على السلطنة في مصر من الخارج<sup>(٨)</sup>. وبعد استقبال الرسل والأمراء من أهم واجبات النائب أيضاً، فقد جرت العادة أنه إذا وصل إلى المملكة رسول أو أمير ذي مكانة خاصة، خرج السلطان بنفسه لتلقيه عند وصوله إلى القاهرة، ويخرج معه بعض أكابر الأمراء كنائب السلطنة<sup>(٩)</sup>، ولذلك كان لسودون الشبخوني دور مهم

(١) طرخان: اصطلاح مملوكي يقصد به الأمير البطل والأجناد العاطلين من أعمال الدولة ووظائفها وإقطاعاتها، ويمنح الأمير مبلغاً من المال ولا يتسلم اقطاعاً ويصدر له تقليداً من السلطان، النويري: المصدر السابق، د ٣٣ هامش رقم (١) ص ١٠، الصيرفي: المصدر السابق هامش (٦) د ١، ص ٤٩، القلقشندي: صبح الأعشى، د ١٣، ص ٤٨، المقرئ: الخطط، د ٤، حاشية رقم (١) ص ٣٠٤. بن تغري بردي: النجوم، د ١٠، حاشية رقم (١)، ص ٣١١، المنهل الصافي، د ١١، حاشية رقم (٥)، ص ٢٧٨.

(٢) محمد عبد الغنى الأشقر: المرجع السابق، ص ١٨٥.

(٣) الصيرفي: المصدر السابق، د ١، ص ٣٢١.

(٤) ابن الفرات: المصدر السابق، المجلد التاسع، د ٢، ص ٣٨٤.

(٥) ابن شبهة: المصدر السابق، ص ٥٣٩.

(٦) ابن الفرات: المصدر السابق، المجلد التاسع، د ٢، ص ٣٨٤.

(٧) ابن شبهة: المصدر السابق، ص ٥٣٩.

(٨) حمود بن محمد النجدي: المرجع السابق، ص ٣٩١.

(٩) محمد عبد الغنى: المرجع السابق، ص ١٩٣.

في استقبال الزوار بدلاً من السلطان. وينزلهم في الأماكن المعدة لهم ويقدمهم للسلام على الخليفة والوزير مع السلطان مع عدم التقصير في حقوقهم<sup>(١)</sup>. وهي أحد مهام نائب السلطنة. ففي سنة ٧٨٥هـ، قام النائب سودون الشيوخوني باستقبال الأمير يلبيغا الناصري نائب حلب ومعه مجموعة من الأمراء<sup>(٢)</sup>، وطلع به إلي القلعة لدى السلطان<sup>(٣)</sup>. وخلع برقوق على يلبيغا يلبيغا الناصري خلعة الاستمرار على نيابة حلب<sup>(٤)</sup>. وفي سنة ٧٨٦هـ قدم رسل الخان طقتمش بن بن أزيك متملك بلاد الدشت: <sup>(٥)</sup>. فلما بلغ السلطان برقوق قدمه كلف الأمير سودون الشيوخوني الشيوخوني النائب باستقباله فخرج سودون الشيوخوني لاستقباله وأنزله بالميدان الكبير على النيل<sup>(٦)</sup>.

وفي سنة ٧٩٣هـ وصل الأمير سيف الدين ايتمش البجاسي الظاهري من دمشق وخرج نائب السلطنة سودون الشيوخوني لمقابلته وإحضاره إلى السلطان الظاهر برقوق<sup>(٧)</sup>. وفي نفس

(١) ابن الطوير: المصدر السابق، ص ١٦٧.

(٢) العسقلاني: إنباء الغمر، ١٠، ص ٢٧٢: بن تغرى بردى: النجوم، ١١، ص ٢٣١.

(٣) الصيرفي: المصدر السابق، ١٠، ص ٥٩، ابن شاهين: نيل الأمل، ١٠، ق ٢، ص ٢٠٠.

(٤) ابن إياس: المصدر السابق، ١٠، ق ٢، ص ٣٢٧.

(٥) الدشت: هي صحارى في جهة الشمال، وتضاف إلى القبقاق. وهم جنس من الترك يسكنون هذه الصحاري، وهم أهل حل وترحال على عادة البدو وقاعدة المملكة بها (صراي) وموقعها في الأقليم السابع من الأقاليم السبعة. وهي مدينة عظيمة في مستو من الأرض على شط نهر (الأتل) من الجانب الشمالي (الشرقي) غربي بحر الخزر وشماله على نحو يومين، وبحر الخزر شرقيها بجنوبيها، ونهر الأتل عندها يجري من الشمال والغرب إلى الشرق والجنوب متى يصب في بحر الخزر، وهي فرصة عظيمة للتجار ورفيق الترك. وقد بنى بها أزيك مدرسة للعلم. ومنهم معظم جيش الديار المصرية من ملوكها وأمرائها وجندها أما في فترة حكم السلطان برقوق رغب في المماليك من جنسه وأكثر من المماليك الجراكسة حتى صار منهم أكثر الأمراء والجند، وقلت المماليك الترك من الديار المصرية حتى لم يبق منهم إلا القليل من بقاياهم وأولادهم: الفلقشندى: صبح الأعشى، ج٤، ص: ٤٥٦: ٤٥٨، وكان صاحب الدشت طقتمش خان من ذرية جنكيز خان: بن تغرى بردى: النجوم، ج ١٢، هامش (٢)، ص ٥٨

(٦) الصيرفي: المصدر السابق، ١٠، ص ١٠٦، ابن إياس: المصدر السابق، ١٠، ق ٢، ص ٣٥٥.

(٧) ابن الفرات: المصدر السابق، المجلد التاسع، ٢، ص ٢٥٠، الصيرفي: المصدر السابق، ١٠، ص ٣٢٤، بن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج ١٢، ص ١٩.

السنة استقبل النائب سودون الشيخوني ومعه أعيان الأمراء والحجاب الأمير كمتبغا الحموي نائب حلب الذي قدم إلى الديار المصرية وصعد به إلى السلطان الظاهر برقوق<sup>(١)</sup> .

كما جرت العادة أيضاً أن يكون من ضمن مهام نائب السلطنة أن يقوم بعرض الأجناد لانتقاء القادرين منهم على أداء الخدمة العسكرية وإرسالهم إلي ميادين القتال<sup>(٢)</sup> . فكانت جيوش مصر تخرج يومي الاثنين والخميس في الموكب تحت القلعة، فيسيرون هناك من رأس الصوة<sup>(٣)</sup> . إلى باب القرافة ثم يقف العسكر مع نائب السلطنة وينادي على الخيل بينهم، ثم يطلعون إلي الخدمة السلطانية بالإيوان بالقلعة<sup>(٤)</sup> .

ففي سنة ٧٨٤هـ أمر السلطان برقوق بعرض المماليك الأشرفية فرسم لخمسة منهم أن يكونوا طرخانين وقرر لهم مرتباً يكفيهم وأمرهم أن يتوجهوا ببقية المماليك إلى الأمير سودون الشيخوني النائب لعرضهم<sup>(٥)</sup> . ففي سنة ٧٩٥هـ تنقلت إشاعة بين الناس أن تمرلنك قاصد أن يحضر إلى البلاد الشامية والمصرية، ولذلك جاء مرسوم السلطان الظاهر برقوق إلى الأمير سودون الشيخوني كافل المملكة الشريفة بالديار المصرية بأن ينادي بالمشعلية بأن يتجهزوا للسفر مع السلطان لقتال تمرلنك<sup>(٦)</sup> . ولذلك قام السلطان برقوق بعرض الأجناد الذين تم عرضهم عرضهم على سودون الشيخوني النائب ويختار منهم للسفر معه للحرب<sup>(٧)</sup> . وهذا يدل على أهمية دور النائب .

(١) ابن الفرات: المصدر السابق، المجلد التاسع، ج٢، ص٢٤٧، الصيرفي: المصدر السابق، د١، ص٣٢٢، بن تغرى بردي: النجوم الزاهرة، د١٢، ص١٨٨ .

(٢) محمد عبد الغني الأشقر: المرجع السابق، ص١٨٤ .

(٣) الصوة: اسم يطلق على المنطقة الجبلية الواقعة في الجهة الشمالية البحرية من قلعة القاهرة فيما بين القلعة وجامع الرفاعي ويتوسطها الطريق المعروف بسكة المحجر ودرب المارستان بخط القلعة . بن تغرى بردي: النجوم الزاهرة، حاشية (٢)، د١١، ص٤٣ .

(٤) المقرئزي: الخطط المقرئزية، د٣، ص٦٩٥ .

(٥) الصيرفي: المصدر السابق، د١، ص٤٩، ص٥٠ .

(٦) ابن الفرات: المصدر السابق، المجلد التاسع، د٢، ص٣٥٠ .

(٧) ابن الفرات: نفسه، المجلد التاسع، د٢، ص٣٧٤ .

ولنائب السلطنة دور إداري عظيم فنجد السلطان برقوق أطلق يد النائب سودون الشبخوني في أمور الدولة ومنها تعيين الولاية. ففي سنة ٧٩٣هـ طلب السلطان من النائب سودون الشبخوني إحضار جماعة من مقدمي الحلقة ليعين منهم ولاية<sup>(١)</sup>.

ومن مهام نائب السلطنة، أنه قام بدور قضائي مهم، فكان ينوب عن السلطان في النظر في الشكاوى<sup>(٢)</sup>. فيما يتعلق بالمشاجرات بين الأشخاص<sup>(٣)</sup>. وإيصال الحقوق إلي مستحقيها<sup>(٤)</sup>. مستحقيها<sup>(٤)</sup>. إذ كان يجلس لسماع شكاوى الناس. وكان مرسومه يكفي ويكون بإشارة النائب<sup>(٥)</sup>. النائب<sup>(٥)</sup>. فلم يكن السلطان يتصدى لقراءة وسماع الشكاوى بنفسه، بل يكتفي بالنائب لينظر في في المظالم .

ففي سنة ٧٨٥هـ / ١٣٨٣م أن طائفة من مسلمة النصارى، ناحية برما<sup>(٦)</sup>. من الغربية أقاموا عرساً جمعوا فيه عدة من أرباب الملاهية، فلما سعد المؤذن ليسبح الله تعالى في الليل على العادة سبوه وأهانوه، ثم صعدوا إليه وأنزلوه ، وضربوه وهموا بقتله، وقتل من معه، فقدم إلى القاهرة في طائفة وشكوا أمرهم للأمير سودون الشبخوني النائب فبعث بهم إلى الأمير جركس الخليلي؛ لأن ناحية برما من حملة إقطاعه فلم يقبل قولهم فسجن عدة منهم ولكن النائب سودون الشبخوني أفرج عنهم وأنكر السلطان برقوق ما فعله الخليلي، ولذلك اجتمع سودون الشبخوني والقضاة الأربع وضربت أعناق مسالمة أهل برما<sup>(٧)</sup>.

(١) ابن الفرات: نفسه، المجلد التاسع، ٢، ص ٢٤٥.

(٢) ابن شاهين: زبدة كشف الممالك، ص ١١٢.

(٣) محمد عبد الغني الأثقر: المرجع السابق، ص ١٧٩.

(٤) بن طولون (شمس الدين محمد بن طولون الصالحي الدمشقي (٨٨٠ - ٩٥٣هـ / ١٤٧٥ - ١٥٤٦م) :

نقد الطالب لزعل المناصب ، تحقيق: محمد أحمد دهمان/ خالد محمد دهمان، ط١، دار الفكر

المعاصر بيروت/ لبنان، ١٩٩٢م، ص ٣٥.

(٥) المقرئ: الخطط، ٣، ص ٦٩٦.

(٦) برما: من القرى المصرية القديمة في الغربية واسمها القبطي القديم هو Baramai أو Perma ،

الصيرفي: المصدر السابق، هامش (٣)، ص ١٦٧.

(٧) الصيرفي: المصدر السابق، ج ١، ص ٦٧، ابن إياس: المصدر السابق، ج ١، ق ٢،

ص ٣٣١.

وقد لعب النائب أيضًا دورًا مهمًا في شد أزر السلطان في أثناء الفتن بالإضافة إلي دوره مع الخليفة بأمر الناس بلزوم الطاعة والتماسك في أثناء الحروب الخارجية من أجل مصلحة السلطان والبلاد . فنجد في عام ٧٩١هـ / ١٣٨٨م خرج الخليفة المتوكل على الله والأمير سودون الشихوني نائب السلطنة وقضاة القضاة وغيرهم يقرأ على الناس أن السلطان برقوق قد أزال المظالم وهو يأمر الناس بتقوى الله، ولزوم الطاعة في فترة حروبه مع المغول<sup>(١)</sup> .

ونتيجة لكثرة الصراعات والفتن في ذلك العصر خاصة في فترة تولي سلطان جديد، فيظهر المناوئين له والرافضين لسلطنته<sup>(٢)</sup> . فكان العصيان من أهم سمات العصر<sup>(٣)</sup> . ونلاحظ أن الأمير سودون الشихوني وقف بجانب السلطان الظاهر برقوق وشد من أزره قبل أن يصبح سلطاناً وتهيئة الأوضاع لصالح برقوق<sup>(٤)</sup> . وبالفعل تسلطن برقوق في سنة ٧٨٤ هـ / ١٣٨٢م بعد الملك الصالح حاجي<sup>(٥)</sup> . وبذلك بدأت دولة المماليك الجراكسة<sup>(٦)</sup> .

ويبدو أنه قد جمعت بين برقوق والأمير سودون الشихوني علاقات ود حتى قبل توليه السلطنة، فإذا كان من طابع سودون الشихوني شد أزر برقوق قبل أن يصبح سلطاناً فما بالنا من رد فعل سودون الشихوني في صد أي خطر عن الظاهر برقوق بعد أن أصبح سلطاناً، وأصبح الأمير سودون الشихوني نائب السلطنة في عهده .

(١) محمد عبد الغني الأشقر: المرجع السابق، ص، ص ١٨٧ ، ١٨٨ .

(٢) نهلة أنيس: المرجع السابق، ص ٩ .

(٣) منال أحمد إبراهيم أبو زيتون: المجاعات في مصر وبلاد الشام في العصر المملوكي (٦٤٨ هـ - ٩٢٢ هـ) (١٢٥٠م - ١٥١٦م)، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، كلية الآداب ، قسم التاريخ، ١٩٩٨، ص ٥٢ .

(٤) بن تغرى بردي : النجوم، ١١٠، ص، ص ٢١٤ ، ٢١٥ .

(٥) ابن حبيب : المرجع السابق، ص ٢٥٨ . ابن شاهين المالطي (عبد الباسط بن خليل بن شاهين المالطي) المالطي (٨٤٤ - ٩٢٠ هـ) : نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين، تحقيق: محمد كمال الدين عز الدين علي، مكتبة الثقافة الدينية، ط ١، ١٩٨٧م، ص ١١٧، ابن صصري (محمد بن محمد بن أحمد ٨٠١ هـ): الدرر المضيئة في أخبار الدولة الظاهرية، تحقيق، عارف أحمد عبد الغني، دمشق، الشام، ٢٠١٣م ، ص ٧٣ .

(٦) ابن حبيب: المصدر السابق، ص ٢٥٨ . سعيد عبد الفتاح عاشور: مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، دار النهضة العربية، ١٩٧٢م، ص ٢٢٣ .



ففي عام ٧٨٢هـ وقعت فتنة بين السلطان برقوق وبين الأمير بركة، وأراد برقوق أن ينهي الوضع وتهدة الفتنة بينهما<sup>(١)</sup>. فقام السلطان برقوق بإرسال الأمير سودون الشبخوني للأمير بركة بخلعة نيابة الشام، فغضب بركة وقال لسودون "لولا أنك رجل شيخ لقتلتك لكني متى عدت ضربت عنقك"<sup>(٢)</sup>. وبهذا الموقف عرض النائب سودون الشبخوني نفسه للخطر للوقوف بجانب السلطان برقوق، وفي النهاية انتهى الموقف لصالح السلطان الظاهر برقوق وأرسل بركة إلى سجن الإسكندرية فحبس به ثم أمر برقوق بقتله<sup>(٣)</sup>.

فقد امتاز عصر سلاطين المماليك بالصراع فيما بينهم على السلطة، وقد أثاروا العديد من الفتن التي كبدت الدولة الكثير من الأموال للقضاء على الفتن والمنازعات. فقد اتسم ذلك العصر بكثرة العصيان<sup>(٤)</sup>. فكانت سياسة السلطان تجاه المماليك سبباً مباشراً في كثرة جرائمهم ضده، خاصة وأنه من بني جنسهم لا يزيد عنهم شيئاً سوى الفرصة التي وائته وجعلته سلطاناً، فكثرت خروج كبار الأمراء على السلاطين، وكان هذا الخروج جريمة يعاقب عليها بشدة فهي خيانة للسلطان المفوض من قبل الخليفة العباسي بالحكم<sup>(٥)</sup>.

ورغم كل الإجراءات التي قام بها السلطان برقوق إلا أنها لم تنفع في حمايته من المؤامرات فقامت ضده ثورة تزعمها الأمير منطاش نائب ملطية. وبلغا الناصري نائب حلب سنة ٧٩١ هـ / ١٣٨٨ م<sup>(٦)</sup>. ولم يبق مع السلطان برقوق إلا طائفة من خاصته، وبعض

(١) ابن شهبه: المصدر السابق، د٣، ص، ص٢٣، ٢٤، ابن إياس: المصدر السابق، د١، ق٢، ص٢٥٦.

(٢) ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، د١، ص٢١٠.

(٣) بن تغرى بردي: المنهل الصافي، د٣، ص٣٥١.

(٤) منال أحمد إبراهيم أبو زيتون: المرجع السابق، ص٥٢.

(٥) حسن فرحان عبد الساتر عطية: الجرائم في مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة (٧٨٤-٩٢٣هـ/ ١٣٨٢ - ١٥١٧م) دراسة تاريخية، اللغة العربية أسبوط، المجلة العلمية، العدد التاسع

والعشرون، الجزء الثاني، أكتوبر، ٢٠١٠م، ص١٤١٩.

(٦) ابن الفرات: المصدر السابق، المجلد التاسع، د١، ص٢٠،

السخاوي (الإمام الحافظ المؤرخ شمس الدين أبي الخير محمد بن عبد الله بن محمد السخاوي): (٨٣١-

٩٠٢هـ) : الذيل التام على دول الإسلام، د١، تحقيق: حسن إسماعيل مروة، ط١ مكتبة العروبة،

دار ابن العماد، بيروت، ١٩٩٢م، ص٣٥٣، بن تغرى بردي: النجوم، د١، ص٢٥١ ابن إياس:

الأمرء وعلى رأسهم النائب سودون الشيوخوني وأراد السلطان أن يسلم نفسه، فمنعه سودون ومن بقى عنده وقالوا "نحن نقاتل بين يديك حتى نموت"<sup>(١)</sup>. ثم ركب الخليفة والقضاة الأربعة، ونوابهم وجماعة من المشايخ ومعهم النائب سودون الشيوخوني ونودي بالقاهرة بالاهتمام بشأن العدو الناصري ومنطاش وأن يصلح الدروب<sup>(٢)</sup>. فشرع الناس في ذلك وفي عمل الدروب وشراء الأقوات للحصار وأخذ السلطان في تحصين قلعته وتوعير طرقاتها<sup>(٣)</sup>. ونزل السلطان برقوق إلى الأسطبل ومعه النائب سودون الشيوخوني وعدة من الأمرء المماليك وأمر أجناد الحلقة<sup>(٤)</sup>. أن يجتمعوا في بيت الأمير سودون الشيوخوني النائب ثم اتفق مجموعة من الأمرء ضد السلطان برقوق ولم يبق معه إلا فرقة من خاصيكته<sup>(٥)</sup>. وعدة قليلة من الأمرء وابن عمه الأمير قجماس وسودون النائب وغيرهم<sup>(٦)</sup>. واختفى السلطان برقوق بمكان حتى تخمد الفتنة<sup>(٧)</sup>.

المصدر السابق، ١٠، ق٢، ص٣٩٣، سعيد عاشور: مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، دار النهضة العربية، ١٩٧٢، ص٢٢٣.

(١) محمد عبد الغني الأشقر : المرجع السابق، ص١٨٨.

(٢) الدروب: المقصود بالدروب هنا الأبواب التي تقام على رؤس الطرق والحارات داخل القاهرة لمنع دخول الخارجين على السلطان إليها عند وقوع الثورات : بن تغرى بردي: النجوم، ١١، حاشية (١) ص٢٧٠.

(٣) ابن شاهين : نيل الأمل ، ص ٢٧٤.

(٤) أجناد الحلقة: كان عدتهم قديماً أربعة وعشرين ألف جندياً كل ألف منهم مضاف إلى أحد الأمرء مقدمي الألوف وكل من الألف لهم باش ومنهم من هو بحرى يركز بالقلعة المنصورة ومنهم من يركز في غيبة السلطان بمراكز معينة بمصر والقاهرة ومنهم من يتوجه في المهمات الشريفة . ابن شاهين: زبدة كشف الممالك، ص١١٦.

(٥) الخاصكية: فهم الذين يلزمون السلطان في خلواته ويسوقون المحمل الشريف ويتعينون بكوامل الكفال ويجهزون في المهمات الشريفة والمتعينون للأمرء والمقربون في المملكة كان عدتهم في أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون أربعين خاصكياً ثم ازدادوا على ذلك حتى صاروا في أيام الملك الأشرف برسبای نحو ألف خاصكياً ومنهم من هو صاحب وظيفة ومنهم من ليس له وظيفة . ابن شاهين زبدة كشف الممالك ص ، ص ، ١١٥ ، ١١٦

(٦) الصيرفي: المصدر السابق، ١٠، ص٢٠٤، ابن شهيه : المصدر السابق ، ٣ ، ص ٢٧٦، العسقلاني : إنباء الغمر: المصدر السابق، ١٠، ص ٣٦٨.

(٧) بن تغرى بردي: النجوم، ١١، ص٢٨٥.

ونتيجة لمساعدة النائب سودون الشихوني للسلطان برقوق أمر الأمير يلبيغا الناصري بأن يلزم الأمير سودون الشихوني بيته سنة ٧٩٠هـ<sup>(١)</sup>. ثم تم القبض على الأمير سودون الشихوني ومعه تسعة من الأمراء<sup>(٢)</sup>. وسجن بثغر الإسكندرية<sup>(٣)</sup>. ونودي على السلطان السلطان برقوق وهدد من أخفاه فكثرت الدعاء من العامة للسلطان برقوق وكثر الأسف على فقده فصارت العامة تقول:

راح برقوق وغزلاته وجاء الناصري وثيرانه

وهذا لكثرة الفساد من التركمان أصحاب الناصري بالقاهرة<sup>(٤)</sup>. وفي سنة ٧٩١هـ، ظهر السلطان برقوق وقيل بين الناس إنه كان مستتراً عند النائب سودون الشихوني<sup>(٥)</sup>. ولذلك أمر الأمير منطاش بإحضار الأمير سودون الشихوني من ثغر الإسكندرية وأن يلزم بيته<sup>(٦)</sup>. وألزمه الأمير منطاش بدفع مبلغ من المال<sup>(٧)</sup>، ولكن أنكر سودون الشихوني أنه يملك هذا المبلغ. ولكن ناظر الخاص<sup>(٨)</sup>. ذكر أن سودون الشихوني في بيته من إنعام السلطان السلطان برقوق ستمائة ألف درهم وقيل أن سودون الشихوني دفع جزءاً مما قرر عليه

(١) ابن الفرات: المصدر السابق، ص ٩٦، بن تغرى بردي: النجوم، د ١١، ص ٣٢١.

(٢) الصيرفي: المصدر السابق، د ١، ص ٢١٨، المقرئ: دار العقود الفريدة، د ٢، ص ١٠٠، بن تغرى بردي: المنهل الصافي، د ٦، ص ١٠٧.

(٣) ابن شاهين: نيل الأمل، د ١، ق ٢، ص ٢٧٧، ابن الفرات: المصدر السابق، د ١، ص ٩٦، بن تغرى بردي: النجوم، د ١١، ص ٣٢١، ابن إياس: المصدر السابق، د ١، ق ٢، ص ٤٠٥.

(٤) بن تغرى بردي: النجوم، د ١١، ص ٣٢٣.

(٥) ابن الفرات: المصدر السابق، ص ١٠٤.

(٦) ابن شهيه: المصدر السابق، د ٣، ص ٣٨٤، ابن الفرات: المصدر السابق، د ١، ص ١٢٩، بن تغرى بردي: النجوم، د ١١، ص ٣٤٠.

(٧) بن تغرى بردي: النجوم، د ١١، ص ٣٤٣، المنهل الصافي، د ٦، ص ١٠٨.

(٨) ناظر الخاص: موضوعه التحدث فيما هو خاص ببال السلطان وشاغل هذه الوظيفة كالوزير لقربه من السلطان وتصرفه وإليه تدبير جملة الأمور وتعيين المباشرين في زمن تعطيل الوزارة، ولا يستقل بأمر إلا بمراجعة السلطان ومثلها نظر الخاص بدمشق وموضوعه التحدث فيما يتعلق بالمستأجرات السلطانية وغيرها من الأمور وما يجري مجراها. ابن حجر العسقلاني: نيل الدرر الكامنة، حاشية رقم (٤)، ص ١٠٣.

من المال<sup>(١)</sup>. ثم أمر منطاش بحبس الخليفة زكريا والأمير سودون الشيوخوني النائب بقاعة الفضة من القلعة<sup>(٢)</sup>.

كل هذا والأمير سودون الشيوخوني النائب يعرض حياته للخطر من حبس وفرض غرامة مالية ولكنه اختار أن يظل مسانداً للسلطان برقوق ويقوم بواجبه كنائب للسلطنة. ولذلك أخذ ينادي بالأمان والاطمئنان والدعاء للسلطان برقوق وأمر أن يخطب باسمه في خطبة الجمعة<sup>(٣)</sup>. الجمعة<sup>(٣)</sup>. وبمساعدة النائب سودون الشيوخوني الذي أتم مهامه تجاه السلطان برقوق خير تمام ومعه مجموعة من الأمراء عاد السلطان الظاهر برقوق إلى الحكم للمرة الثانية سنة ٧٩٢هـ<sup>(٤)</sup>. وبذلك استقام الأمر في القاهرة للسلطان برقوق واطمأن أهلها وفرحوا به. وخمدت الفتنة وناوت بالأمان<sup>(٥)</sup>. وظل الأمير سودون الشيوخوني النائب للديار المصرية في فترة حكم برقوق الثانية بعد انتصاره على أعدائه<sup>(٦)</sup>. وزادت أهمية النائب سودون الشيوخوني عند السلطان برقوق واستمر عظيم الدولة في فترة حكمه<sup>(٧)</sup>. وبالفعل يستحق الأمير سودون الشيوخوني كل التقدير؛ لأنه ثبت مع الملك الظاهر برقوق عند مخامرة الأمراء<sup>(٨)</sup>. وبالفعل، قام النائب سودون الشيوخوني بدور مهم جداً مع السلطان برقوق والدفاع عن الدولة.

(١) ابن الفرات: المصدر السابق، د١، ص١٣٠.

(٢) ابن شهبه: المصدر السابق، د٣، ص٣٠٢، ابن الفرات: المصدر السابق، المجلد التاسع، د١ ص١٦٨، بن تغرى بردي: النجوم، د١١، ص٣٦٤، بن تغرى بردي: المنهل الصافي، د٦، ص١٠٨، ابن خلدون: المصدر السابق، د٥، ص٥٥٧، وقاعة الفضة هي معتقل أو سجن معروف داخل قلعة الجبل، بلقاسم طباطبائي: دراسات في السلطة والمجتمع في العصر الإسلامي الوسيط، مصر والشام في العهد المملوكي أنموذجاً ١٢٥٠: ١٥١٧م، الدار التونسية للكتاب، ٢٠١٣م، ص١٣٤.

(٣) ابن الفرات: المصدر السابق، د١، ص١٩٢، ابن خلدون: المصدر السابق، د٥، ص٥٥٩.

(٤) السخاوي: الذيل التام على دول الاسلام للذهبي، د١، ص٣٦٢، ابن اياس: المصدر السابق، د١، ق٢، ص٤٢٧.

(٥) ابن صصري: المصدر السابق، ص٧٤، ص٧٥.

(٦) ابن شهبه: المصدر السابق، د٣، ص٣٢٧، الصيرفي: المصدر السابق، د١، ص٢٩٧، المقرئزي: درر العقود الفريدة، د٢، ص١٠٠.

(٧) ابن شاهين: نزهة الأساطين، ص١١٨، بن تغرى بردي: المنهل الصافي، د٦، ص١٠٨.

(٨) ابن شهبه: المصدر السابق، د٣، ص٥٩٦.

وأيضاً قام النائب سودون الشبخوني بدور مهم، وهو تهدئة الأحوال لاستقرار أمور البلاد في أثناء الخلاف الذي حدث سنة ١٣٨٣/هـ١٧٨٥م بين السلطان برقوق والخليفة المتوكل على الله. في محاولة الخليفة قتل السلطان برقوق بمساعدة الأمير قرط بن عمر والأمير إبراهيم بن قطلوقتمر العلاني وجماعة من الأكراد والتركمان ولكن أنكر الخليفة ذلك رغم اعتراف الأميرين بتحريض الخليفة على قتل السلطان<sup>(١)</sup>. واستدعى السلطان برقوق النائب سودون الشبخوني وأبلغه ما حدث من الخليفة واشتد غضب السلطان برقوق من استمرار إنكار الخليفة بالتحريض ضده مما وصل السلطان إلى محاولة ضرب عنق الخليفة<sup>(٢)</sup>. ولكن حال النائب سودون الشبخوني بين السلطان برقوق وبين الخليفة حتى سكن غضب السلطان<sup>(٣)</sup>. ولجأ السلطان برقوق لمعرفة رأي القضاة في قتل الخليفة ولم يجز القضاة ذلك<sup>(٤)</sup>. وأيضاً شفع في الخليفة الأمراء أيتمش والجوياني والنائب سودون الشبخوني في فك قيده، وعدم قتله وقبل السلطان برقوق تشفعهم له<sup>(٥)</sup>. وبذلك منع النائب سودون الشبخوني السلطان برقوق من ارتكاب خطأ كبير بقتله للخليفة .

(١) ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ١، ص ٢٧٥. بن تغري بردي: النجوم، ١١، ص ٢٣٤. ابن الطولوني: (الحسن بن حسين بن أحمد ابن الطولوني)، (٨٣٦، ٩٢٣هـ) : النزهة السنوية في أخبار الخلفاء والملوك المصرية (أخبار الخلفاء)، تحقيق: محمد كمال الدين عز الدين علي، ط ١، عالم الكتب، ١٩٨٨م، حاشية (٢) ص ١٢٧. ابن العراقي: المصدر السابق، ص ٥٤٤. بن تغري بردي: النجوم، ١١، ص ٢٣٤. ابن إياس: المصدر السابق، ١، ق ٢، ص ٢٣٢.

(٢) ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ١، ص ٢٧٥. بن تغري بردي: النجوم، ١١، ص ٢٣٤.

(٣) بن تغري بردي: النجوم، ١١، ص ٢٣٥. ابن إياس: المصدر السابق، ١، ق ٢، ص ٣٣٣. محمد عبد الغني الأشقر: المرجع السابق، ص ١٨٧.

(٤) سماح بنت سعيد عبد القادر باحويرث: الأثر السياسي والدور الإصلاحي للعلماء في عصر سلاطين المماليك (٦٤٨ - ٩٢٣هـ / ١٣٥٠ - ١٥١٧م) : دراسة تاريخية حضارية، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، ٢٠١٠م، ص ١٩٠.

(٥) ابن شيهه: المصدر السابق، ٣، ص ١١٣. ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ١، ص ٢٧٧. ابن إياس: المصدر السابق، ١، ق ٢، ص ٣٣٦.

وكان أيضاً من مهام نائب السلطنة ومعه القضاة تبليغ الناس بقرارات السلطان خاصة إذا أبطل السلطان المكوس والمظالم وأن يأمرهم بتقوى الله ولزوم الطاعة خاصة في فترات الحروب<sup>(١)</sup>.

وأيضاً من مهامه التحدث في أمور البريد<sup>(٢)</sup>. ففي سنة ٧٩٦ هـ ورد في مرسوم شريف عزل الأمير ناصر الدين الدين محمد بن صدقة بن الأعسر والي المنوفية وإحضاره إلى القاهرة فوجه إليه الأمير سودون الشبخوني النائب البريد لإحضاره إليه<sup>(٣)</sup>.

ومن خلال المهام التي يقوم بها نائب السلطنة بالديار المصرية، نجد أن النائب يعتبر ساعد السلطان الأيمن في تصريف شئون الدولة<sup>(٤)</sup>، حتى أنه كان لنائب السلطنة بالقاهرة سجن له يسجن فيه ويفرج عن المساجين بإرادته. وقد اتخذ نواب السلطنة سجناً في مراكز نياباتهم<sup>(٥)</sup>. وهذا يدل على مدى ما وصل له النائب من أهمية وسلطة.

وقد وصل النائب سودون الشبخوني إلى درجة عظيمة من النفوذ والسلطة. فكان هو المتحكم في جميع الوظائف جليلها وحقيرها، من عزل وتعيين بالإضافة إلى كان له دور كبير في حفظ الأمن في السلطنة ووقف العديد من الفتن والثورات وساند السلطان برفوق في جميع أزماته.

(١) الصيرفي: المصدر السابق، ج١، ص١٩٧، ابن الفرات: المصدر السابق، ج١، ص٧١.  
(٢) البريد: البريد في الاصطلاح هو أن يجعل خيلاً مضمرات في عدة أماكن، فإذا وصل صاحب الخبر المسرع إلى مكان منها، وقد تعب فرسه ركب غيره فرساً مستريحاً، وكذلك يفعل في المكان الآخر والآخر حتى يصل بسرعة أما البريد في اللغة، فهو المسافة المحددة بين مركزين قدرها الفقهاء والعلماء بأنها أربعة فراسخ أو اثنا عشر ميلاً (حوالي ٢٢١٧٦ متر) وأول من وضع البريد في الإسلام هو معاوية بن أبي سفيان حيث استقرت له الخلافة ولم يزل البريد قائماً حتى عهد دولة المماليك وكان له أهمية قصوى في استعلام الأخبار. ابن فضل الله العمري: المصدر السابق، ص: ٢٤٠: ٢٤٢، شريفة بنت ردة: المرجع السابق، ص ١٨٩.

(٣) ابن الفرات: المصدر السابق، المجلد التاسع، ج٢، ص٣٨٥.

(٤) ابن فضل الله العمري: المصدر السابق، ص، ص١٣٠، ١٣١.

(٥) هالة نواف يوسف الرفاعي: السجون في مصر في العصر المملوكي، رسالة ماجستير، ٢٠٠٨م، ص٦٨.

### أعماله:

كان للأمير سودون الشبخوني نائب السلطنة دور عظيم في أوقات الأزمات وخاصة في فترة تقصير النيل عن حد الوفاء أو زيادته عن الحد ومن المعروف إن زاد النيل أو نقص كان الضرر شديداً<sup>(١)</sup>. فذلك كان يمثل خطراً حقيقياً على الحياة يخشى آثارها الجميع، وقد عانت مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة من الأزمات الاقتصادية الناتجة عن انخفاض أو زيادة نهر النيل<sup>(٢)</sup>، فإن غالبية المجاعات والأوبئة التي ألمت بمصر كانت مرتبطة بنهر النيل<sup>(٣)</sup>.

وفي بعض الأحيان يتصدى السلطان لحل مشكلة الأزمة. كما كان يعاقب الخبازين والطحانيين المخالفين لعقوبات كالجلد والتسمير، وكان الوالي أو المحتسب أو النائب يتولى مراقبة الأسعار ومراقبة عمليات البيع والشراء<sup>(٤)</sup>؛ لأن من الطبيعي أن يلجأ التجار إلي استغلال الأزمات والمجاعة فيرفعون الأسعار<sup>(٥)</sup>.

فكان للنائب سودون الشبخوني دور مهم في هذه الأزمات والأوبئة ففي سنة ٧٧٦هـ، بسبب زيادة النيل تزايدت الأمراض في الناس وزاد موتهم، فبلغت عدة من يرد اسمه للديوان في كل يوم خمسمائة إنسان وبلغت عدة الطرحاء الذين يموتون على الطرقات في كل يوم خمسمائة طريح، فقام النائب سودون ومعه الأمير ناصر محمد بن الأمير أقبغا آص، بمواراة الطرحاء ودفنهم من أموالهم، فكان الناس يأتون بالأموات إليهما فيغسلونهم ويكفنونهم ويدفنونهم ويقومون بهم أحسن قيام<sup>(٦)</sup> وأمر

(١) ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة تحفة النظر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ج١، تحقيق: الشيخ محمد عبد المنعم العريان، دار احياء العلوم، بيروت، ط١، ١٩٨٧م، ص٥٨.

(٢) حسن فرحان عبد الساتر عطية: المرجع السابق، ص١٤٣٥.

(٣) قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك، ط١، دار الشروق، ١٩٩٤م، ص١٦٠، علي عبد الله صالح السبعوي: المرجع السابق، ص٦٨.

(٤) قاسم عبده قاسم: النيل والمجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، ط١، دار المعارف، ١٩٧٨، ص٧٤.

(٥) قاسم عبده قاسم: أسواق مصر في عصر سلاطين المماليك، القاهرة، ١٩٧٨، ص٦٧.

(٦) ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ج١، ص٧٢، ابن إياس: المصدر السابق، ج١، ق٢، ص١٤١.

السلطان بتفرقة الفقراء على الأغنياء<sup>(١)</sup> بل نجد السلطان برقوق سنة ٧٨٤هـ أمر بأن لا يحبس أحد بسبب ديونه وأطلق سراح المسجونين تقديراً للظروف<sup>(٢)</sup>. وفي سنة ٧٨٩هـ نوادي بوفاء النيل المبارك وأصبح من سبعة عشر إصبع وأمر السلطان الظاهر برقوق الأمير سودون الشبخوني النائب أن يمضي إلى المقياس ويخلفه على جارى العادة فمضى وخلق ورجع إلى السد بالخليج الحاكم فكسره وكان يوماً مشهوداً<sup>(٣)</sup>.

وأيضاً من الأزمات الاقتصادية التي حدثت في عهد المماليك الجراكسة وكان سببها النيل ونتاج عنها الكثير من جرائم السلب والنهب ما حدث سنة ٧٩٦هـ / ١٣٩٣م، حيث هبط النيل فقحط كثير من الأراضي الزراعية<sup>(٤)</sup>. فارتفعت الأسعار بمصر وخاف الناس القحط لكثرة تشريق الأراضي وعدم زراعتها وشحت الغلال وتم تخزينها<sup>(٥)</sup>. فارتفعت الأسعار وزاد ظلم المباشرين<sup>(٦)</sup>. ووقف الناس للأمير سودون الشبخوني النائب واستغاثوا على القاضي بهاء الدين البرجي محتسب القاهرة وأرادوا رجمه فأمر النائب سودون الشبخوني الأمير علاء الدين ابن الطبلاوي والي القاهرة أن ينظر في أمر الطحانيين وسماسة الغلاء فأمر بالنداء أن الخزانين يفتحون مخازنهم ويبيعون بسعر الله ومن لا يفتح مخزنه بعد ثلاثة أيام نهب، وحصل للناس بذلك بعض الطمأنينة وفتح بعض شؤون الأمراء وبيع منها وتناقص السعر قليلاً<sup>(٧)</sup>، وانتهى

(١) ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ١، ص ٧١.

(٢) ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ١، ص ٢٥٣، قاسم عيده قاسم: النيل والمجتمع المصري، ص ٧٦، منال أحمد إبراهيم أبو زيتون: المرجع السابق، ص ١٠.

(٣) ابن الفرات: المصدر السابق، المجلد التاسع، ١، ص ١٤.

(٤) ابن شاهين: نيل الأمل، ١، ص ٢، ص ٣٤٨، حسن فرحان عبد الساتر عطية: المرجع السابق، ص، ص ١٤٣٥، ١٤٣٦.

(٥) ابن شاهين: نيل الأمل، ١، ص ٢، ص ٣٤٩.

(٦) ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ١، ص ٤٧٧، ابن شاهين: نيل الأمل، ١، ص ٢، ص ٣٥٣، ابن شاهين: نيل الأمل، ١، ص ٢، ص ٣٥٣.

(٧) الصيرفي: المصدر السابق، ١، ص ٣٩١، ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ١، ص ٤٧٧، ابن الفرات: المصدر السابق، المجلد التاسع، ٢، ص ٣٨٧.



الأمر بعزل المحتسب بهاء الدين البرجي<sup>(١)</sup>. وبذلك قام سودون الشبخوني بدوره كنائب للسلطنة في النظر لحال الرعية وتفقد الغلال وإيصال الحق إلى مستحقه. من ذوي المناصب<sup>(٢)</sup>. كما كان من أعمال النائب سودون الشبخوني أيضاً منع الفساد داخل الدولة ومن حقه دفع أهل البدع والأهوال، وكف شرهم عن المسلمين والنظر في أمر المفسدين من قطاع الطرق وأهل الفتن<sup>(٣)</sup>. والغلظة والتشديد عليهم.

وقد ارتبطت بعض الأعياد المهمة بخروج الناس إلي المنتزهات في حين ارتبطت هذه المنتزهات بانتشار الجرائم فيها مثل الزنا والبغاء الذي كان ينتشر حول البرك والخلجان وعلى شاطئ النيل بشكل خاص بيوت ومواخير بكل منها ضامنة تشرف على محترفات البغاء<sup>(٤)</sup>. ولكن في ظل المحن والأوبئة والأزمات يلجأ الناس إلي الدعاء والتوبة كي يخفف عنهم البلاء والكره وللتعبير عن التوبة تغلق خانات الخمارين ومنع البغايا من ارتكاب الفاحشة؛ لأنهم ينظرون إلي هذا الوياء انه عقاب من الله<sup>(٥)</sup>. وهذا الشعور ناتج عن تفسير الناس لهذه الكوارث تفسيراً دينياً وأخلاقياً<sup>(٦)</sup>. ولذلك حاولت الدولة المملوكية أثناء فترات حدوث الأزمات والأوبئة اتخاذ موقف حازم للقضاء على أوكار الفساد وأماكن الدعارة<sup>(٧)</sup>.

ولذلك كانت تقوم حملات تفتيشية من ممثلي الدولة لمهاجمة أوكار الفساد وأماكن الفجور، وهذه كانت سمة بارزة في مواقف الدولة ورجالها إبان الأزمات<sup>(٨)</sup>. ولذلك كان يمنع الناس من التتره في النيل في فترات الكوارث لمنع الفواحش والفساد.

(١) حسن فرحان عبد الساتر عطية: المرجع السابق، ص ١٤٣٦.

(٢) ابن طولون: نقد الطالب، ص ٣٥.

(٣) السبكي: معيد النعم: ص ٢٥.

(٤) حسن فرحان عبد الساتر عطية: المرجع السابق، ص ١٤٣٦.

(٥) علي عبد الله صالح السبعوي: المرجع السابق، ص ٤٠.

(٦) قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك، ص ١٧٨.

(٧) علي عبد الله صالح السبعوي: المرجع السابق، ص ١١٤.

(٨) قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك، ص ١٧٩، ١٨٠.

ففي سنة ٧٨٩هـ / ١٣٨٧م عندما توقفت زيادة النيل واستمر ذلك سبعة أيام وأشيع أن النيل نقص وزاد سعر الغلال، وحدث للناس قلق فبادر الأمير سودون الشبخوني إلى المنتزهين في النيل وكبس عليهم في الليل وقبض على جماعة منهم<sup>(١)</sup>.

وكان من الطبيعي ألا يقتصر الأمر على المنتزه على صفحة النيل. فقط، بل إن كثيراً من الناس اعتادوا ركوب المراكب في الخلجان والبرك كالخليج الناصري وبركة الرطلي، ففي سنة ٧٨١هـ، منعت مراكب المتفرجين من دخول الخليج الناصري وبركة الرطلي من أراضي الطبالة. وذلك عن طريق وضع سلسلة على فم قنطرة الخور وعلى قنطرة الفخر. لمنع حدوث أي أعمال من أعمال الفساد<sup>(٢)</sup>. التي كانت تظهر في ثوب الترفيه والتسلية في عصر سلاطين المماليك .

ولأن الأمير سودون الشبخوني النائب كان ناهياً عن المنكر<sup>(٣)</sup>. فأكمل الطريق في منع الخمر وكان للدولة المملوكية دور أيضاً حيث أبطلت الخمر في فترات كثيرة وصدرت أوامر بإحراق الخمر وكان يؤخذ ضمان على الخمر وأبطلته الدولة حرصاً على محاربة الفساد في فترات الأزمات لرفع الوباء<sup>(٤)</sup>.

فكان النائب سودون الشبخوني رجلاً على خلق ومن خير أمراء المسلمين عفة وصيانة ولزوم وصوم وإنكار المنكر، ولذلك كان له دور عظيم حتى قبل أن يكون نائباً للسلطنة. فعندما ولى حجوبية الحجاب تتبع أهل الفساد ومنع إظهار المنكرات وأراق الخمر وأتى بأكلة الحشيش فقلع أضراسهم وعندما تولى النيابة سار على عادته<sup>(٥)</sup>. وأخذ يهاجم مستودعات الحشيش واستولى على كميات كبيرة ضبطها هناك وأتلفها بالتراب تحت أسوار القلعة<sup>(٦)</sup>.

(١) ابن الفرات: المصدر السابق، المجلد التاسع، ج١، ص٩. ، لطفی أحمد نصار: وسائل الترفيه في

عصر سلاطين المماليك في مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩، ص٢٨٤.

(٢) لطفی أحمد نصار: المرجع السابق، ص٢٨٣، ٢٨٤.

(٣) بن تغری بردي: المنهل الصافي، ج٦، ص١٠٨.

(٤) علي عبد الله صالح السبعواوي: المرجع السابق، ص١١٥.

(٥) ابن شهيه: المصدر السابق، ج٣، ص٥٩٧.

(٦) قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك، ص١٨٠.

ولمكانة الأمير سودون الشبخوني عند السلطان برقوق كان يقبل شفاعته في الأمراء. ففي سنة ٧٩٣هـ أفرج السلطان برقوق عن الأمير علاء الدين أقبغا المارديني السيفي يلبغا وأخرج من خزانة شمائل<sup>(١)</sup>. لشفاعة النائب سودون له<sup>(٢)</sup>.

وأيضاً في نفس السنة رسم السلطان برقوق بنفي الأمير زين الدين أمير حاج بن مغلطي إلى قوص فشفع فيه الأمير سودون الشبخوني، فأرسله إلى ثغر دمياط المحروس ليقيم فيه<sup>(٣)</sup>. ولمكانة سودون الشبخوني واحترام الأمراء له، فنجد عندما أراد المماليك قتل الأمير حسين ابن الكورمي والي القاهرة شفع فيه الأمير سودون الشبخوني فغفوا عنه<sup>(٤)</sup>. فنجد الجميع كان يحمل للنائب سودون الشبخوني كل التقدير والاحترام؛ وذلك لأنه كان رجلاً خيراً كثيراً التعظيم<sup>(٥)</sup>.

وأيضاً عرف عن الأمير سودون الشبخوني أنه كان محباً للعلماء ومجالسهم<sup>(٦)</sup>. ويبدو أن الأمير سودون الشبخوني كان محباً لهم نتيجة لتربيته على يد أستاذه الأمير شيوخن العمري الناصري الذي كان محباً للعلماء ومجالسهم ويكرم أهل الصلاح ويبرهم<sup>(٧)</sup>. ولذلك نجد الأمير سودون الشبخوني كان يحضر المناسبات الخاصة بهم فنجد في سنة ٧٨٩هـ يحضر قراءة تقليد قاض القضاة ناصر الدين ابن الميلى ولم يجر عادة في مثل هذه الظروف أن يحضر النائب ومعه كاتب السر وغيره من الأمراء، وكان ذلك تعظيماً لحق قاضي القضاة ناصر الدين وتشريفاً له<sup>(٨)</sup>.

(١) خزانة شمائل: سجن نسب إلي الأمير علم الدين شمائل والي القاهرة في أيام الكامل بن العادل أبي بكر بن أيوب، وكان من أشنع السجون وأقبحها يحبس فيه من وجب عليه القتل ومن يريد السلطان هلاكه ، أنور محمود زياتي: معجم مصطلحات التاريخ والحضارة الإسلامية، ط١، دار زهران، عمان، ٢٠١١م، ص ١٤٠.

(٢) ابن الفرات: المصدر السابق، المجلد التاسع، ٢٤، ص ٢٥٢.

(٣) ابن الفرات: المصدر السابق، المجلد التاسع، ٢٤، ص ٢٥٩.

(٤) ابن الفرات: نفسه، المجلد التاسع، ١٤، ص ١٩٤.

(٥) ابن شاهين: نيل الأمل، ص ٣٦٧، ابن الفرات: المصدر السابق، المجلد التاسع، ٢٤، ص ٤٤٧.

(٦) بن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ١٢، ص ١٥١.

(٧) بن تغري بردي: المنهل الصافي، ٦، ص ٢٦٢.

(٨) ابن الفرات: المصدر السابق، المجلد التاسع، ١٤، ص ١٥.

ولم يهتم النائب سودون الشبخوني بحضور المناسبات السعيدة فقط بل نجده يحرص ويهتم بحضور الجنازات الخاصة بالعلماء احتراماً لهم وتشريفاً لمكانتهم في الدولة المملوكية وحباً لهم فنجده في عام ٧٩٥هـ يحضر جنازة العالم نصر الله بن الشيخ الصالح: شهاب الدين أحمد بن محمد بن أبي الفتح بن هاشم بن اسماعيل بن ابراهيم (الكناني) قاضي المسلمين بالديار المصرية فكان علامة العصر وحيد عصره في الحديث والنحو واللغة وغيرها من العلوم. ولذلك كان له مكانة، فاهتم النائب سودون الشبخوني أن يحضر جنازته<sup>(١)</sup>.

وفي سنة ٧٩٠هـ، حضر سودون الشبخوني جنازة الإمام العلامة علاء الدين الشهير بعلاء السيرامي الحنفي، شيخ الشيوخ بالمدرسة الظاهرية لبرقوق. فكان عالماً متبحراً في العلوم لاسيما علم المعاني والبيان والفقه والأصول. ولذلك صلى عليه الأمير سودون الشبخوني النائب وجميع الأكابر من الأمراء والعلماء والقضاة لمكانته العلمية<sup>(٢)</sup>.

وفي سنة ٧٩٤هـ، توفي طلحة المغربي الشيخ الصالح المجذوب، كان يقيم بالجامع الجديد بمصر المحروسة. وحضر جنازته النائب الأمير سودون الشبخوني والحاجب وغيرهم من الأمراء والقضاة والأعيان وصلى عليه بالجامع العتيق جامع عمرو بن العاص وحمل من مصر المحروسة إلى ظاهرة القاهرة المحروسة ودفن بحوش السلطان الظاهر برقوق بالقرب من قبة النصر<sup>(٣)</sup>.

وأيضاً حضر جنازة راشد التكروري سنة ٧٩٦هـ. وكان مشهوراً بالصلاح وتوفي في المارستان المنصوري وحضر جنازته الأمير سودون الشبخوني نائب السلطنة وأعيان القاهرة من المتعممين وغيرهم وصلى عليه بجامع الأزهر وحمل نائب السلطنة سودون الشبخوني في تابوته ودفنه<sup>(٤)</sup>.

(١) ابن العماد: المصدر السابق، ح ٨، ص ٥٨٥، ابن الفرات: المصدر السابق المجلد التاسع، ح ٢، ص ٣٥٧.

(٢) بن تغرى بردي: المنهل الصافي، ح ٢، ص ١٧٢.

(٣) ابن الفرات: المصدر السابق، المجلد التاسع، ح ٢، ص ٣٢٠.

(٤) ابن الفرات: نفسه، المجلد التاسع، ح ٢، ص ٣٩١.

ومما سبق نتأكد من أن سيرة الأمير سودون الشيخوني هي سيرة لشخصية عظيمة إذ ذكره العديد من المؤرخين بصفات عديدة، فكان أميراً ديناً خيراً وافر الحرمة، أمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر، كان فيه شفقة ولين<sup>(١)</sup>. بل عده البعض من أهل الخير<sup>(٢)</sup>. كما اتصف بأنه خير أمراء المسلمين عفة وصيانة ولزوم صوم ومواظبة على قيام الليل<sup>(٣)</sup>. فكان محباً للفقراء ويحسن إليهم ويقضي حوائج الناس ويساعدهم فكان يدور وينزل إلي بيوت الفقراء ويتبرك بهم ويبدل إليهم الأموال ويسألهم الدعاء<sup>(٤)</sup>. وكان فيه سلامة باطن مع دين حتى صار يحكي عنه كما يحكي عن قراقوش في أحكامه؛ لأنه كان من أهل الخير<sup>(٥)</sup> حتى أنه لكثرة أحكامه واهتمامه بالأخلاق أشيع أن عبد الرحمن بن عبد الرزاق الملقب فخر الدين بن مكناس القبطي وضع كتاباً في أحكام الأمير سودون، وهذا ليس صحيحاً، ويبدو أن هذا من كثرة أحكامه، حيث كثرت حول الأمير سودون كثير من الروايات عن أحكامه أنها تشابهت مع أحام قراقوش<sup>(٦)</sup>. ولكن ذلك لا ينكر أعماله الخيرية التي عبرت عن شخصيته.

أما بالنسبة للمنزل الذي سكن به النائب سودون الشيخوني. كان بوقف بشتاك بالقرب من صليبية جامع أحمد بن طولون<sup>(٧)</sup>. ثم انتقل من بيت بشتاك وسكن بداره بالقبيباب بالقرب من زاوية البقلي<sup>(٨)</sup>. ثم رسم برقوق سنة ٧٩٣هـ لسيف الدين سودون

(١) بن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ١٢، ص ١٥١، المنهل الصافي، ٦، ص ١٠٨.

(٢) ابن شاهين: نيل الأمل، ١، ص ٣٦٧.

(٣) المقرئزي: درر العقود الفريدة، ٢، ص ١٠٠.

(٤) ابن شهيه: المصدر السابق، ٣، ص ٥٩٧، بن تغري بردي: النجوم، ١٢، ص ١٥١، المنهل الصافي، ٦، ص ١٠٨.

(٥) ابن حجر العسقلاني: أنباء الغمر، ١، ص ٥١٧، المقرئزي: درر العقود الفريدة، ٢، ص ١٠٠، بن تغري بردي: النجوم، ١٢، ص ١٥١، المنهل الصافي، ٦، ص ١٠٩.

(٦) المقرئزي: درر العقود الفريدة، ٢، ص ١٠٠، بن تغري بردي: المنهل الصافي، ٦، ص ١٠٩.

(٧) ابن الفرات: المصدر السابق، المجلد التاسع، ١، ص ٩٢.

(٨) ابن الفرات: نفسه، المجلد التاسع، ١، ص ٩٦. وقد ذكر المقرئزي أن زاوية البقلي من المساجد الجامعة بين القاهرة ومصر، المقرئزي: الخطط، ج ٤، ص ٦. ويذكر على مبارك أن زاوية البقلي في منطقة الخليفة وهو خرب وكان به مبخأة ومصلى وخلوى ويدخله ضريح منقوش عليه اسم الشيخ البقلي وهو أحد شيوخ الصوفية والذي توفي في شهر جمادى الأولى سنة ٦٦٦هـ، على مبارك (باشا): الخطط الجديدة التوفيقية لمصر القاهرة، ط ١، المطبعة الأميرية ببولاق، ١٣٠٦هـ، ص ٦٦.

الشيخوني النائب بالقلعة فسكن في بيت الدوادر ناحية باب القرافة تجاه باب قاعة  
الصاحب<sup>(١)</sup>.

وأيضاً اشترى النائب سودون الشيخوني داراً عرفت باسم دار الجمقدار، وهذه الدار على  
يسرة من سلك من باب حارة برجوان تحت القبو طالباً حمام الرومي عرفت بالأمير علي الدين  
سنجر الجمقدار من الأمراء البرجية، وظلت من شخص لآخر حتى اشتراها الأمير سودون  
الشيخوني ثم تنقلت. وبعضها وقف بيد أولاد السلطان حسن بن محمد بن قلاوون<sup>(٢)</sup>.

قام الأمير سودون الشيخوني النائب بإنشاء زاوية للشيخ علي كهينوش خارج قبة النصر،  
بالقرب من الجبل الأحمر، والزاوية معروفة به إلي يومنا هذا<sup>(٣)</sup>.

وفي النهاية إن اغتصاب العرش لم يكن هدفاً لكل من تولى وظيفة نيابة السلطنة، فقد وجد  
من بين من ولي هذا المنصب من صرف همته إلي إدارة الأمور بحزم وكفاءة عالية، دون أن  
تحده نفسه بالوثوب على العرش أو إثارة الفتنة والاضطرابات بين الأجهزة الإدارية للدولة<sup>(٤)</sup>.

وهذا كان هدف النائب الأمير سودون الشيخوني أن تستقر الأوضاع داخل الدولة  
المملوكية في فترة وظيفته للنيابة للديار المصرية وبالفعل كان سودون خير رجل في هذه المرحلة  
التي تعرض فيها السلطان الظاهر برفوق للعديد من الفتن والأزمات في فترة حكمه للدولة. بل  
تعرضت حياته للأخطار ومع ذلك ظل سودون الشيخوني بجانب السلطان برفوق بل في أشد  
الأزمات نادى بالدعاء له على المنابر في الوقت الذي وقف مماليك الظاهر برفوق بجانب  
الخارجين على السلطان والذين كان منهم خشداشيتيه<sup>(٥)</sup>.

(١) ابن الفرات: نفسه، المجلد التاسع، ٢، ص ٢٥٣.

(٢) المقرئزي: الخطط، ٣، ص ١٧٦.

(٣) بن تغرى بردي: النجوم، ١٤، ص ١٦٠.

(٤) حمود بن محمد: الرجوع السابق، ص ٣٩٢.

(٥) خشداشية هو لفظ خشداش وهو فارسي وقد دخلت اللغة التركية بمعنى الرفيق أو الزميل في الخدمة،  
عبد الله عطية عبد الحافظ، المرجع السابق، ص ١٦٢ وهناك رأي أن لم يدخل اللغة التركية وإنما جاء  
للغة العربية ومعناه الزميل في الخدمة والخشداشية هم الأمراء الذين نشئوا من مماليك عند سيد واحد،  
ابن العماد: المصدر السابق، ٧، ص ٥٠٧، محمد أحمد دهمان: معجم الألفاظ التاريخية في  
العصر المملوكي، دار الفكر المعاصر، بيروت، ١٩٩٠، ص ٦٨.

ولكن كما سبق وذكرنا إن مبدأ وراثته العرش لم يعترف بها في الدولة المملوكية وأيضاً كان لا يوجد حق لأي مملوك أن يصل للسلطنة إلا إذا كان قويا ولديه العديد من ممالিকে المؤيدين له، فكانت فكرة الخروج والعصيان على أي سلطان فكرة غير بعيدة طالما أي أمير من الأمراء المماليك يستطيع الوقوف أمام السلطان.

فحقاً كان الأمير سودون الشبخوني النائب يستحق ثقة السلطان الظاهر برقوق واحترامه<sup>(١)</sup>. وخير دليل على ذلك أن السلطان برقوق بعد أن أقره في نيابة السلطنة صار يقبل قوله ولا يرد له أمر<sup>(٢)</sup>. فكان سودون الشبخوني معظماً في الدولة المملوكية في فترة سلطنة برقوق<sup>(٣)</sup>. بل وصل الأمر بالسلطان برقوق إلى أنه لم يجاهر بشيء من المنكرات إلا بعد موت سودون الشبخوني<sup>(٤)</sup>.

فكان وجود النائب سودون الشبخوني في فترة الظاهر برقوق رحمة من الله تعالى لخلقها، فقد اختل أمر الظاهر برقوق بعد موت سودون الشبخوني وتظاهر من المنكر بما لم يكن يعرف عنه فلم أهل العرفان أنه كان يترك ذلك حياء من الأمير سودون الشبخوني. لما كان يعرف به من التشدد والإنكار بإنكار المنكر<sup>(٥)</sup>.

فكان سودون الشبخوني حريصاً على الحكم، بالحق، يجتهد في نشر العدل وإظهار كلمة الصدق بين الخلق، مثابراً على قضاء أشغال الناس من غير امتناع ولا إحباس، مع عدل وإنصاف وزهد وعفاف، واستمر ذلك من غير قصور<sup>(٦)</sup>.

وفي النهاية قرر الأمير سودون الشبخوني أن يترك كل ما وصل له في الدولة من سلطة ونفوذ وقرب من السلطان برقوق وتنازل عن منصب نائب السلطنة فقط لمرضه وكبر

(١) ابن حجر العسقلاني: أنباء الغمر، ١، ص ٥١٧.

(٢) حمود بن محمد: المرجع السابق، ص ٣٩١.

(٣) ابن شاهين: نيل الأمل: ١، ص ٣٦٧، بن تغري بردي: الدليل الشافي على المنهل الصافي، ١، ص ٣٢٨.

(٤) ابن شاهين: نيل الأمل، ١، ص ٣٦٧، ابن حجر العسقلاني: أنباء الغمر، ١، ص ٤٨٧.

(٥) ابن شهيه: المصدر السابق، ٣، ص ٥٩٧، المقريزي: درر العقود الفريدة، ٢، ص ١٠٠.

(٦) ابن حبيب الطلي: المصدر السابق، ص ٢٥٨.

سنه الذي غير من حاله<sup>(١)</sup> ففي سنة ٧٩٧هـ أحس الأمير سودون الشبخوني من نفسه بعجزه وخلل فطلب الإعفاء من نيابة السلطنة. وأعفي من النيابة وأخرج إقطاعه وأعطى لبعض خواصه من الأمراء وأنعم عليه ورتب له رواتب ولزم بيته حتى مات سنة ٧٩٨هـ<sup>(٢)</sup> بطالاً<sup>(٣)</sup> ولمكانته عند السلطان برفوق لم يستتب غيره<sup>(٤)</sup>. ودفن خارج باب المحروق من القاهرة<sup>(٥)</sup>. بجوار تجوار تربة الأمير قشتمر وحوش شيخو وتربة العلائي<sup>(٦)</sup>.

(١) ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ١، ص ٤٨٧، ابن شاهين: نيل الأمل، ١، ص ٣٥٤، بن تقي بردي: المنهل الصافي، ٣، ص ٣٢٥.

(٢) ابن شاهين: نيل الأمل، ١، ص ٣٥٤، ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ١، ص ٤٨٧، ابن الفرات: المصدر السابق، المجلد التاسع، ٢، ص ٣٩٩، ٤٠٠، المقرئ: درر العقود الفريدة، ٢، ص ١٠٠، بن تغري بردي: النجوم، ١٢، ص ١٥١.

(٣) بطالاً: من الأمراء والأجناد العاطلون من أعمال الدولة ووظائفها وإقطاعاتها والمراد بها أن يصير الشخص مسموحاً له أن يقيم حيث شاء، ويرتحل متى شاء، في أي مكان ويمنح مبلغاً معلوماً من المال ولا يتسلم إقطاعاً ويصدر له بذلك تقليداً من السلطان، وكانت تكتب لمن كبر سنه وضعفت قدرته أو لغضب السلطان أو اضطر إلى الاعتكاف والاختفاء أو لمجرد الانزواء والابتعاد. النويري: المصدر السابق، ٣٣، حاشية رقم (١)، ص ١٠، القلقشندي: صبح الأعشى، ١٣، ص ٤٨، المقرئ: الخطط، ٤، حاشية رقم (١)، ص ٣١١، ابن تغري بردي المنهل الصافي، ١١، حاشية رقم (٥)، ص ٢٧٨.

(٤) ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ٣، ص ٣٢٨.

(٥) ابن شهبه: المصدر السابق، ص ٥٩٧، المقرئ: درر العقود الفريدة، ٢، ص ١٠٠.

(٦) ابن الفرات: المصدر السابق، المجلد التاسع، ٢، ص ٤٤٧.



### قائمة المصادر والمراجع

#### أولاً: المصادر:

١. ابن إياس : (محمد بن إياس الحنفي المصري (ت ٩٣٠هـ / ١٥٢٣م) : بدائع الزهور في وقائع الدهور، ١، ق٢، تحقيق: محمد مصطفى، ط١ ، دار إحياء الكتب العربية ١٩٧٥م.
٢. ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ١، تحقيق: الشيخ محمد عبد المنعم العريان، دار إحياء العلوم، بيروت، ط١، ١٩٨٧م.
٣. ابن تغرى بردي: (جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردي الأتابكي) (ت ٨٧٤هـ / ١٤٧٠م): الدليل الشافي على المنهل الصافي، ١، تحقيق: فهم شلتوت، مكتبة الخانجي، ١٩٧٩م.
٤. المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، تحقيق: محمد محمد أمين، ١٩٩٠.
٥. النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٨م.
٦. ابن حبيب الحلبي : (الحسن بن عمر بن الحسن): درة الأسلاك في دولة الأتراك، د.ت.
٧. ابن حجر العسقلاني : (شهاب الدين أحمد بن حجر العسقلاني: (ت ٨٥٢هـ / ١٤٨٨م): إنباء الغمر بأنباء العمر، تحقيق: حسن حبشي، القاهرة. د.ت.
٨. نيل الدرر الكامنة، تحقيق: عدنان درويش، القاهرة، ١٩٩٢.
٩. ابن خلدون : (عبد الرحمن محمد بن خلدون (ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٥م): ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر، تحقيق: خليل شحادة، ج٥، دار الفكر، بيروت، ٢٠٠٠م.
١٠. ابن زنبيل : (الشيخ أحمد الرمالي): آخرة المماليك، تحقيق: عبد المنعم عامر، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٩٨م.
١١. السبكي : (تاج الدين أبي النصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي (٧٢٧ - ٧٧١هـ): رفع الحاجب عن مختصر ابن الحاجب، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، عالم الكتب، د.ت.

١٢. ....: معيد النعم ومبيد النقم، مؤسسة الكتاب الثقافية، ط١، ١٩٨٦م.
١٣. السخاوي : (الإمام الحافظ المؤرخ شمس الدين ابي الخير محمد بن عبد الله بن محمد السخاوي): (٨٣١ - ٩٠٢هـ): الذيل التام على دول الاسلام، تحقيق: حسن اسماعيل مروة، ط١، مكتبة العروبة، دار بن العماد، بيروت، ١٩٩٢م.
١٤. ابن شاهين : (زين الدين عبد الباسط بن خليل ابن شاهين الظاهري الحنفي) (٨٤٤- ٩٢٠هـ): نيل الأمل في نيل الدول، تحقيق: عمر عبد السلام التتمري، ح١، ق٢، ط١، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ٢٠٠٢م.
١٥. ابن شاهين الملطي : (عبد الباسط بن خليل بن شاهين الملطي ٨٤٤-٩٢٠هـ): نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين، تحقيق: محمد كمال الدين عز الدين علي، مكتبة الثقافة الدينية، ط١، ١٩٨٧م.
١٦. ابن شاهين : (غرس الدين خليل بن شاهين ت ٨٧٣هـ - ١٤٦٨م): زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، تحقيق: بولس راوبس، مطبعة الجمهورية، باريس، ١٨٩١م.
١٧. ابن شهبة : (نقي الدين أبو بكر أحمد بن عمر بن محمد دمشقي) (ت ٨٥١هـ/ ١٤٤٧م): تاريخ ابن قاضي شهبة، تحقيق: عدنان درويش، دمشق، ١٩٧٧م.
١٨. ابن صصري : (محمد بن محمد بن أحمد ت ٨٠١هـ): الدرّة المضيئة في أخبار الدولة الظاهرية، تحقيق: عارف أحمد عبد الغني، دمشق، ٢٠١٣م.
١٩. الصيرفي: الخطيب الجوهري بن علي بن داود ت (٨٧٩هـ / ١٤٧٥م) : نزهة النفوس والأبدان في تواريخ أهل الزمان، تحقيق: حسن حبشي، مطبعة دار الكتب، ١٩٧٠م.
٢٠. ابن طولون : (شمس الدين محمد بن طولون الصالحي الدمشقي) (٨٨٠- ٩٥٣هـ/ ١٤٧٥ - ١٥٤٦م): نقد الطالب لزعل المناصب، تحقيق: محمد أحمد دهمان، خالد محمد دهمان، ط١، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، ١٩٩٢م.
٢١. ابن الطولوني: (الحسن بن حسين بن أحمد بن الطولوني (٨٣٦ - ٩٢٣هـ) : النزهة السنية في أخبار الخلفاء والملوك المصرية، أخبار الخلفاء، تحقيق: محمد كمال الدين عز الدين علي، ط١، عالم الكتب، ١٩٨٨.

٢٢. ابن الطوير: (أبو محمد المرتضى عبد السلام بن الحسن القيسراني) (٥٢٤ - ٦١٧هـ - ١١٣٠ - ١٢٢٠م): نزهة المقلتين في أخبار الدولتين: تحقيق: أيمن فؤاد سيد، ط١، فرانكس شتايز شتوتغارت، ١٩٩٢م.
٢٣. ابن العراقي: (ولي الدين أبو زرعة أحمد بن عبد الرحيم بن الحسين (ت ٨٢٦هـ / ١٤٢٣م): الذيل على العبر في خبر من عبر، تحقيق: صالح مهدي عباس، ط١، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٩م.
٢٤. ابن العماد: (شهاب الدين بن الفلاح عبد الحي بن أحمد بن محمد العسكري الحنبلي الدمشقي، (ت ١٠٨٩هـ / ١٦٢٨م): شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق: محمود الأرنؤوط، ط١، دار ابن كثير، دمشق ١٩٩٢م.
٢٥. ابن الفرات : (ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم): تاريخ ابن الفرات، تحقيق: قسطنطين زريق، نجلاء عز الدين، المجلد التاسع - ١، ٢، المطبعة الأميركية - بيروت، ١٩٣٨.
٢٦. ابن فضل الله العمري : (القاضي ابن فضل الله شهاب الدين أحمد بن يحيى (٧٠٠هـ - ٧٤٩هـ) : التعريف بالمصطلح الشريف، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٨٨م.
٢٧. القلقشندي : (أبي العباس أحمد ت ٨٢١هـ - ١٤١٨م): صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٩١٤.
٢٨. ....: ضوء الصبح المسفر وجنى الروح المثمر (مختصر صبح الأعشى في كتابة الإنشاء): تحقيق: محمود سلامة، ط١، مطبعة الوعظ، ١٩٠٦م.
٢٩. بن كنان : (محمد بن عيسى بن كنان (١٠٧٤هـ - ١١٥٣م) : حقائق الياسمين في نكر قوانين الخلفاء والسلطين، تحقيق: عباس صباغ، دار النفائس، ط١، ١٩٩١م .
٣٠. المقرئزي : (تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر) (٧٦٦ - ٨٤٥هـ / ١٣٦٥ - ١٤٤١م) : المواعظ والاعتبار في نكر الخطط والآثار، تحقيق: أيمن فؤاد سيد، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، لندن، ١٩٩٥.
٣١. ....: درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة، تحقيق: محمود الجليلي، المجلد الثاني، ط١، دار الغرب الإسلامي، ٢٠٠٢.

٣٢. .... : السلوك لمعرفة دول الملوك ، تحقيق : محمد عبد القادر عطا ، ج ١ ، ط ١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ١٩٩٧م.
٣٣. النويري : (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب ت ٧٧٣هـ): نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق: بخيت مصطفى فوز، وحكمت كشلي فوز، ح ٢٩، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د.ت.
٣٤. اليوسفي : (موسى بن محمد بن يحيى): نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر (٧٣٣-٧٣٨هـ)، تحقيق: أحمد حطيظ، ط ١، بيروت، ١٩٨٦م.
- ثانياً: المراجع:
- ١-أنور زقمة: المماليك في مصر، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط ١، ١٩٩٥م.
- ٢-أنور محمود زناتي: معجم مصطلحات التاريخ والحضارة الإسلامية، ط ١، دار زهران، عمان، ٢٠١١م.
- ٣-السيد الباز العريني: المماليك، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٦٧م.
- ٤-الهام الدجاني: السلطان الظاهر برفوق وتأسيس دولة المماليك الجراكسة في مصر، مجلة التاريخ والمستقبل، قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة المنيا، عدد يناير، ٢٠٠٧م.
- ٥ - بلقاسم طبابي : دراسات في السلطة والمجتمع في العصر الإسلامي الوسيط ، مصر والشام في العهد المملوكي أنموذجاً ١٢٥٠: ١٥١٧ م ، الدار التونسية للكتاب ، ٢٠١٣م
- ٦- حسن فرحان عبد الساتر عطية: الجرائم في مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة (٧٨٤-٩٢٣هـ / ١٣٨٢ - ١٥١٧م) دراسة تاريخية، اللغة العربية، أسبوط ، المجلة العلمية، العدد التاسع والعشرون، الجزء الثاني، أكتوبر ٢٠١٠م.
- ٧- حمود بن محمد النجدي: نيابة السلطنة في مصر المملوكية، مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية السعودية، العدد ١٨، أبريل، ١٩٩٧م.
- ٨- سعيد عبد الفتاح عاشور: مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، دار النهضة العربية، ١٩٧٢م.

- ٩- سماح بنت سعيد عبد القادر باحويرث: الأثر السياسي والدور الإصلاحي للعلماء في عصر سلاطين المماليك (٦٤٨ - ٩٢٣ هـ / ١٣٥٠ - ١٥١٧م)، دراسة تاريخية حضارية، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، ٢٠١٠م.
- ١٠- شريفة بنت ردة بن عطية المالكي: الأمراء المماليك في القاهرة خلال عصر المماليك البحرية ٦٤٨- ٧٨٤ هـ / ١٢٥٠- ١٣٨٢م) رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، ٢٠٠٦م.
- ١١- عبد الله عطية عبد الحافظ: معجم أسماء السلاطين وأمراء المماليك في مصر والشام، دار النيل، د.ت.
- ١٢- علي عبد الله صالح السبعوي: الأوبئة والكوارث الطبيعية وآثارها على مصر خلال العصر المملوكي (٦٤٨ - ٩٢٣ هـ / ١٢٥٠-١٥١٧م)، رسالة ماجستير، جامعة آل البيت، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم التاريخ، ٢٠١٥م.
- ١٣ - علي مبارك (باشا): الخطط الجديدة التوفيقية لمصر القاهرة ، ط ١ ، المطبعة الأميرية ،بولاق ، ١٣٠٦ هـ .
- ١٤- فتحي سالم حميدي اللهيبي، فائز علي بخيت الحديدي: جوانب من الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية في العصر المملوكي، ط ١، ٢٠١٤م.
- ١٥- قاسم عبده قاسم: أسواق مصر في عصر سلاطين المماليك، القاهرة، ١٩٧٨م.
- ١٦- قاسم عبده قاسم: النيل والمجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، ط ١، دار المعارف، ١٩٧٨م.
- ١٧- قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك، ط ١، دار الشروق، ١٩٩٤م.
- ١٨ - قاسم عبده قاسم : في تاريخ الأيوبيين والمماليك ، دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ٢٠١٤م.
- ١٩ - قاسم عبده قاسم ، علي السيد على : الأيوبيين والمماليك ، التاريخ السياسي والعسكري ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، د.ت.
- ٢٠- لطفي أحمد نصار: وسائل الترفيه في عصر سلاطين المماليك في مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩م.

- ٢١- محاسن الوقاد: صرغتمش الناصري، الأمير الحاكم، دراسة السيرة الذاتية، ٧٣٧-٧٥٩هـ / ١٣٣٦-١٣٥٧م، المؤرخ المصري، جامعة القاهرة، العدد الخامس والعشرون، يناير ٢٠٠٢م.
- ٢٢- محمد أحمد دهمان: معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، دار الفكر المعاصر، بيروت، ١٩٩٠.
- ٢٣- محمد عادل عبد العزيز: تاريخ الأيوبيين والمماليك، دار الكتب والوثائق القومية، ٢٠٠٤م.
- ٢٤- محمد عبد الغني الأشقر: نائب السلطنة المملوكية في مصر (من ٦٤٨ - ٩٢٣هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧م) الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩م.
- ٢٥- محمد سهيل طقوش: تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، دار النفائس، ط١، ١٩٩٧م.
- ٢٦- منال أحمد إبراهيم أبو زيتون: المجاعات في مصر وبلاد الشام في العصر المملوكي (٦٤٨هـ - ٩٢٢هـ / ١٢٥٠-١٥١٦م) رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، كلية الآداب، قسم التاريخ، ١٩٩٨م.
- ٢٦- نهلة أنيس محمد مصطفى: أولاد الناس في مجتمع عصر سلاطين المماليك، دورية كان التاريخية، العدد الخامس، سبتمبر، ٢٠٠٩م.
- ٢٧- مفيد الزيدى: موسوعة التاريخ الإسلامي، العصر المملوكي (٦٤٨ - ٩٢٣هـ / ١٢٥٨ - ١٥١٧م) دار أسامة، الأردن، عمان، ٢٠٠٣م.
- ٢٨- هالة نواف يوسف الرفاعي: السجون في مصر في العصر المملوكي، رسالة ماجستير، ٢٠٠٨م.
- ٢٩- هاني فحري عطية الجزائر: النظام العسكري في دولة المماليك (٦٤٨-٩٢٣هـ / ١٢٥٠-١٥١٧م)، رسالة ماجستير، الجامعة الإسلامية- غزة، كلية الآداب، قسم التاريخ والآثار، ٢٠٠٧م.

## دولة بني مرين

### نسب بني مرين ومبدأ أمرهم

٥٩١-٨٧٥ هـ / ١١٩٥-١٤٧٠ م

#### أ.د. نادية حسني صقر

أستاذ متفرغ التاريخ الإسلامي

والحضارة الإسلامية

كلية الآداب - جامعة كفر الشيخ

بنو مرين بطن من بطون قبيلة زناته البربرية الشهيرة والتي ينتمي إليها عدة من القبائل التي لعبت أدواراً بارزة في تاريخ المغرب مثل مغراوة وجرأوة وعبدالواد وغيرهم ورفع البعض نسبهم عن جد عن الأمير عبدالحق<sup>(١)</sup> إلى أمير المؤمنين سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه<sup>(٢)</sup> ومع ذلك، فإن بني مرين يرجعون نسبهم إلى العرب المضربة باعتبار أنهم ينتسبون إلى بر بن قيس عيلان بن مضر بن نزار. وكانت قبائل بني مرين في بداية أمرها من العشائر البدوية المتنقلة تجول في صحاري المغرب الأوسط وهضابه وتسير نحو المغرب الأقصى في الصيف.

ومع بداية القرن السابع الهجري، نشبت الحرب بينهم وبين عبدالواد، فتوغلوا في هضاب المغرب ونزلوا بوادي ملوية الواقع بين المغرب والصحراء، وأقاموا هناك حيناً ولم تخضع قبيلة بني مرين لنفوذ الموحدين، فأثروا الهجرة إلى الصحراء على عكس بني عمومتهم بني زيان، وبني وطاس ١٢١٢م<sup>(٣)</sup> لم يكن لقبيلة بني مرين بقعة جغرافية محددة

(١) انتخبته القبيلة بعد وفاة أبيه سنة ٥٩١، وهو مؤسس دولي بني مرين، السعيد سليمان ج١، ص ٨٩.

(٢) إسماعيل بن الأحمر: روضة النسر في دولة بني مرين، ص ٨-٩.

(٣) ابن أبي زرع: الذخيرة السنوية في تاريخ الدولة المرينية.

مؤلف مجهول: ص ٥٢-٥٣، الجزائر سنة ١٩٢٠.

تقيم بها بل شأن غيرها من البدو الرحل الذين وصفهم ابن خلدون<sup>(١)</sup> بالمتوحشين الذين ليس لهم وطن ولا بلد يجنحون إليه، فنسبة الأقطار والمواطن إليهم على السواء. وكانوا يقومون في فصلي الربيع والصيف بالإغارة على التلال الشرقية لبلاد المغرب الأقصى حتى إذا أقبل الشتاء، رجعوا، فكانت إقامتهم من زاب إفريقية إلى سجلماسة، ينتقلون في تلك الصحاري لا يدخلون تحت حكم سلطان ولا يؤدون ضريبة، شغلهم الصيد والإغارة على أطراف البلاد، واستخدم المرينيون آنذاك حصن "تروطا" لحفظ أمتعتهم وجعوبهم مما مكنهم من التنقل في الصحراء بكل اطمئنان بعيداً عن السلطة المركزية والتزاماتها<sup>(٢)</sup>.

وكانت قوي الموحدين بدأت تضعف ثم تضععت بعد موقعة العقاب سنة ٦٠٩ هـ- ١٢١٣ م وتعد دولة الموحدين من الدول العظيمة التي قامت في بلاد المغرب "الإسلامي"، حيث استطاعت توحيد بلاد المغرب من برقة شرقاً إلى المحيط غرباً، ومن سواحل البحر المتوسط إلى مشارف أفريقيا المدارية جنوباً بجانب سيطرتها على بلاد الأندلس مع إسهاماتها الحضارية المختلفة. ولقد قامت دولة بني مرين على أنقاض دولة الموحدين.

#### ولقد ضعفت دولة الموحدين نتيجة عدة عوامل بالغة للأهمية:

- ١- ضعف الجبهة الداخلية عند الموحدين، وتعرض أمنها الخارجي للتهديد والخطر كتمرد بنو غانية (من المرابطين) أمراء ميورقة على الدولة - ثم تعرض المدن المغربية الساحلية لهجمات عسكرية من قبل الممالك النصرانية الإسبانية.
- ٢- الصراع على السلطة واستبداد الوزراء وسوء تصرف الأسياد.
- ٣- الكوارث الطبيعية والبيئية، كوباء الطاعون الذي عم سنة ٦١٠ هـ- ١٢١٣ م، ثم اجتياح الجراد للبلاد عامي ٦١٧-٦٢٤ هـ / ١٢٢٠-١٢٢٦ م، فخلف قحطاً شديداً ومجاعة ثم السيل العظيم بفاس فهدم السور والمنشآت وعودة الوباء حتى كان يدفن

(١) المقدمة ص ١٤٥.

(٢) الزركلي: خير الدين، الأعلام، ج٣، ص ٢٨٢.



كل مائة في حفرة واحدة أي مدافن جماعية نتيجة سوء الأوضاع الاقتصادية بعد المجاعة والغلاء.

٤- قيام الثورات وحركات التمرد والنزاعات الاستقلالية.

٥- الهزائم المتتالية التي وقعت على دولة الموحيدين من الممالك النصرانية وأهمها:

هزائم الموحيدين في معركة العقاب<sup>(١)</sup> واستسلام بعض القلاع الإسلامية للنصارى ذلك مما أضعف المسلمين بالمغرب والأندلس وقضى على معظم نفوذها وحصونها<sup>(٢)</sup>.  
هكذا أدى الفراغ السياسي والعسكري وسوء أوضاع الدولة الموحدية الذي نتج بعد موقعة العقاب وموت خليفته الرابع أبو محمد الناصر سنة ٦١٠ هـ إلى دخول البلاد في حالة فوضى خاصة أنه خلف الناصر المهزوم، ابنه الطفل يوسف المنتصر ٦١٠-٦٢٠ هـ الذي لم يكن ليحسن التدبير.

#### جهود المرينيين في تشييد صرح دولتهم:

في هذه الظروف، دخلت أولى طلائع المرينيين بلاد المغرب الأقصى دون اعتراض يواجههم من أحد، بل وجدوا أرضاً خصبة غنية الماء فأعقبهم بقيتهم<sup>(٣)</sup> فدخلوا متتابعين بأعداد هائلة وتزعم المرينيين عند دخولهم المغرب الأقصى الأمير أبي محمد عبدالحق بن محيي بن أبي بكر بن<sup>(٤)</sup> حمامة الذي اختاره شيوخ بني مرين أثر وفاة والده سنة ٥٩٢ هـ- ١١٩٦ م وكان فيه وفي ذريته الملك والرياسة، وهو أول من ساعد بن مرين على الانتقال

(١) المراكشي : عبدالواحد محيي الدين محمد بن عبدالواحد بن علي التميمي: ت٦٤٧هـ-١٢٤٩م المعجب

في تلخيص أخبار المغرب، ص ٣٢١.

(٢) المقرئ: نفخ الطيب، ج١، ص ٤٤٦ وما بعدها.

(٣) ابن أبي زرع: علي بن عبدالله أبي زرع الفاسي: ت٧٤١هـ-١٣٤٠م.

الذخيرة السنوية في تاريخ الدولة المرينية سنة ١٩٧٢، ص ٢٦.

(٤) ابن الأحمر : أبي الوليد إسماعيل: ت٨١٠هـ-١٤٠٧م.

روضة النسرين في دولة بني مرين، الرباط ١٩٦٢.



من مرحلة البداوة إلى التوجه نحو بناء الدولة، فهو الذى احتل مكناسه وتازا وأخذ يغير<sup>(١)</sup> غربا رغم أنه كانت هناك فلول الدولة الموحدية المتهالكة تحاول الإبقاء على كيائها، وهناك دولة بني عبد الواد ولكنه تغلب على كل ذلك ويعتبر عام ٦١٣ هـ بداية الدولة المرينية حين حققت النصر على الموحيدين في أول اشتباك معهم وتوغل في جنبات المغرب الأقصى ووصل إلى أحواز فاس بعد مقتل عبد الحق تولى أو خلفه<sup>(٢)</sup> ولده أبو سعيد عثمان الملقب أردغال ومعناه الأعور<sup>(٣)</sup> ٦١٤ - ١٣٧ هـ - ١٢١٧ - ١٢٤٠ م والذي استطاع أن يفرض سيطرته فبايعته كل قبائل هواره وتسول ومكناسه وبطوية وفشتالة وبهلولة ومديونة وفرض عليهم الخراج وفرق فيهم العمال كما فرض على فاس ومكناسه وتازا وقصر كتامة ضريبة معلومة كل عام مقابل كف الغارات عنهم واعترافهم بنفوذه السياسي<sup>(٤)</sup>.

وكان استيلاء بني مرين على فاس بعد حصارها ٦٤٨ هـ - ١٢٥٠ م أعظم ضربة أصابت الموحيدين وهي حاضرة المغرب فكان ذلك نذير الانهيار النهائي ثم استولوا على سجلماسة ودرعة (٦٥٥ هـ) ولما توفي أبو يحيى سنة ٦٥٦ هـ تولى أخوه أبو يوسف<sup>(٥)</sup> يعقوب بن عبد الحق من بعده رئاسة بني مرين فجعل مدينة فاس حاضرة الدولة. وفي سنة ٥٧ هـ نشبت الحرب بين بني مرين وبني الأمير يغمراسن بن زيان ملك المغرب الأوسط وزعيم بني عبد الواد، فهزم وارثه إلى تلمسان كانت الموقعة الحاسمة بين الموحيدين وبني مرين، وأواخر سنة ٦٦٧ هـ ١٢٩٩ م سار الواثق بالله المعروف بأبي دبوس خليفة الموحيدين من مراكش لقتال بني مرين فهزم الموحدون بعد معركة شديدة وقتل عدد كبير منهم الواثق،

(١) الزركلى : خير الدين ، الأعلام ، ج٣ ، ص ٢٨٢ .

العبادي : الدكتور أحمد مختار : دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ، ص ٢٠٥ .

(٢) زامباور : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة ، ج ١ ، ص ١٢٢ .

ستانلى لن بول : تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة ، ترجمة السعيد سليمان ، ج ١ ، ص ٨٩ .

(٣) ابن خلدون : العبر ، ج ٧ ، ص ١٧٠ . ابن الأحمر : روضة النسرئين في دولة بني مرين ، ص ١٩ .

(٤) المصدر السابق (ابن خلدون) ، ج ٧ ، ص ١٧٠-١٧١ .

(٥) ابن الأحمر : أبو الوليد إسماعيل ، روضة النسرئين في دولة بني مرين ، ص ١٧ وما بعدها .

واستولى أبو يوسف على معسكرهم ومونهم و غنائمهم ثم سار إلى مراكش فدخلها في التاسع من المحرم سنة ٦٦٨ هـ وتسمى بأمر المسلمين، وبذلك انتهت دولة الموحدين في المغرب كما انتهت في الأندلس، بعد أن عاشت نحو قرن وثلاث . واحتلت مكانها دولة بني مرين فصارت تسيطر على المغرب الأقصى كله<sup>(١)</sup> .

ومن الجدير بالذكر، أن جهود المرينيين في بناء وتشديد دولتهم واستخلاصها من أيدي الموحدين لم يتم ذلك في شهر إنما في سنين طوال وفي ذلك يقول ابن خلدون "وكذا بنوا مرين خرجوا على الموحدين فمكثوا يطاولونهم نحوًا من ثلاثين سنة، واستولوا علي كرسيمهم بمراكش"<sup>(٢)</sup>. وبعد سقوط مراكش عاصمة الموحدين، دانت بلاد المغرب لبني مرين، فقام السلطان يعقوب بن عبد الحق بمجهود كبير من أجل تثبيت دعائم دولته وفرض سيطرتها على كافة الأقاليم والتصدي للفتن والثورات التي لم تفت تتدلع بين الحين والآخر، واتجهت أنظار أبو يوسف يعقوب إلى الاستيلاء على طنجة وسبتها؛ نظرًا لأهميتهما الاستراتيجية فهم مرفأً للسنن والأساطيل وبهما دور لصناعة السفن وهما المعبران الوحيدان إلى الأندلس، حيث ميدان الجهاد المريني<sup>(٣)</sup>. ويسقوط سجلماسة أكمل يعقوب سيطرته على جميع أراضي المغرب الأقصى من وادي ملويه شرقًا إلى الأطلسي غربًا ويمن البحر المتوسط شمالًا إلى سجلماسة جنوبًا ويدين له بالطاعة.

ومن الجدير بالذكر، إن دولة بني مرين لم تستند في قيامها إلى دعوة إصلاحية أو مرجعية دينية خاصة كما فعلت الدول التي سبقتها ، بل قامت نتيجة الفساد وسوء الأوضاع والاضطرابات التي حلت بالمغرب بعد موقعة العقاب وان كانت فعلا دولة عسكرية مجاهدة

(١) عنان : محمد عبد الله : نهاية الأندلس - العصر الرابع من كتاب دولة الإسلام في الأندلس ص ٩٧  
ابن خلدون : العبر ، ج٧، ص ١٨٢ ، السعيد سليمان : تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة،  
ج ١، ص ٨٩.

(٢) المقدمة ، ص ٣٠١.

(٣) ابن خلدون : العبر ، ج٧، ص ١٨٥



جعلت من الجهاد في الأندلس<sup>(١)</sup> هدف مباشرة لقيامها. وقد حاول المرينيون جمع كلمة المغرب العربي وتوحيده كما كان الحال في عهد بني عبد المؤمن ونجحت في بعض الأوقات أن تمد نفوذها إلى بعض نواحي من الجزائر أو تونس لكنها اصطدمت بمقاومة عنيفة من جانب بني عبد الواد، والحفصيين فاقتصر نفوذها آخر الأمر على المغرب الأقصى حتى الأطلسي غرباً<sup>(٢)</sup> وسجلماسة جنوباً.

وفي ذلك يقول ابن خلدون لما فتح السلطان أبو يوسف بلاد المغرب وانتظمت أمصاره طاعته، وغلب الموحدين على دار خلافتهم، ومحا رسمهم وافتتح طنجة وطوع سبته مرفأً الجواز إلى العودة وهز المغرب، سما أمله إلى بلاد القبلة فوجه عزمه إلى افتتاح التي كانت بيد يعمر اسن بن زيان وعرب المنبات من ذوي منصور، وقد خرج السلطان يعقوب باتجاهها في شوال سنة ٦٧٢هـ نيسان ١٢٧٤م<sup>(٣)</sup> قامت القوات المرينية بمحاصرة المدينة والشروع في منابذتها القتال ودك حصونها وأسوارها بآلات الحرب مما أدى إلى تهدم معظم أسوارها .. ولما دخلها يعقوب عفا عن أهلها وأمنهم على ممتلكاتهم وقامه بتعيين عماله عليها وذلك في ربيع الأول سنة ٦٧٣هـ-١٢٧٤م.

### سياسة دولة بني مرين تجاه مملكة غرناطة الأندلسية :

اعتمدت سياسة دولة بني مرين في التعامل مع مملكة غرناطة الأندلسية على مجموعة من الثوابت الواضحة أهمها استغلال كافة الفرص التوجيه الحملات العسكرية إلى الأندلس النجدتها حماية لمملكة غرناطة الإسلامية ودعمها لها من خطر حروب الاسترداد النصرانية<sup>(٤)</sup>، واستجابة للاستغاثة التي كثيراً ما وجهها ملوك بني الأحمر في غرناطة مدفوعين برغبتهم في الجهاد الإسلام في سبيل الله، وكان من ضمن تلك الثوابت أو

(١) محمد ماهر حمادة : الوثائق السياسية والإدارية في الأندلس وشمال أفريقيا ، ج٧، ص ٩٩.

(٢) ابن خلدون : العبر ، ج٧، ص١٨٨-١٨٩.

(٣) ابن خلدون : العبر ، ج٧، ص١٨٨ وما بعدها.

(٤) أحمد مختار العبادي : دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ، ص٢٠٧.

المبادئ الأساسية في ذلك عدم التدخل في الشؤون الداخلية الغرناطية . حرصا على سيادتها السياسية ، وقد نظرت الدولة المرينية إلى غرناطة باعتبار أن كل من الدولتين دعما للأخري وقوة لا غنى عنها، وأن الاعتداء على الأندلس هو اعتداء على المغرب، إلا أن حرص المرينين على الجهاد في أسبانيا ومساعدة مملكة غرناطة الإسلامية لم تلق الصدى المطلوب والمتوقع من غرناطة ، فقد جاء موقف غرناطة مختلفة، فقد تراوحت سياساتها ما بين الاستجابة بالتعاون مع المرينيين أحيانا للدفاع عن كيان دولة غرناطة وبين التوجس والخوف أو الشك في نوايا دولة بني مرين خشية التدخل في شؤونها [غرناطة] بل ومحالفة النصارى ضد المرينيين أحيانا أخرى.

بعد أن قامت دولة بني مرين ٦٦٨هـ / ١٢٦٩م على أنقاض دولة الموحيدين وتمكن السلطان يعقوب بن عبد الحق المريني من السيطرة على كامل أراضي المغرب الأقصى بفتح مدينة سجلماسة عام ٦٧٣هـ / ١٢٧٤م، نظرت إلى الأندلس نظرة الحماس والرغبة في الجهاد بالمال والسلاح<sup>(١)</sup> ضد الممالك النصرانية الأسبانية. واقتضت هذه السياسة العمل على الاحتفاظ بقواعد عسكرية في جنوب الأندلس مثل رندة، جبل طارق، الجزيرة الخضراء، طريف، مريلة. فقد اشترط السلطان المريني أبو يوسف يعقوب، على ابن الأحمر حينما استجد به التنازل عن بعض الثغور والقواعد جنوبي الأندلس. وأدرك بنو الأحمر ملوك على مواجهة الأخطار المحدقة بهم غرناطة أهمية التحالف مع بني مرين في دعم قدرتهم على مواجهة الأخطار المحدقة بهم خاصة محمد بن يوسف بن نصر بن الأحمر الذي وجه قبيل وفاته نداء استغاثة للسلطان المريني يعقوب بن عبد الحق من أجل وقف الزحف القشتالي بقيادة الفونسو العاشر<sup>(٢)</sup> على الأراضي الأندلسية وإن كانت الاستجابة لهذه

(١) المقرئ : نفخ الطيب ، المجلد ٤ ، ص ٣٨٥ .

(٢) الفونسو العاشر : أبرز ملوك قشتاله في القرن الثالث عشر ، سمي العالم والحكيم ذلك لسعة اطلاعه واشتهاره بالعلم والشعر والأدب توفي سنة ١٢٨٤م وخلفه ابن سانشو ، سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى ، ج ١ ، ص ٥٤٢ ، وما بعدها .

الاستغاثة لم تتم إلا بعد وفاته ، في أيام ابنه الثاني الملقب بالفقيه والذي أوصاه والده بأهمية  
وضرورة الاستغاثة بالمرينيين لصد الأخطار .

يعتبر عصر أبي الحسن على (٧٣١م / ١٣٣١ هـ - ١٣٥١/٧٥٢) وولده أبي عنان  
فارس ١٣٥١/٧٥٢ - ١٣٥٨/٧٥٩ هو ذروة عظمة الدولة المرينية ذلك أنه قد عادت  
الوحدة إلى أقطار المغرب جميعها وإن كان ذلك لمدة قصيرة.

كانت البداية هي ما جرى من نزاعات على السلطة في الدولة الحفصية، وتدخل هذه  
النزاعات وسعوا لضم البجاية" إليهم مما حفز بعض أطراف الصراع إلى الاستتجاد  
بالسلطان أبي الحسن والذي كانت بينه وبينهم مصاهرة، فتوجه بجيوشه شرقاً وأزاح بني  
زيان عن تلمسان وذلك ١٣٣٧/٧٣٧ ثم أثبتهم في الديوان وفرض لهم العطاء، ثم اتجه إلى  
الجهاد في الأندلس<sup>(١)</sup>. ثم عاود التوسع في عام ١٣٤٧ / ٧٤٨ ودخل تونس لتمتد مملكته  
من مسراته إلى السوس الأقصى وإلى زنده من عدوه الأندلس. لكنه أساء معاملته أصهاره  
الحفصيين وإلى الحرب الهلالية، فحرمهم من إقطاعاتهم واكتفى بأعطياتهم من الديوان، مما  
أسفر عن ثورتهم<sup>(٢)</sup> فأوقعوا به هزيمة كبرى على مقربة من القيروان، هذه الأثناء وصلت  
إلى أبي الحسن الأخبار بأن ولده أبا عنان خرج عليه بفاس، وأعاد بني زيان إلى ملكهم  
بتلمسان فعاد أبو الحسن إلى بلاده<sup>(٣)</sup> وأخفق في حروبه ضد ولده وضد بني زيان ونكبته  
أهوال عظيمة<sup>(٤)</sup>.

عنان : دولة الإسلام العصر الرابع ، ص ١٧٠ .

(١) عنان ، عبد الله : نهاية الأندلس العصر الرابع ، ص ١٢٧ وما بعدها .

(٢) ابن خلدون : العبر ، ج٧ ، ص ٢٧٣ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٢٧٩ .

(٤) ابن خلدون : العبر ، ج٧ ، ص ٢٨٣-٢٨٠ ، عنان : نهاية الأندلس ، العصر الرابع ، ص ١٢٨

سار أبو عنان على سياسة والده التوحيدية فعدل عن مسالمة بني زيان وغزاهم وتابع سيره فدخل تونس في ١٣٥٧/٧٥٨، ولكن الأمور لم تستتب بسبب ثورة الهلالية وامتناعهم بالصحراء.

وقد استمرت العلاقات الطبيعية مع بلاط غرناطة كما كانت في عهد أبيه<sup>(١)</sup> وتبدلت خلالها الرسائل والشعارات، منها سفارة خاصة عقدها ملك غرناطة أبو الحجاج يوسف لوزيره لسان الدين بن الخطيب سنة ٧٥٢هـ/١٣٥١م وحمله فيها رسالة إلى أبي عنان يعزیه فيها عن وفاة والده، ويهنئه فيها باعتلاء عرش الدولة المرينية، ويخبره فيها بأحوال المسلمين في الأندلس، وما يعانونه من جراء الاعتداءات الإسبانية وحاجة الأندلسيين إلى عون ودعم المغاربة<sup>(٢)</sup> استمرت سياسة الجهاد فما لأندلسي واهتم بالأسطول لحد بعيد مثل أبيه من قبل.

#### ضعف الدولة ونهايتها:

بعد موت أبي عنان انفرط عقد<sup>(٣)</sup> الوحدة في بلاد المغرب، فقد عاد بنو حفص إلى تونس، وعاد بنو زيان إلى تلمسان، وأصبح ملك بني مرين يقتصر على المغرب الأقصى، حتى أن دورهم الجهادي في الأندلس تراجع بعد أن وقعت بهم هزائم عدة هناك، وصارت إمكاناتهم لا تتعدى الحفاظ على ثغورهم من العدوان الخارجي عبر البحر، وقد اشتد ساعد النصاري بالأندلس على السواحل المرينية.

(١) ابن خلدون: العبر، ج٧، ص٣٣٣، العبادي: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، ص٤٢٣.

(٢) أنظر نص الرسالة في ابن الخطيب: لسان الدين محمد بن عبدالله التلمساني: كناسة الدكان بعد انتقال السكان، تحقيق د. محمد كمال شبانه، مراجعة د. حسن محمود، المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة والنشر، القاهرة.

(٣) ابن خلدون: العبر، ج٧، ص٢٩٩ وما بعدها.

وقد توالى على حكم الدولة حكام ضعاف بل بعض الصبية<sup>(١)</sup> فعجزوا عن فرض طاعتهم على أطراف الدولة، وطمع فيهم بعض أفراد الأسرة الحاكمة بل بعض العرب الهلالية، كما تزايد نفوذ الوزراء<sup>(٢)</sup> من بنى وطاس على الحكام، وقد تكرر تدخل سلطان غرناطة في شئون الدولة الداخلية مما أدى في النهاية بالتطلع إلى مد سلطانه إلى الدولة ووصل الأمر إلى اعتراف المرينيون بالطاعة له، وقد حاول السلطان أبو محمد عبدالحق من ٤٢٧/٥٨٣١م أن يصلح الأحوال، فأبعد الوزراء الوطاسيين وقتل بعضهم ولكنه فشل في تحقيق هدفه<sup>(٣)</sup> وإعادة الأمور إلى نصابها وكان حكمه مرحلة الفصل بين حكم بني مرين وحكم بني وطاس، الذين هم فرع من بنى مرين غير الفرع الذي ينتمي إليه بنو عبدالحق.

انتهى الأمر بإلقاء القبض على السلطان عبدالحق وانتزعت منه شارات الملك وسبق إلى مصرعه يوم الجمعة ٢٧ رمضان سنة ٨٩٦هـ/ نيسان ١٤٦٥م، واستقرت الأمور للشريف أبو عبدالله الحفيد حتى سنة ١٤٧٥/٨٧٥ حيث تم عزله من قبل أبي الحجاج يوسف بن منصور بن زيان الوطاسي، وقد تولى الأمر بعد ذلك أبو عبدالله محمد الشيخ بن أبي زكريا الوطاسي في رمضان سنة ٨٧٦هـ/ ١٤٧٢<sup>(٤)</sup> مؤسساً بذلك الدولة الوطاسية أو الفرع الوطاسي.

وقد حكم من بن وطاس أربعة سلاطين خلال الفترة من ٨٧٧/١٤٧٢هـ - ١٥٤٩/٩٥٦م ولم تتجاوز سيادتهم فاس وأحوازها، فقد وضع نصاري الأندلس أيديهم على

(١) المصدر السابق، ص ٣٠٠/ ابن الأحمر: روضة النسرين، ص ٣٣.

(٢) ابن خلدون: العبر، ج ٧، ص ٣٠٥-٣١٣، المقرئ: نفح الطيب، ج ٨، ص ١٣٤.

(٣) ابن خلدون: العبر، ج ٧، ص ٣٢٣، ابن الأحمر: روضة النسرين، ص ٣٣.

السلوي: الاستقصاء ج ٤، ص ٩٦.

(٤) الناصري السلوي: الاستقصاء، ج ٤، ص ١١٩ وما بعدها.



كثير من السواحل كما خرجت عن حكمهم كثير من أنحاء المغرب الأقصى وقد سبق هؤلاء عدد من الوزراء والأمراء من بنى وطاس.

### حضارة الدولة المرينية:

ويتسم العصر المريني بنهضة عمرانية كبرى، فقد تم إنشاء مدن جديدة أهمها مدينة فاس الجديدة<sup>(١)</sup> بجوار فاس القديمة، وتسمى المدينة البيضاء. وهي مدينة عسكرية الطابع مقرات للقيادة ومعسكرات الجند، بها القصور والجوامع والأسواق والحمامات والقناطر والصوامع. وكذلك مدينة تلمسان الجديدة: اختطها السلطان يوسف بن يعقوب بجانب تلمسان وسماها المنصورة فيها القصور والدور والحمامات والمستشفى والأشجار والبساتين، كذلك مدينة تطاوين وهي تطوان، تم تجديد جامع القرويين وعدد من المساجد والمدارس.

واتسم العصر أيضاً بنهضة علمية كبيرة<sup>(٢)</sup>، فقد كانت المغرب ملاذاً لكثير من المسلمين الفارين من الأندلس نتيجة للزحف النصراني نهلوا من التراث الثقافي الذي خلفه المرابطون والموحدون. لقد دعم المرينيون مؤسسات التعليم العالي حتى قيل أن جامعة فاس أقدم جامعات العالم وهي وريثة مدارس القيروان، فظهر فطاحل العلماء والفقهاء والأدباء مثل ابن الخطيب، والعلامة ابن خلدون، وابن عذاري المراكشي، وابن بطوطة وابن أبي زرع الفاسي، كان عصر تشجيع العلم والتأليف والكتابة مجالس العلماء<sup>(٣)</sup> وتشبيد المنشآت الثقافية مثل مدرسة الصفارين، مدرسة فاس الجديدة، مدرسة الصهريج ومدرسة العطارين، والمدرسة العظمي، المصباحية، والبوعنانية<sup>(٤)</sup> التي تعد من أعظم مدارس فاس بناها السلطان أبو عنان بن أبي الحسن.

(١) ابن الأحمر: روضة، ص ١٩-٢٠، الناصري السلاوي: الاستقصاء، ج ٣، ص ٤٤.

(٢) ابن خلدون: العبر، ج ٦، ص ١٠٥.

(٣) الناصري السلاوي: الاستقصاء، ج ٣، ص ٢٠٥-٢٠٦.

(٤) المصدر السابق: ص ١١١-١١٢، ابن بطوطة: تحفة النظار، ج ٢، ص ٧٧٢، السلاوي: ج ٣، ص ١٧٦.

وأهتم المرينيون ببناء المؤسسات الدينية<sup>(١)</sup> خاصة المساجد بالإضافة إلى الزوايا والأربطة، وقد اهتم السلطان يوسف بن يعقوب المريني بتوسعة وإكمال بناء جامع تازا الكبير<sup>(٢)</sup> والذي علفت به ثريا من النحاس وزنها اثنان وثلاثون قنطاراً أنفق السلطان عليها ثمانية آلاف دينار ذهبي<sup>(٣)</sup>. وبنى السلطان يوسف بن يعقوب مسجد سيدي أبي الحسن في تلمسان، وبنى مسجد آخر عرف بالجامع الأحمر وبنى السلطان أبو الحسن المريني مسجد العباد في تلمسان ثم بنى مسجد آخر في فاس سمي باسمه. وقد اتسم نظام الحكم في الدولة المرينية بالفردية والوراثية وتلقب معظم السلاطين بلقب أمير المسلمين وأتبعوه بألقاب مثل: ناصر الدين، ملك العدوتين وآثر البعض منهم تلقب نفسه بأمرير المؤمنين مثل السلطان يعقوب بن عبد الحق، والسلطان أبو عنان فارس<sup>(٤)</sup>. وقد كانت للمرينين سكة خاصة بهم ويعتبر السلطان يعقوب بن عبد الحق أول من اهتم بالسكة وتنظيمها، وصنع المرينيون معظم نقدهم من الذهب والفضة<sup>(٥)</sup>.

واستطاع المرينيون تنظيم جيشهم وجعلوا منه مؤسسة عسكرية كما اهتموا بالأسطول وقد تكون الأسطول المريني من مجموعة من القطع البحرية التي توزعت على مواني الدولة كسبتة، وطنجة، وسلا، وباديس، وأول من اهتم بالأسطول هو السلطان يعقوب بن عبد الحق الذي أمر ببناء دار صناعة السفن بسلا، وواصل السلطان يوسف بن يعقوب الاهتمام بصناعة السفن، وقام ببناء دار لصناعتها في تطوان. واهتم السلطان أبو الحسن المريني<sup>(٦)</sup> المريني<sup>(٦)</sup> ببناء الأسطول حتى بلغ عدد سفنه أضعاف ما لدي الإسبان<sup>(٦)</sup> النصرى فيني

(١) ابن خلدون : العبر ، ج٦ ، ص ١٠٥ - المقرئ : نفخ الطيب ، ج٦ ، ص ١٣٥ .

(٢) جامع تازا الكبير : شيده الخليفة عبد المؤمن بن علي الموحدي ، سنة ٥٥٣٩-١١٥٠م .

(٣) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب ، ص ٤٠٩ ، الناصري : الاستقصا ، ج٣ ، ص ٧٥ .

(٤) ابن أبي زرع : الذخيره ، ص ٩٠ - ابن خلدون : المقدمة ، ص ٢٣٠ .

(٥) القلقشندي : صح الأعشى ، ج٦ ، ص ١٧٧ .

(٦) المقرئ : نفخ الطيب ، ج٦ ، ص ١٢٠ .

الأبراج والمناظر على طول الساحل الغربي وعلى الضفة الأندلسية لحراسة الشواطئ المغربية والأندلسية من السفن المعادية. لقد أدى الاستقرار السياسي والاقتصادي في الدولة إلى توفير الظروف المناسبة للإبداع الفكري والثقافي وارتقاء الحضارة فبرز العلماء في مختلف المجالات، فقاموا بدورهم في بناء نهضة حضارية ملموسة واضحة.

#### المصادر والمراجع:

- ١- أحمد السعيد سليمان: تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسرات الحاكمة، ج١، دار المعارف، مصر،
- ٢- ابن الأحمر : (أبو الوليد إسماعيل : ٨١٠هـ/١٩٠٧م ، روضة النسر في دولة بني مرين ، الرباط ، المطبعة الملكية.
- ٣- ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٥م.
- أ- العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العجم والعرب ومن عاصراهم من ذوي السلطان الأكبر.
- ب- المقدمة
- ٤- مجهول : الذخيرة السنوية في تاريخ الدولة المرينية، الجزائر سنة ١٩٢٠.
- ٥- الزركلي : خير الدين - الأعلام قاموس تراجم - دار العلم للملايين - بيروت.
- ٦- ابن ابي زرع : على بن محمد بن عبد الله الفاسي ت ٧٤١هـ / ١٣٤٠م، الأنييس المطرب بروضة القرطاس في أخبار ملوك المغرب.
- ٧- زامبادور : المستشرق الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي ، ج١، أخرجه د. زكي محمد حسن - د. حسن أحمد محمود، مطبعة الجامعة، ١٩٥١.

(١) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٢٥٩.

- ٨- السلاوي: أبو العباس أحمد بن خالد الناصري ته ١٣١هـ/١٨٩٧م ، الاستقصاء الأخبار المغرب الأقصى.
- ٩- العبادي : د. أحمد مختار ، دراسات في د تاريخ المغرب والأندلس.
- ١٠- سالم : د. سيد عبد العزيز ، تاريخ المغرب في العصر الإسلامي ، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية.
- ١١- ابن عذاري : أبو العباس أحمد المراكشي ت٧١٢هـ/١٣١٢م - البيان المغرب في أخبار المغرب ٤ أجزاء ، تحقيق ليفي بروفنسال ، وكولان ، طبعة بيروت ، ١٩٥٠.
- ١٢- عنان : محمد عبد الله ، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين ، وهو الجزء الرابع من كتاب تاريخ دولة الإسلام في الأندلس، الطبعة الثالثة ، القاهرة.
- ١٣- ماهر حماده : الدكتور محمد - سلسلة وثائق الإسلام ، ج٧ والوثائق السياسية والإدارية في الأندلس وشمال أفريقيا.
- ١٤- المقري : أحمد بن محمد التلمساني : ت ١٠٤٢ هـ/١٩٣٢م - نفخ الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، ج ٤ ، تحقيق إحسان عباس.
- ١٥- المراكشي : محيي الدين عبد الواحد بن على ت١٤٧هـ/١٢٤٩م- المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، القاهرة ١٩٤٩.

## العلاقة السياسية للمسلمين بالنصارى في الأندلس "الأسرى نموذجاً"

(٦٣٥ هـ / ١٢٣٧ م : ٨٩٧ هـ / ١٤٩٢ م)

د: إسلام إسماعيل عبد الفتاح محمد

دكتوراه في التاريخ والحضارة الإسلامية

كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

### الملخص:

لعب الأسرى دورًا هامًا وحيويًا في العلاقات السياسية بين المسلمين والنصارى في الأندلس منذ بداية عصر بني الأحمر ٦٣٥ هـ / ١٢٣٧ م حتى سقوط غرناطة ٨٩٧ هـ / ١٤٩٢ م . وقد تجسد ذلك الدور في صور متعددة منها على سبيل المثال: الأسرى النصارى في أيدي المسلمين، وعملية افتدائهم، وعلى الوجه الآخر الأسرى المسلمون في أيدي النصارى، وعملية افتدائهم. ولقد كان لذلك آثار إيجابية ساهمت في توطيد العلاقات السياسية، وأثار سلبية ساهمت في سقوط غرناطة.

### Abstract

The political relationship of Muslims with the Christians in Andalusia, "the prisoners as a model" The prisoners played an important and vital role in the political relations between Muslims and Christians in Andalusia from the beginning of the Bani al-Ahmar era 635 AH / 1237 CE until the fall of Granada 897 AH / 1492 CE, and that role was embodied in several forms, including, for example: Christian prisoners in the hands of Muslims, And the process of their redemption, and on the other hand the Muslim captives in the hands of the Christians, and the process of their redemption. This had positive effects that contributed to the consolidation of political relations, and negative effects Granada

## مقدمة :

لعب الأسرى أدوارًا مهمة في تلك الفترة التي نتحدث عنها نتيجة لكثرة أعدادهم، فلا سبيل إلى الشك في أن الحروب ضد الممالك النصرانية في الأندلس قد وفرت الكثير منهم، كان وجود مملكة غرناطة في وسط دول نصرانية قد جعلها في حالة حرب مستمرة بينها وبين تلك الدول، وهو ما خلف عددًا كبيرًا من الأسرى لدى الطرفين، فعن طريق تلك الحروب والكمائن والغزوات، اجتمع في مملكة غرناطة عدد كبير من الأسرى النصراني، توزعوا في مناطق المملكة المختلفة، وخاصة في العاصمة ورندة ومالقة وألمرية<sup>(١)</sup>؛ إذ امتلأت بيوتات المسلمين وسجونهم في المملكة بالعديد من هؤلاء الأسرى النصراني، حتى وصل الأمر بالبعض أن يذكر أن عشر سكان غرناطة فقط كانوا مسلمين من الأصل، وأنه من بين مائتي ألف من سكان غرناطة لم يكن يوجد سوى خمسمائة من أصل عربي خالص، أما الباقي، فقد كانوا من نسل الذين تحولوا عن المسيحية إلى الإسلام<sup>(٢)</sup> وكان منهم العديد من أسرى الحروب.

أولاً: الأسرى النصراني في أيدي المسلمين منذ بداية عصر بني الأحمر ٦٣٥هـ/١٢٣٧م حتى سقوط غرناطة ٨٩٧هـ/١٤٩٢م.

دارت معركة حامية بين المسلمين والنصارى، لصد هجوم النصارى على الجزيرة الخضراء عام ٧١٢هـ/١٣١٢م، وكان النصر فيها من نصيب المسلمين، حيث استولى المسلمون على الكثير من الغنائم والأسرى<sup>(٣)</sup>. وفي عهد أبي الوليد إسماعيل في المعركة التي هزم فيها النصارى، قتل الوصيان على عرش قشتالة دون بيدرو ودون خوان ورهط كبير من الأمراء والنبلاء والأخبار، وغرق عدد آخر في نهر شنيل، وأسر من النصارى بضعة

(١) يوسف شكري فرحات، غرناطة في ظل بني الأحمر، ص ٩٤.

(٢) في حين يرى ابن الخطيب أن سكان غرناطة كانت معظم أنسابهم عربية، ويعدد أسماء القبائل التي ينتسبون إليها (ابن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص ١٣٥-١٣٦، انظر كذلك أحمد محمد الطوخي،

مظاهر الحضارة، ص ٧٢، Historia de Los Mozarabes Espana, P.788 F.simonte,

(٣) ابن خلدون، العبر، ج٧، ص ٢٩٥، ص ٢٩٦.

آلاف، حتى إن القتل والأسر قد استمر فيهم ثلاثة أيام، بل وصل الأمر إلى أن بيع الأسرى والغنائم قد استمر ستة أشهر متواصلة، ومع ذلك، بقي منها الكثير حتى ضجر الناس وملوا من ذلك<sup>(١)</sup>. وفي عهد السلطان يوسف الأول لما غزا الحاجب رضوان مدينة باغة Priego<sup>(٢)</sup> وأخذ بمخنقها وتملكها عنوة، ثم غزا لورقة ومرسية في محرم من عام ٧٣٤هـ/ أكتوبر ١٣٣١م، هاجم حصن المدور وعاد إلى غرناطة ومعه ما يقرب من ألف وخمسمائة أسير نصراني<sup>(٣)</sup>، وفي عهد السلطان أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البرميخو (٧٦١-٧٦٣هـ) (١٣٥٩-١٣٦١م)، وبعد أن أتاح له الله النصر على النصارى بظاهر وادي آش في عام ٧٦٢هـ/ ١٣٦١م، عاد السلطان البرميخو ومعه أكثر من ألف ومائتي أسير من النصارى، فيهم الكبار والفرسان، حيث أدخلوا الحضرة في الحبال، وكانت تضيق عنهم الطريق والفضاء<sup>(٤)</sup>، كما يذكر أن السلطان محمداً الخامس نازل مدينة أطريرة Utrerao<sup>(٥)</sup> في عام ٧٦٨هـ/ ١٣٦٧م، وناشدها القتال واستباح روضها عنوة، حتى اضطروا أهلها للالتجاء إلى قصبته، فاشتد القتال بين الطرفين، وفي النهاية، انهزم القشتاليون،

(١) يذكر المقرئ أن المسلمين حصلوا على غنائم كثيرة بلغت القناطير من الذهب والفضة، وأسروا وسبوا نحو سبعة آلاف من الرجال والنساء، ومن بينهم زوجة بيدرو وأولاده (المقرئ، نوح الطيب، ج١، ص ٤٤٩-٤٥١، انظر كذلك: ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص ٢٩٥، الإحاطة، ج١، ص ٢١٠، السلاوي، الاستقصا، ج٣، ص ١٠٩، ص ١١٠).

(٢) باغة Priego : مدينة صغيرة القدر غير أنها في غاية الحسن والجمال؛ لكثرة مياهها، وهي من أعمال غرناطة، تقع الآن على بعد نحو مائة كيلومتر إلى شمال غرب مدينة غرناطة، وقد ذكرت بعدة أسماء مختلفة، فهي باغة وبيغو وباغو وذكر ياقوت أن بيغو من أعمال جيان. (العنري، نصوص، ص ٨٩، ص ٩٣، ابن غالب، فرحة، ص ٢٨٣، الإدريسي، نزهة، ج٢، ص ٥٧١، ياقوت، معجم، ج١، ص ٣٢٦، ص ٥٣٢، ابن سعيد، المغرب، ج٢، ص ١٥٤، الحميري، صفة، ص ٦٠، ص ٦١).

(٣) ابن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص ٥٠٩، ص ٥١٠.

(٤) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص ٣٠٩.

(٥) أطريرة Utrerao: مدينة تقع في الجنوب الشرقي لمدينة إشبيلية على بعد ٣٩ كم منها (عان، دولة الإسلام، ج٧، ص ١٤٨).

ودخل المسلمون المدينة واستولوا عليها، وأسروا ما يناهز خمسة آلاف أسير<sup>(١)</sup>. و لما أغار القشتاليون على شرق غرناطة في عهد السلطان محمد الأيسر، ردهم المسلمون بقيادة الوزير ابن عبد البر زعيم بني سراج، ثم هزمهم ثانية عند مدينة أرشونة Archidona<sup>(٢)</sup>، حيث وقع العديد منهم إما قتلى وإما أسرى، وكان ذلك في سنة ٨٣٨ هـ/ ١٤٣٤ م<sup>(٣)</sup>. وعندما هاجم القشتاليون أحواز رندة في عام ٨٨٥ هـ/ ١٤٨١ م، رد السلطان أبو الحسن على بأن زحف على بلدة الصخرة، واستولى عليها عنوة وقتل وأسر الكثير من سكانها النصارى<sup>(٤)</sup>. ومما يذكر في هذا الصدد كذلك أن الزغل خرج في قواته من مالقة، ولقي النصارى على مقربة منها فهزمهم هزيمة ساحقة، وقتل وأسر منهم عدة آلاف كان من بينهم الكثير من الزعماء والأكابر، وكان ذلك في صفر ٨٨٨ هـ/ مارس ١٤٨٣ م<sup>(٥)</sup>. ومما يؤثر عن

(١) ابن الخطيب، الإحاطة، ج٢، ص٨٢، ص٨٣، عنان، دولة الإسلام، ج٧، ص ١٤٨.  
(٢) أرشونة Archidona: مدينة أندلسية قديمة تقع شمال شرقي مدينة مالقة قبلى مدينة قرطبة، وكانت قاعدة كورة رية، وقد نكرت بعدة صيغ، مثل: أرجدونة وأرشونة وأرجدونة (عن أرشونة انظر: ابن حوقل، صورة الأرض، ص١٠٦، ابن غالب، فرحة، ص٢٤٦، الإدريسي، نزهة، ج٢، ص٥٧٠، ياقوت، معجم، ج١، ص١٤٤، ص١٥٢).

(٣) عنان، دولة الإسلام، ج٧، ص١٦١.  
(٤) ويذكر الأستاذ عنان طبقاً للرواية القشتالية أن فقيهاً شبيحاً زاهداً عرف بنبوءاته كان من بين الوفود التي ذهبت غداة الانتصار إلى قصر الحمراء، وأنه صاح في وجه السلطان قائلاً: "ويل لنا لقد دنت ساعتك يا غرناطة، ولسوف تسقط أنقاض الصخرة فوق رؤوسنا، وقد حلت نهاية دولة الإسلام بالأندلس" (عنان، دولة الإسلام، ج٧، ص١٩٥، وانظر كذلك شكري فرحات، غرناطة، ص٥٨، أسعد حومد، محنة العرب في الأندلس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٨، ص١٢٧، ص١٢٨، واشنطنن أيرفغ، أخبار سقوط غرناطة، ترجمة هاني يحيى نصرى، مؤسسة الانتشار العربي، لندن، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠ م، ص٧٥).

(٥) ينكر صاحب نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر: "أنه في شهر صفر من عام ثمانية وثمانين وثمانمائة، اجتمع زعماء النصارى، واقتادهم جمع عظيم، ولم يكن معهم ملكهم، وقصدوا قرى بلش وشرقي مالقة، يريدون أخذ أهلها وفسادها، فلما وصلوا تصايح أهل تلك الجهات واتجهوا رجالاً دون فريسان، وصاروا يعترضون النصارى في المضايق والأوعار والمخائق، ويقاثلونهم ويقتلون منهم خلقاً كثيراً (ثم يضيف)، وكان في وقت هذه الكائنة الأمير محمد بن سعد بمدينة مالقة، فلقى النصارى من ناحية، فقتل وأسر منهم أيضاً خلقاً كثيراً، وولوا الأديار، وأسر منهم ماينيف على ألفي أسير فيهم جماعة من قوادهم واقتادهم". (مؤلف مجهول، نبذة العصر، ص١١).



السلطان أبي عبد الله محمد الصغير بعد رفضه مطالب فرناندو الخامس ملك قشتالة الخاصة بتسليم غرناطة أن خرجت قواته لمهاجمة الحصون القريبة، ففي شهر رمضان عام ٨٩٥هـ/١٤٩٠م خرج في قواته إلى قرية همدان Alhemdin<sup>(١)</sup> القريبة، ففتحها واستولى على مافيها من العتاد، وأسر منها نحو مائة وثمانين أسيراً عاد بهم إلى غرناطة<sup>(٢)</sup>. ولم يقف الأمر عند سلاطين بنى الأحمر، إذ امتلأت أيدي سلاطين بنى مرين بالعديد من الأسرى النصارى، فيذكر في هذا الصدد أن السلطان أبا يوسف يعقوب المريني عندما بعث ولده أبا زيان؛ لمقاتلة النصارى في الأندلس ٦٧٣ هـ/١٢٧٥م، نفذ أبو زيان إلى أراضي النصارى حتى شريش، وعات فيها وعاد مثقلاً بالأسرى والسبي والغنائم<sup>(٣)</sup>.

ولما عبر السلطان أبو يوسف للأندلس في سنة ٦٧٤هـ/١٢٧٦م، توغل غازياً في أراضي قشتالة حتى وصل إلى أحواز إشبيلية، ثم عاد إلى قواعده، وهو مثقل بالغنائم والأسرى النصارى<sup>(٤)</sup>. ويذكر كذلك أنه في أوائل عام ٧٤٠هـ/١٣٤٠م، عندما أراد

(١) قرية همدان Alhemdin تقع جنوب غرب غرناطة على بعد بضعة كيلو مترات منها، ويبدو أن هذه القرية قد استعارت هذا الاسم من القبيلة المشهورة بذلك الاسم همدان (ابن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص ١١٢، حاشية ٦، عنان، دولة الإسلام، ج٧، ص ٢٣٤، حاشية ٣).

(٢) مؤلف مجهول، نبذة العصر، ص ٣٣، ص ٣٤، المقرئ، فتح الطيب، ج٤، ص ٥٢٣.

(٣) مؤلف مجهول، النخيرة، السنية، ص ١٦٤، ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص ٣١٤، السلاوى، الاستقصا، ج٣، ص ٣٩.

(٤) إذ يذكر صاحب النخيرة السنية أن جملة الغنائم والأسرى بلغت مائة ألف رأس من البقر وسبعة وعشرين ألفاً، أما الغنم فلا تحصى، حتى بيعت الشاة منها بالجزيرة بدرهم، وكان عدد الأسرى من الرجال والنساء والذرية سبعة آلاف وثمانين وثلاثين نفساً، وعدد البغال والحمير أربعة عشر ألف رأس وستمائة رأس، وأما الدروع والسيوف والمغافر والتراس والبيضات فما لذلك عدد لكثرت، فامتلأت أيدي المسلمين وصلح حالهم وحال أهل الأندلس. (مؤلف مجهول، النخيرة السنية، ص ١٧٤، ص ١٧٥، انظر كذلك ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص ٣١٢، السلاوى، الاستقصا، ج٣، ص ٤١، عنان، دولة الإسلام، ج٧، ص ١٠١، محمد المنونى، ورفقات، ص ٢٨٢، ص ٢٨٣).

السلطان أبو الحسن المريني الثأر لمقتل ابنه أبي مالك<sup>(١)</sup>، توافقت الأساطيل المغربية بمرسى سبتة، وعقد لمحمد بن العزفي صاحب سبتة<sup>(٢)</sup> عليها، وقد رافق هذه الحملة السلطان أبو الحسن نفسه، وانتقت الأساطيل النصرانية مع الأساطيل المغربية في معركة حامية، انتهت بفوز المسلمين، وقد غنمت الأساطيل المغربية كثيراً من المال والسلاح، حيث سيقنت الأساطيل النصرانية إلى مرسى سبتة، فنزل منها الأسرى<sup>(٣)</sup>.

ولم يقتصر الأمر على ذلك، فقد كانت عملية القطع أو القرصنة المستمرة ما بين النصراني والمسلمين التي كان يقوم بها غالباً سكان المدن الساحلية والمدن الثغرية

(١) ففي سنة ١٣٣٩/٧٤٠م هاجم النصراني غرناطة، فاستعان السلطان يوسف الأول بسلطان بنى مرين أبي الحسن الذي أرسل ابنه أبا مالك عبد الواحد بعساكر جمعهم من زناتة والمتطوعة، و أرسل إليه عدداً من الوزراء؛ لمساعدته في حملته، وأخذ هذا الأمير يجاهد ضد النصراني حتى قتل أثناء جهاده ضدهم. (السلامي، الاستقصا، ج٣، ص١٣٤، ص١٣٥).

(٢) بنو العزفي: كانوا من بيوتات سبتة المعروفه بالدين والعلم والرئاسة، وقد قام أبو القاسم العزفي بخدمات جليلة للمسلمين، ففي سنة ٦٦٣هـ/١٢٦٥م، بعث أبو القاسم العزفي أسطوله إلى مدينة أصيلا، وهدم أسوارها، خوفاً من احتلال الأسيبان لها، وفي سنة ٦٦٥هـ/١٢٦٧م، احتل مدينة طنجة، وكذلك استطاع أكثر من مرة تحنير أهالي المراسى والسواحل المغربية، قبل وقوع الغارة عليهم بوقت كاف، ولما قامت دولة بنى مرين، دخل بنو العزفي في صراع معهم، وفي النهاية، اتفق السلطان أبو يوسف يعقوب مع أبي القاسم العزفي أن يبقى محتفظاً بسبتة على أن يؤدي لسلطان المغرب خراجاً معلوماً كل سنة، واستمرت سبتة في طاعة بني العزفي حتى استولى عليها سلطان غرناطة أبوسعيد فرج بن إسماعيل بن الأحمر صاحب مالقة عام ٧٠٣هـ/١٣٠٣م، ثم استعادها سلطان المغرب أبو الربيع سليمان المريني عام ٧٠٩هـ/١٣٠٩م، وظل بنو العزفي يتمتعون بنفوذهم القديم في ظل الدولة المرينية. (السلامي، الاستقصا، ج٣، ص٣٤، ص٣٥، ص٥١، ص٨٢، ص١٠١، ص١١٣- ص١١٥، أحمد مختار العبادي، دراسات، ص٣٧٨- ص٣٨٠ حاشية١).

(٣) ابن الخطيب، الإحاطة، ج٤، ص٣٢١، ص٣٢٢، السلامي، الاستقصا، ج٣، ص١٣٥، ص١٣٦.

بطريقة عشوائية على ثغور النصارى أحياناً دون علم الحكومة المركزية<sup>(١)</sup> تأتي بالعديد من هؤلاء الأسرى النصارى، مثل ما ذكره المؤرخ ابن فضل الله العمري بقوله: "وبالبلاد البحرية أسطول حراريق"<sup>(٢)</sup> للغزو في البحر الشامي يركبها الأنجاد من الرماة والمغاورين والرؤساء المهرة، فيقاتلون العدو على ظهر البحر، وهم الظافرون في الغالب، ويغيرون على بلاد النصارى بالساحل أو بقرب الساحل، فيستأصلون أهلها ذكورهم وإناثهم، ويأتون بهم بلاد المسلمين فيبرزون بهم، ويحملونهم إلى غرناطة إلى السلطان، فيأخذ منهم مايشاء ويهدي ويبيع"<sup>(٣)</sup>.

ثانياً: عملية افتداء الأسرى النصارى من أيدي المسلمين منذ بداية عصر بني الأحمر ٦٣٥ هـ/ ١٢٣٧ م حتى سقوط غرناطة ٨٩٧ هـ/ ١٤٩٢ م

كان حرص ملوك النصارى، سواءً أكانوا من قشتالة أم أراجون على فك أسراهم من أيدي المسلمين أهم ما يميز عدداً من المراسلات وبنود عدد من المعاهدات التي عقدت بينهم وبين بعض من سلاطين غرناطة، مثال ذلك تلك المعاهدة التي عقدت ما بين إسماعيل الأول (٧١٣-٧٢٥ هـ) (١٣١٣-١٣٢٤ م) وخايمي الثاني Jaim (٦٩٠-٧٢٨ هـ) (١٢٩١-

(١) كان إسماعيل الأول سلطان غرناطة يدافع عما قام به بعض القراصنة المسلمين، مثل القرصان ابن جندى الذي أغار على أرغون وأسر بعض النصارى منها، وهو في الواقع تابع للحفصيين ببجاية، ولا يستطيع صاحب غرناطة معاقبته أو مطالبته بتسريح أسراه. (عمر سعيدان، العلاقات الأسبانية الأندلسية، ج١، الوثيقة رقم ٢٣، ص ١٥٣) وفي بعض الأحيان كان يقوم بعملية الأسر أشخاص ليس لهم صلة بالقرصنة أو بالحرب، بل من عامة الناس، وهذا ما يحدثنا به ابن الخطيب من أن طبيباً غرناطياً يدعى عبد الله بن الزبير لقي بفحص غرناطة سنة ٦٨٣ هـ/ ١٢٨٥ م نصرانياً يتجسس، فأسره وجره، وأدخله البلد، ولم يلتفت إلى ثمنه استكتاماً لتلك الفعلة (ابن الخطيب، الإحاطة، ج٣، ص ٤١٩).

(٢) الحراريق: هي نوع من السفن الحربية تستخدم لحمل الأسلحة النارية، كالتار الإغريقية (السيد عبد العزيز سالم، أحمد مختار العبادي، تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٩٣، ج١، ص ١٣٤، درويش النخيلي، السفن الإسلامية على حروف المعجم، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٧٩ م، ص ١٠٤).

(٣) ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ص ٤٤- ص ٥٠.

١٣٢٧م) التي نصت على تبادل الأسرى<sup>(١)</sup>، كما نصت بنود معاهدة السلام بين محمد الرابع (٧٢٥-٧٣٣هـ) (١٣٢٤-١٣٣٢م) وخايمي الثاني على تحرير الأسرى من الجانبين<sup>(٢)</sup>. وهناك كذلك أيضاً عدد من المراسلات التي حدثت ما بين ألفونسو الرابع ملك أراجون IV Alfonso (٧٢٨-٧٣٧هـ) (١٣٢٧-١٣٣٦م)<sup>(٣)</sup> ويوسف الأول سلطان غرناطة، ودارت في معظمها حول الأسرى القطلانيين المأخوذين بعد عهد الصلح بينهم والعمل على

(١) ففي سنة ٧٢١هـ/١٣٢١م جدد السلطان إسماعيل معاهدة الصلح مع ملك أراجون خايمي الثاني، وقد نصت بنود المعاهدة، على أن يعقد بين الفريقين صلح ثابت لمدة خمسة أعوام، على أن تؤمن خلالها أرض المسلمين بالأندلس وأرض أراجون براً وبحراً سراً وجهراً لأهل غرناطة بالأندلس؛ للإبحار بحرية، ومنها تسريح من يقع أسره من أهل البلدين أو أجدانه براً وبحراً وإرجاعه ببضائعه وأمواله. (عن هذه المعاهدة انظر: عمر سعيدان، العلاقات الأسبانية الأندلسية، ج١، ص٧٦- ص٨٤).

(٢) ففي سنة ٧٢٦هـ/١٣٢٦م، بعث محمد الرابع إلى خايمي الثاني في تجديد عقد الصلح الذي ذكرناه سابقاً المبرم بين ملك غرناطة إسماعيل الأول والده وملك أراجون خايمي الثاني، وكان من بين بنود هذه المعاهدة تردد أهل القطرين وأجدانها إلى سواحل غرناطة وأرجون في حرية كاملة ومنع القطع والتعرض للأجفان أو الاستيلاء على ما فيها أو الإغارة على المراسي والأراضي وأسر المسلمين أو النصارى التابعين للبلدين وعدم منع المسلمين الساكنين بأرجون من مغادرة البلاد إلى غرناطة بأموالهم وأمتعتهم، إن كانوا راغبين عن طواعية في ذلك وعدم الإضرار بهم أو التعسف عليهم. (عن هذه المعاهدة انظر: عمر سعيدان، العلاقات الأسبانية، ج١، الوثيقة رقم ٢٧، ص١٧٣- ص١٧٩) وإثباتاً لحسن النوايا، بادر محمد الرابع بتسريح أربعة من النصارى من أسرى أرجون وتوجيههم مع الرسولين إلى ملك أرجون راجياً أن يحدث تسريح المسلمين الموجودين بأرجون، مقابل ذلك، كما أكد أنه أذن بالبحث عن بقية النصارى المأسورين من بلاد أرجون وتسريحهم في أسرع وقت. (عمر سعيدان، العلاقات الأسبانية، الوثيقة رقم ٢٦، ص ١٦٧ - ص ١٧٢).

(٣) ألفونسو الرابع ملك أراجون IV Alfonso (٧٢٨-٧٣٧هـ) (١٣٢٧-١٣٣٦م): حكم مملكة أراجون من سنة ٧٢٨هـ/١٣٢٧م حتى سنة ٧٣٧هـ/١٣٣٦م؛ إذ خلف والده خايمي الثاني، وكان أميراً ضعيفاً؛ إذ زاد في عهده طغيان النبلاء، واشتد إرهابهم للعرش، فأرغموا ألفونسو الرابع على أن يصدر لهم مرسوماً يسمى بمرسوم الاتحاد من بين بنوده أن لاتجوز معاقبتهم فيما يتعلق بالنفس والمال إلا بحكم القانون، وأن يكون لهم حق اختيار القاضى الأكبر، وأن يقوموا بالدفاع المسلح عن أنفسهم، حينما يشعرون بما يهددهم. عن ألفونسو الرابع انظر: عنان، دولة الإسلام، ج٧، ص١٧٧.

تسريحهم<sup>(١)</sup>. وينكر أيضاً أنه عندما استأثر يوسف الثاني بالسلطة، كتب إلى ملك قشتالة هنري الثالث Enrique (٧٩٣-٨٠٩هـ) (١٣٩٠-١٤٠٦ م)<sup>(٢)</sup> في طلب المهادنة والسلام، فأطلق سراح عدد من الفرسان النصارى الذين أسروا في بعض المعارك السابقة، وأرسلهم مكرمين إلى بلاط إشبيلية، فاستجاب ملك قشتالة إلى دعوته وعقد السلم بين المملكتين<sup>(٣)</sup>. وفي ربيع الأول من سنة ٨٠٨هـ/الموافق سبتمبر ١٤٠٥ م. عقدت بين السلطان محمد بن يوسف الثاني ومرتين ملك أراجون وولده مرتين ملك صقلية معاهدة صداقة، من بين بنودها أنه إذا كان لدى الطرفين أسرى من رعايا الطرف الآخر، فإنه يفك أسرهم لقاء دفع مائة دينار ذهباً عن الشخص الواحد، فإن كان الأسير ملكاً لأحد رعايا أى الطرفين، فإنه يسمح بفك أسرته، نظير دفع الثمن الذى اشترى به، ويلتزم كل من الفريقين بالأخفى، أو يغيب أحداً من الأسرى، وأنه

(١) منها الوثيقة رقم ٤٠ في أرشيف التاج الأروغنى المؤرخة في ٣٠ جمادى الثانية من عام ٧٣٥هـ/الموافق ٢٤ من سنة ١٣٣٥م، وهي عبارة عن رسالة بعث بها يوسف الأول سلطان غرناطة إلى ألفونسو الرابع ملك أروغون بعد أشهر من انعقاد الصلح بين البلدين، توضح حدوث قطع خطير يخالف بنود الصلح، وهو إقدام عدد من القطاع الجنوبيين على أسر أشخاص قطلانيين وبيعهم بالمرية، وهذا شيء يتنافى مع نص المعاهدة والوفاء؛ إذ يوضح يوسف الأول لألفونسو أن سماح رجال الدولة ببيع هؤلاء الأسرى لعدم تعرفهم على هويتهم القطلانية وعدم علمهم بأنهم من رعايا أروغون، وأنه سيبحث عن هؤلاء الأسرى بالمرية = ويردهم إلى أهلهم بأروغون. (عن هذه الوثيقة انظر: عمر سعيدان، العلاقات الأسبانية، ج١، الوثيقة رقم ٤٠، ص ٢٠٨-٢١١) ومنها رسالة بعث بها يوسف الأول إلى ألفونسو الرابع بتاريخ ٤ ذى الحجة عام ٧٣٥ هـ/ ٢٦ يوليو عام ١٣٣٥م؛ للرد على رسالة ألفونسو حول انتهاكات عقد الصلح بأسر لعدد من نصارى أروغون كان غالبيتهم من التجار الذين يطمنون إلى عقود الصلح ويبادرون بالسفر والمخاطرة للمناجزة والربح (عمر سعيدان، العلاقات الأسبانية، ج١، الوثيقة رقم ٤٢، ص ٢٢٧-٢٣١).

(٢) هنري الثالث Enrique III (٧٩٣-٨٠٩ هـ) (١٣٩٠-١٤٠٦ م): خلف والده خوان الأول على أثر سقوطه من فوق جواده قتيلاً عام ٧٩٣ هـ/١٣٩٠ م، وكان ولا يزال حدثاً، ولم يطل حكمه حينما بلغ الرشد سوى أعوام قلائل، وفي عهده نشبت الحرب حياً بينه وبين مملكة غرناطة، وانتهت بعقد هدنة بين الفريقين، ثم توفي في أواخر ٨٠٩ هـ/١٤٠٦ م (عان، دولة الإسلام، ج٧، ص ١٧٤، ص ١٧٥).

(٣) المرجع السابق، ج٧، ص ١٤٩.

إذا دخل مجاورون تابعون لأحد الطرفين في أرض الآخر، واحتملوا منها أسرى أو بضائع، فإنها تطلب ممن استقر لديه ويأمر قائد الموضع الذي به الأسرى والبضائع بردها لمن أخذت منهم وبالبحث عن الفاعلين ومعاقبهم.<sup>(١)</sup>

وينكر كذلك، إنه لما اشتد عدوان النصارى على أراضي المسلمين، رأى السلطان يوسف الثالث أن يسعى إلى عقد الهدنة مع قشتالة، حقناً للدماء وعقد السلم بين الفريقين وإثباتاً لحسن النوايا، أطلق ملك غرناطة سراح بضع مئات من الأسرى النصارى دون فدية<sup>(٢)</sup>، ولما عاد أبو عبد الله محمد بن يوسف الثالث الملقب بالأيسر إلى حكم غرناطة، أرسل إلى ملك قشتالة خوان الثاني في تجديد الهدنة، فبعث إليه ملك قشتالة سفيره جونثالث دي لونا، واشترط لتجديدها أن يؤدي الأيسر ما أنفقه بلاط قشتالة في سبيل استرداده عرشه، وأن يفرج عن سائر النصارى الموجودين ببلاده، فرفض الأيسر وهدد ملك قشتالة بالحرب<sup>(٣)</sup>. وفي سنة ١٤٥٦/٥٨٦٠م عندما هاجم القشتاليون المناطق المجاورة لمالقة، لم تتسحب تلك الحشود إلا بعدما دفع الأمير سعد اثني عشر ألفاً من الفضة، وأطلق سراح ستمائة أسير<sup>(٤)</sup>، كذلك تعهد يوسف المول لملك قشتالة إن حصل على الملك، فإنه يتعهد بتحرير الأسرى النصارى في مملكة غرناطة.<sup>(٥)</sup>

وفي أوائل حكم السلطان أبي الحسن على عام ١٤٧٨/٥٨٨٣م، أرسل إلى ملكي قشتالة فرناندو وإيسابيلا، يطلب تجديد الهدنة القائمة، فوافقا على طلبه، بشرط أن تعترف مملكة غرناطة بطاعتها، وأن تؤدي إلى قشتالة الجزية نفسها من المال والأسرى التي كان يؤديها السلاطين السالفون<sup>(٦)</sup>. وعندما أسر السلطان أبو عبد الله محمد، حاول السلطان أبو

(١) نفسه، ج٧، ص ١٥٢، ص ١٥٣.

(٢) نفسه، ج٧، ص ١٥٣.

(٣) عبدالله عنان، دولة الإسلام، ج٧، ص ١٥٨.

(٤) يوسف شكري، فرحات، غرناطة، ص ٤٦.

(٥) عنان، وثيقة أندلسية، ص ٣٨-٤٥، الطوخي، مظاهر الحضارة، ص ٧٠.

Fernandes (Luis suarez) Junall La frontera de Granada, p.39-42.

(٦) عنان، دولة الإسلام، ج٧، ص ١٩٤.

الحسن على والده افتدائه، وعرض على فرناندو نظير تسليمه أن يدفع فدية كبيرة، وأن يطلق عددًا من أكابر النصارى المأسورين، فرفض فرناندو، وأثر أن يحتفظ بالأسير إلى حين<sup>(١)</sup>، ولما حصل الاتفاق على إطلاق سراحه فيما بعد، كان من ضمن شروط إطلاق سراحه أن يفرج عن أربعمئة أسير من أسرى النصارى في غرناطة، يختارهم ملكهم، ثم يطلق في كل عام سبعين أسيرًا، وذلك لمدة خمسة أعوام<sup>(٢)</sup>.

وكان من بين شروط تسليم مدينة لوشة للنصارى عام ٨٩١هـ/١٤٨٦م، أن تسلّم المدينة إلى ملك قشتالة فرناندو الخامس مع سائر الأسرى النصارى<sup>(٣)</sup>، وكان من بين شروط تسليم غرناطة أنه وقت تسليم المدينة يفرج عن سائر الأسرى النصارى الذين تحت أيدي المسلمين دون أية فدية، وألا يطلب من أي مسلم كان قد هدد أو جرح أو قتل أسيرًا أو أسيرة نصرانية ليس أو ليست في حوزته رده أو ردها الآن أو فيما بعد، وبعد التسليم، أفرج عن رهائن المسلمين الخمسمئة، وأفرج المسلمون من جانبهم عن الأسرى النصارى، وكان عددهم نحو سبعمئة أسير<sup>(٤)</sup>.

(١) المرجع السابق، ج٧، ص٢٠٤.

(٢) نفسه، ج٧، ص٢٠٥، العبادي، دراسات، ص٤٦٥، أسعد حومد، محنة العرب، ص١٣٢. نفسه، ج٧، ص٢٠٥، العبادي، دراسات، ص٤٦٥، أسعد حومد، محنة العرب، ص١٣٢.

(٣) ففي سنة ٨٩١ هـ / ١٤٨٦ م استغل ملك قشتالة فرناندو الخامس الفتنة القائمة بين السلطان أبي عبد الله محمد وعمه السلطان الزغل، وزحف إلى مدينة لوشة، وشدد الحصار عليها، وسلط على أسوارها الأنفاط والعدد، وأبدي المسلمون بسالة فائقة في الدفاع عن لوشة، فلما رأى أهلها مالا طاقة لهم به من شدة الحصار وكثرة جموع النصارى وتأخر أهل غرناطة عن نصرتهم، طلبوا الأمان على أن يخرجوا مؤمنين بأموالهم وأولادهم وخيلهم وسلاحهم ودوابهم وجميع ما يقرون على حمله، فأجابهم العدو لذلك، فأخذوا يخلون البلاد، ووصلوا إلى غرناطة، وكان استيلاء النصارى على لوشة في ٢٦ جمادى الأولى سنة ٨٩١ هـ / مايو سنة ١٤٨٦ م. (مؤلف مجهول، نبذة العصر، ص١٧، المقرئ، نفح الطيب، ج٧، ص٥١٧، ص٥١٨، عنان، دولة الإسلام، ج٧، ص٢٠٩، ص٢١٠).

(٤) عنان، دولة الإسلام، ج٧، ص٢٤٩، ص٢٥٠، ص٢٦١، Los capitulaciones Para,LaEntrega de

Granada, Por Miguel Garrido Atienza, Granada, 1910, P.269-295.

ولم يقتصر الأمر على هذه الاتفاقات والمعاهدات والمراسلات التي وقعت بين مملكة غرناطة والدول المعنية بالأمر، بل نجد أن الأغنياء من الأشراف والتجار والأفراد من النصارى أسهموا بتحرير عدد من هؤلاء الأسرى، مثل ما قام به تاجران من إيطاليا يدعى أحدهما جيسار لوتسيا، والآخر برتلومي الجنوى، كانا يقيمان في غرناطة، استطاعا باتصالاتهما بحكام غرناطة وملك البرتغال أن يحررا عدداً من الأسرى لا بأس به في كلا البلدين، كما كان لرجال الدين دور مهم خلال تلك الفترة في فك الأسرى النصارى، مثلما يذكر أن رهبان دير سيلوس استطاعوا أن يحرروا أكثر من أربعمئة أسير، وعندما استيق عدد من أسرى مدينة مرسية إلى غرناطة، قام اثنان من رهبان دير سيده "غوانلوب" بافتداء أسر أولئك الرجال، كما قام كريستوبال سوليس ومعه الأخ ألفونسو بريرو بافتداء مائة وثمانين أسيراً، واسترد ستون أسيراً حررتهم سنة ٨٨٢هـ/٤٤٧م، وذلك بعدما دفع الرهبان عنهم الفدية<sup>(١)</sup>.

ولما وقع سان بدرو بسكوال San Pedro Poscual مطران جيان في الأسر عندما كان يمارس مهامه في أرجون عام ٦٨٦ هـ / ١٢٨٧ م ، أخذ إلى غرناطة، وهناك خفف الآلام عن رفاقه من الأسرى النصارى، وبيعت فيهم الإيمان من جديد، وهو ما أثار سخط المسلمين، فأطاحوا برأسه عام ٧٠٢ هـ / ١٣٠٠م<sup>(٢)</sup>، بل وصل الأمر إلى أن بعض النصارى كانوا يوصون بشطر من أموالهم؛ لفك أسراهم في بلاد المسلمين، مثل وصية رجل يدعى دون رودريقه شلبطورس، حيث أوصى بفك أسارى النصارى العمال في أسر المسلمين بخمسمائة مثقال، وفي وصية أخرى لرجل يدعى دون غنصاليه مؤرخة في سنة ٦٧١هـ/أكتوبر ١٢٧٢م أمر أن يعطى في فك أسارى من بلاد الإسلام ستون مثقالاً، وفي وصية أخرى لدون يدعى بطره شانجة أمر فيها بأن يفك زوجان من النصارى، أسيران في بلاد الإسلام، فيؤخذ من ماله ما يحقق ذلك.<sup>(٣)</sup> وفي بعض الأحيان، كان أهالي المأسورين أو المختطفين هم من يسعون لفك أسر ذويهم من يد من أسرهم؛ إذ يوكلون لهذه العملية

(١) يوسف شكري، فرحات، غرناطة، ص ٩٥، ص ٩٦،

1962,P.96 Guadalupe,Barcelona, F.German,Rubio,Historia de Nuestra,senora de

(٢) أحمد محمد الطوخي، مظاهر الحضارة، ص ١٠٤،

Simonet,Historia de LosMozarabes,p.789

(٣) عن هذه الوصايا انظر: شكيب أرسلان، الحل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، منشورات دار

مكتبة الحياة، بيروت، ج١، ص ٤١٧، ص ٤١٨.



أشخاصاً يطلق عليهم اسم الفكاكين، أو كان هؤلاء الأشخاص يتقنون العربية والقشتالية من أجل القيام بدور الوساطة بين الفريقين، وبالتأكيد كانوا يحصلون على أجر نظير قيامهم بتلك المهام؛ إذ كانوا موضع ثقة الفريقين، وقد ذكرت أسماء بعض منهم، أمثال برنغر سنيانا من مرسية ومارتين دي لارا وفرناندو أرياس وسعد الأمين الغرناطي<sup>(١)</sup>.

وقد يفندى أسرى النصارى أنفسهم، وذلك بشراء أنفسهم من أسيادهم، وعادةً كان يكتب عقد بذلك بينهم وبين من فكهم بأنهم أحرار، ويذكر كذلك أن من كان يكتب هذه العقود أى عقود الافتداء تلك علماء وشيوخ وأهل الفتوى وطلبة من أهل العلم بغرناطة، فقد سأل ابن الحاج عن جماعة من أسرى النصارى، وجددهم المسلمون بقرب أرض الروم يريدون الرجوع لبلادهم، فأخذهم المسلمون وأرادوا بيعهم، فاستظهر هؤلاء النصارى بعقود مكتوب بعضها بمالقة، وبعضها بمراكش، تقتضى شراء بعضهم لنفسه من سيده، وافتداء النصارى لبعضهم وعتق بعضهم<sup>(٢)</sup>.

وكان يفندى الأسرى بالسعر المحدد حسب ما يراه مختطفوهم أو من أسرهم، وعلى الرغم من تلك الافتداءات العديدة للأسرى النصارى التي ذكرناها، فقد وجد عدد لا بأس به منهم في المدن الأندلسية التي استردها النصارى من المسلمين، فيذكر أنه عندما دخل النصارى إلى مدينة رندة عام ٨٩٠ هـ/١٤٨٥ م، وجد بها أربعمئة أسير نصراني<sup>(٣)</sup>، ووجد في لوشة بعد استردادها عام ٨٩١ هـ/١٤٨٩ م مائة وأربعون أسيراً<sup>(٤)</sup> وفي غرناطة، وجد النصارى

(١) يوسف شكري فرحات، غرناطة، ص ٩٦، Ramos Loscertales, ELcautiverio, En la corona de Aragon Durante Los siglos XIII, XIV, y XV, Saragoza, 1915, Reed 1962, P.125.

(٢) المرجع السابق، ج ٢، ص ١٧٩، ص ١٩٧.

(٣) أحمد محمد الطوخي، مظاهر، ص ١٤٠، يوسف شكري فرحات، غرناطة، ص ٩٤، فيذكر صاحب كتاب نبذة العصر أنه في العشر الأول من جمادى الأولى عام ٨٩٠ هـ/١٤٨٥ م "خرج العدو أيضاً بمحلته فقصد مدينة رندة، فقاتلها قتالاً شديداً، وقرب إليها أنفاطه حتى هدم بعض أسوارها، فلما رأى أهلها مالا طاقة لهم به، طلبوا الأمان، وخرجوا مؤمنين بما معهم. فلما استولى العدو على مدينة رندة، دخلت تلك الجهات كلها في نمته من غير قتال". (مؤلف مجهول، نبذة العصر، ص ١٣، ص ١٤).

(٤) أحمد محمد الطوخي، مظاهر الحضارة، ص ١٤٠، يوسف شكري فرحات، غرناطة، ص ٩٤.

سبعمائة أسير ما بين رجل وامرأة<sup>(١)</sup>. ويذكر أن ماركيز قانس عثر على أسرى مسيحيين في إحد المطابق عندما غزا الحامة عام ١٤٨٢/هـ١٨٨٧ م<sup>(٢)</sup>. أما من لا يحصل لهم نصيب في الافتداء، فإنهم يصبحون عبيداً؛ إذ كانوا هدفاً لتجارة مريحة، فقد باع أهالي غرناطة في سنة ١٣٢٨/هـ١٧٢٩ م عدداً من الأسرى القطلان إلى تلمسان في المرية<sup>(٣)</sup>، كذلك بيع مواطن من جيان يدعى دومنجو Domingo في وادي آش، ثم نقل إلى المرية، حيث أعيد بيعه مرة أخرى لأحد رعايا السلطان الغرناطي<sup>(٤)</sup>. وغالباً ما كانت تغل أرجل هؤلاء الأسرى بالحديد، ويوضعون في المطبق، وهو سجن مقسم إلى زنانات تستقبل كل واحدة منها من أحد عشر أسيراً إلى ستة وعشرين أسيراً، كما وجدت مجموعة من السلاسل التي كانت تقيد هؤلاء الأسرى في مالقة والمرية ولا تزال إلى اليوم معلقة على الجدران الخارجية لكنيسة القديس يوسف بمدينة طليطلة<sup>(٥)</sup>

**ثالثاً: الأسرى المسلمون في أيدي النصارى منذ بداية عصر بني الأحمر  
١٢٣٧/هـ١٦٣٥م حتى سقوط غرناطة ١٤٩٢/هـ١٨٩٧م**

وعلى الوجه الآخر، نجد أن عدد الأسرى المسلمين في الأراضى المسيحية سواءً أكانوا في قشتالة أم أراجون أم البرتغال كان كبيراً أيضاً، فقد وفرت المعارك المستمرة والكمائن والغزوات بالإضافة إلى أعمال القرصنة التي كان يقوم بها القراصنة النصارى أعداداً لا حصر لها من هؤلاء الأسرى المسلمين، فيذكر أنه عندما قام فرناندو الثالث بمحاولته الأولى

(١) يوسف شكري فرحات، غرناطة، ص ٩٤.

(٢) أحمد محمد الطوخي، مظاهر الحضارة، ص ١٤٠.

(٣) J.Ramos, loscertales elcautiverio enla corona de Aragon, pp. 185-186.

(٤) J.cossio, cautivos de Moros en siglo XIII, pp. 71.

(٥) Leopoldo Torres balbás, las Mazmorras de la Alhambra, Al - Andalus, vol IX,

1944, Fasc.I, pp. 198-218.

يسمى الرمان؛ إذ يذكر الرحالة مونزر الذي زار غرناطة بعد سقوطها بعامين في يد الملكين الكاثوليكين،

أنه صعد إلى الحمراء عن طريق جبل عال جداً، وأن سفحه به = مقبرة كبيرة، ثم يدخل منه إلى مكان

كان مخصصاً للأسرى المسيحيين. Múnzer, viaje por Espana y Portugal, (B.R.A.H)t.

LXXX. IV, 1924, p.87.

لفتح إشبيلية، سار في قواته صوبها وعبر الوادي الكبير تجاه قرمونة، وأخذ يفسد زروع هذه المنطقة، ويخرب ضياعها، ويأسر من يلقى من المسلمين<sup>(١)</sup>، وكانت هذه أول مرحلة في فتح المدينة، حيث يذكر أنه في صيف عام ١٢٤٥هـ/١٢٤٧م هاجم قرمونة، وسار في قواته صوب إشبيلية، حيث سار إلى قنطلانة Cantillana<sup>(٢)</sup> شمال إشبيلية، وهاجمها بشدة، واقتحمها عنوة، وأسر منها حوالي سبعمائة مسلم<sup>(٣)</sup>. وعندما دخل النصارى مدينة أستجة عام ٦٦٢ هـ/١٢٦٣ م عقب تسليمها بالأمان بعد أن نزل ابن يونس عنها للنصارى، يذكر أنه قد دخلها النصارى دون خيل وقتلوا وأسروا وسبوا الكثير من أهلها، وذلك على الرغم من تسليمها بالأمان لهم<sup>(٤)</sup>.

والأمر الذي لا شك فيه كذلك أن موقعة طريف عام ٧٤١هـ/١٣٤٠م والتي هزم فيها المسلمون، وقتل منهم عدد جم قد سقط فيها عدد آخر منهم أسرى في أيدي النصارى، كما سقط معسكر سلطان المغرب أبي الحسن في يد النصارى، وفيه حريمه وحشمه وبعض أولاده، فذبخوا جميعاً بوحشية مروعة، وقد حدث وقتئذ أن الأمير تاشفين ابن السلطان أبي الحسن جمع فرقة من الجيش، وهاجم النصارى في جانب منهم، ولكنه غلب كذلك على أمره، وسقط هو الآخر أسيراً في أيديهم<sup>(٥)</sup>. وفي عام ٨٣٥ هـ/١٤٣١ م هاجم النصارى

(١) ففي خريف سنة ٦٤٤هـ/١٢٤٦م حشد ملك قشتالة فرناندو الثالث قواته، وسار متجهاً نحو إشبيلية، وأخذ ينتسف الزروع، ويخرب الضياع، وعلى مقربة من قرمونة وافاه حليفه محمد بن الأحمر في قوة من خمسمائة فارس، وسار الجميع نحو قلعة جابر، وأقنع ابن الأحمر حاميتها بالتسليم، ثم بعث بحملتين: إحداهما لكى تعبر الوادي الكبير غرباً، وتخرب فحص الشرف الممتد أمام إشبيلية، والأخرى تخرب فحص شريش، ولكن ورد خير وفاة والدته، فانصرف ملك غرناطة بقواته، وأمر باختتام الغزو. (راجع مؤلف مجهول، الذخيرة السنوية، ص ٧٢، ص ٧٣، عنان، دولة الإسلام، ج ٦، ص ٤٧٤).

(٢) قنطلانة cantillana: تقع شمالي إشبيلية على نهر الوادي الكبير (عنان، دولة الإسلام، ج ٦، ص ٤٧٦، حاشية ٣).

(٣) عنان، دولة الإسلام، ج ٦، ص ٤٧٦.

(٤) مؤلف مجهول، الذخيرة السنوية، ص ١١٢.

(٥) ابن الخطيب، اللحة البدرية، ص ١٠٥، ص ١٠٦، ابن خلدون، العبر، ج ٤، ص ٢٠٩، المقرئ، نفح

الطيب، ج ٥، ص ١٥، السلاوي، الاستقصا، ج ٣، ص ١٣٧.

أراضي المسلمين، وقصدوا أحواز رندة، فهرع السلطان الأيسر إلى لقائهم، واستطاع أن يردهم في البداية، ولكن ملك قشتالة خوان الثاني قدم بعدئذ بنفسه بقوات كبيرة، وزحف على حصن اللوز وأرشدونة، وعاث في تلك المنطقة، ثم عاد إلى قرطبة ومعه الكثير من الأسرى والغنائم (١).

ويذكر كذلك أنه لما توفي خوان الثاني ملك قشتالة عام ١٤٥٤/هـ/١٨٥٩م وخلفه ولده هنري الرابع Enrique IV (٨٥٩-٨٧٩ هـ) (١٤٥٤-١٤٧٤ م) (٢) رفض ابن إسماعيل الاعتراف من جانبه بحماية ملك قشتالة له، وقام وأغار على الأراضي القشتالية فسار ملك قشتالة إلى أراضي غرناطة في جيش ضخم، وعاث فيها، وخرّب المروج والضياع وقتل وأسر وسبى من أهلها جموعاً كبيرة، وكان ذلك في عام ٨٦٠ هـ/١٤٥٦ م (٣). ويذكر أنه لما فتح النصراني مدينة الحامة عام ٨٨٧ هـ/ فبراير سنة ١٤٨٢ م، أمعنوا في أهلها قتلاً وأسرًا وسبياً (٤)، كما أن موقعة اللسانة قد قتل وأسر فيها الكثير من المسلمين، وكان من بين أسرى المسلمين سلطان غرناطة نفسه أبو عبد الله محمد الصغير (٥)، ويذكر في هذا

(١) عنان، دولة الإسلام، ج٧، ص ١٥٨، (1232- Rachel Arie, el Rino Nasri de Granada 1492) Madrid, 1992, p. 232.

(٢) هنري الرابع Enrique IV (٨٥٩-٨٧٩ هـ) (١٤٥٤-١٤٧٤ م): يذكر أنه لما توفي خوان الثاني في ٨٥٩ هـ/ يوليو ١٤٥٤ م، خلفه ولده هنري على عرش قشتالة، وكان أميراً ضعيفاً منحللاً، حتى إنه لقب بالعاجز، وكان عصره عصر فوضى وركود، وكان من أعظم الحوادث في عصره استيلاؤه على جبل طارق نهائياً من أيدي المسلمين عام ٨٦٧ هـ/ ١٤٦٢ م، توفي هنري الرابع في سنة ٨٧٩ هـ/١٤٧٤ م بعد أن حكم مملكة قشتالة لأكثر من عشرين عاماً. عن هنري الرابع انظر: عنان، دولة الإسلام، ج٧، ص ١٧٥، ص ١٧٦، العبادي، دراسات، ص ٤٦٢.

(٣) عنان، دولة الإسلام، ج٧، ص ١٦٤، ص ١٦٥، يوسف شكري فرحات، غرناطة، ص ٤٦، مارمول، إفريقيا، ج٢، ص ٤٢٠.

(٤) مؤلف مجهول، نبذة العصر، ص ٨، ص ٩.

(٥) المصدر السابق، ص ١٢، عن رحلة الرحالة المصري عبد الباسط المسماة بالروض الباسم، (G.levi della vida, il Regno Di Granata. P. 328) المقري، نفع الطيب، ج٤، ص ٥١٥،

السلوى، الاستقصا، ج٤، ص ٣٢، العبادي، دراسات، ص ٤٦٥.

الصدد أيضاً، أن فرناندو الخامس ملك قشتالة أثناء حصاره لغرناطة، بعث جنده إلى حقول البشرات القريبة، فأتلف زروعها، وهدم قراها وأمعن في أهلها قتلاً وأسراً<sup>(١)</sup> ولم يقتصر الأمر على تلك الغزوات والمعارك، فقد كانت غارات النصارى وكما تنتهم تخرج إلى المدن الأندلسية المختلفة من حين إلى آخر؛ لتأسر عدداً آخر من المسلمين، فعندما زار الرحالة المصرى عبد الباسط الأندلس يذكر في كتابه المسمى الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم " أنه يوم الثلاثاء سادس وعشرين جمادى الأولى من سنة ٨٧٠هـ/١٤٦٥م، هجم جمع من الفرنج البرطقال على بعض الطواحين خارج مالقة، فأسروا عدة من المسلمين ممن كان بالطاحون المذكور، ثم ورد الخبر بأن أسيراً من الكفار ممن أسلم بهذه البلاد ثم هرب من مالقة هو الذي أتى دليلاً مع هؤلاء الكفار بعد ارتداده، وفعل معهم ما فعل لهذه الطاحون".<sup>(٢)</sup> وقد أشار ابن بطوطة أيضاً إلى أنه عندما زار مملكة غرناطة، ونزل بمدينة مالقة، رأى أربعة أجفان<sup>(٣)</sup> نصرانية ظهرت هنالك، ونزل بعض من عمارتها إلى البر في منطقة سهيل بين مربلة Marbella<sup>(٤)</sup> ومالقة، فمر بهم فرسان خارجون من مربلة، وكانوا اثني عشر فارساً، فقتل النصارى أحدهم وفر واحد وأسروا العشرة الباقين<sup>(٥)</sup>، كذلك اشتمت حركة القراصنة من الأسباب المسيحية ضد المسلمين، ووفرت العديد من هؤلاء الأسرى؛ إذ كانت الطرق البحرية خلال تلك الفترة غير مأمونة الجانب، وكانت محفوفة بالمخاطر والمصاعب من قطع وأسر وغرق للسفن وغيره، فيذكر أنه عندما خرج إبراهيم بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم رسولاً من قبل سلطان غرناطة محمد الخامس إلى صاحب تلمسان السلطان أحمد بن موسى بن يوسف بن زيان (٧٦٠ - ٧٦١هـ)

(١) مؤلف مجهول، نبذة العصر، ص ٣٧، السلاوي، الاستقصا، ج ٤، ص ١٠٣.

(٢) رحلة عبد الباسط المسماة بالروض الباسم، G.levi Della vida, il Regno Di Granata. P. 312

(٣) الأجفان: نوع من المراكب وهناك منها نوعان: الأجفان الغزوية، والأجفان الأخرى التى تستخدم لنقل الخيل (أحمد محمد الطوخي، مظاهر، ص ٢٥٠).

(٤) مربلة Marbella: مدينة صغيرة ويحيط بها سور من بناء الأول، وبها جبل منيف عال، ولها عمارات وأشجار، وتشتهر بالتين، وتقع إلى الجنوب الغربى من مالقة (الإيريسى، نزهة المشاق، ج ٢، ص ٥٧٠، ياقوت، معجم البلدان، ج ٥، ص ٩٩، الحميرى، صفة، ص ١٨٠).

(٥) ابن بطوطة، تحفة النظر، ص ٢١٨.

(١٣٥٨ - ١٣٥٩ م)، أسر ومن كان معه بالأسطول من المسلمين، ففداهم السلطان بسبعة آلاف من الذهب العين<sup>(١)</sup>، وأن محمد بن عبد الرحمن بن سعد التميمي الكرسوطي كان من أهل فاس قد أسر ببحر الزقاق، وهو قادم إلى الأندلس في جملة من الفضلاء منهم والده<sup>(٢)</sup>.

رابعًا: عملية افتداء الأسرى المسلمين في أيدي النصارى منذ بداية عصر بني الأحمر  
١٢٣٧هـ/١٢٣٧م حتى سقوط غرناطة ٨٩٧هـ/١٤٩٢م

كان أمراء غرناطة وسلاطينها حريصين على فك أسرى المسلمين من يد من أسرهم يوضح هذا الأمر ذلك العدد الكبير من الرسائل التي وجهها سلاطين غرناطة إلى ملوك أراجون يحثونهم فيها على البحث عن هؤلاء الأسرى المسلمين الذين أسروا عن طريق هؤلاء القراصنة وتسريحهم، ومن ذلك على سبيل المثال رسالة بعث بها السلطان الغرناطي أبو الحجاج يوسف الأول ملك أراجون بيدرو الرابع Pedro IV (٧٣٧ - ٧٩٠هـ) (١٣٣٦ - ١٣٨٧م)<sup>(٣)</sup> مؤرخة في ٢٣ من محرم عام ٧٣٨ هـ/١٣ أغسطس ١٣٣٧م يخبره فيها أن مجموعة من القراصنة الأراجونيين أخذوا جملة من المسلمين أسرى مطالبًا ملك أراجون أن يرد الأسرى وما أخذ من المسلمين<sup>(٤)</sup>.

(١) ابن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص ٣٦٣، ص ٣٦٤.

(٢) المصدر السابق، ج٣، ص ١٣٣.

(٣) بيدرو الرابع Pedro IV (٧٣٧ - ٧٩٠هـ) (١٣٣٦ - ١٣٨٧م): اعتلى بيدرو الرابع عرش مملكة أراجون بعد وفاة والده ألفونسو الرابع عام ٧٣٧ هـ/١٣٣٦ م، وطال حكمه حتى سنة ٧٩٠هـ/١٣٨٧م؛ إذ استطاع خلال حكمه الطويل هذا أن ينتزع الجزائر الشرقية من يد ابن عمه خايمي الثالث، كذلك ظفر بيدرو باسترداد صقلية في سنة ٧٧٩ هـ/١٣٧٧ م، ومنح حكمها لابنه مرتين، ثم تدخل في الصراع الذي نشب في قشتالة بين هنري دي ترانستار وأخيه بيدرو القاسي، وانحاز إلى جانب هنري دي ترانستار، وعاونه بالمال والجهد حتى جلس على عرش قشتالة، توفي بيدرو الرابع ومملكة أراجون أوفر ما تكون قوة واستقرارًا. عن بيدرو الرابع، انظر: عنان، دولة الإسلام، ج٧، ص ١٧٧، ص ١٧٨.

(٤) عن هذه الرسالة انظر: عمر سعيدان، العلاقات، ج١، الوثيقة رقم ٥٢، ص ٣٠١ - ص ٣٠٦، محمد كمال شبانة، يوسف الأول، الوثيقة رقم ٢١، ص ٤٨٩، ص ٤٩٠، Alarcon y Linares, Los Documentos Arabes, p.104.

وفي ١٥ رجب من عام ٧٣٩هـ/ ٢٧ يناير ١٣٣٩م بعث السلطان الغرناطي أبو الحجاج يوسف الأول برسالة أخرى إلى ملك آراجون بيدرو الرابع، يذكر فيها أنه حدثت في هذه الأيام بساحل القبطة من أحواز المرية أن غرقت قرقورة<sup>(١)</sup> كانت خارجة من المرية تتوجه إلى العدو، ولما قضى الله بغرقها، كانت مقربة من الساحل، فخرج الذين نجوا من الغرق إلى الساحل، فصادفوا بها جفنين حربيين، تعرفنا أنهم وعمرتهما من أهل أرضكم، وأخذ أهل الجفنين جميع المسلمين والنصارى الذين سلموا من الغرق أسرى<sup>(٢)</sup> كما وجه سلطان غرناطة محمد الخامس رسالة إلى بيدرو الرابع ملك آراجون مؤرخة في ١٨ صفر من عام ٧٧٦هـ/ ٢٦ مايو ١٣٧٧م يطلب فيها أن ترد آراجون أسرى المسلمين المأخوذون في غراب<sup>(٣)</sup> المدينة، وكان عددهم أربعة وعشرين من سكان مملكته<sup>(٤)</sup>.

وقد استمرت عمليات القرصنة حتى القرن (٩هـ - ١٥م) يؤكد ذلك الأمر أنه في عام ٨١٨هـ/ ١٤١٥م وجه السلطان يوسف الثالث احتجاجًا شديد اللهجة إلى ملك آراجون فرناندو الأول؛ لأن رجاله أسروا بعض المسلمين وشحنة مهمة من سفينة غرناطية عند مضيق جبل طارق، كما أسروا اثنين وعشرين من رعايا المملكة وثلاثة رجال كانوا يعملون بحراسة ساحل طريف<sup>(٥)</sup>.

وهناك أيضًا تلك المعاهدة التي عقدها محمد الرابع ابن إسماعيل الأول مع خايمي الثاني والتي حرص فيها على تأكيد منع القطع والتعرض للأجفان المسلمين أو الاستيلاء على ما

(١) قرقورة: مركب بحري كبير وسريع استخدم لنقل المؤن (محمد ياسين الحموي، تاريخ الأسطول العربي، دمشق، ١٩٤٥م، ص ٣١، أحمد محمد الطوخي، مظاهر، ص ٢٥١).

(٢) عمر سعيدان، العلاقات، ج١، الوثيقة رقم ٥٣، ص ٣٠٧-٣١٠، محمد كمال شبانة، يوسف الأول، الوثيقة، رقم ٢٢، ص ٤٩١، ص ٤٩٢، p. Alarcon y Linares, Los Documentos Arabes, 106.

(٣) الأغرية: مفردها غراب، وهي من السفن الحربية شديدة البأس، إذ كانت تظلي بالقار، وتسير بالقلع والمجاديف. (السيد عبد العزيز سالم وأحمد مختار العبادي، البحرية في مصر والشام، ج١، ص ١٣٢، درويش النخيلي، السفن الإسلامية، ص ١٠٤، أحمد محمد الطوخي، مظاهر ص ٢٥٠، ص ٢٥١).

(٤) Alarcon y Linares, Los Documentos Arabes, p. 416.

(٥) Rachel Arie, El Rino Nasri de Granada, p. 247

فيها أو الإغارة على الحراس والأراضي وأسر المسلمين أو النصارى التابعين للبلدين<sup>(١)</sup> . ومثل ذلك نصوص المعاهدة التي عقدت بين محمد بن يوسف الثاني سلطان غرناطة ومرتين ملك أراجون وولده مرتين ملك صقلية التي ذكرناها من قبل، وبها عدد كبير من البنود تخص الأسرى لدى الطرفين<sup>(٢)</sup> ، كما شملت معاهدة تسليم غرناطة العديد من البنود الخاصة بالأسرى المسلمين، منها أنه إذا كان هناك مسلم أسير، وفر إلى مدينة غرناطة أو البيازين أو أرباضها أو غيرها، فإنه يعد حراً، ولا يسمح لأحد بمطاردته ولا سبيل لمالكة عليه، والسلطان يدفع ثمنه لمالكة إلا إن كان من العبيد أو من الجزائر، وأن يفرج الملكان عن الأسرى المسلمين، سواء أكانوا ذكوراً أم إناثاً من أهل غرناطة والبيازين وأرباضهما وأراضيهما إفرجاً حراً من دون أية نفقة من فدية أو غيرها<sup>(٣)</sup> ، وأن يكون الإفراج عن من هؤلاء الأسرى في الأندلس في الخمسة أشهر التالية، أما الأسرى الذين بقشتالة فيفرج عنهم خلال الثمانية أشهر التالية، وبعد يومين من تسليم الأسرى النصارى لجلالتيهما يفرج عن مائتين من الأسرى المسلمين، وبعد التسليم أفرج الملكان الكاثوليكيان عن رهائن المسلمين الخمسمائة وفي مقدمتهم ولد أبي عبد الله، وأفرج المسلمون من جانبهم عن الأسرى النصارى وعددهم نحو سبعمائة أسير رجالاً ونساءً، وتعهد القشتاليون من جانبهم أن يطلقوا سراح الأسرى المسلمين في سائر مملكة قشتالة في ظرف خمسة أشهر، بالنسبة للأسرى الموجودين بالأندلس، وثمانية أشهر بالنسبة للأسرى الموجودين في بقية أراضي قشتالة<sup>(٤)</sup> .

ولم يقتصر الأمر عند النصارى في فك أسراهم على المعاهدات والاتفاقات بينهم وبين سلاطين غرناطة، حيث أسهم الأشراف والنبلاء ورجال الدين النصارى في هذا الاقتداء،

(١) المرجع السابق، ج١، الوثيقة رقم ٢٧، ص١٧٣-ص١٧٩.

(٢) عنان، دولة الإسلام، ج٧، ص١٥٢، ص١٥٣، Alarcon y Linares. Los documentos Arabes, p. 173.

(٣) المقري، نفع الطيب، ج٤، ص٥٢٦.

(٤) انظر عن بعض هذه الشروط: السلاوي، الاستقصاء، ج٤، ص١٠٤، ص١٠٥، عنان، دولة الإسلام، ج٧، ص٢٤٩، ص٢٦١، Las Capitulaciones Para La Entrega de Granada, Por

Miguel Garrido Atienza, Granada, p.269-295.



ولم يقتصر الأمر عند المسلمين على الاتفاقات والمعاهدات والمراسلات، حيث أسهم أهل البر والصلاح من النبلاء ورجال الدين والأشراف من المسلمين في عملية اقتداء الأسرى المسلمين، مثل ما يذكر عن أم العلاء العبد ربه (ت ٦٤٧هـ/١٢٤٩م) كانت كثيرة الجهد في اقتداء الأسرى؛ إذ لجأت إلى تونس مع والدها، وانقطعت لتدريس البنات وحفظ القرآن، وكانت مليحة الخط نسخت بخطها مراراً كتاب (أحياء علوم الدين) للغزالي، وخصصت ما تتقاضاه من أجر لفك فقراء المسلمين وأسراهم من قيد النصارى<sup>(١)</sup>. وكان محمد بن أحمد بن محمد الدوسي من أهل غرناطة، ويكنى أبا عبد الله ويعرف بأبي قطبة مطبوعاً على الفضيلة كهفًا للغرباء والقادمين مألّفًا للمتعلمين، ثملاً للأسرى والعانيين تخلص منهم على يديه أمم<sup>(٢)</sup>، كذلك يذكر عن محمد بن محمد بن عبد الرحمن التميمي من تونس نزول غرناطة أنه عندما توفي في ربيع الثاني من سنة ٧١٥هـ/١٣١٥م، قصد قبره المرضى وأهل الحاجات، وبقي القراء يقرعون القرآن على قبره مدة طويلة، وأنه تصدق على قبره بجملة من مال، ففدى به طائفة من الأسرى المسلمين<sup>(٣)</sup> ويحدثنا ابن بطوطة أن سكان مالقة قد اجتمعوا بالجامع الأعظم ومعهم الفقهاء، يجمعون المال برسم فداء الأسارى الذين ذكرناهم من قبل<sup>(٤)</sup>، وأن أهل شريش نجحوا في فك عدد من أسرى المسلمين من أهل مدينة سلا، طالبين الأجر والثواب من ربه<sup>(٥)</sup>، بل نجد هبة من ثلاثة عشر ديناراً، كانت

(١) ابن عبد الملك المراكشي، النيل والتكملة، السفر الثامن، القسم الأول، ص ٤٨٧، ص ٤٨٨.

(٢) ابن الخطيب، الإحاطة، ج ٣، ص ١٥٩.

(٣) ابن الخطيب، الإحاطة، ج ٣، ص ٢٧١ - ص ٢٧٣.

(٤) يقول ابن بطوطة: "ولما دخلت مالقة، وجدت قاضيها الخطيب أبا عبد الله ابن خطيبها أبي جعفر ابن خطيبها ولي الله تعالى أبي عبد الله الطنجالي قاعداً بالجامع الأعظم ومعه الفقهاء ووجوه الناس، يجمعون مالاً برسم فداء الأسارى الذين تقدم ذكرهم، فقلت: الحمد لله الذي عافاني ولم يجعلني منهم". (ابن بطوطة، تحفة النظائر، ص ٢١٩، ص ٢٢٠).

(٥) ففي عام ٦٥٨هـ/١٢٦٠م تمكن القشتاليون في عهد ألفونسو العاشر من الاستيلاء على مدينة سلا، ولكن السلطان يعقوب بن عبد الحق المريني تمكن من محاصرة القشتاليين بمدينة سلا، وضيق عليهم، وقد أيقن القشتاليون باستحالة الاحتفاظ بسلا؛ ولذا كانوا يخرجون الأسرى من أهلها والأموال والأمتعة إلى سفنهم المرابطة أمام سواحلها، وانسحبوا منها يوم الأربعاء الرابع عشر من شوال سنة ٦٥٨هـ/الثاني والعشرين من شهر سبتمبر سنة ١٢٦٠م بسرعة نون أن يتزودوا بالماء ولا الطعام، ووصلت منهم سفينة إلى مدينة العرائش لتزويدهم بالماء، فعجزوا، فحاولوا شراءه بما لديهم من أسرى المسلمين، فوافق أهل =

مخصصه لافتداء أسير<sup>(١)</sup>، ويذكر أن رجلاً جنوبياً يدعى أستيفان دوريا من المقربين لدى السلطان محمد الثامن استطاع افتداء عدد من رعايا السلطان الغرناطي، كانوا قد وقعوا في الأسر في يد ملك البرتغال<sup>(٢)</sup>، كذلك فك اثنان من الفكاكين أسر رجل يدعى أحمد بن أحمد البسطى من يد من أسره<sup>(٣)</sup>. ومن الطرق الأخرى التي كانت تؤدي إلى الافتداء ما كان مبنياً على الجهود التي يبذلها الأسير لنفسه، هذا يعنى أن الأسير كان يحاول بمختلف الطرق جمع المال اللازم الذى يتطلبه تحرير رقبته، ففي وثيقة ترجع لعام ٧٠٣ هـ/١٣٠٣م، يصرح قاض مسلم لإسيرين مسلمين يرخص لهما أخذ الزكاة من الجماعات الإسلامية في مملكة بلنسية تحت حكم ملك أراجون، بقصد جمع المبلغ المالي؛ لافتداء أنفسهما<sup>(٤)</sup>، كذلك كان من الممكن للأسير أن يكتسب هذا المبلغ المالي عن طريق عمل معين ولمدة محدودة يصبح من بعدها حرًا، وعندنا مجموعة من الصكوك التي توضح ذلك؛ إذ يذكر أن أحد الراهبات اشترطت على أسيرين مسلمين لديها أن يقوموا بخدمتها في جمع الكرم الذي لديها، وأن يخدموا الأرض لمدة خمسة أعوام متوالية، وبعد تلك المدة، يصيران أحرارًا كسائر أحرار المسلمين من أهل ملتهم، وصك آخر تشترط فيه الراهبة نفسها على بعض الأسرى المسلمين لديها أن يقوموا بالخدمة في أرضها لمدة ثمانية أعوام متوالية في جمع الكرم بحومة قرينتها، فإن هربوا كلهم أو أحدهم، أو خالطوا قوم سوء، أو وجدوا في

---

=العرائش على تزويدهم بالماء مقابل إطلاق سراح ثلاثة وخمسين أسيراً، وقيل إن ألفونسو العاشر قرر حرق رؤسائهم؛ بسبب هذه المغامرة الفاشلة، فلما علم قائدهم خوان غرسية بذلك فر في ثلاث سفن إلى الألبونة (ابن عذارى، البيان، القسم الموحدى، ص٤١٨- ص٤٢٣، ابن أبى زرع، روض القرطاس، ص٣٠١، مؤلف مجهول، الذخيرة السنوية، ص١٠٣، ص١٠٤، السلاوى، الاستقصا، ج٣، ص٢١، ص٢٢، غنان، دولة الإسلام، ج٦، ص٥٤٨- ص٥٥٠، حمدى عبد المنعم، المغرب والأندلس، ص٥٢٤ - ص٥٢٨)

(١) أحمد محمد الطوخي، مظاهر الحضارة، ص١٤٣.

(٢) المرجع السابق، ص١٤٣.

(٣) نفسه، ص١٤٣.

(٤) Alarcon y Linares, Los Documentos Arabes, pp.402-404, n° 157

سرقه، يخسروا ما كان لهم، ويرجعوا للأسر، وتاريخ هذا الصك يرجع إلى عام ٦٨٥هـ/١٢٨٦م. (١)

أما عن قيمة الفدية لافْتداء أي أسير، فكانت تختلف من عصر إلى آخر ومن شخص إلى آخر، فيذكر د. الطوخي أنه لافْتداء أسير في القرن التاسع الهجري (١٥م)، كان يدفع من ١٣٠ إلى ٢٠٠ درهم من الفضة، وكانت تكاليف تحرير عقد قسمة يرتفع إلى ٣٠٠ درهم من الفضة (٢). ، ويوضح قيمة الفدية التي تدفع لفك أسر الشخص العادي في هذا العصر، ما يذكر من أنه لما افتتح فرناندو الخامس مدينة مالقة، عد أهلها المسلمين رقيقاً يجب عليهم اقتداء أنفسهم ومتاعهم، ففرض على كل مسلم أو مسلمة مهما كانت سنه أو ظروفه، الأحرار منهم والعبيد الذين في خدمتهم فدية النفس والمتاع قدرها ثلاثون دويلاً (٣). من الذهب الوزن اثنين وعشرين قيراطاً، أو ما يوازي هذا القدر من الذهب والفضة واللائي والحريز (٤).، وعندنا وثيقة كذلك تتحدث عن أسر لبعض الأندلسيين من أهل المرية، وقد أخذوا إلى برشلونة، وعن قيمة افتدائهم يذكر أن حسناً الوهراني كان من أهل المرية أخذ ماله الرايس بالجفن، وأسر وأفتك بأربعين ديناراً من الذهب العين، وأن محمد بن سعد المعروف بخريصة من أهل المرية أخذ ماله صاحب الجفن، وأسر وأفتك بخمسة وأربعين ديناراً من الذهب العين، وأن محمد بن علي الرومي أخذ ماله وأسر وأفتك بثلاثين ديناراً (٥). يتضح من ذلك أن متوسط سعر الفدية للرجل العادي في هذا العصر تتراوح ما بين ثلاثين

(١) انظر عن هذه الصكوك: شكيب أرسلان، الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، ج١، ص ٤٠١-٤٠٣.

(٢) أحمد محمد الطوخي، مظاهر الحضارة، ص ٢٦٠.

(٣) دويلة Doubla أو Doublon: لفظ كانت تطلقه الوثائق المسيحية على الدنانير الذهبية؛ وذلك لأن الدينار الموحدى كان ضعف الدينار العادى في الوزن؛ ولذا عرف باسم Doubla عند النصارى (ابن يوسف الحكيم، الدوحة المشتبكة في ضوابط دار السكة، تحقيق د.حسين مؤنس، مدريد، ١٩٦٠، ص ١١١، حاشية ١، أحمد محمد الطوخي، مظاهر الحضارة، ص ٢٧٢)

(٤) عنان، دولة الإسلام، ج٧، ص ٢١٧، وعن سقوط مالقة انظر: مؤلف مجهول، نبذة العصر، ص ٢٤، ص ٢٥.

(٥) عمر سعيدان، العلاقات، ج١، الوثيقة رقم ٦٢، ص ٣٥٠-٣٥٤، محمد كمال شبانة، يوسف الأول، الوثيقة رقم ٢٥، ص ٤٩٦.

إلى خمسين دينارًا ذهبيًا،<sup>(١)</sup> ويبدو أنها قيمة مرتفعة نسبيًا، يؤكد ذلك أن موظفًا غرناطيًا يدعى عيسى بن إدريس قد وقع في الأسر في أرجون في عهد خايمة الثاني لم يستطع أن يسدد قيمة فديته التي قدرت بخمسة آلاف دويلة،<sup>(٢)</sup> وأن مقاتلاً غرناطيًا يسمى محمد بن محمد بن سهل قد ظل في الأسر مدة طويلة حتى دفعت له الفدية المطلوبة<sup>(٣)</sup>.، وأن محمد بن سودة بن إبراهيم بن سودة المرى أسر هو وأولاده، ويبدو أنه لم يستطع فكهم، فمات أسفًا لما جرى عليهم<sup>(٤)</sup>، ويبدو أن قيمة الفدية تحدد حسب أهمية الشخص الاجتماعية، فمثلًا عندما أسر سلطان غرناطة أبو عبد الله محمد، لم تقتصر قيمة الفدية لإطلاق سراحه على الأموال فقط، بل اشتملت كذلك على العديد من الشروط الأخرى<sup>(٥)</sup>، وقد يطلق سراح الأسير برهن، بمعنى أن يطلب من الأسير الانتلاق إلى بلده؛ لتأمين ثمن الفدية، في مقابل ارتهان أبنائه أو ذويه.

(١) وعندنا أيضًا وثيقة مؤرخة بتاريخ ٢٨ رجب سنة ٧٤٥ هـ/ الموافق ٥ ديسمبر سنة ١٣٤٤م توضح قيمة تلك الفدية، وهي عبارة عن رسالة بعث بها يوسف الأول إلى بيدرو الرابع ملك أرجون يذكر فيها أن بعض القراصنة القطلانيين قد أغاروا على جفن الزجاج، وأخذوا من أهل المرية شخصين يدعى أحدهما على بن بكرون الصايغ، والآخر سعيد بن أحمد الحجام، وقد اشتراهما نصراني من بلنسية، وقداهما باثنين وخمسين دينارًا ذهبيًا عيّنًا، فطالب يوسف الأول بيدرو الرابع بإنصاف الأسيرين وإرجاع الفدية المقبوضة والمحددة باثنين وخمسين دينارًا من الذهب العين، وينضح من ذلك أن قيمة الفدية للشخص الواحد بلغت مابين ٢٨ و ٣٢ دينارًا ذهبيًا. (عمر سعيدان، العلاقات، ج١، الوثيقة رقم ٦٥، ص ٣٣٨- ص ٣٤٠)

(٢) أحمد محمد الطوخي، مظاهر الحضارة، ص ١٤٢. F.D.Gazulla, La redencion de cautivos entre los musulmanes, en(B.R.A.B.L)t. Barcelona,1927-1928,pp.239-240

(٣) أحمد محمد الطوخي، مظاهر الحضارة، ص ١٤٢.

(٤) ابن الخطيب، الإحاطة، ج٣، ص ١٨٢.

(٥) أدرك ملكا قشتالة ما لهذا الأمير من أهمية، وأخذًا يديران أفضل الوسائل للاستعانة به، وبعد إمعان البحث والتدبير روى أن يفرج عن الملك الأسير لقاء أفضل الشروط التي يمكن الحصول عليها في تحقيق مأربهما في مملكة غرناطة، ومنها أن يعترف أبو عبد الله بطاعة الملك فرناندو وزوجته أيسابيللا وأن يدفع لهما جزية سنوية قدرها اثنا عشر ألف دويل من الذهب، وأن يفرج في الحال عن أربعمئة من أسرى النصراني الموجودين في غرناطة، يختارهم ملكهم، ثم يطلق كل عام سبعين أسيرًا لمدة خمسة أعوام، وأن يقدم أبو عبد الله ولده الأكبر رهينة مع عدد آخر من أبناء الأمراء والأكابر، وضمائمًا لذلك تعهد الملكان الكاثوليكيان من جانبهما بالإفراج عن أبي عبد الله فورًا، وأن يعاوناه في فتح المدن الثائرة عليه في مملكة غرناطة، وأن تستمر الهدنة لمدة عامين من تاريخ الإفراج عن السلطان الأسير. عن هذه الشروط انظر: عنان، دولة الإسلام، ج٧، ص ٢٠٤، ص ٢٠٥.

### الخاتمة:

وهكذا استمرت حركة الأسر ما بين الطرفين المسلم والنصراني حتى سقوط آخر معقل للمسلمين في الأندلس، ونعني به غرناطة، وسقوط غرناطة في أيدي الأاسبان ينتهي الحكم الإسلامي في الأندلس، ويصبح المسلمون الذين فضلوا البقاء في الأندلس تحت رحمة هؤلاء النصارى؛ لتبدأ مأساة أخرى عرفت باسم مأساة الموريسكين أو العرب المتصرين.

### قائمة المصادر والمراجع

#### أولاً المصادر العربية:

- ابن الآبار (أبو عبد الله محمد بن عبد الله القضاعي) ت ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م الحلة السيراء، تحقيق د. حسين مؤنس، ط ١، ١٩٦٣.
- ٥- التكملة لكتاب الصلة، تحقيق السيد عزت العطار، ١٩٥٥، ابن بشكوال (أبو القاسم خلف بن عبد الملك) ت ٥٧٨ هـ / ١١٨٣ م
- ابن حزم (أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد الأندلسي) ت ٤٥٦ هـ / ١٠٦٤ م جمهرة أنساب العرب، تحقيق عبد السلام محمد هارون، ط ٤، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٧؛ تحقيق ليفي بروفنسال، دار المعارف، القاهرة، ١٩٤٨.
- ابن حيان (أبو مروان حيان بن خلف بن حيان القرطبي) ت ٤٦٩ هـ / ١٠٧٩ م، المقتبس (السفر الثاني)، تحقيق، د. محمود علي مكي، ط ١، الرياض، ٢٠٠٣.
- المقتبس في أخبار بلد الأندلس تحقيق، د عبد الرحمن حجي، بيروت، ١٩٨٣. ابن خرداذبه (عبيد الله بن عبد الله) عاش في القرن ٣ هـ / ٩ م. المسالك والممالك، ليدن، ١٨٨٩.
- ابن الخطيب (لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله) ت ٧٧٦ هـ / ١٣٧٤ م، أعمال الأعلام فيمن بويغ قبل الإحتلام من قبل ملوك الإسلام وما يجر ذلك من شجون الكلام أو تاريخ أسبانيا الإسلامية.
- القسم الثاني الخاص بالأندلس، نشر ليفي بروفنسال، بيروت، ١٩٥٦. الإحاطة في أخبار غرناطة، نشر وتحقيق الأستاذ محمد عبد الله عنان، القاهرة، ١٩٧٥. ج ٣، ص ٤٦٦؛
- ابن خلدون (أبو زيد عبد الرحمن بن محمد) ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من نوى السلطان الأكبر، بيروت ١٩٦٨. المقدمة، المكتبة التجارية .

- ابن خلكان (شمس الدين أبو العباس) ت ٦٨١ هـ / ١٢٨٢ م، وفيات الأعيان وأنباء الزمان، بيروت ١٩٧١
- ابن عبد البر (أبى عمر يوسف بن عبد البر النمري القرطبي) ت ٤٦٣ هـ / ١٠٧٥ م، القصد والأمم في التعريف بأصول انساب العرب والعجم، القاهرة، ١٣٥٠ هـ.
- ابن عبد الحكم (أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن الحكم القرشي) ت ٢٥٧ هـ / ٨٧١ م، فتوح افريقية والمغرب والأندلس، تحقيق عبد الله أنيس الطباع، بيروت، ١٩٦٤.
- ابن عبد ربه (أحمد بن محمد الأندلسي) ت ٣٤٩ هـ / ٩٤٠ م، العقد الفريد، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٢.
- ابن عذارى (أبو العباس احمد) ت بعد عام ٧١٢ هـ / ١٣١٢ م :
- ٣٦ - البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب الجزء الأول والثاني نشر كولان وليفي بروفنسال، ط ٣، ١٩٨٣.
- ابن القوطية (أبو بكر محمد بن عمر القرطبي) ت ٣٦٧ هـ / ٩٧٧ م، تاريخ افتتاح الأندلس تحقيق إبراهيم الابياري، بيروت، ط ٢، ١٩٨٩
- ابن النديم (محمد بن إسحاق) ت ٣٨٣ هـ / ٩٩٣ م، الفهرست، بيروت، ١٩٧٨
- الإشبيلي ت ٥٧٥ هـ / ١١٧٩ م، فهرسة ابن خير، بيروت، ١٩٨٩.
- الأصطخري (إبراهيم بن محمد الفارسي الأصبخري المعروف بالكرخي) كان حيا في النصف الأول من القرن الرابع الهجرى / ١٠ م، المسالك والممالك تحقيق محمد جابر عبد العال الحسيني، مراجعة محمد شفيق غريال، ١٩٦١.
- البكري (أبو عبد الله عبد الله بن عبد العزيز المرسى) ت ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م، جغرافية الأندلس وأوريا تحقيق د. عبد الرحمن حجي، بيروت، ١٩٦٨.
- الحميدى (أبو عبد الله محمد بن أبى نصر الازدى) ت ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م، جذوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس وأسماء رواة الحديث وأهل الفقه والأدب وذوى النباهة والشعر، تحقيق محمد بن تاويت الطنجي، ١٩٥٢.

- الحنبلي (أبي الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي) ١٠٨٩هـ/١٦٨٣م، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، بيروت، د.ت
- الذهبي (الحافظ شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد ان) ٧٤٨هـ/١٣٤٧م، العبر في خبر من غبر، بيروت، ١٩٨٥، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير حوادث وفيات ٢٣١-٢٤٠هـ، ٢٦١-٢٨٠هـ، تحقيق د. عمر عبد السلام تدمر، دار الكتاب العربي، ط٣، ١٩٩٣.
- الرقيق القيرواني (أبو إسحاق إبراهيم بن القاسم) ت في منتصف القرن ٥هـ/ ١١م، تاريخ إفريقية والمغرب تحقيق د. عبد الله العلي الزيدان ود. عز الدين عمر موسى، ط١، ١٩٩٠.
- الزهري (أبو عبد الله محمد بن أبي بكر) ت أواسط القرن ٦هـ/ ١٢م، الجغرافية تحقيق محمد حاج صادق، نشر مكتبة الثقافة الدينية، بدون تاريخ.
- صاعد الاندلسي (أبي القاسم صاعد بن احمد) ٤٦٢هـ/١٠٧٠م، طبقات الأمم، تحقيق وتعليق د. حسين مؤنس، دار المعارف، ١٩٩٣.
- الصفدي (صلاح الدين خليل بن أيبك) ت ٧٦٤هـ/١٣٦٣م، الوافي بالوفيات، طبعة فرانز ستايز بفسبادن، ١٩٧٤،
- الضبي (أبو جعفر احمد بن يحيى القرطبي) ت ٥٩٩هـ/١٢٠٣م، بغية الملتمس في تاريخ أهل الأندلس، بيروت، ١٩٨٩.
- المقرئ (شهاب الدين أحمد بن محمد التلمساني) ت ١٠٤١هـ/١٦٣١م، فح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب تحقيق د. إحسان عباس، بيروت، ١٩٦٨.
- مؤلف مجهول، ذكر بلاد الأندلس، تحقيق لويس ولينا، مدريد، ١٩٨٣.
- اليعقوبي (احمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب) ت ٢٨٢هـ/٨٩٥م، كتاب البلدان، دار التراث العربي، ط١، ١٩٨٨.



### ثانياً:- المراجع العربية الحديثة والمعربة:

- أبو الفضل (د. محمد احمد) ، دراسات في تاريخ وحضارة الأندلس ، دار المعرفة الجامعية ، ١٩٩٦
- الجبوسى (سلمى الخضراء) الحضارة العربية في الأندلس ، مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٩٨ .
- الحجي (د.عبد الرحمن علي) العلاقات الدبلوماسية بين الأندلس وبيزنطة حتى نهاية القرن الرابع الهجري، صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمديرد، ١٩٨٤، المجلد ٢٢
- حسين (د.حمدي عبد المنعم ) التاريخ السياسي لقلعة رباح ودورها في حوادث الصراع بين المسلمين والنصارى ، مجلة كلية الآداب، جامعة الإسكندرية ، ١٩٩٣، تاريخ وحضارة المغرب والأندلس ، دار المعرفة الجامعية ، ٢٠٠٥ .
- حومد (أسعد) محنة العرب في الأندلس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ط ٢ ، ١٩٨٨ .
- خليل (منى محمود) رسالة ماجستير غير منشورة بعنوان دور طليطلة في العلاقات بين ملوك الطوائف حتى سقوطها على يد الفونسو السادس ( ٤٢٨ - ٤٧٨ هـ / ١٠٣٦ - ١٠٨٥ م ) ، إشراف د . أحمد إبراهيم الشعراوي، كلية الآداب، جامعة عين شمس ، ٢٠٠٧ .
- الشيخ (محمد محمد مرسى) الفرنجة وعلاقتها بالأمويين في الأندلس حتى أواخر القرن العاشر الميلادي ، نشر مؤسسة الثقافة الجامعية ، ١٩٨١ .
- صبره (عفاف): دراسات في تاريخ الحروب الصليبية، دار الكتاب الجامعي ، ١٩٨٥ .
- العبادى (د.أحمد مختار) صور من حياة العرب والجهاد، منشأة المعارف ، الإسكندرية، ط١ ، ٢٠٠٠، في تاريخ المغرب والأندلس ، دار المعرفة الجامعية ، ط ٢ ، الإسكندرية ، ٢٠٠٥ .

- عبد الحلیم (د. رجب محمد) العلاقات بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية في عصر بنى أمية وملوك الطوائف ، دار الكتاب المصرى ، ١٩٨٥
- عويس (د. عبد الحلیم) العصبية القومية وأثرها سقوط الأندلس ، دار الصحوة ، ١٩٩٤ ، ١٩٨٠
- كحيلة (عباده عبد الرحمن رضا) تاريخ النصارى في الأندلس ، ط ١ ، ١٩٩٣
- المجالى (د. سحر عبد المجيد مناور) تطور الجيش العربى في الأندلس ، عمان ، ١٩٩٦ .
- مونتغمرى وات ، في تاريخ أسبانيا الإسلامية ، ترجمة محمد رضا المصرى ، بيروت ، ط ٢ ، ١٩٨٨ .

#### المراجع الأوربية

- F.simonte,Historia de Mozarabes Espana,P.788 Los, Collectanea Christiana Orientalia (2006), pp. 105-142; ISSN 1697-2104
- Fernandes (Luis suarez) Junall La frontera de Granada,
- J.Ramos, loscertales elcautiverio enla corona de Aragon, pp. 185-186.
- J.cossio, cautivos de Moros en siglo XIII,
- Leopoldo Torres balbás, las Mazmorras de la Alhambra, Al - Andalus, vol IX, 1944, Fasc.I.



**أحباس أهل الذمة في الأندلس من خلال كتب النوازل والفتاوى**  
**نوازل المعيار المعرب للونشريسي أنموذجاً منذ عصر الطوائف حتى سقوط مملكة**  
**غرناطة ٤٢٢هـ- ١٠٣١م/٨٩٧هـ- ١٤٩١م**

**د. شيماء عبد الحميد البنا**

مدرس بكلية الآداب - جامعة دمنهور

**ملخص:-**

شجع الاسلام الأحباس واستجاب المسلمون لذلك لما يعود على بلادهم من منافع ولسد احتياجات كثيرة إضافة إلى الغرض الأساسي منها وهو التقرب إلى الله عز وجل، مع الحرص على وضع قيود وضوابط لحماية الأحباس من الطامعين. والغريب هنا اندراج أهل الذمة في هذا العمل الخيري فما المقصود من هذا؟ وهل أحباسهم هذه خالصة لوجه الله؟ فهذا البحث يتناول بعض النوازل التي تخص أحباس أهل الذمة في الأندلس، وهي عبارة عن عدة نوازل متنوعة متعلقة بهم، وقد قُمت بجمعها من خلال كتب النوازل خاصة كتاب المعيار المعرب للونشريسي ثم العمل على دراستها وتحليلها. وقد انقسم البحث إلى قسمين مهمين الأول: منهما يتعلق ببعض النوازل المتعلقة بأهل الذمة والمسلمين، والقسم الثاني: فهو يختص أهل الذمة فقط.

وقد ركزت الدراسة على تعريف الأحباس لغة واصطلاحاً، والتعرض في سياق الحديث إلى معنى الوقف وإبراز الفرق ما بين الأحباس والأوقاف، مع الإشارة إلى السبب في إثثار التعبير بالأحباس بدلاً من الأوقاف .

كما أوضحت الدراسة الشروط الواجب توافرها في الحبس وهل الحبس يقتصر على فئة من المجتمع دون غيرها ومن هي هذه الفئة؟ وما هي أنواع الأحباس؟ وهل شملت أحباس أهل الذمة في الأندلس كل هذه الانواع؟ أم اقتصر على نوع واحد؟ مع الإشارة إلى الدوافع من وراء تلك الأحباس؟ كما تناولت الدراسة قضية هل أحباس أهل الذمة كانت موقوفة على كنائسهم فقط؟ أم استفاد منها المسلمون أيضاً؟



### **Abstract:-**

Imprisonment of the people of dhimma in Andalusia through the books of calamities and fatwas The calamities of the expressive standard of Luncharisi as a model since the era of sects until the fall of the Kingdom of Granada 422 C E-1031 AH/897 C E - 1491 C E

Islam has encouraged Hobbes, and Muslims have responded to this because of the benefits they bring to their country and to meet many needs, in addition to their main purpose, which is to draw close to God Almighty, while ensuring that restrictions and controls are put in place to protect Hobbes from covetous people. What is the point? And are they held exclusively for God's sake? This research deals with some of the hostels of the people of Al-Dhamma in Al-Andalus, and they are related to them, and I collected them through the books of hostels, especially the book of the Arab standard for the Ansherism, and then worked on studying and analyzing them. It is divided into two sections, the first of which concerns the Muslims and the first of which concerns the Muslims. The study focused on defining Ahbass as a language and a term, exposing in the context of conversation to the meaning of endowment and highlighting the difference between Ahbass and endowment, noting why the expression Ahbass is preferred rather than endowment. The study also clarified the conditions for incarceration and whether incarceration was confined to one group in society alone. And did the dynasties of Andalusia include all these types? Or just one species? With reference to the motives behind those locks.

### المقدمة :-

يعتبر موضوع أحباس أو أوقاف أهل الذمة الأندلسيين من المظاهر الحضارية المهمة، التي اهتمت بها الدولة، وأولت أراضيه عناية كبيرة، وجعلت له إدارة خاصة، كما أنه إشارة واضحة تؤكد صورة من صور التسامح التي كانت سائدة في المجتمع الأندلسي بين أفرادها وفي تلك الفترة بالتحديد. كما أنها صورة من صور التعاون التي تحفظ التوازن والاستمرارية بين المسلمين وأهل الذمة. كما أن لأحباس دوراً كبيراً في توطيد العلاقات الاقتصادية والاجتماعية وتعزيزها بين المسلمين وأهل الذمة وقبول كل منهما للآخر.

علماً بأن الأحباس منها ما هو أحباس أهلية ومنها ما هو أحباس خيرية. ومن ناحية أخرى، تجيب الدراسة على تساؤلات كثيرة منها هل هناك تشابه بين أحباس المسلمين وأحباس أهل الذمة؟ وما أوجه الاختلاف بينهما؟. وهل أوقاف أهل الذمة مشروطة أي لها شروط؟.

ومن الأسئلة المهمة أيضاً التي يجيب عنها البحث هي ما مصير أحباس النصراري الذين هاجروا من الأندلس لبلاد المغرب؟ وكيف تعاملت الدولة الإسلامية معهم؟. وهل لأحباسهم حرمة مرعية أم لا؟.

### الفترة الزمنية :-

وقع الاختيار على الفترة الزمنية من ٤٢٢هـ/١٠٣١م حتى عام ٨٩٧هـ/١٤٩١م بالتحديد لسببين مهمين الأول منهما أنها الفترة التي تحدث فيها الونشريسى عن أحباس أهل الذمة في الأندلس، والسبب الثاني؛ لأن معظم أحباس أهل الذمة في الأندلس تمتد منذ عصر الطوائف وحتى سقوط بنى الأحمر في غرناطة مما



دفعني إلى تحديد تلك الفترة الزمنية التي أوردتها الفقهاء في نوازلهم<sup>(١)</sup> منذ القرن الخامس الهجري والحادي عشر الميلادي وحتى القرن التاسع الهجري والخامس عشر الميلادي.

### المنهج المتبع في البحث :-

اعتمد البحث على المنهج التاريخي القائم على استنباط الحقائق من خلال عرض نوازل تختص بأحباس أو أوقاف أهل الذمة في الأندلس وتحليلها .

### الدراسات السابقة:-

أما الدراسات السابقة التي تناولت موضوع الدراسة منها بحث بعنوان "قراءة في أوقاف أهل الذمة بالأندلس" للدكتور عبيد بوداود<sup>(٢)</sup> وهو عبارة عن بحث مكون من خمس صفحات استعرض فيه الباحث باختصار شديد بعض قضايا أهل الذمة في الأندلس التي تخص أحباسهم دون الدخول في تلك الأحباس .وعلى هذا قمت بعرضها وتحليلها من خلال كتاب المعيار . كما كان من الدراسات التي استفدت منها أيضاً بحث بعنوان الأحباس في الأندلس للدكتور كمال أبو مصطفى<sup>(٣)</sup>، الذي تناول فيه بعضاً من أحباس أهل الذمة في الأندلس.

<sup>(١)</sup> ولابد هنا من الإشارة إلى تعريف كلمة "نوازل" ومفردتها "نازلة" ويقصد بها الفتاوى أو الأحكام المستخرجة من أجوبة بعض الفقهاء على مسائل وجهت إليهم ،وتفيد في التاريخ الاجتماعي ومن أهمها ديوان الأحكام الكبرى لأبي الأصبغ عيسى بن سهل ت ٤٨٦هـ، ومن هنا نجد أن تعريف النوازل لغة يعنى فهم الشيء، واصطلاحاً معرفة الأحكام الشرعية العلمية بأدلتها التفصيلية، والنازلة في القديم تختلف عن الحديث فعند القدماء تعنى الشديدة من شدائد الدهر تتل بالناس، وعند الحديث تعنى الوقائع والمسائل المستجدة والحادثة التي تحتاج إلى حكم شرعي، وبذلك نجد فقه النوازل بأنه معرفة الحوادث التي تحتاج إلى حكم شرعي .أبو عيسى المهدي الوزاني: النوازل الصغرى المسماة (المنح السامية في النوازل الفقهية)، تحقيق محمد السيد عثمان ،الجزء الأول دار الكتب العلمية ،ص٥٦/ عبادة كحيلية: تاريخ النصارى في الأندلس ،الطبعة الأولى، ١٩٩٣م، ص١١٣.

<sup>(٢)</sup> عبيد بوداود، قراءة في أوقاف أهل الذمة بالأندلس، مجلة الناصرية، العدد السابع، مخبر البحوث الاجتماعية والتاريخية.

<sup>(٣)</sup> كمال السيد أبو مصطفى: الأحباس في الأندلس ضمن كتاب بحوث في تاريخ وحضارة الأندلس في العصر الإسلامي ،مركز الاسكندرية للكتاب، ١٩٩٧.



### ينقسم البحث إلى محورين مهمين :-

#### المحور الأول يتناول :-

#### أولاً:- تعريف الأحباس لغة :-

حَبَسَهُ - حَبْسًا : منعه وأمسكه وسجنه ،وبالنسبة للشيء :وقفه لا يُباع ولا يُورث وإنما تُملك غَلْتَه ومنفعتَه (٤).

ويقول الزبيدي أن الحَبْسُ: هو كل شيءٍ وقفه صاحبه وفقاً محرماً لايباع ولا يورث من نخل أو كَرْمٍ أو غيرها كأرض أو مُستغل يُحْبَسُ أصله وتُسَبَلُ غَلْتَه تقريباً لله تعالى . فقال النبي ص لِعُمَرَ في نَحْلٍ له أراد أن يتقرب بصدقته إلى الله عز وجل ،فقال له "حَبَسِ الأَصْلَ وَسَبِلِ الثَّمَرَ . أي اجعله وقفاً حَبْساً(٥).

والحَبْسُ هو اللفظ الاصطلاحي عند المالكية واستعمل في المغرب والأندلس في العصر الإسلامي، أما في المشرق فيطلق عليه الوقف ويعرف بأنه مؤسسة ينشئها شخص حر التصرف في ماله فينزل عن حقه في الانتفاع بدخل المؤسسة ويخصص هذا الدخل لأغراض حميدة مشروعة تخصيصاً أبدياً ويقال أن هذا النظام بيزنطي الأصل ولكن الواقع أننا نراه قائماً في العالم الإسلامي منذ البدء (٦).

(٤) اهتمت النولة بأراضي الأحباس، فأُنشئت لها إدارة خاصة بها ضمتها إلى القضاء ،فيكون القاضي هو المشرف على ولاية الأحباس ، يختار من يثق فيهم ويحسن الظن بهم فيوليهم إياها . ابن منظور : لسان العرب ، مادة حبس ،بيروت ،١٩٦٨، ص٤٥.

مجموعة من المؤلفين: المعجم الوسيط، مادة حبسه، حرف الحاء، ص١٥٢؛ خالد عبد الكريم بن حمود البكر، النشاط الاقتصادي في الأندلس في عصر الإمارة ١٣٨-٣١٦هـ/٧٥٥-٩٢٨م، مكتبة الملك عبد العزيز العامة، الرياض، ١٩٩٣م، ص١١٧.

(٥) محمد مرتضى الحسيني الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق التزوي وحجازي والطحاوي والعزباوي، راجعه عبد الستار أحمد فراج، الجزء الخامس عشر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ص٥٢٢-٥٢٣.

(٦) ليفي بروفنسال، سلسلة محاضرات عامة في أدب الأندلس وتاريخها، ترجمة عبد الهادي شعير، جامعة الاسكندرية، ١٩٥١، ص٨٣؛ كمال السيد أبو مصطفى: بحوث في تاريخ وحضارة الأندلس في العصر الإسلامي مركز اسكندرية للكتاب، ١٩٩٧م، ص١٦٠.



والوقف في الشريعة الإسلامية صدقة محرمة لا تباع ولا تشتري ولا توهب ولا تورث ويُصرف ريعها إلى جهة من جهات البر، وقد يلاحظ أن الوقف قد اقتصر تأثيره منذ البداية على الناحيتين الاجتماعية والاقتصادية من حيث متحصلات الأوقاف أصبحت تقوم بدور الصدقة في مجال التضامن الاجتماعي. فضلاً عن نفقات المساجد والجموع<sup>(٧)</sup>. وقد استعمل الفقهاء مادتي "حبس" و"وقف" في التعبير عن الوقف. فاستعملت كلمات حبس أو أحبس ووقف وأوقف للفعل، ووقف وحُبس للاسم وجمعت على أوقاف وأحباس<sup>(٨)</sup>.

والأوقاف "الأحباس" الأندلسية كانت نوعين: أحدهما يسمى الوقف الخيري وهو الذي يكون ابتداء وانتهاء على جهة البر والخير كالوقف على المساجد والمدارس ومكاتب الأيتام والأرطبة والأسبلة وغيرها، أما الوقف الأهلي فيكون ابتداء على الواقف ثم نريته لحين انقراضهم ومن بعدهم لجهة من جهات البر<sup>(٩)</sup>

ومما لا شك فيه أن أهل الذمة في الأندلس كانت لديهم أحباس كثيرة ومتنوعة حُبست لصالح جهات عدة وشأنهم في ذلك شأن المسلمين، حيث كان لأهل الذمة وبالتحديد المعاهدين منهم العديد من الأحباس، خاصة في غرناطة Granada<sup>(١٠)</sup> وإشبيلية Sevilla، وهي موقوفة على كنائسهم وكان رهبان وأساقفة هذه الكنائس لا عيش

(٧) محمد أمين: الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر ٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م دراسة تاريخية وثائقية، دار النهضة العربية، القاهرة، ص ١.

(٨) علماً بأنه لا يجوز تحويل أرض الأحباس عما وضعت له، وليس لأحد أن يدخل في حوزته شيئاً من منافعتها. والتزم المرابطون وفقهاء وقتهم هذه القاعدة، فلم يجوزوا أخذ مال حبس على مسجد لإصلاح آخر وإن كان على وجه السلف. عز الدين أحمد موسى: النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري، ص ١٥٦؛ منذر قحف: الوقف الإسلامي تطوره إدارته، متمينه، دار الفكر، دمشق، ٢٠٠٠، ص ٥٤.

(٩) محمد أمين: الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر دراسة تاريخية وثائقية، دار النهضة العربية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٨٠، ص ٧٢؛ كمال أبو مصطفى: بحوث في تاريخ وحضارة الأندلس في العصر الإسلامي، ص ١٦٦-١٦٧.

(١٠) غرناطة: من أشهر بلاد الأندلس، وقيل: إن الصواب أغرناطة ومعناها بلغتهم الزمانة وكفاها شرفاً ولادة لسان الدين بها. المقري: نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، الجزء الأول، ص ١٤٧.





لهم إلا من ريع هذه الأحباس<sup>(١١)</sup> فهناك على سبيل المثال كنيسة الغراب<sup>(١٢)</sup> الواقعة قرب مدينة شلب Silves<sup>(١٣)</sup> كان لها أموال يتصدق بها عليها ويشير إلى ذلك الإدريسي<sup>(١٤)</sup>:  
(هذه الكنيسة من عهد الروم وإلى اليوم لم يتغير حالها، ولها أموال يتصدق بها عليها وكرامات يحملها الروم الواردون عليها، وعلى رأس الكنيسة عشرة أغربة لا يعرف أحد فقدها ولا عهد زوالها وقسيسو الكنيسة يُخبرون عن تلك الأغربة بغرائب يتهم المخبر بها ولا سبيل لأحد من المجتازين بها أن يخرج منها حتى بأكل من ضيافة الكنيسة ضريبة لازمة وسيرة دائمة لا ينتقلون عنها ولا يتحولون منها ورثها الخلف عن السلف أمر معتاد متعارف دائم والكنيسة في ذاتها عامرة وبها أموال مدخرة وأحوال واسعة وأكثر هذه الأموال مُحبسة عليها في أقطار الغرب وبلادها وينفق منها على الكنيسة وخدامها وجميع من يلود بها مع ما يُكرم به الأضياف الواردين على الكنيسة المذكورة)<sup>(١٥)</sup>.

(١١) عبد المطلب مصطفى رجب مظهر: أهل النمة في الأندلس خلال الحكم الأموي عصري الإمارة والخلافة، رسالة ماجستير في جامعة اليرموك، ١٩٩٩، ص ٥٥.

(١٢) كنيسة الغراب: تقع في الأندلس على جبل توجد منقورة من الصخر في الجبل وعليها قبة كبيرة وعلى القبة غراب وفي مقابلة الكنيسة مسجد يزوره الناس ويقولون أن الدعاء فيه مستجاب وقد شرط على القسيسين الذين يسكنون تلك الكنيسة ضيافة كل مسلم يقصد ذلك المسجد. القرويني: آثار البلاد وأخبار العباد، ١٨٤٩م، ص ١٢٠.

(١٣) شلب: من بلاد الأندلس، وهي قاعدة كورة أكشونية، وهي مدينة بقلبي مدينة ياجة، ولها بسائط فسيحة، وبطائح عريضة؛ ولها جبل عظيم منيف، كثير المسارح والمياه وأكثر ما بنيت فيه شجر النفاح العجيب، يتضوع منه روائح المود. وعليها سور حصين، ولها غلات وجنات، وشرب أهلها من واديهما الجاري إليها من جهة جنوبها، وعليه أرجاء البلد، والبحر منها في الغرب على ثلاثة أميال، والعود بجبالها كثير، يُحمل منها إلى كل الجهات؛ والمدينة في ذاتها حسنة الهيئة، بديعة البناء، مرتبة الأسواق، وأهلها وسكان قراها عرب من اليمن وغيرها، وكلامهم بالعربية الفصحى. الإدريسي: صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس مأخوذ من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ليدن، مطبعة بريل، ١٨٩٣م، ص ١٨٠، ١٧٩؛ الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق احسان عباس، الطبعة الثانية، بيروت، ١٩٨٤م، ص ٦٩؛ حسين مؤنس: تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، الطبعة الثانية، مكتبة مدبولي، ١٩٨٦م، ص ١٥٥، ١٥٢.

(١٤) الإدريسي: صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس، ص ١٨٠-١٨٢.

(١٥) انتشرت أحباس المعاهدة في البلاد الأندلسية بأسرها حسب ما كشفت القضايا المترتبة عن تغريب المعاهدة إلى البلاد الغربية في إمارة علي بن يوسف ويذكر الإدريسي أن أحباس كنيسة الغراب بين شلب وقصر أبي دانس تنتشر في غرب الأندلس كله. الإدريسي: المصدر السابق، ص ١٨٠-١٨٢؛ كمال السيد أبو مصطفى: بحوث في تاريخ وحضارة الأندلس في العصر الإسلامي، مركز الإسكندرية للكتاب، ١٩٩٧، ص ١٨٥؛ عز الدين أحمد موسى، النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري، دار الشروق، الطبعة الأولى، ١٩٨٣م، ص ١٥٥.



علماً بأن أحباس كنيسة الغراب التي تقع بين شلب وقصر أبي دانس<sup>(١٦)</sup>

Alcacer do Sal كانت تنتشر في غرب الأندلس بصفة خاصة<sup>(١٧)</sup>.

مما سبق يتضح لنا أن الأحباس هنا خاصة بأهل الذمة من النصارى الاسبان وكانوا ينتفعون بها دون غيرهم حيث خصصت أحباس كنيسة الغراب للإتفاق عليها وعلى العاملين بها والواردين إليها من عابري السيل، وهنا يتبين لنا أن لهذه الكنيسة مكانة خاصة لدى النصارى الأمر الذي جعلهم لا يكتفون بتخصيص هذه الأحباس لها، بل حرصوا أيضاً على إمدادها بالكثير من الأموال والأعطيات مما يفسر لنا الدور الكبير الذي كانت تقوم به تلك الكنيسية من اتفاق وكرم ضيافة بلا حدود لكل الوارد عليها من المسيحيين أو المسلمين على السواء.

### المبحث الأول:-

#### أحباس اليهود في الأندلس:-

يذكر الونشريسي<sup>(١٨)</sup> في إحدى نوازله أن يهودياً حبس على ابنته وذريتها عقاراً

فإذا انقضوا رجع حبساً على مساكين المسلمين يلونه في العقد في البلدة.

ويتضح لنا من تلك النازلة أن هذا الحبس هنا أعم وأشمل لما فيه من إفادة كبيرة

تعود على أهل الذمة والمسلمين من قبل أهل الذمة، فهو يجسد صورة من صور التعايش

السلمي والتسامح بين المسلمين وأهل الذمة بصفة عامة.

وتضيف النازلة ثم إن رجلاً له جاه أو سلطان أجبر المحبس على أن يبيع نصف

الحبس الموصوف فباعه وبقى بيده، ثم قام الآن المحبس أو المحبس عليه وسألوا عن هذه

المسألة فأجاب: نقض البيع واجب، ورد المبيع إلى الحبس لازم للمرجع الذي فيه ولو لم

يجب لموجب نقضه إن ثبت الإكراه على البيع؛ لأن بيع المكره لا يلزم ولا يجوز<sup>(١٩)</sup>.

(١٦) قصر أبي دانس: من أشهر المدن التي تقع بغربي الأندلس.

الحميري، صفة جزيرة الأندلس، ص ١٠٦.

(١٧) عز الدين أحمد موسى: المرجع السابق، ص ١٥٥.

(١٨) الونشريسي: المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، إشراف محمد حجي،

الجزء السابع، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية للمملكة المغربية، ١٤٠١هـ/١٩٨١م، ص ٥٩-٦٠.

(١٩) الونشريسي: المصدر السابق، ج ٧، ص ٥٩-٦٠.



وهذا يعني أن نوري الجاه والنفوذ بالبلدة أراد أن يشتري نصف الحبس بالإكراه وباعه المُحبس له وظل في يد الظالم، ولكن صاحب الحبس أراد نقض البيع، وعندما عرضت القصة على أهل الفتوى أجازوا بأنه يمكنه الرجوع فيه وهذا جائز. وواجب وارجاع الحبس لصاحبه وهذا لازم؛ لأنه بيع بالإكراه.

ونستنتج من نازلة أخرى أن يهوديان حبسا جنة أي بستانٍ ثم قاما ببيعها وأفتى الفقهاء بأن بيعهما نافذ وصحيح قد باعا الجنة التي حبسهاها، فبيعهما جائز نافذ وصحيح، وغير قابل للفسخ، أما إذا كان المحبس الواقف مسلماً وحبس على ذريته، فحبسه لازم على عكس حبس اليهوديين الذي لا يعتد به والذي ألغى بيعهما الجنة (٢٠).  
وقال الخصاص (٢١):

أنه إذا أوقف رجل من أهل الذمة نصرانياً كان أو يهودياً أو مجوسياً أرضاً له أو عقاراً على ولده وولد ولده ونسله وعقبه أبداً ما تناسلوا وجعل آخر ذلك للمساكين فذلك جائز قلت فهؤلاء المساكين، من هم قال من يسميهم الواقف قلت: فإن لم يسميهم قال فأبي المساكين فرق ذلك فيهم، فهو جائز، فإن فرق ذلك في مسكين المسلمين، فهو جائز وإن فرق ذلك في مساكين أهل الذمة فهو جائز.

وفي نهاية القول يتضح لنا أن الحبس ونقض البيع صحيحان.

#### القضايا التي تعرضت لأحباس اليهود في الأندلس:-

متمثلة في طلب الفتوى في بيت متهدم بين دار حسان ودار شنوغة (٢٢) اليهود:  
وتتلخص تلك القضية في أن رجلاً من أهل قرطبة يدعى حسان كان يمتلك داراً داخل

(٢٠) ابن سهل: وثائق وأحكام قضايا أهل الذمة في الأندلس، تحقيق محمد عبد الوهاب خلاف، ص ٦٠-٦٣؛ عبد المطلب مصطفى رجب مظهر: أهل الذمة في الأندلس خلال الحكم الأموي عصري الإمارة والخلافة (١٣٨هـ-٤٢١هـ/٧٥٦م-١٠٣٠م، رسالة ماجستير بجامعة اليرموك، ١٩٩٩، ص ٥٧-٥٨.  
(٢١) أبو بكر أحمد بن عمرو الشيباني المعروف بالخصاص: أحكام الأوقاف، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ص ٣٣٥.

(٢٢) شنوغة: هي بيعة اليهود وكنيستهم، وفي الإسباني "Sinagoga". والمقصود بها بيت عبادة اليهود ومعناها أصلاً مكان الاجتماع، وقد خصص المكان بعد ذلك بمكان اجتماع اليهود للعبادة. ابن سهل: وثائق وأحكام قضايا أهل الذمة في الأندلس، ص ٦٠/ عبد العالی الودغيري، دراسات معجمية نحو قاموس عربي تاريخي وقضايا أخرى، ٢٠٠١، ص ٦١.



مدينة قرطبة بحومة أي بحي مسجد صواب ملاصقة لأخرى موقوفة - محبوسة - على شنوغة اليهود، وأن الحائط الحاجز الفاصل بين الدارين، تهدم على أثر تهدم بيت صغير في الداخل (٢٣).

فلما شرع حسان في إقامة الحائط الحاجز، اعترض إسحاق اليهودي بدعوى أن البيت المتهم من حقوق دار الشنوغة فرجع حسان الأمر إلى صاحب السوق (٢٤) المحتسب أبي طالب محمد ويدعى ابن مكي (٢٥) وأبرز عقداً بملكيتة لهذه الدار ثابت به أن الدار المذكورة من أملاكه ودلل على هذه الملكية بإثباته العقد المشار إليه لدى القاضي أبي المطرف بن سوار (٢٦) قاضى الجماعة بقرطبة الذي توفي، وتبين أن العقد يتضمن في نهايته إشارة إلى أن البيت المتهم داخل في حيازة حسان وعلى ظهر العقد إعدار من القاضي إلى إسحاق اليهودي بما ثبت عنده في العقد. وقد كلف القاضي حساناً إثبات الإعدار الوارد بظهر العقد، فأثبت ذلك وأعذر القاضي إلى إسحاق بذلك (٢٧).

وقد أجاب حسان بأنه لا دليل لديه على ما تقدم واستمهل القاضي أجلاً لكونه لم يستطع خلال المهلة الممنوحة له من قبل أن يأتي إلا بشاهدين أحدهما هو صاحب السوق أبو طالب محمد بن مكي، فانقضى الأجل ولم يأت بالدليل المطلوب. واستجلى صاحب السوق رأي المشاورين في الأمر. فكان رأى الفقيه محمد بن فرج (٢٨) أن يقضى بملكية الدار موضوع النزاع وجوباً لحسان إذا لم يثبت اليهودي ملكيته وعجز عن إقامة

(٢٣) ابن سهل: وثائق وأحكام، ص ٢٥-٢٦.

(٢٤) كان يعرف عند ابن سهل بصاحب الحسبة، لأن أكثر نظرة فيما جرى في الأسواق من غش وخديعة وتفقد المكابيل والموازن، وكان تعينه وعزله من اختصاص القاضي. ابن سهل: المصدر السابق، ص ٦٠.

(٢٥) أبو طالب محمد بن مكي بن مختار القيسى من أهل قرطبة يكنى أبا طالب ولى أحكام الشرطة والسوق بقرطبة مع الإحباس وأمانة الجامع. ابن سهل: المصدر السابق، ص ٦١.

(٢٦) هو عبد الرحمن بن سوار قاضى الجماعة بقرطبة ولاة المعتمد على الله قضاء الجماعة بقرطبة ٤٦٤ هـ وكان من أهل النكاء واليقظة والنباهة والمعرفة والصلابة في الأحكام مع الدين والفضل والتواضع. ابن سهل: المصدر السابق، ص ٦١.

(٢٧) ابن سهل: المصدر السابق، ص ٢٥-٢٦.

(٢٨) هو الفقيه أبو عبد الله محمد بن فرج مولى الطلاع. محدث ومقدم في الفتوى بقرطبة، كان عالماً توفى سنة ٤٩٧ هـ. ابن سهل: وثائق، ص ٦٣.

الدليل وذهب رأى القاضي صاحب السوق إلى أنه لا يقضى بملكية البهو لا لحسان ولا لسواه تأسيساً على أن العقد الذى يستند حسان إليه في إثبات ملكيته هو عقد غير كامل ينقصه أحد أركانه وشرائطه ،ومن ثم لا يصلح دليلاً كافياً لإثبات ملكيته لحسان، كما أن اليهودي قد عجز عن إقامة الدليل من جانبه على ملكيته للبهو المتنازع عليه لا يصح أن يقضى له بملكيته لانعدام السند المؤيد لا دعائه .وقد جرى التداول في فقدان العقد لأحد أركانه وشرائطه فرؤى تكليف حسان إثبات ملكيته ولو أن أحد الآراء اتجه إلى اعتبار العقد الذى بيد حسان عقداً يصلح دليلاً كاملاً على الملكية (٢٩).

ويتضح لنا مما سبق عدة أمور الأول: منها أن هذه المسألة تُجيب عن سؤال عُرض في المقدمة وهى أنه لا يجوز بيع الحبس والتصرف فيه على غير الوجه الذى أُعد له. والثاني: أن الخلاف كان بين أحد المسلمين وأحد اليهود وقد احتكم في هذا الأمر إلى القاضي المسلم الذى لم يتردد لحظة في تطبيق العدالة وأكبر دليل على ذلك أنه كان من الممكن أن يحكم للمسلم لمجرد رؤيته العقد ولكنه رفض الحكم لحسان لمجرد علمه بأن العقد ينقصه شيء وهو الدليل أو الحجة مع الملكية .

أما عن تحبيس اليهود على مساجد المسلمين:- فيرى بعض الفقهاء أنه لا يجوز حيث تذكر نازلة أن يهودياً حبس داراً له على مسجد بقرطبة .

والمقصود هنا أن اليهود يوقفون ويخصصون مالاً من أموالهم يُصرف منه على رعاية مساجد المسلمين والاعتناء بها.

وسئل أبو عمران القطان (٣٠) عن يهودي حبس داراً على مسجد بقرطبة .

وهذا يعنى أن أحد اليهود إما أن يكون خصص موقع الدار ذاته لبناء مسجد للمسلمين

عليه أو أنه وقف ريع هذه الدار ليصرف على المسجد المذكور وهذا أقرب للصواب .

(٢٩) ابن سهل: المصدر السابق، ص ٢٥-٢٦.

(٣٠) هو أحمد بن محمد بن عيسى بن هلال المكنى بأبي عمر القطان قرطبي ذائع الصيت في فقهاها، كان عالماً وزعيم المفتين بها.. ابن بشكوال: الصلة، تحقيق إبراهيم الإيبارى، الجزء الأول، دار الكتب المصري، القاهرة، ص ١٠٩.



فأجاب: (لا يجوز، وخرج ذلك من المدونة في كتاب الجهاد، حين ذكر عن النبي ص "إنا لا نستعينُ بمشركٍ" ثم باعه، فقال: روى عيسى عن ابن القاسم فيما باعه الأسقف من أرض الكنيسة أن ذلك له جائز إذا كانوا يؤدون ما عليهم من الجزية، ولعل من أشار بإجازة بيع حبس الكفار ورأى فسخ البيع في ذلك إنما ذهب إلى رواية أصبغ<sup>(٣١)</sup> عن ابن القاسم فيما باعه الأسقف من أرض الكنائس وأحباسها أن ذلك لا يجوز شراؤه لمسلم، فإنما ذلك لأن البائع هو غير المُحبس فصار من باب التظالم، وقال أصبغ في ذلك: إن حاكم المسلمين لا يحكم في منع بيع ذلك ولا رده إن بيع ولا إنفاذ حبسه ولا جوازه ولا يسعه ذلك، وحسبك بياناً أن العتق أعظم حرمة من هذا، وأن النصراني إذا أعتق عبده النصراني ولم يبين عنه ولا خرج عن ملكه حتى أسلم العبد وأراد بيعه كان ذلك له ولم يمنع منه، والذي أراه في هذه المسألة ألا يجوز شيء من تحبيس اليهودي. والله عز وجل يقول (ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يُقبل منه، وهو في الآخرة من الخاسرين)<sup>(٣٢)</sup>.

ما سبق يتضح لنا عدة أمور مترتبة على بعضها البعض:

- لا يجوز أن يُوقف اليهودي ريع ليصرف منه على المسلمين ولا على دور عبادتهم والاستدلال هنا بعموم الحديث؛ لأن أي استعانة منهم ممنوعة..
- كما إنه ليس من حق الحاكم المسلم أن يتحكم في أحباس اليهود ولا في منع بيعها وإن وقع البيع وعلم بذلك ليس له حق في رده.
- وخلاصة القول: إن الله عز وجل طيب لا يقبل إلا طيب ولذا لا يجوز تحبيس شيء من اليهود لمساجد المسلمين.

وقال الخصاف في هذه القضية<sup>(٣٣)</sup> (أن الذمي الذي يجعل داراً له مسجد للمسلمين وبناءه كما تبنى المساجد، وأشهد عليه وأخرجه عن ملكه وأذن للناس أن يصلوا

<sup>(٣١)</sup> هو القاضى أبو الأصبغ عيسى بن سهل الأندلسي، الجباني المالكي أصله من قرية وادي عبد الله من أعمال جيان، كان من جلة الفقهاء حافظاً للرأي عارفاً بالنوازل تولى قضاء غرناطة . تفقه بمحمد بن عتاب توفي ٤٨٦هـ. لمزيد من التفاصيل انظر . الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج١٩، ص٢٥؛ كمال أبو مصطفى: المرجع السابق، ص١٨٧.

<sup>(٣٢)</sup> الوثنربيسى: المعيار المعرب، ج٧، ص٦٥-٦٦.

<sup>(٣٣)</sup> الخصاف: أحكام الأوقاف، ص٣٣٦.



فيه قال: هذا عندنا قرية إلى الله عز وجل يتقرب به المسلمون، أما أهل الذمة، فليس هذا قرية عندهم، وعلى ذلك، فإنه إذا أوصى يهودي أو نصراني أن تبني داره مسجداً بعد موته فإن ذلك لا يجوز).

ولكن مذهب المالكية وهو السائد في المغرب والأندلس أباحوا الوقف على كل مالٍ معصية فيه، كما أجازوا مثل الشافعية وقف المسيحي أو اليهودي على المسجد؛ لأنه قرية في نظر الإسلام وإن لم يكن كذلك في نظر الواقف. وقد قال بعض الفقهاء بصحة الوقف على أهل الذمة؛ لأنه يجوز التصدق عليهم<sup>(٣٤)</sup>.

وفى نهاية القول يتضح لنا أن حبس النمي على المسلمين محل خلاف بين الفقهاء بين مانع ومجيز، فهناك أناس يقولون أنه غير جائز لعدة أسباب سبق ذكرها، ولكن البعض الآخر مثل: المالكية والشافعية وبعض الفقهاء أجازوا وقف أهل الذمة لعدة أسباب:-

**الأول:** منها أنه ليس هناك أي معصية في الحبس .

**والثاني:** أنه قرية في نظر الإسلام حتى ولو كان ذلك على غير غرض المحبس .

**والثالث:** أنه يجوز التصدق عليهم .

**حرمة أحباس أهل الذمة في الأندلس:**

أفادت إحدى نوازل المعيار للونشريسي نقلاً عن القاضي عياض ت ١١٤٩/هـ ١١٤٩م<sup>(٣٥)</sup> أن أحباس أهل الذمة لا حرمة لها، ويجوز تحويلها إلى بيت مال المسلمين.

<sup>(٣٤)</sup> فقد روى أن صفية بنت حبي زوج رسول الله (ص) وقفت على أخ لها يهودي، كما قالوا بصحة الوقف على من ينزل كنائسهم ويبيعهم من المارة والمجتازين؛ لأن الوقف عليهم لا على المواضع. محمد أمين بن عابدين: رد المختار على الدر المختار شرح تنوير الأبصار، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وعلى محمد معوض، تقديم محمد بكر اسماعيل، الجزء السادس، دار الكتب العلمية، بيروت، ص ٥٢٦؛ كمال أبو مصطفى: المرجع السابق، ص ١٨٥-١٨٦.

<sup>(٣٥)</sup> هو أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي المالكي ويُعرف بالقاضي عياض، محدث، حافظ، مؤرخ، مفسر، فقيه، أصولي، عالم بالنحو، واللغة، وكلام العرب وأيامهم وأنسابهم، أصله من الأندلس، تولى القضاء بغرناطة، له تصانيف كثيرة. ابن خير الأشيبلي: فهرسة ابن خير، تحقيق محمد فؤاد منصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ص ١٦٥.



عن أحباس حبسها نصارى معاهدون على كنيسة لهم، وكان القسيسون يستغلونها وينفقونها في مصالح كنيستهم وما فضل منها يأخذونه لأنفسهم، فبقيت كذلك ما شاء الله إلى أن أجلاهم الأمير على بن يوسف المرابطى من ديارهم، فرد المسلمون الكنيسة المذكورة مسجداً على ما كانت عليه على حالها يكسى منها المسجد ويستغل الأئمة الباقي، فبقيت كذلك أزيد من ثمان عشرة سنة، لم تتعرض بشيء من الأشياء إلى أن قام عامل بيت مال المسلمين وأراد ضمها لبيت المال من غير أن يستظهر بظهير من عند الأمير بضمها، فهل له أن يضمها لبيت المال من غير أن يأمره الأمير بذلك أم لا سبيل له إلى ضمها على هذا الوجه المذكور؟

وأفتى القاضي ابن عياض بأن: أحباس أهل النمة لا حرمة لها - يمكن التصرف فيها على غير الوجه الذى أوقفها عليه - فإذا كان محبسها حيا وأراد الرجوع فيها لم يُعرض له - لم يمنعه أحد بخلاف المسلمين لا يمكن الرجوع فيها- وإن كانت هذه الأحباس قديمة وهى بأيدي أهل النمة - لا يجوز التعرض لها- وإذا كان الناظر للمسلمين قد رأى في تلك عند إجلاء أهل النمة عن موضع كنيستهم ردها مسجداً فمن أحسن النظر<sup>(٣٦)</sup>، إذ لا بد للمسلمين النازلين مكان أهل النمة المجلين عنها من مسجد يقيمون فيه صلاتهم ولإمام بناؤه لهم فأولى أن يجعل ذلك من هذه الكنيسة ويحولها مسجداً، إذ هي وأحباسها عند إجلاء أهلها عنها لبيت المال لارتفاع أيدي النصارى عنها<sup>(٣٧)</sup>.

#### ونستنتج مما سبق ما يلي:-

١- أن الأحباس التي كان يُصرف منها على الكنيسة إذا رأى ولي أمر المسلمين عند إجلاء وخروج أهل النمة عن كنيستهم وتحويل هذا الموضع وجعل الكنيسة مسجداً فله ذلك، ويعتبر هذا التصرف محموداً، وهذا كله يدل على ألا حرمة لأحباس أهل النمة؛ وهذا لأنه سيحل محلهم طائفة من المسلمين، ولذا فهم يحتاجون لمسجد يؤدون فيه صلاتهم، وهذا أولى من الكنيسة .

<sup>(٣٦)</sup> الوثنربىسى، المعيار المعرب، ج٧، ص٧٣.

<sup>(٣٧)</sup> المصدر نفسه، ج٧، ص٧٣-٧٤.





- ٢- أن أحباس أهل الذمة تختلف عن أحباس المسلمين، فأحباس أهل الذمة ليس لها حرمة، ويمكن التصرف فيها على غير الوجه الذي أوقفها عليه أي يجوز لأهل الذمة الرجوع في أحباسهم على عكس أحباس المسلمين لا يجوز الرجوع فيها.
- ٣- أن النصارى المعاهدين كانت لهم أملاك محبسة على كنيسة لهم، وكان قسيسو هذه الكنيسة يأخذون هذه الأموال وينفقون منها على إدارة شؤون الكنيسة كما كانوا ينفقون منها على أنفسهم إلى أن وقعت الحرب وأجلاهم عنها أمير المؤمنين، فتحولت الكنيسة إلى مسجد، وأملاكها إلى أوقاف لصالح المسجد ثم أراد الحكام ضم تلك الأموال إلى بيت المال، فهل له ذلك؟ فأجاب أن تحويل تلك الكنيسة إلى مسجد هو أوجب للمسلمين، إذ لا بد لهم من مسجد يصلون فيه، والكنيسة وأملاكها عند إجماع النصارى عنها هي لبيت المال والإجابة كانت إذا كان النصارى معاهدين صلحين، فلا يصح التعرض إلى ممتلكاتهم بما في ذلك كنائسهم وأديرتهم<sup>(٣٨)</sup>.
- ٤- اختلاف آراء الفقهاء في هذا الأمر فمنهم من أباح مثل هذا الحبس كالمالكية والشافعية لكونها فريضة "طاعة" في نظر الإسلام حتى ولو كان هذا عكس نية الواقف، ومنهم من منعها ولم يُجزها مثل ابن القطان وابن رشد الذي قال بأن المساجد تُخص بأفضل الأموال وأطيبها وأموال الكفار أبعد الأموال من ذلك<sup>(٣٩)</sup>.
- وكان هناك جواب آخر لهذا السؤال، فيقول بأن أمر نصارى الأندلس مُشكّل هل هم صلحيون وصلحهم على ما بأيديهم فيجري في أمرهم في جميع ما بأيديهم مجرى الصلحيين؟ أم هم عنوة وأرضهم عنوة فيجري مجرى أهل العنوة؟ أم بأيديهم مكتسب لهم وأصل جماجمهم على الصلح أو العنوة؟ فتكون أحكامهم في ذلك غير الحكمين إذا لم يحقق من أمرهم ما تبنى عليه الفُتيا غير أن الفقهاء أصحاب التاريخ والخير بذكرون أن الأندلس منها عنوة ومنها صلح، وأكثر أموال هؤلاء المعاهدين إنما هي فيما ذكر أنه كان عنوة<sup>(٤٠)</sup>.

<sup>(٣٨)</sup> عبيد بوداد، قراءة في أوقاف أهل الذمة بالأندلس، مجلة الناصرية، العدد السابع، مخبر البحوث الاجتماعية والتاريخية، ص ١٨٧.

<sup>(٣٩)</sup> عبد المطلب مصطفى رجب مظهر: أهل الذمة في الأندلس خلال الحكم الأموي عصري الإمارة والخلقة (١٣٨هـ - ٧٥٦م/١٠٣٠م)، رسالة ماجستير بجامعة اليرموك، ١٩٩٩، ص ٥٥.

<sup>(٤٠)</sup> الونشريسي: المعيار المعرب، ج٧، ص ٧٤-٧٥.



لكنى أقول أن هؤلاء النصارى لما أشكل الأمر فيهم، وفيما وجد بأيديهم من الأموال وجب كون ما بأيديهم من الأموال لهم بحكم وضع اليد وصحة الحوز الذى لم يجرى ما يزيله ولا قامت حجة تبطله، وعندما لم نصل لرأى ولم يتبين أمرهم هل أرضهم صلح<sup>(٤١)</sup> أو عنوة حكمنا بأن أرضهم ملك لهم، لأنها بحوزتهم وتحت تصرفهم ولم يوجد غيرهم يدعى ملكيتها وبئذ لا تصبح الكنائس والأحباس حلال لغيرهم بإخراجهم عنها ولهم الرجوع في أحباسهم وتغيرها؛ ولأنهم عندما حبسوها لم يقصدوا بها التقرب إلى الله تعالى وإنما قصدوا بها أصنامهم<sup>(٤٢)</sup>.

وهنا ترجع لمالكها الأساسي من أهل الذمة إن طلبها وتكون ملكاً له، ومن لم يطلبه مالكه يكون تحت تصرف المسلمين ويدخل في تصرف بيت مال المسلمين والإيما ينظر في شأنه فيما يحقق مصلحة للمسلمين - وخرجت الكنائس والأحباس عن هذا الباب لا تُستحل بإخراجهم عنها ومنعهم التصرف والمنفعة التي كانت لهم فيها إذ ليست أحباسهم لازمة؛ لأنها لم يُرد بها وجه الله ولا حبست له بل حبست للجبت والطاغوت، فترجع على ملك مُحبسها إن طلبها، وسائر ما يُعرف مالكه حكمه حكم مال من انجلى منهم عن ماله ووُقفَ ذلك لبيت مال والإيما ينظر فيه<sup>(٤٣)</sup>.

وكذلك حكم الدير إن كان محبباً لا مالك له وإذا كانت أموالهم وقراهم قد اشتراها منهم المسلمون وسكنوها هم ومن أسلم منهم وعمرت لزمتهم الجماعات للصلوات، فعلى الإيما إقامة مسجد لهم أو جامع إن كانوا بحيث تلزمهم الجمعة وأخذهم بإظهار شعائر الإسلام من الأذان والتجميع وإقامة الجمعة أولى ما وضع لهم المسجد أو الجامع، ففي هذه البيع والديارات لقرب بنائها من بناء المساجد وكونها غير منتمكة وتبديل كلمة الكفر وشعائر الضلال بكلمة الإيمان وشعائر الإسلام، للإيما أن يترك تلك الأحباس لهذه المساجد ويصرفها إلى بيت المال ويقوم للمسجد ما يحتاج إليه من غير ذلك<sup>(٤٤)</sup>.

(٤١) أرض الصلح: وهي على قسمين: القسم الأول: ويؤخذ عليها خراج يسمى خراج جزية وهو مقدار محدد مثبت في شروط الصلح والقسم الثاني: يؤدون عنه خراجاً يسمى خراج أجره وهذا الجزء مثله كمثل أرض

العنوة. ابن سهل: وثائق، ص ٨٠ حاشية ٤٠١ ب.

(٤٢) الوثنريسي: المعيار المعرب، ص ٧٤-٧٥.

(٤٣) الوثنريسي: المصدر نفسه.

(٤٤) المصدر نفسه.



ومن قضايا أحباس أهل الذمة التي أشار إليها الونشريسي في نوازله أن مسلماً

اشترى جنة من يهودي وحبسها، فقام يهودي يدعى استحقاقها بحبس :-

حيث عُرضت نازلة أو قضية على الفقيه والمفتي ابن عتاب<sup>(٤٥)</sup> عن مسلم اشترى جناناً من يهوديين ونزل بها وملكها عشرة أعوام أو نحوها واعتمرها "عمرها"، ثم حبسها بعد هذه المدة على أولاده، فإذا انقضوا رجعت حبساً على طلبه العلم وفي فك الأسرى وعتق الرقاب ولتاريخ الحبس ثلاثة عشر عاماً، ثم قام يهودي بعد هذه المدة يزعم أن هذه الجنة حبسها عليه عماء، وهما اليهوديان البائعان لها من هذا المسلم قبل التباع المذكور واستنظر بوثيقة تحبب البائعين لها، قد كتب بخط إسلامي، ذكر فيها أن البائعين اليهوديين حبسوا الجنة المبيعة على ابن أخيها القائم، وعلى عقبه ما تناسلوا، وذكر فيها أن أحد اليهوديين المحبسين حاز ما حبسه من الجنة على ابن أخيه إذ كان صغيراً. فهل تجوز أحباس اليهود وهل بيعهم جائز أم غير جائز؟ وهل تجوز حيازة أحد المحبسين البائعين للجنة لما حبسه؟ وهل لحاكم المسلمين أن ينظر بينهم في أحباسهم؟ وهل ترى أن يُنقض حبس المسلم بحبس اليهود؟ وهل تجوز شهادة المسلم على خطوط المسلمين في حبس اليهود أو لا؟<sup>(٤٦)</sup>.

**يتضح لنا من تلك النازلة ما يلي:-**

١- أنه قد تمت عملية بيع وشراء بين يهوديين، وأحد المسلمين ولم يكن غرض المسلم منها الانتفاع الشخصي، ولكنها كانت خالصة لوجه الله، وأكبر دليل على ذلك أن المسلم اشتراها واهتم بها اهتماماً بالغاً ولفترة زمنية طويلة والظاهر لنا أنها كانت أرض بور؛ لأنه استغرق فترة طويلة في التعمير قد تصل لعشر سنوات، وبعد أن تأكد من صحتها قام بتحبيسها لأولاده، فإذا انقضوا تُحبس لعدة جهات وهم طلبه العلم ولفك الأسرى وعتق الرقاب، وقد خصص مدة للحبس تصل إلى ثلاثة عشر عاماً حتى ظهر

<sup>(٤٥)</sup> هو الفقيه أبو عبد الله محمد بن عتاب بن محسن فقيه قرطبي كان شيخ أهل الشورى في زمانه وعالمه. ابن سهل: وثائق وأحكام، ص ٦٧.

<sup>(٤٦)</sup> الونشريسي: المعيار المعرب، ج ٧، ص ٤٣٨-٤٤٠.



أحد اليهود ويدعى بأحقيته لهذه الأرض، لأن أعمامه اليهوديين قد حبسها له ولكي يؤكد صحة كلامه أخرج عقد مثبت فيه هذا الكلام وأيضاً مكتوب بخط إسلامي .ومن خلال هذا العقد يتبين لنا صدق كلام اليهودي وقيام عماء فعلاً بحبس هذه الأرض له قبل بيعها للمسلمين ، كما يتضح لنا أننا أن أهل الذمة يقومون بتوثيق أحباسهم وأكبر دليل على ذلك الوثيقة التي أخرجها اليهودي .

٢- أن ابن عتاب أفتى بأن أحباس أهل الذمة تخالف أحباس المسلمين، حيث إن المسلم لا رجوع له في حبسه ولا سبيل له إلى فسخه ونقضه، وواجب على القضاة إذا انتهى إليهم تحصينه بالإشهاد عليه، والتسجيل فيه ،وعلى هذا جرى أمر القضاء . وأن الذمي إذا حبس ثم أراد الرجوع في فعله بنقضه وبيعه وبما شاء لم يعرض له ولا يمنع منه، ولا يحل للقاضي النظر في تحصينه وانفاذه لضعفه، وإلى نحو هذا ذهب أصبغ بن الفرج<sup>(٤٧)</sup>، ولروايته معنى ليس هذا موضع بيانه، وقد روى عيسى عن ابن القاسم أن لأهل الصلح بيع أرض الكنيسة إن أحبوا وذلك من أحباسهم، وإذ قد باع اليهوديان المحبسان الجنة التي حبسها فبيعهما جائز نافذ ولا قيام لهما ولا للمحبس عليه " ابن أخيه اليهودي" على المبتاع " المشتري المسلم" ولا سبيل إلى الجنات " لا سبيل لهم في الحصول على الجنة مرة أخرى "، ولو قام القائم في حين نفوذ البيع ووقوعه لم يرد المبيع ولا يفسخ " ولو حدث ذلك في وقت البيع والشراء أو وقت عقد الصفقة لا يفسخ فما بالنا وقد طال عليه الوقت -، فكيف وقد حبس المبتاع ما ابتاع ومضت المدة التي وصفت، وتحبب المسلم لذلك جائز نافذ، ويلزم القاضي إنقاذه وإمضاه والحكم به - لو وقف المسلم وقفا فعلى القاضي أن ينفذه وبمضيه ويحكم ويوثقه ولا يسعه غير ذلك غير حبس الذمي ليس عليه ذلك لأن لهم الرجوع فيما يحبسون أم المسلمون لا -، ولا يسعه غير ذلك ولا يراعى في حبس اليهودي حياة ولا غيرها بعد البيع، سواء كانت الحياة صحيحة أو ضعيفة، وكذلك الشهادة على الخط لا يلتفت إليه فيها،- فالمسلم لا يشهد على خط اليهودي- ولا يُسمع

<sup>(٤٧)</sup> أصبغ بن الفرج بن سعيد بن نافع، الشيخ الإمام الكبير، مفتي الديار المصرية وعالمها، أبو عبد الله الأموي، المصري، المالكي. الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٩، ص٥٦.



إقرار اليهودي في أنه حاز نصيبه منها إذ لا منفعة . - أن إقرار اليهودي بالحبس حينئذ لا طائل من ورائه طالما أن بيعهما لما قد كان حبساه صحيح، ومع ذلك فإن للمحبوس عليه أن يطالب عميه بما حبساه وأن يحتكما في ذلك إلى حكم دينهم - إلا إن اليهودي المقر له بذلك القائم بالحبس مطالبة عامية البائعين لما حبساه عليه إن أحب ومحاكمتها إلى حكم أهل دينهم<sup>(٤٨)</sup>.

مما سبق كله، يتضح لنا أن في رد الفقيه ابن عتاب إجابة عن عدة تساؤلات أن اليهود فعلاً قاموا بحبس الأرض لابن أخيهم لأن أحباس أهل الذمة تخالف أحباس المسلمين؛ لأن لهم الحق في الرجوع في أحباسهم وهم بالفعل قاموا بذلك فقد رجعوا في حبسهم مع ابن أخيهم وبيعه للمسلم . وفي هذا الرد إجابة عن سؤال مهم وهو هل اليهود قاموا بتحبيس الأرض لابن أخيهم قبل بيعها للمسلم؟.

٣- يتضح لنا أيضاً دور القاضي المسلم وحرصه الكبير على توثيق أحباس المسلمين وتسجيلها والإشهاد عليها، لأهمية توثيق الأحباس عند المسلمين؛ ولأنهم ليس لهم رجعة فيها ومن هنا يكون التوثيق قوى عند المسلمين على أهل الذمة فالتوثيق عندهم ضعيف ولا يلتفت له ولا للخط المكتوب به والسر في هذا كله هو إمكانية الرجوع في الحبس عند أهل الذمة .

٤- أن عملية البيع التي تمت للمسلم صحيحة وجائزة ولا رجوع فيها لعدة أسباب الأول منها أن أهل الذمة لهم حق في الرجوع في أحباسهم، والثاني: أن الحبس تحول من أحباس تخص أهل الذمة إلى أحباس تخص المسلمين التي لا رجعة فيها .

٥- يتبين لنا ضعف موقف ابن أخيهم اليهودي وليس له أي طريق للحصول على الأرض مرة ثانية، كما إنه لا يستطيع فسخ العقد ولا منع البيع حتى ولو أثناء عملية البيع والشراء نفسها. خاصة وأنه إذا مرت عليه كل هذه الفترة الزمنية أى ثلاثة عشر عاماً.

<sup>(٤٨)</sup> الوتشريسى، المعيار المعرب، ج٧، ص٤٣٨-٤٤٠.



ومن القضايا التي تخص أحباس أهل الزمة في الأندلس "أن فداناً محبس على مسجد ادعى مدع أنه من مال الجزية" فمن أحكام ابن زياد<sup>(٤٩)</sup> ما كشفت عنه من الفدان الذي حبسه طريف الفتى الصقلي<sup>(٥٠)</sup> على مسجده بقرية ترجيلة<sup>(٥١)</sup> ثم قام أحد النصارى المعاهد بعرض شكواه عند القومس<sup>(٥٢)</sup> أنه من أرض الجزية، وقد كانت الفتوى في ذلك أنه يجب فيه بقاء الفدان على ما حبس حتى يثبت عند القاضي المسلم بالبينة أنه من مال الجزية، فإذا ثبت ذلك عندك نظرت فيه بما يجب إن شاء الله<sup>(٥٣)</sup>.

مما سبق يتضح لنا أن مثل هذه القضايا التي تخص أحباس أهل الزمة ينظر فيها رئيسهم وليس القاضي المسلم، وهذا يعني أن القومس يتولى أمور المسيحيين ويحكم فيها، أما إذا كانت هناك مشكلة بين مسلم و زمني فإن القاضي المسلم هو الذي ينظر فيها. التي أوردها الونشريسي نازلة تتعلق بأوقاف أهل الزمة التي يصرف من ريعها على

#### الكنائس ورهبانها .

فقد كان للنصارى والمعاهدين العديد من الأحباس، خاصة في بعض الحواضر الأندلسية مثل غرناطة وإشبيلية، وأصبحت وقفاً أو حبساً على كنائسهم، وكان رهبان وأساقفة تلك الكنائس لا عيش لهم إلا من ريع هذه الأحباس<sup>(٥٤)</sup>.

(٤٩) هو قاضي الجماعة أحمد بن محمد بن زياد. ابن سهل: وثائق وأحكام، ص ٨٠.

(٥٠) طريف الفتى وهو من الفتان الصقالبة. ابن سهل: وثائق، ص ٨٠ حاشية ٤٠٣.

(٥١) ترجيلة أو ترجالة: مدينة كبيرة كالحصن المنيع بغرب الأندلس، ولها أسوار منيعة، وبها أسواق عامرة وخيل. الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، ص ١٣٣؛ مؤلف مجهول: تاريخ الأندلس، تحقيق عبد القادر بُوياية، دار الكتب العلمية، بيروت، ص ١٠٥.

(٥٢) القومس: في المسيحية أحد أصحاب المراتب الكنسية وهو أعلى من القس والجمع قمامسة، كان المستعربين يخضعون لرئيس عام لهم تعينه الحكومة المركزية يدعى Comes ويطلق عليه المسلمون اسم قومس، وفي بعض الأحيان المدافع أو الحافظ عند القديمين .

مجموعة مؤلفين: المعجم الوجيز، مجمع اللغة العربية، مادة: قمص" طبعة ١٩٩٤، ص ٥١٥؛ أحمد بدر، دراسات في تاريخ الأندلس وحضارتها من الفتح حتى الخلافة، الطبعة الثانية ٢٠٠٨، ص ١٩٥.

(٥٣) ابن سهل بن عبد الله الأسدي الأندلسي: الإعلام بنوازل الأحكام المعروف بالأحكام الكبرى، تحقيق نورة محمد عبد العزيز التويجري، الجزء الثاني، ص ٧٣٤.

(٥٤) الونشريسي: المعيار، ج ٨، ص ٥٦-٥٧؛ كمال السيد أبو مصطفى: بحوث في تاريخ وحضارة الأندلس في العصر الإسلامي، ص ١٨٥؛ عبد المطلب مصطفى: المرجع السابق، ص ٥٥.



ويضيف الونشريسي "أن هذه المسألة أو القضية تتعلق بالأملاك المحبسة على بيع النصارى وكتب بها أمير المؤمنين على بن يوسف بن تاشفين ٥٠٠-٥٣٣هـ/١١٠٧-١٣٨ مأمير المرابطين إلى الفقيه القاضي أبي القاسم أحمد بن محمد بن ورد وغيره من فقهاء الأندلس ونص الكتاب:-

(من أمير المؤمنين وناصر الدين على بن يوسف بن تاشفين إلى الفقيه القاضي أبي القاسم أحمد بن محمد بن ورد والفقهاء بغرناطة حرسهم الله وأمدهم بتقواه.

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله

كتابانا أبقاكم الله وأمدكم بتقواه، ويسركم لما يرضاه، وأتم عليكم عوارفه ونعماه من حضرة مراکش حرسها الله في وقت كذا وقد خاطبنا النصارى المعاهدون المنقولون من إشبيلية الحاصلون بمكناسة الزيتون حرسها الله راغبين في أن يصل معهم من يتقرر معهم صفة بيعهم لأملاكهم لدينا إذا تخيروا ذلك عندما خيرناهم فيه، وكيف يكون إقرارهم على مراتب شريعتهم التي يقيمون عليها، هذا نص قولهم في كتابهم، ونحن نستفتيكم في هذين الفصلين فراجعونا بما توجه السنة فيها. وكذلك أوضحوا لنا وجه العمل في الأملاك الموقوفة على بيع النصارى وكنائسهم بالأندلس موقفين إن شاء الله عز وجل<sup>(٥٥)</sup>.

ويتضح من رسالة أمير المؤمنين على بن يوسف بن تاشفين إلى فقهاء غرناطة وعلى رأسهم الفقيه أبي القاسم أحمد بن محمد يذكر له أن النصارى بإشبيلية قد انتقلوا من مدينة اشبيلية إلى مكناسة الزيتون بالمغرب الأقصى رغبة منه في معرفة كيفية بيع أملاكهم في أرض المسلمين بالأندلس خاصة أنهم اختاروا بيعها عندما خيرهم الخليفة طبقاً لشريعتهم، وهو يريد منهم الإفادة بذلك، كما يريد منهم أيضاً رداً على ما المفروض عمله والقيام به مع أملك النصارى الموقوفة في الأندلس. ويتضح لنا من خلال هذا التقرير مدى السماحة التي تعاملت بها الحكومة الإسلامية مع أهل الذمة، كما أنه لم يكن لديهم أي نوع من أنواع الطمع للسيطرة على أملاكهم وضمها لحوزتهم، وكان ذلك من السهل على الحكومة الإسلامية أي دولة المرابطين<sup>(٥٦)</sup>.

<sup>(٥٥)</sup> الونشريسي: المعيار المعرب، ج ٨، ص ٥٦-٥٧.

<sup>(٥٦)</sup> الونشريسي: المصدر نفسه.



### وفى هذا المجال يوجد كتاب آخر :-

ويقول الونشريسي فيه أنه قد ورد علينا كتاب ابننا أبي بكر مُضْمَنَا (أن قوماً من النصارى المعاهدين أسلموا في إشبيلية حرسها الله وأن جماعة يسيرة من النصارى المتقدم ذكرهم فروا إلى بلاد العدو دمرهم الله. فتبعتهم الخيل من هناك، فهلك بعضهم وسبق البعض إلى إشبيلية وسجنوا بها. فعرفونا بما توجيه السنة في النازلتين "المسألتين موقفين إن شاء الله" وذكروا أيضاً أن:-

رهبانهم وأساقفتهم أنهم لا عيش لهم إلا من غلة الأحباس الموقوفة على الكنائس المذكورة، وذلك من الفصول التي يجب الفتيا فيها) (٥٧).

### فأجاب:

(الفقيه الإمام الحافظ قاضي الجماعة بغرناطة أبو القاسم أحمد بن محمد بن ورد وفقه الله في سنة إحدى وعشرين وخمسمائة بأن قال: إن بيع النصارى المذكورين لأملاكهم بالأندلس لا يخلو أن يكون ذلك البيع الذي تخيروه يتولون عقده هناك ممن يريد شراء تلك الأملاك منهم أو يحالونهم بالأندلس، حيث الأملاك المبيعة. فإن تولوا عقده هناك وكان المشتري قريب العهد بالرؤية لما يشتري به استغنى بذلك عن الصفة واستمر البيع دونها وجاز العقد في ذلك، وإن كان المشتري بعيد العهد بها أو لا عهد له بها البتة فإن بيعها يكون على الصفة، ولكن الواصف لها يكون غير بائعها) (٥٨).

### ونستنتج من رد القاضي أبي القاسم على رسالة علي بن يوسف:-

١- أن عملية بيع النصارى لأحباسهم هذه تتم إما عن طريق أن يتولى النصارى بنفسهم عملية البيع لمن يريدون وكيفما يشاؤون أو أن يُعينون من ينوب عنهم ويتولى عملية البيع والشراء.

هذا إن اشترط البائع قبض الثمن أو وقع البيع مسجلاً دون إفصاح باشتراط القبض ولا إفصاح بالطوعية به إذ هو محمول على مثل هذا على الشرط مالم تعقبه

(٥٧) الونشريسي: المعيار، ج٨، ص٥٦-٥٧.

(٥٨) المصدر نفسه.





طواعية، فإن تعقبته طواعيه "المطاوله والتيسير في السداد" دلته على أن ذلك الاسجال لم يكن في معنى طواعية معنى اشتراط النقد، وإنما كان رفعا للشرط بدليل مجرى الطواعية من بعد، وإن لم يشترط المبتاع "المشترى" النقد وطيع له به من بعد اسجال العقد فلا بأس أن يكون البائع في هذا الحال واصفاً<sup>(٥٩)</sup>.

٢- أنه إذا اشترط البائع قبض الثمن في مجلس العقد أو عند التسجيل من غير تصريح بذلك أو نص عليه بأخذ الأموال قبل أي شيء أي أنه لم يذكر نقطة قبض الثمن في المجلس، وفي هذه الحالة إذا اشترط البائع قبض الثمن يكون كما لو اشترط البائع قبض الثمن صراحة طالما أنه ليس هناك ما يفيد الإمهال في القبض وهنا التسجيل يقوم مقام اشتراط القبض طالما لا يوجد افصاح وهنا يصير دفع الثمن في مجلس العقد لازماً إذا اشترطه البائع وكذا إذا لم يشترطه البائع صراحة، وتم التسجيل فإن التسجيل يقوم مقام اشتراط القبض فإذا أعقب التسجيل ما يدل على الإمهال في دفع الثمن صراحة يُعول عليه "يُنَى عليه" حينئذ ويكون هو المعتبر والمعتمد وعندئذ يبطل موجب التسجيل بالنسبة لما يخص القبض فقط.

معنى ذلك كله أنه إذا لم يشترط دفع الثمن من المشتري للبائع في مجلس العقد أو تم التسجيل لكن ذكر عقبه ما يفيد الإمهال، وكان المعقود عليه أو الشيء المباع قد رآه المشتري منذ عهد بعيد فإنه يوصف له ويصح حينئذ أن يقوم البائع بوصفه للمشتري بخلاف الصورة السابقة، لأن حينئذ سيقوم البائع بوصفه وصفاً موضوعياً لا وكس ولا شطط "زيادة ونقصان" منعاً من لحوق الضرر به أجلاً "بعد تسلم المشتري للعين المبيعة" وحفاظاً على ماله .

(وإنما كره وصف البائع مع اشتراط النقد واسجال العقد خوفاً من أن يزيد في الصفة ليستجيز تعجيل النقد فينتفع به ثم يخرج الأمر على غير ذلك)<sup>(٦٠)</sup>.

(٥٩) الونشريسي: المصدر السابق، ج٨، ص٥٨.

(٦٠) الونشريسي: المعيار المعرب، ص٥٨.

ونستنتج من ذلك أن هذا بيانٌ لسبب ما ذكر في الصورة الأولى من عدم الاعتماد على وصف البائع للعين المُباعة عند اشتراط القبض أو التسجيل دون ذكر ما يدل على الأُنظار والإمهال تحسباً من مبالغة البائع في وصف مبيعه وربما ذكر في وصفه ما ليس فيه الأمر الذي يترتب عليه بعض المفاصد من صعوبة ارتداد الثمن بعد الانتفاع به وعدم رضا المشتري وما يترتب على هذا الأمر من نزاعات.

فيجب رد الثمن من بعد الانتفاع به، فيؤول الأمر إلى أن يكون البيع تارة بيعاً وتارة سلفاً فيعود ذلك بفساده، وإذا اختبرت العلة التي منعت في غير العقار من دفع النقد بشرط ألفيتها بعينها هي المانعة من دفعه في العقار من وصف من يُتهم<sup>(٦١)</sup>. وهناك دليل آخر وبيان لسبب كون الوصف غير البائع إذا شرط القبض وهو التهمة للوصف إذا كان هو البائع قياساً للعقار على غيره والله أعلم . (وإن كان دفع النقد فيه جائزاً لما كان موقوفاً على الجواز ولم يترق إلى اللزوم على الصحيح من ذلك)<sup>(٦٢)</sup>.

ويبدو لنا أن المعنى الواضح من النص السابق أن دفع النقد هنا ليس حائزاً؛ لأنه لو كان لما وقف على جوازه وبذلك يكون الدفع مشروط ولم يصل إلى اللزوم أي يصبح العقد لازماً لا يفسخ- وليس من شرط ذلك الوصف الذي هو غير البائع أن يكون لله "كذا" كاملة، ولا أن يكون مبرزاً في العدالة، بل يجتزى "يكفي" فيه أن يكون غير متهم فقط، إذ القدر الذي أريد منه يجزىء هذا الوصف فيه. فهذه حقيقة المذهب في هذا الفصل وعين الفقه فيه - وضع لنا شروطاً لا بد من توافرها في الوصف وعلى رأسها أن لا يكون متهماً. وتقيد الفتوى إن كانت محاولة البيع بالأندلس لا بالمغرب، فليجتمع أولئك النصارى على وكيل واحد منهم يتولى لهم البيع بالأندلس، ولا يمكّنوا من توكيل جماعة منهم على ذلك، إذ في رجوع جماعة منهم إلى الأندلس ولو مرة من الزمان ما لا تؤمن غائلته. وقد أرام "كذا" الرأي الموفق منهم فلا ينقض من ذلك شيء إلا لضرورة لا بد منها ولا مندوحة

(٦١). الونشريسي: المصدر نفسه.

(٦٢). الونشريسي: المعيار المعرب، ص ٥٨.



عنها، وعن توكيل الجماعة في هذه النازلة مناديج واسعة، فلا يمكننا منها وليصرحوا في توكيلهم لوكيلهم بذكر بيع العقار دون أن يجتروا في العقار بذكر البيع فقط للاختلاف الذي في ذلك، ثم يخاطب لهم قاضى الموضوع الذي نزلوه إلى قاضى الموضوع الذي فيه الأملاك ليجزي في ذلك ما يوجبه الحق ويقتضيه، ويكون أيضاً صفة البيع هنالك أو هنا على حكم أرض الخراج التي يبيعهها الذمي على القول المختار في ذلك<sup>(٢٣)</sup>.

بين لنا في هذه الصورة وهي الصورة الثانية للبيع حكم بيع الاملاك الموجودة بالأندلس عن طريق التوكيل من هذه المجموعة لموكل واحد تحسباً من وقوع أي أضرار أو أخطا في حالة ما إذا تم توكيل أكثر من شخص، وهذا التوجيه بحصر الوكالة في وكيل واحد هو الرأي السديد ولا يتجاوز عنه إلا إذا دعت الضرورة لذلك. وهناك أمور كثيرة تجعلنا نبتعد عن توكيل الجماعة حتى لا نمكن في التوكيل لأكثر من شخص، وهناك أشياء ذكرت منعاً لحدوث مشاكل منها أنه قد يصرح الجماعة التي تريد البيع لوكيلهم ببيع العقار لتخصيص وقصر البيع على العقار أي أنهم يذكون كلمة العقار بجانب البيع ولا تترك كلمة البيع مفتوحة حتى لا يكون هناك غبن وجهالة تؤدي إلى نزاع وشجار. وهنا يكلم القاضي المسؤول عن المكان الذي نقلوا إليه القاضي المسؤول عن المكان الذي فيه أملاكهم ليقرر في هذا الأمر ما يتماشى مع الحق، وطريقة البيع هذه تجرى على نسق أو نمط بيع الذمي لأرض الخراب على ما هو الراجح من أقوال الفقهاء.

### مسألة اختلاف الفقهاء في هل لأحباس أهل الذمة حرمة مرعية؟

وقد اختلف العلماء في أمر أحباس أهل الذمة هل لها حرمة مرعية أم لا؟ والصحيح أن لا حرمة لها لإنكشاف ثوب الحرمة عنها من كل وجه. - لا يوجد لها حرمة كما مر آنفاً - إذا المُرمة المرعية إما أن تكون حقاً لله تعالى أو حقاً لأسمى له حق وهذه الأحباس المذكورة لا حق لله تعالى فيها إذ حقوق الله تعالى في هذا النوع إنما تحتسب لمن نواها وتصح منه القرية فيها. فأما إن نواها ولم تصح القرية منه، أو صحت القرية ولم ينواها، فإنه غير محتسب له بها، والذي إن نوى على زعمه القرية، فإنه لا تصح منه، إذا

(٢٣) المصدر نفسه.



لا يعرف الله عز وجل ، فكيف يتقرب إلى من لا يعرفه ، فبطلت حرمة أحباسهم من هذا الوجه (٦٤).

وبطلت أيضاً من جهة ما سُلِّبت فيه، إذ لا يخلو المحبس منهم في هذا الوجه أن يريد بذلك إنفاق الكنائس فقط، فهو إنفاق في معصية صاحبها آثم فيه بلا خلاف، إذا الخلاف الذى في الكفار هل هم مخاطبون بفروع الشرعية أو لا إنما حقيقته في الأوامر لا في النواهي، وإرفاق الكنائس من باب النواهي هو لا من باب الأوامر وإن كان أراد المحبس إرفاق عمار الكنائس، فهو أشد من ذلك، وإن كان أرادهما جميعاً فقد بَاءَ بِإِثْمٍ مِنْ نَاحِيَتَيْنِ :

تحبيس هذه الأحباس منهم على ما أقرها على حكم ما سلبها فيه فهي مستمرة في بر كما أن أفعاله كلها في غير بر، فإن أراد الرجوع فيها هو أو وارثه كان ذلك له ولهم، إذ إنما تملك بالتحبيس الصحيح الذى يتقرب به المسلم منافع الأعيان المحبسة لأقاربها، فكيف بالتحبيس الفاسد الذى لا قرينة فيه ؟ فكان للمحبس عليه فوائد ما استدر من هذه الأحباس الفاسدة بحكم تسلطه على ذلك، ولا شيء له في مؤتلف ذلك، إذ أصل التحبيس كان على غير لازم لكونه غير قرينة حسبما تقدم بيانه، وإن كان الذى لا يمنع البدء في رغبة وهبها النمي وحيزت عنه على أحد القولين في هذا، فأحرى أن لا يمنع ذلك في منفعة لم تحز عنه جميعاً، وإذا أسقط هذا ما انتفع منها به ولا يرجع عليه بقيمة ما انتفع به لأجل أنه سلط عليه. وإنما لم يكن للنمي أن يرجع في عتق عبده إذا أخرجه عن يده لتعلق حق المسلمين بالجزية " في نسخة " الحرية فصار حقاً بين مسلم ونمي يوجب أن يكون على حكم الإسلام على أصح القولين في هذا النوع كما لو وهب لمسلم شيئاً لكان الأصح ألا يرجع له فيه؛ لأنه أيضاً حكم بين مسلم ونمي" (٦٥).

مما سبق، يتضح لنا أن أحباس أهل الذمة ليس لها حرمة؛ لأنه ليس لله عز وجل حق فيها، لأن حقوق الله تحبس لمن نواها أو لمن لم ينواها، فهي لا تصح منه؛ لأنه لا يعرف الله عز وجل فكيف يتقرب إلى ما لا يعرفه.

(٦٤) الوثنريسي: المعيار المعرب، ج٨، ص٥٩-٦٠.

(٦٥) الوثنريسي: المعيار، ص٥٩-٦٠.



### مسألة بيع النمي ما حبسه:-

"بيان صحة قول من يقول إن النمي له أن يبيع ما حبس ويرجع في ذلك، ولا يحكم عليه بالمنع منه، وصح أنه أصح من قول من يقول ليس له ذلك، وأما ما وقع في العنينة<sup>(٦٦)</sup> من رواية عيسى<sup>(٦٧)</sup> عن ابن القاسم في تجويز بيع الأسقف للكنيسة أو ما حبس عليها، بخلاف ما وقع في سماع أصبغ من ذلك، فللناس في ذلك شروح وتأويل، والذي أقوله في ذلك على سند المذهب واستخلاص مسبوكة بضم بعضه إلى بعض والذمي عما هو بها أرض أنه إنما يستقيم ذلك ويصح مع وجود المحبس وعينه "كذا" فكأنه سوغ ذلك بإقراره عليه، وأما إن كان المحبس قد هلك وكان الوارث له على ما يقتضيه الوارث في أصل دينهم قد انقضوا، فإن المحبس عليهم لا يجوز لهم أن يبيعوا إلا إن ينقضوا، وإن باعوا أو فوتوا، فإن للإمام أن يرد ذلك إذ الأملاك التي انقضت محبسوها وورثتهم، إنما هي ميراث لبيت مال المسلمين على أصح القولين في الذي لا وارث له هل يرثه بيت المال أو يرثه أهل موداته؟<sup>(٦٨)</sup>.

وكون ميراثه للمسلمين هو الأشهر والأصح في النظر، إذا كانت الأحباس المذكورة لا حرمة لها حسبما تقدم بيانه، وكان لمحبسها أن يرجعوا فيها هم ومن ورثتهم، فإن انقضت الكل فإن بيت المال يلي ذلك الرجوع الذي كان لها ولا للمعترضين أن يفعلوه لأنه من ورث بيتاً فإنه يرث ما كان له أن يفعله مما شرع للموارث فعله. هذه طريقة تخريج الروايات على طريقة النظر، وهو مخصص الفقه في هذه المسألة، اللهم إلا أن يتعين محبس لشيء من هذه الأحباس يكون حياً الآن ويشهد بالتحسيس والملك لما حبس ويثبت له ذلك بواجب الثبوت، فإنه يحكم في ذلك ويُخير فيه، فإن شاء أقره حبساً على حاله أو ما أمكنه من ذلك أو إن شاء أن يجعله لنفسه. ولا أخص بهذا الحكم هؤلاء المجلبين، بل أقول إن الحكم كان فيهم هكذا من قبل

<sup>(٦٦)</sup> كتاب في الفقه المالكي وسمى بذلك نسبة إلى مؤلفها محمد العنبي .  
<sup>(٦٧)</sup> هو عيسى بن دينار بن واقد الغافقي أصله من طليطلة وسكن فرطبة يكنى أبا عبد الله تلميذ ابن القاسم فيقال أن فقيه الأندلس عيسى بن دينار وعالمها عبد الملك بن حبيب. ابن سهل : وثائق وأحكام، ص ٦٧ حاشية ٢٨٥.

<sup>(٦٨)</sup> الوشريسي : المصدر السابق، ص ٦٠-٦١.



أن يجلووا. وإنما لم يشتغل الناس بهذا من قبل لأجل أن هذه الأحباس التي قد انقرض جميع محبسيها إما أن تكون مواضع لإقامة شريعتهم أو مرافق لذلك. فمواقع إقامة شريعتهم مسموح لهم فيها على قول من يُبيح لها اتخاذ ذلك في بلادهم التي تصالحو عليها، فتركت المسامحة هنالك لهذا، وأتبع السمع فيها بالسمع في مرافقها. هذا التأويل على من تركها بنظر فقهي . وأما من تركها الغفلة عن شبهة في حجة على من يعقل "كذا" (٦٩).

وأما هؤلاء المجلبون، فقد بطلت المسامحة لهم، وقد وجبت المقاشحة - المقاطعة - معهم، ولا يخلى لهم إلا ما يلزم الحق تخليته، وقد ارتفع بإجلاتهم حكم إقرارهم الذي كان أوجب ذلك السمع لهم، ولا سيما إذا أجلوا على ذلك الوجه الذي أجلوا عليه من توقع غدرهم ونكثهم، والحمد لله الذي أراح من شرهم ولا حجة للقسيسين والرهبان فيما حكاه الكتاب الكريم عنهم من أنهم لا عيش لهم إلا من غلات ذلك إذ ليسوا بأحسن حالاً، ولا كراهية لهم من أمام مسجد استحق من يده ربع المسجد وبقي المسجد من وجب له استحقاقه فيسمع من الإمام إذا قال من أي شيء يعيش بأن يقال له يرزقك الله. هذا في فاضل من فضلاء المسلمين، فكيف في داع من دواعي الكافرين؟ (٧٠).

مما سبق، يتضح لنا أن هذه المسألة من المسائل المهمة في البحث؛ لأنه يجب عن تساؤل مهم ألا وهو هل من حق الذمي أن يبيع أحباسه أم لا؟. فهناك روايتان تجيب عن هذا التساؤل الأولى :

منها تقول أن بيع الأسقف للأحباس يصح في حالة وجود المحبس وهو بمثابة توقيع نهائي للبيع، لأنه لو لم يريد البيع لاعتراض على ذلك، وبالتالي لم تتم عملية البيع، ولا يجوز للمحبس الرجوع في عملية البيع . والرواية الثانية :

تقول أنه لا يجوز للأسقف بيع الأحباس إلا بعد موت المحبس وانقراض وراثته. وإذا حدث وأخطأ أهل الذمة وباعوا ولم يهتموا بكل ما وضع من شروط صار البيع باطل وللإمام المسلم رده .

(٦٩) الوثنريسي : المعيار العربي ، ص ٦٠-٦١ .

(٧٠) المصدر نفسه .



لأنه في حالة انقطاع النسل وانقراض وريثة المُحبس صار الحبس إرثاً يورث لبيت مال المسلمين. ومن هنا أصبح من حق الأسقف أن يبيع هذه الأحباس في حالة واحدة فقط إذا كان المحبس أو ورثته موجودين أما غير ذلك فيرد البيع ويعود لبيت مال المسلمين. وهذا الكلام يجيب عن تساؤل آخر مهم، وهو في حالة وفاة المحبس وورثته لمن تصير أحباسه هل لبيت مال المسلمين أم لأهل ملته؟ .

وكما ذكرنا من قبل تصير لبيت مال المسلمين، لأن أحباس أهل الذمة لا حرمة لها ولأن بيت مال المسلمين يتصرف، وينفق في سبيل المصلحة العامة. وفي حالة وجود المُحبس حياً له أن يقر الحبس على حبسه أو أن يرجعه لنفسه مرة أخرى ويوقف حبسه وهذه مسألة تتعلق بأهل الذمة سواء أكانوا مقيمين أو أجلوا عن أماكنهم. وقد تكون هذه الأحباس مواضع لإقامة شرائع أهل الذمة أو مرافق لها ولذا لم يتحدثوا عنها لأنها دور عبادة في الأراضي الإسلامية فهل كان من حقهم إنشاء هذه الأماكن في أراضي المسلمين؟ فقد سمح لهم المسلمون بإقامة دور العبادات في الأراضي الصلحية التي تصالحو عليها وتبعث المسامحة في دور العبادة المسامحة في المرافق التابعة لها. على عكس غير المقيمين في المكان والمُجلبون وقد ذكرت في النص سهواً باسم "المجلبون" والأدق "المجلبون"، فقد بطلت المسامحة ويستلزم الأمر هنا مقاطعتهم ولا يترك لهم إلا ما يلزم تركه كما إنه ببعدهم وإجلالهم بطل حكم الإقرار على ملكيتهم وحبسهم لهم وجواز تصرفهم فيها، وخاصة إذا كان هذا الإجراء بسبب غدرهم وخيانتهم. وهنا لا يستطيع القسيسين ولا الرهبان الشفاعة لهم ولا المطالبة بأي حق من حقوقهم إلا فيما أقره الكتاب الكريم بمساعدتهم من غلات هذه الأحباس عند العوز والحاجة وعلى الرغم من كل هذا لم يُضهدوا من أي إمام مسجد.

#### الإنفاق على من افتقر من أهل الذمة من بيت المال:-

" قيل إن لهم ما لسائر أهل الذمة في هذا من أنهم إذا افتقر منهم مفقر وعجز لزمانة وهرم عن الاكتساب: أن ينفق عليه من بيت المال على طريق الإنعاش أو على طريق الاحتساب وقوله في هذه الأحباس التي على هؤلاء المجلبين قد ارتفع حقه في



الكنائس لبعدهم عنها، وليست مما يتأتى قسمها، فاستوت هي وأحباسها في هذا المعنى، ووجب أن يكون الكل راجعاً إلى بيت مال المسلمين، ينظر فيه أمير المسلمين بما أراه الله، إلا في حق من بقى حياً وثبت في تحبيسه وملكه لما حبس حسبما تقدم بيأته، فله في ذلك ما تقدم ذكره. وهذه أيضاً طريقة الفقه وحقيقة العلم في هذا الفصل، وهو أشكل هذه المسائل وأغمضها وأحوجها إلى تحرير النظر ليقع النظر في عدم المقصود منه، وقد انكشف بحمد الله غطاؤه، حتى بان بتوفيق الله وحسن عونه خفاؤه<sup>(٧١)</sup>.

مما سبق يتضح لنا أن أهل الذمة إذا افتقر أحدهم أو كبر في السن وضعفت قوته ولم يستطع الإنفاق على نفسه هنا يُنفق عليه من بيت مال المسلمين مع سد كل احتياجاته واحتساب ذلك العمل عند الله تعالى. كما يتبين لنا إن ما حبس على الكنائس عند إجلاء أهلها إلى مكان آخر فإنهم لا يعطوا من هذه الأحباس شيئاً لانقطاع صلتهم بها باعتبار أن الكنائس لا يمكن قسمها، فبالتالي الأحباس المحبوسة عليها ترجع هذه إلى بيت مال المسلمين. وهنا ينظر فيها ولى أمر ويقرر صرفها كيف يشاء حسب الشريعة الإسلامية.

#### الختامة:

#### وفي نهاية الدراسة أمكن التوصل إلى النتائج التالية :-

- على الرغم من أن الأحباس عمل تطوعي الغرض منه التقرب إلى الله عز وجل إلا إن أهل الذمة اهتموا اهتماماً كبيراً بهذا العمل ولهم عدد لا حصر له من الأراضي والدور والعقارات المحبوسة. فالأندلس بها عدد لا يستهان به من أحباس أهل الذمة. كما أن الأحباس ترجع أصولها لملكيات خاصة .

- لقد كان الغرض من أحباس أهل الذمة للمسلمين الرد على مدى التسامح والوئام والتعايش بين المسلمين وأهل الذمة في معظم فترات العصر الإسلامي ، وهذا من ناحية ومن ناحية أخرى كان الغرض من أحباس أهل الذمة لهم التكافل والتكامل المجتمعي .

(٧١) الونشريسي : المعيار المعرب : ص ٦١-٦٢.





- أغلب أحباس أهل الذمة كانت للأولاد والنساء الضعفاء وللمساجد وفيها دلالة كبيرة على زهد بعضهم وورعهم كما أنه صورة من صور التكامل المجتمعي .
- انتشرت أحباس أهل الذمة في الأندلس انتشاراً كبيراً ولم يقتصر هذا على منطقة بعينها ولكنه شمل معظم مدن الأندلس.
- لا يجوز تحويل أراضي الأحباس إلى غير ما أعدت له، وليس لأحد أن يُدخل في حوزته منها شيئاً من منافعها، ولا يجوز أخذ مال الحبس حتى ولو كان على سبيل السلف.
- أحباس المسلمين لا رجوع فيها ولا سبيل للفسخ والنقض على عكس أحباس أهل الذمة .
- أن أهل الذمة من النصارى الإسبان كانوا يقومون بتوثيق أحباسهم فيما بينهم إلا إن هذا التوثيق لم يكن حائلاً أبداً فيما حبسوه. كما إن طريقة توثيق أحباسهم تتم بعيدة عن القاضي المسلم ولا علاقة له بها. حيث كان ذلك من اختصاصات زعيمهم المعروف بالقومس.
- لا يجوز للقاضي المسلم النظر في طريقة توثيق أحباس أهل الذمة ولا التأكد من سلامتها؛ لأنها في الأصل ضعيفة؛ والسبب في ضعفها هذا هو السماح لهم بالرجوع فيها .
- من حق أهل الذمة التصرف في أحباسهم والقيام ببيعها بأنفسهم أو تعيين من ينوب عنهم في عملية البيع في حالة تركهم موضعهم والانتقال إلى مكان أو بلاد أخرى .
- أحباس أهل الذمة ليس لها حرمة لعدم صحتها لكونها من شخص لا يعرف الله عز وجل فكيف يتقرب الله من لا يعرفه .
- في حالة وفاة المُحبس وانقراض وراثته تصير أملاكه لبيت مال المسلمين وليس لأهل ملته؛ لأن أحباسهم لا حرمة لها.
- إذا كان المُحبس حياً وأراد إقرار الحبس كما هو أو الرجوع فيه لنفسه مرة ثانية ووقف الحبس من حقه.
- بالنسبة لأهل الذمة الذين أجلوا من مكان إلى آخر وانقطعت صلتهم بأحباسهم ولا ينفق عليهم من هذه الأحباس لانقطاع صلتهم بها، ينفق منها على أهل الذمة المقيمين في هذا المكان أو الموضع .

والله ولي التوفيق

### قائمة المصادر والمراجع:

- الإدريسي (أبو عبدالله محمد بن محمد ابن عبد الله بن إدريس) ت ١١٦٦/هـ، صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس مأخوذ من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ليدن، مطبعة بريل، ١٨٩٣ م .
- الأموي (أبو بكر محمد بن خير بن عمر بن خليفة) ت ١١٧٩/هـ، فهرسة ابن خير الإشبيلي، تحقيق محمد فؤاد منصور، دار الكتب العلمية، بيروت.
- بشكوال (أبو القاسم خلف بن عبد الملك) ت ١١٨٣/هـ، الصلة، تحقيق إبراهيم الإيباري، الجزء الأول، دار الكتب المصري، القاهرة،
- الحميري (أبو عبد الله محمد بن عبد المنعم ت في أواخر القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي)، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق احسان عباس، الطبعة الثانية، بيروت، ١٩٨٤ م .
- الخصاف (أبو بكر أحمد بن عمرو الشيباني) ت ١٢٦١/هـ، أحكام الأوقاف، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة.
- الذهبي (شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان) ت ١٣٤٨/٧٤٨ م، سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرنؤوط وعلى أبو زيد، الجزء السابع، مؤسسة الرسالة، بيروت.
- الزبيدي (محمد مرتضى الحسيني) ت ١٢٠٥هـ: تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق الترتزي وحجازي والطحاوي والعزباوي، راجعه عبد الستار أحمد فراج، الجزء الخامس عشر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.
- ابن سهل (أبو الأصبع عيسى بن سهل الأندلسي): الإعلام بنوازل الأحكام المعروف بالأحكام الكبرى، تحقيق نورة محمد عبد العزيز التويجري، الجزء الثاني.
- ابن سهل (أبو الاصبع عيسى بن سهل الأندلسي) ت ٤٨٦هـ: وثائق وأحكام قضايا أهل الذمة في الأندلس، تحقيق محمد عبد الوهاب خلاف.



- ابن ابدین (محمد أمين) ت ١٢٥٢هـ: رد المختار على الدر المختار شرح تنوير الأبصار، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وعلى محمد معوض، تقديم محمد بكر إسماعيل، الجزء السادس، دار الكتب العلمية، بيروت
- القزويني (زكريا بن محمد بن محمود) ت ٦٨٢هـ/١٢٨٣م: آثار البلاد وأخبار العباد، ١٨٤٩م.
- مجهول مؤلف تقريباً ت ٧١٧هـ/١٣٠٧م: تاريخ الأندلس، تحقيق عبد القادر بوباية، دار الكتب العلمية، بيروت.
- الونشريسي (أبو العباس أحمد بن يحيى) ت ٩١٤هـ/١٥٠٩م: المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، إشراف محمد حجي، الجزء السابع، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية للمملكة المغربية، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.
- الونشريسي (أبو العباس أحمد بن يحيى) ت ٩١٤هـ/١٥٠٩م: المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، إشراف محمد حجي، الجزء الثامن، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية للمملكة المغربية، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

### المراجع

- أحمد بدر، دراسات في تاريخ الأندلس وحضارتها من الفتح حتى الخلافة، الطبعة الثانية ٢٠٠٨.
- حسين مؤنس: تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، الطبعة الثانية، مكتبة مدبولي، ١٩٨٦م.
- خالد عبد الكريم بن حمود البكر، النشاط الاقتصادي في الأندلس في عصر الإمارة ١٣٨-٣١٦هـ/٧٥٥-٩٢٨م، مكتبة الملك عبد العزيز العامة، الرياض، ١٩٩٣م.
- عبادة كحيلة: تاريخ النصارى في الأندلس، الطبعة الأولى، ١٩٩٣.
- عبد العالی الودغیری، دراسات معجمية نحو قاموس عربي تاريخي وقضايا أخرى، ٢٠٠١.

- عبد المطلب مصطفى رجب مظهر: أهل الذمة في الأندلس خلال الحكم الأموي عصري الإمارة والخلافة ١٣٨هـ-٤٢١هـ/٧٥٦م-١٠٣٠م، رسالة ماجستير بجامعة اليرموك، ١٩٩٩.
- عبد الواحد شُعير: الممتلكات العقارية للجماعات المحلية بالمغرب، مطبعة فضالي، جامعة كاليفورنيا، ١٩٩١.
- عبيد بوداود، قراءة في أوقاف أهل الذمة بالأندلس، مجلة الناصرية، العدد السابع، مخبر البحوث الاجتماعية والتاريخية.
- عز الدين أحمد موسى: النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي في القرن السادس الهجري، الطبعة الأولى ١٩٨٣، دار الشروق.
- كمال السيد أبو مصطفى: الأحباس في الأندلس ضمن كتاب بحوث في تاريخ وحضارة الأندلس في العصر الإسلامي، مركز الإسكندرية للكتاب، ١٩٩٧.
- ليفي بروفنسال، سلسلة محاضرات عامة في أدب الأندلس وتاريخها، ترجمة عبد الهادي شعير، جامعة الإسكندرية، ١٩٥١.
- مجموعة مؤلفين: المعجم الوجيز، مجمع اللغة العربية، طبعة ١٩٤٤.
- محمد محمد أمين: الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر دراسة تاريخية وثائقية، دار النهضة العربية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٨٠.
- منذر قحف: الوقف الإسلامي تطوره إدارته، تنميته، دار الفكر، دمشق، ٢٠٠٠.

## جهود الملك عبد العزيز في توفير المياه لمدينة جدة

أ.د. عادل بن محمد نور غباشي

وكيل جامعة أم القرى - سابقاً

### ملخص البحث:

بعد ضمّ الملك عبد العزيز . رحمه الله . مدينة جدة إلى حكمه عام ١٣٤٤هـ/١٩٢٥م، علم بمشكلة نقص المياه العذبة الصالحة للشرب فيها، وما كان يعانيه السكان والعاثرون لها لأداء مناسك الحج والعمرة، وازدياد معاناتهم بنضوب مياه عين الوزيرية، وخراب آلة التقطير (الكنداسة)، وتعطلها عن إنتاج المياه، فجعل من أولوياته معالجة نقص المياه في جدة، وتوفيره للسكان والحجاج والمعتمرين العابرين لها، وتمّ بالبداية في توريد التين كبيرتين، لتقطير الماء وتوفيره عذباً صالحاً للشرب، ثم أمر ببذل الجهود لتوفير المياه من مصادرها الطبيعية كالعيون والآبار، ودراسة جلبها من خارج جدة، وأثمرت الدراسة عن تقديم مشروع جلب مياه العيون والآبار، من وادي فاطمة (الجموم) إلى جدة، لأول مرة في تاريخ هذه المدينة، فأمر بتنفيذه وتحقق بوصول مياه العيون إليها في ١/١/١٣٦٧هـ/١٥/١١/١٩٤٧م، وسمّيت بالعين العزيزية، وأوقف عليها الأوقاف، للصرف من ريعها على استمرار صيانة العيون والآبار، والقنوات، وضمان وصول مياهها إلى جدة، التي أخذت في التطور والارتقاء في العمران، نتيجة توفر الماء عنصر الحياة فيها كما قال الله عزّ وجلّ: ( وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ) " ٣٠ - سورة الأنبياء ."

### أولاً: صفة حال المياه في مدينة جدة في بداية عهد الملك عبد العزيز:

بعد التوقيع اتفقيه تسليم مدينه جدة يوم الخميس ١٣٤٤/٦/١هـ/١٢/١٧م، وخرج الملك علي بن الحسين آخر ملوك الحجاز منها يوم الأحد ١٣٤٤/٦/٤هـ - ١٩٢٥/١٢/٢٠م انضمت مدينة جدة إلى حكم الملك عبد العزيز<sup>(١)</sup>، وأصبح مسؤولاً عن أمنها واستقرارها وتوفير سبل العيش لأهلها، و بايعه أعيان الحجاز وعلماؤها ووجهائها والناس بمختلف طوائفهم ليكون ملكاً على الحجاز<sup>(٢)</sup>، ومنذ هذا التاريخ بدأت الأعمال في مواجهة مشكلة نقص المياه في مدينة جدة في عهد الملك عبد العزيز ومنتبعا بما يلي:

#### ١. مصادر المياه الطبيعية:

##### \* العيون:

تم الاعتماد عليها في توفير المياه لمدينة جدة منذ أواخر القرن الحادي عشر للهجرة السابع عشر للميلاد، حيث تم جلب مياه عين وادي قوز من شرق المدينة، وذلك بإنشاء قناة مبنية بالحجارة المجصصة ولها فتحات للسقيا والصيانة (خرزات)<sup>(٣)</sup>، واستمرت مياه العين في عطائها لتلبية احتياجات السكان والحجاج والمعتمرين العابرين لهذه المدينة في طريقهم إلى مكة،

(١) لمزيد من التفاصيل انظر: الغامدي، محمد بن جمعان، جدة في عهد الملك عبد العزيز آل سعود ١٩٢٥-١٩٥٣م، ط١، (القاهرة: الوادي الجديد للطباعة، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م)، ص١٣٩-١٤٣.

(٢) عسّه، أحمد، معجزة فوق الرمال، ط٣، (دب، ١٣٩١-١٣٩٢هـ/١٩٧١-١٩٧٢م)، ص٩٩-١٠٠.

(٣) غباشي، عادل بن محمد نور، إيصال مياه العيون إلى مدينة جدة منذ القرن العاشر حتى نهاية القرن الثالث عشر للهجرة، (مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدابها، ج١٢، العدد ١٩، شعبان ١٤٢٠هـ)، ص٦٣٤، ٦٣٥، ٦٣٩، ٦٤١، ٦٤٢.

إلا إنها لم تستمر طويلاً، وانقطعت المياه مما تطلب ترميم قنواتها وصيانتها<sup>(١)</sup>، وكان أثرها في سقيا جدة في تذبذب حتى أواخر القرن الثالث عشر للهجرة التاسع عشر للميلاد، ولم يرد ما يدل على أنها حلت مشكلة نقص المياه في جدة<sup>(٢)</sup> كما لم نطلع على أثرها في تزويد جدة بالماء في عهد الملك عبد العزيز<sup>(٣)</sup>.

### \* عين الوزيرية:

تم إيصالها إلى جدة عام ١٣٠٤هـ/١٩٨٦م<sup>(٤)</sup>، وذلك بإنشاء قناة لنقل المياه من منبعها في الرغامة، على بعد نحو ١١ كم جنوب شرق المدينة، إلى خزان لتوزيع المياه في منطقة العيروس مجاوراً للسور<sup>(٥)</sup>، ولم تستمر في عطائها لحل مشكلة نقص المياه في جدة وظهرت الحاجة إلى إصلاحها وترميمها في سنوات عديدة، وانقطعت مياهها عام ١٣٢٤هـ/١٩٠٦م<sup>(٦)</sup>، وخلال حصار جدة عام ١٣٤٣هـ/١٩٢٤م بلغ الملك عبد العزيز أن سرية من جنوده تمكنوا من السيطرة على موارد المياه خارج سور جدة وانقطعت المياه عنها، فغضب غضباً شديداً و أمر بإعادة المياه إلى مجاريها فوراً وتم ذلك<sup>(٧)</sup>.

- (١) الغازي، عبد الله بن محمد، إفادة الأنام بذكر أخبار البلد الحرام، ط١، (مكة المكرمة: مكتبة الأسدي للنشر والتوزيع، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م)، ج٤، ص ٦٩١-٦٩٣.
- (٢) غباشي، إيصال مياه العيون إلى مدينة جدة، ص ٦٣٦-٦٣٩.
- (٣) انظر: الأنصاري، موسوعة تاريخ مدينة جدة، ط٣، (القاهرة: دار مصر للطباعة، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م)، الزركلي، خير الدين الزركلي، شبه الجزيرة في عهد الملك عبد العزيز، ط٢، (بيروت: دار العلم للملايين، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م).
- (٤) صبري، أيوب، مرآة جزيرة العرب، ترجمة وتقديم وتعليق: أحمد فؤاد متولي، والصفصافي أحمد المرسي، ط١، (الرياض: دار الرياض للنشر والتوزيع، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م)، ج١، ص ١٧٩-١٨١.
- (٥) غباشي، عادل بن محمد نور، إيصال مياه عين الوزيرية إلى مدينة جدة في بداية القرن الرابع عشر للهجرة، (مجلة كلية الآثار بجامعة القاهرة، ٢٠٠٠م)، ص ٦٩٩-٧٢٨.
- (٦) لمزيد من المعلومات انظر: غباشي، إيصال مياه عين الوزيرية، ص ٧٠٤-٧٠٥.
- (٧) الغامدي، جدة في عهد الملك عبد العزيز، ص ١٣٥، حاشية رقم ١.

وأشار المازني الذي زار جدة في أوائل حكم الملك عبد العزيز، إلى مياه عين الوزيرية بأنها كانت تكفي المدينة (وقد ذهبت معالمها ودرست آثارها)<sup>(١)</sup>.

ونستدل مما سبق أن مياه عين الوزيرية كانت مستمرة في عطائها في بداية عهد الملك عبد العزيز ثم انقطعت، وليس بين أيدينا ما يفيد بحجم كمية المياه الواردة، إلا أننا نرجح أنها كانت مصدرًا إضافيًا لما كان يرد إلى جدة من الآبار والصحاريح، وهذا ما سنتكلم عنه فيما يلي:

### \* الآبار والصحاريح والبرك:

اعتمد عليها سكان جدة منذ نشأتها، واشتهرت الآبار البعيدة عنها بقلة ملوحتها عن الآبار داخلها، أما الصحاريح والبرك، فهي عبارة عن خزانات وأحواض لتجميع مياه السيول والأمطار المتسمة بتلوث كثير منها، واضطر إليها السكان والحجاج العابرون إلى مكة لندرة المياه العذبة في هذه المدينة<sup>(٢)</sup>.

وبمتابعة صفة حال هذه المياه نشير إلى ما أورده أيوب صبري بقوله: (إذا كانت مياه الآبار صالحة للشرب إلى حد ما، فإن مياه البحر قد تختلط بمياه السيول فتقلل من الطعم اللذيذ لمياه الأمطار، ومع ذلك فالواجب يقتضي أن تشرب هذه المياه في حينها، لأنها إن بقيت ليلة واحدة في كوب أو في قربة تعفنت)<sup>(٣)</sup>، وأشار البنتوني إلى (أن ماء الشرب فيها من الصحاريح

(١) المازني، إبراهيم بن عبد القادر، رحلة إلى الحجاز، (القاهرة: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ٢٠١٢م)، ص ٩٤-٩٥.

(٢) الأنصاري، عبد القدوس، تاريخ العين العزيرية بجدة ولمحات عن مصادر المياه في المملكة العربية السعودية، (المملكة العربية السعودية: إدارة العين العزيرية بجدة، د.ت)، ص ٢٥-٢٧، ولمزيد من المعلومات انظر: غباشي، عادل بن محمد نور، توفير المياه لمدينة جدة خلال المدة ١٣٠٤-١٣٤٤هـ/١٨٨٦-١٩٢٥م، (مجلة المؤرخ العربي، ٢٠١٧م)، ص ٤٢٩-٤٣٣.

(٣) صبري، أيوب، مرآة جزيرة العرب، ج١، ص ١٧٨.



القديمة، التي تملأ من ماء المطر، أو من العيون الموجودة خارج المدينة، وكل ما قربت العيون من البحر كانت مياهها مالحة غير صالحة للشرب... وأن الحجاج لا يشربون في أثناء وجودهم في هذه المدينة إلا من المياه التي يأتون بها من الحفر والآبار، فضلاً عن وساختها، فإن طعمها يميل دائماً إلى الملوحة ولولا فضل الله عليهم لهلكوا منها جميعاً<sup>(١)</sup>. وفي عهد الملك عبد العزيز نالت الصهاريج في جدة عنايةً وإصلاحاً بعد خراب أكثرها، وعملت الحكومة السعودية على استقدام اثنين من المهندسين المصريين لاختيار المواقع الجيدة لحفر الآبار الارتوازية، إلا إن معداتها لم تكن كافية، فاستبدلوا باثنين من المهندسين الغربيين من ذوي الخبرة لأداء المهمة<sup>(٢)</sup>، واستمرت الصهاريج في أداء وظيفتها في بداية عهد الملك عبد العزيز، مجمعةً لمياه السيول والأمطار، وكان منها ما يسع نحو ٢٤٠٠٠٠ صفيحة من الماء، مما شكل نوعاً من الكفاية لجدة في موسم الحج<sup>(٣)</sup>، ثم استغني عنها بعد دخول مياه عين العزيزة إلى جدة<sup>(٤)</sup>.

## ٢. آلة التقطير الكنداسة:

تم اللجوء إليها لتحلية مياه البحر عام ١٣٢٥هـ/١٩٠٧م، ولم يكن إنتاجها من الماء العذب كافياً لسد حاجة سكان جدة من الماء، وكانت بحاجة إلى صيانة مستمرة وإصلاح، مما أدى إلى تقطع إنتاجها حتى عام ١٣٤٦هـ/١٩٢٧ - ١٩٢٨م<sup>(٥)</sup>، وتعددت الروايات في كمية

(١) البتتوني، محمد لبيب، الرحلة الحجازية، ط٣، (الطائف: مكتبة المعارف، دبت)، ص ٨.

(٢) المازني، رحلة إلى الحجاز، ص ٢٧، ٩٤-٩٥.

(٣) المازني، رحلة إلى الحجاز، ص ٣٢-٣٣.

(٤) الأنصاري، تاريخ العين العزيزية بجدة، ص ٢٧.

(٥) غباشي، توفير المياه لمدينة جدة، ص ٤٤١-٤٤٨.

إنتاجها من الماء، فورد أنها كانت تنتج ٣٠٠ طن يوميًا<sup>(١)</sup>، وورد أنها ٦٠ طنًا، وورد أنها ١٠٠ طن<sup>(٢)</sup>. وأرى أنه من جميع التقديرات الواردة، فإن كمية الماء المنتجة منها غير كافية لسكان جدة، هذا علاوة على العابرين منها للحج والعمرة، مما يرجح أن مشكلة نقص المياه في جدة استمرت مع بداية العصر السعودي، لاسيما بعد انقطاع الفحم الحجري عن جدة في الفترة ما بين عام ١٣٤٣\_١٣٤٤هـ/١٩٢٤\_١٩٢٥م، مما اضطرهم إلى تشغيلها بإيقاد الحطب، فأدى إلى خرابها نهائيًا سنة ١٣٤٦هـ/١٩٢٧م.

وحيثما لم تجد كل المحاولات السعودية المتخذة في عهد الملك عبد العزيز لإصلاحها، تم مباشرة استيراد التين كبيرتين في السنة نفسها التي خربت فيها القديمة، وأدت مهمة تقطير الماء، وأثرت بشكل إيجابي في توفيره للسكان والمارين بمدينة جدة؛ ونظرًا للحاجة الملحة للماء المنتج من الآلتين، فقد تم تشغيلهما فوق طاقتهما الفنية، مما أسهم في خراب إحداهما<sup>(٣)</sup>.

#### ويمكن أن نخلص مما سبق إلى ما يلي:

\* إن آلة التقطير الكنداسة التي تم تأمينها لتحلية مياه البحر لسقيا جدة عام

١٣٢٥هـ/١٩٠٧م، استمرت في عملها بتقطع إلى خرابها عام ١٣٤٦هـ/١٩٢٧\_١٩٢٨م، وكان مدة عملها نحو ٢١ عامًا.

\* إن مائه وقودها كان الفحم الحجري الذي ليس من معطيات البيئة المحلية، وكان يجلب من الخارج، مما أضاف أعباء مالية على تشغيلها، وحين انقطاعه استبدل بالحطب المتوفر في البيئة المحلية، مما أسهم في خرابها.

(١) الأنصاري، تاريخ العين العزيزية بجدة، ص ٤٩.

(٢) غباشي، توفير المياه لمدينة جدة، ص ٤٦.

(٣) الأنصاري، تاريخ العين العزيزية بجدة، ص ٥٠.

\* في عهد الملك عبد العزيز جرت محاولات إصلاح آلة التقطير (الكنداسة) لتستمر في إنتاجها من الماء حتى عام ١٣٤٦هـ/١٩٢٥م، وبعد أن ظهر عدم جدوى ذلك، تم مباشرة استيراد التين كبيرتين لتحلية مياه البحر، مما يؤكد اهتمام الدولة بتأمين الماء لسكان جدة والعاشرين لها من الحجاج والمعتمرين، وأعطيت الأولوية في الصرف لذلك، مع صعوبة الأوضاع الاقتصادية التي كانت تعيشها المملكة في ذلك الوقت، الذي لم يكتشف فيه البترول<sup>(١)</sup>.

### ثانياً: مشروع عين العزيزية:

#### ١. فكرة المشروع وأهميته:

بناءً على ما سبق عن حالة نقص المياه في جدة، واضطرار سكانها إلى الشرب من مياه الصهاريج، فقد صور لنا الزركلي ذلك بما يلي: (كان الخطب في جدة أشد، والعمل أعظم، كانت جدة إلى عهد غير بعيد، تعاني الأهوال من قلة الماء، يشرب أهلها مما يتجمع من ماء المطر في حفائر أو صهاريج أنشئت بغير نظام ولا فن، وإذا شحَّ المطر وقلَّ المدخر ارتفعت أسعار الماء وظمئ الناس أو ارتحلوا . . . والكنداسة كانت كثيراً ما تتعطل لطارئ يحل ببعض أدواتها، فيضج الناس ويقتتلون على صفيحة من الماء، أو يلجئون إلى الحفائر والصهاريج، إن كان فيها ما ينقع الغلة.

واستمرت الشدة في جدة حتى خففتها الحكومة السعودية تخفيفاً مؤقتاً بجلب كنداسة أخرى تساعد الأولى، فكان متوسط إنتاج كل منهما ١٣٥ طنًا في اليوم، ونشبت الحرب العالمية الثانية، فقلَّت مادة الوقود، وكانت تنفد أحياناً، فتتوقف الآلتان عن عملهما ويشقى الناس

(١) انظر: عسَّه، معجزة فوق الرمال، ص٣٢٨-٣٣١، الزركلي، شبه الجزيرة، ج٤، ص١٣١٤.

.. ومازلت أذكر يوماً في جدة، اتصل بي فيه الوزير المفوض البريطاني، هاتقياً، وأخبرني إن بعض خدم المفوضية أرادوا ملء أوعيتهم بماء الكنداسة، والازدحام عليها شديد، فضربهم صبيان البيوت الأخرى، ورجعوا خائبين، ثم قال: ليس لدينا قطرة ماء للشرب، فماذا ترى؟ قلت: أبشر وبعثت إليه بصفيحة من الماء، مما كان في الخارجية فكانت من أحب ما يُهدى<sup>(١)</sup>. ونظراً للأمن والاستقرار الذي خيم على مدن المملكة العربية السعودية في عهد الملك عبد العزيز، فقد حظيت جدة بنصيبها الوافر<sup>(٢)</sup>، ومن ثم، انعكس ذلك على زيادة عدد سكانها وتطورها<sup>(٣)</sup>، باعتبارها بوابة مكة والمدينة التجارية المهمة على ساحل البحر الأحمر<sup>(٤)</sup>، علاوة على أنها مقر وزارة الخارجية، ومقر إقامة المبعوثين السياسيين، من سفراء ووزراء مفوضين وقناصل مندوبين رسميين<sup>(٥)</sup>، ولعل في عرض الحدث التالي ما يبين أهمية المدينة، والجهود التي بذلت لزيادة كمية المياه فيها، لتستمر حياة الناس في سعادة وهناء:

ففي أثناء الحرب العالمية الثانية (١٣٥٩\_١٣٦٤هـ/١٩٣٩\_١٩٤٥م) لزم الملك عبد العزيز الحياد ليجنب شعبه، ويلات الحرب، وانصرف إلى تسهيل الحج للمسلمين وتأمين سبله، وإلى معالجة وسائل الإصلاح في مملكته الناشئة .. ولجأ إلى بلاده ٨٢٧ جندياً منهم ٢٧ ألمانياً و ٨٠٠ إيطالي، قذف بهم البحر الأحمر إلى الشواطئ السعودية، فأمر بأن يعاملوا

- (١) الزركلي، شبه الجزيرة، ج٣، ص ٩٤٣-٩٤٤.
- (٢) الغامدي، جدة في عهد الملك عبد العزيز، ص ١٤١-١٥٥.
- (٣) الأنصاري، موسوعة تاريخ مدينة جدة، ص ١١٤-١١٧، ١٤١-٢٤٠.
- (٤) ششه، نوال سراج، جدة مطلع القرن العاشر الهجري، السادس الميلادي، ط ١، (مكة المكرمة: مكتبة الطالب الجامعي، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م)، ص ٢٣، غباشي، إيصال مياه العيون إلى مدينة جدة، ص ٦٢٨.
- (٥) الزركلي، شبه الجزيرة، ج٣، ص ٨٦٦.

معاملة الضيوف، فأخليت لهم جزيرة أبي سعد قرب جدة، وتم تزويدهم بالطعام والشراب والكساء والغطاء، إلي أن فتح لهم طريق عودتهم إلى بلادهم بعد انتهاء الحرب، فعادوا يلهجون بالثناء<sup>(١)</sup>. ونظراً إلى أن جدة أضحت المقر السياسي للدولة، فقد توسعت في عهد الملك عبد العزيز في بناء المؤسسات الحكومية، وابتنى كبار رجالها وموظفيها المساكن المريحة لأسرهم، وزاد عدد الوافدين من الخارج بما فيهم الممثلون السياسيون وأصحاب المشاريع والأعمال الحكومية والحرّة، وبدأت ثروة البلاد في النمو، وأخذ إقبال السكان على العمران (فجدة كل يوم في مزيد)<sup>(٢)</sup>، مما أكد حاجتها المتزايدة للماء، والقضاء على أزمته التي هزت أرجاءها، ففكر أعيانها وموسروها في التبرع لجلب ماء عين من وادي فاطمة إليهم، إلا إن الملك عبد العزيز أخذ بزمam المبادرة، وأمر بإعادة تبرعات المتبرعين إليهم<sup>(٣)</sup>، وأمر عام ١٣٦٥هـ/١٩٤٦م<sup>(٤)</sup> وزير المالية عبد الله السليمان (بجلب الماء من وادي فاطمة إلى جدة، مهما يكلف من نفقات طائلة، وفي أقصر مدة ممكنة)<sup>(٥)</sup>.

(١) الزركلي، شبه الجزيرة، ج٣، ص ٩٦١-٩٦٣.

(٢) الزركلي، شبه الجزيرة، ج٣، ص ٨٥١-٨٥٢، ولمزيد من المعلومات عن التعديين ونمو الثروة في السعودية، انظر: آل خشيل، مها بنت علي، التنقيب عن المعادن في عهد الملك عبد العزيز (١٣٤٤-١٣٧٣هـ/١٩٢٦-١٩٥٣م)، (مجلة الدارة، العدد الأول، السنة الثالثة والأربعون، ١٤٣٨هـ/٢٠١٧م)، ص ١٠٥-١٥٠.

(٣) الأنصاري، تاريخ العين العزيزية بجدة، ص ٦٨، ٥٨، ٥٥، لجنة العلاقات العامة بإدارة العين العزيزية بجدة، لمحات عن العين العزيزية بجدة وقف جلالة الملك عبد العزيز آل سعود، (د.ن، د.ت)، ص ١٥.

(٤) الزركلي، شبه الجزيرة، ج٣، ص ٩٤٤.

(٥) الأنصاري، تاريخ العين العزيزية بجدة، ص ٥٨، ٥٥.

وإذا سألنا عن أسباب التوجه إلى جلب المياه من وادي فاطمة إلى جدة، نجد أنها نتجت عن دراسة<sup>(١)</sup>، حيث وجّه الملك عبد العزيز إلى استقدام البعثة الزراعية الأمريكية عام ١٣٦١هـ/١٩٤٢م، للكشف عن حالة البلاد الزراعية والمائية ووضع مخططات التحسين والإينماء للبلاد، فجاوبت البعثة أرجاء المملكة باحثاً في مهمة مسح مائي وزراعي، وسجلت تقريرها واقتراحاتها باللغتين العربية والإنجليزية عام ١٣٦٢هـ/١٩٤٣م، تحت عنوان تقرير البعثة الأمريكية الزراعية التي أوفدت إلي المملكة العربية السعودية<sup>(٢)</sup>.

وتوجه التقرير إلى وادي فاطمة ومنطقه حداءً لجلب مياه العيون منها إلى جدة، قد سبقه دراسة أعدت قبل نحو ٤٥٠ عامًا لجلب المياه من حداءً إلى جدة، وتم العدول عنها لصعوبة المنطقة ووجود مواقع جبلية يلزم تكسيرها بعمق نحو ١٥ ذراعًا (٧،٥م) تقريبًا، حتى يمكن الوصول إلى ميزان الماء الذي تبنى على أساسه القناة<sup>(٣)</sup>.

ولعل مقارنة فكرة المشروع في العصر العثماني وتحديدًا في القرن العاشر للهجرة السادس عشر للميلاد، ومن ثم العدول عنه لصعوبة تنفيذه، وأقدام الملك عبد العزيز بالأمر على وزير المالية بتنفيذه، مهما يكلف من أموال طائلة، وفي أقصر مدة ممكنة، ما يؤكد حرص الملك عبد العزيز وعنايته بإيجاد حل لمشكلة نقص الماء في جدة، وتوفيره لسكانها وحجاج بيت الله الحرام، وقد سمّي هذا المشروع عين العزيزية نسبةً للملك عبد العزيز<sup>(٤)</sup>.

(١) صحيفة صوت الحجاز، العدد (٣٩٨) في ٢٧/٢/١٣٥٨هـ.

(٢) الأنصاري، تاريخ العين العزيزية بجدة، ص ٥٨، ٥٥.

(٣) لمزيد من المعلومات انظر: غباشي، إيصال مياه العيون إلى مدينة جدة، ص ٦٣٢-٦٣٤.

(٤) انظر ما يرد لاحقًا عن أثر وصول مياه العين العزيزية على السكان في جدة.

## ٢. القائمون على المشروع:

تولى الشيخ عبد الله السليمان وزير المالية السعودي مهمة الإشراف والمتابعة على تنفيذ مشروع عين العزيزية، وبدأ العمل بالتعاقد مع محل (الخواجات جلا تلي هنكي وشركائهم بجدة) في ١٣٦٦/١/٨ هـ / ٢١/١١/١٩٤٦ م على تنفيذ المشروع الهادف إلى جلب مياه العيون من وادي فاطمة إلى جدة، وقد تطلب أيضاً تعيين هيئة للاشتراك في عقد الاتفاق وتحديد التقديرات المالية، لتعويض ملاك العيون في وادي فاطمة، عن كمية المياه التي ستؤخذ منها، وضمت الهيئة الشريف عبد الله بن ثواب والشريف هزاع بن عبد الله والشيخ صالح قزاز، وانضم إليهم لاحقاً بعض أعيان جدة، الشيخ محمد نصيف والشيخ يوسف زينل والشيخ محمد الهزاز<sup>(١)</sup>.

### أما القائمون على الأعمال، فكانوا كما يلي:

- \* رئيس شركة جلا تلي هنكي اللندنية.
- \* المدير العام لشركة جلا تلي هنكي السودانية.
- \* عضو من مجلس إدارة شركة جلا تلي هنكي السودانية.
- \* مدير شركة جلا تلي هنكي السعودية بجدة.
- \* أحمد أفندي عشاوي، معاون مدير شركة جلا تلي هنكي السعودية بجدة.
- \* شركات أخرى كلفت من شركة جلا تلي هنكي، منهم شركة مصر لأعمال الإسمنت المسلح بالقاهرة، وهم المهندسون الذين قاموا بمدّ خط الأنابيب، والمقاولان محمد بن لادن وأخوه عبد الله، للقيام بأعمال الحفر اللازمة لمدّ الأنابيب<sup>(٢)</sup>.

(١) الأنصاري، عبد القدوس، تاريخ العين العزيزية بجدة، ص ٧٠، ٧٧.

(٢) الأنصاري، تاريخ العين العزيزية بجدة، ص ٧٨.

\* وبعد اكتمال المشروع تم تكليف إدارة للإشراف عليه، بمسمى إدارة العين العزيزية، بعد أن نقل إليها داره عين الوزيرية وأملاكها عام ١٣٦٧هـ/١٩٤٧-١٩٤٨م، وكانت برئاسة الشيخ عثمان باعثمان وعضوية كل من:

\* الشيخ أحمد محمد صالح باعشن. \* الشيخ أحمد يوسف زينل.  
\* الشيخ حسين نصيف. \* محمد سعيد باناجه<sup>(١)</sup>.

وكان الموظفون في إدارة عين العزيزية بجدة عام ١٣٦٨هـ/١٩٤٨م كما يلي:

- مدير أعمال
- أمين الصندوق
- تسعة مراقبين
- مدير الإدارة.
- كاتب.
- مراسل.
- المحاسب.
- مأمور مستودع.
- بواب<sup>(٢)</sup>.
- مدير الهيئة.
- مفتشان.

### ٣. مصادر التمويل المالي:

قدرت تكلفة المشروع بمبلغ ٦٠٠٠٠٠٠٠ ريال، تحملها الملك عبد العزيز من حسابه الخاص، وأكد حرصه واهتمامه بذلك من خلال لقائه بملك العيون في وادي فاطمة، للتشاور معهم في نقل جزء من مياه عيونهم عبر قناة إلى جدة، مع الحرص على عدم الإضرار بمزارعهم، وتم ذلك بتاريخ ١٣٦٦/١/٧هـ/١٩٤٦م، وورد عنه (لا إجبار لهم على أخذ الماء من واديهم . . . المسألة مسألة خيرية واختيار يهدفان إلى تحقيق الصالح العام)<sup>(٣)</sup>.

(١) الأنصاري، تاريخ العين العزيزية بجدة، ص ٥٠، ٥١.  
(٢) الأنصاري، تاريخ العين العزيزية بجدة، ص ١٤٩-١٥٠.  
(٣) الأنصاري، تاريخ العين العزيزية بجدة، ص ٦٨-٦٩.



وبناءً على ذلك اجتمع وزير المالية مع ملاك العيون لعقد الاتفاق، وقد أمره الملك عبد العزيز بأن لا يبخل عليهم بالمال، وتم الاتفاق والتوقيع عليه بتاريخ ١٠/١/١٣٦٦ هـ / ١٩٤٦ م، متضمنًا أخذ نسبة من عدة عيون لسقيا جدة<sup>(١)</sup>.

وفي ٦/١١/١٣٦٧ هـ / ١٩٤٧ - ١٩٤٨ م أمرت وزارة المالية، بنقل أملاك إدارة عين الوزيرية، إلى إدارة عين العزيزية التي تشكلت، وقد جعل الملك عبد العزيز هذا المشروع وفقاً خالداً، على جدة وسكانها والوافدين إليها والحجاج العابرين لها، وعيّن سمو نائبه العام (جلالة الملك فيصل ابن عبد العزيز) ناظرًا لهذا الوقف<sup>(٢)</sup>، ولتحقيق مزيد من الموارد المالية، للإنفاق منها على متطلبات صيانة العيون وقنواتها، والبحث عن مصادر مائية أخرى، لتغذية جدة بالماء، ودفع أجور العاملين فيها، فقد تم الإفادة مما يلي:

\* إنشاء مزرعة في الكيلو ١٠ على طريق مكة جدة، وسقيها بفائض الماء الوارد من عين العزيزية، وتقاسم الأرباح مع مديرية الزراعة.

\* أمر الملك عبد العزيز في ٢٥/٨/١٣٦٧ هـ / ١٩٤٦ م، بتخصيص أراضٍ على جانبي طريق جدة إلى أوائل منطقة العيون، لتكون ملكًا للعين العزيزية، لاستثمارها والإفادة من عوائدها المالية.

\* بناء الأوقاف والإفادة من ريعها<sup>(٣)</sup>.

\* وضع قيمة رمزية للماء الوارد إلى جدة، لاستمرار نمو هذا المشروع الخيري، والإسهام بجزء يسير في نفقات تشغيله<sup>(٤)</sup>.

\* قبول الهبات والتبرعات<sup>(١)</sup>.

(١) الأنصاري، تاريخ العين العزيزية بجدة، ص ٧١-٧٣.

(٢) الأنصاري، تاريخ العين العزيزية بجدة، ص ٥١، ١٢٢، ٢٧١.

(٣) الأنصاري، تاريخ العين العزيزية بجدة، ص ١٥٠، ١٧٣، ١٨٢، ١٨٥، ٣٢٩، ٣٣٠، ٣٣١، ١٤٩.

(٤) الأنصاري، تاريخ العين العزيزية بجدة، ص ١٤٩-١٥٠.

### ثالثاً: تنفيذ مشروع عين العزيزية:

تطلب تنفيذه دراسة كمية المياه التي يمكن جلبها، وأساليب ذلك بما فيها قياس نسبة انحدار الأرض، لتسهيل انسياب المياه طبيعياً، خاصة في المرحلة الأولى من المشروع<sup>(٢)</sup>، وتم التوجه إلى وادي فاطمة، لأخذ جزء من مياه عدد من العيون، وإيصالها إلى جدة عبر قناة مبنية، واستخدام أنابيب الخفان (الأسبستوس) بطول ٦٥ كم، ثم التوجه إلى الإفادة من مياه الآبار، لتكون رافداً إضافياً للقناة، واستغلال طبيعة ارتفاع الأرض وانحدارها من وادي فاطمة إلى جدة، لتسهيل تدفق المياه إليها عبر القنوات، وهذا ما سنتبعه فيما يلي:

### مصادر المياه في وادي فاطمة (الجموم):

عرف بوادي مر الظهران<sup>(٣)</sup>، ووادي الشريف، يقع في المنطقة الغربية من المملكة العربية السعودية، ويبعد نحو ٢٠ كم إلى الشمال من مكة، وقد أكسبه قربه منها أهمية خاصة، فهي تقع على خط تقسيم المياه تقريباً، بين حوضه وحوض وادي نعمان الذي يحده من الجنوب، أما من الشمال فيحده حوض وادي عسفان، ومن الشرق والجنوب الشرقي حوض وادي العقيق وحوض وادي وج، وينتهي غرباً في البحر الأحمر عند الخرمة جنوب جدة، وقلبياً

- 
- =
- (١) صحيفة أم القرى، السنة السادسة والعشرين، عدد ٨، ذو الحجة، سنة ١٣٦٨هـ، موقع إلكتروني لدارة الملك عبد العزيز: ([www.darahservices.org](http://www.darahservices.org)).
  - (٢) الأنصاري، تاريخ العين العزيزية بجدة، ص ٥٤-٦٨، وكذلك التقرير النهائي حول إمكان الحصول على الماء من وادي فاطمة لآلي شورت الخبير البيولوجي، ص ٣٧٠-٣٨٥.
  - (٣) البلادي، عاتق غيث، أودية مكة المكرمة، ط ١، (مكة المكرمة: دار مكة للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م)، ص ٨، ١٠.

يقع بين خطي طول ٣٩،١٥ و ٤٠،٣٢ شرقاً ودائرتي عرض ٢١،١٥ و ٢٢،١٥ شمالاً<sup>(١)</sup> شكل(١).

ويأخذ وادي فاطمة أعلا روافده من المنحدرات الشرقية لجبل كرا، حيث يسيل وادي الكمل من وهاد ( الهداة)، ويسيل وادي المحرم بين الجبال الواقعة بين جبال عفار غرباً وجبل الغمير شرقاً، وهو ميقات أهل الطائف ومن مر به، فإذا انحدر سمي السيل وهو ميقات أهل نجد، ثم يتجه الوادي إلى الشمال الشرقي، ثم يعدل إلى الشمال الغربي، وترفده أودية عديدة، وعند التقائه بعج الزرقاء سمي الوادي نخلة الشامية، وتسميه العامة المضيق، نسبة إلى عين فيه بهذا الاسم، وبعدها يأتي إلى الوادي من جهة الجنوب الشرقي واد كبير ذي روافد عديدة، يسمى نخلة اليمانية، وبه عينان للماء الزيمة وسولة، فإذا التقى وادي نخلة الشامية بوادي نخلة اليمانية سمي وادي الزيارة، وفيه ٩ عيون، فإذا وصل إلى عين (أبو حصاني) حيث موارد مياه عين العزيزية، سمي وادي فاطمة أو وادي الشريف<sup>(٢)</sup>، وبهذا فقد أخذ وادي فاطمة أهمية كبيرة لتوفر المياه فيه واستخدامها في الزراعة، والاتجاه إليه في عهد الملك عبد العزيز لتوفير ما تحتاجه جدة من الماء<sup>(٣)</sup>.

وقد وردت روايات عديدة عن عدد العيون في هذا الوادي، منها أنه كان فيه ٣٦٠ عيناً جف معظمها، أو طمر بالأتربة أو جرفته السيول، ولم يبق منها عند تنفيذ مشروع عين العزيزية سوى ١٢ عيناً<sup>(٤)</sup>، ومنها أنه كان فيه ٣٠٠ عين لم يبق منها إلا ٤٤ عيناً أو ٣٥

(١) البارودي، محمد سعيد، الميزانية المائية لحوض وادي فاطمة، (الكويت: نشرة دورية محكمة تعني بالبحوث الجغرافية، يصدرها قسم الجغرافيا بجامعة الكويت والجمعية الكويتية - ٨٨ - رجب ١٤٠٦ هـ/أبريل ١٩٨٦ م)، ص ٦، والخرائط التوضيحية.

(٢) البلادي، أودية مكة المكرمة، ص ٨-١٠.

(٣) البارودي، الميزانية المائية لحوض وادي فاطمة، ص ٦، ٨، ١٢.

(٤) الأنصاري، تاريخ العين العزيزية بجدة، ص ١٢، ٩٦.

عيناً<sup>(١)</sup>، ورأى البلادي الذي زار الوادي عام ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م أنه كان فيه ٢٦ عيناً انتهت<sup>(٢)</sup>، وتقدر مساحة حوضه بـ ٤٢٨٠ كم<sup>٢</sup>، مما جعله واحداً من أهم الأودية، التي تتصرف مياهها إلى البحر الأحمر<sup>(٣)</sup>.

ونخلص من ذلك إلى أن وادي فاطمة قد تميز بوفرة مياهه، كما دل على ذلك كثرة عينونه، وربما يعود التفاوت في إحصائها إلى اختلاف الأزمنة في مشاهدتها، أو نضوب بعضها ثم عودتها إلى العطاء، ويؤيد ذلك أنني أثناء الدراسة الميدانية لعين الخيف، وهي أحد العيون المغذية لقناة عين العزيزية موضوع الدراسة، ذكر لي طالب قسم التاريخ بجامعة أم القرى سابقاً، يوسف بن أحمد المعبد، أنه شاهد جريان ماء العين في شهر رمضان عام ١٤٤٠هـ/٢٠١٩م، وكانت متوقفة عن الجريان أثناء وقوفي عليها في شهر جماد الأول عام ١٤٤١هـ/يناير ٢٠٢٠م، وتفسير ذلك أنها مرتبطة بهطول الأمطار التي ملأت خزاناتها الطبيعية، كما يؤيد ذلك أيضاً ما أثبتته دراسة ميدانية لهذا الوادي، متضمنة أن إعادة شحن المياه في هذا الوادي تتم بسرعة في بعض الحالات، نظراً لوجود الرواسب الخشنة المفككة في بطن الوادي، مما سهل عودة جريان العيون، أثر الأمطار الغزيرة التي شهدتها المنطقة، بعد فترة طويلة من الجفاف انخفض فيها مستوى الماء الباطني<sup>(٤)</sup>.

(١) البارودي، الميزانية المائية لحوض وادي فاطمة، ص ٨.

(٢) البلادي، أودية مكة المكرمة، ص ٩-١٠.

(٣) لمزيد من المعلومات انظر: البارودي، الميزانية المائية لحوض وادي فاطمة، ص ١٧-٢٥.

(٤) البارودي، الميزانية المائية لحوض وادي فاطمة، ص ٥٢.

### ١. العيون:

تحقيقاً لمصلحه المزارعين في وادي فاطمة، وحلاً لمشكلة نقص المياه في جدة، تم البدء في المشروع في عهد الملك عبد العزيز، بأخذ الثمن من ماء العيون، لنقله عبر قناة تتحدر بترج من وادي فاطمة إلى جدة، وذلك كما يلي:

(١) عين أبي شعيب، وهي أول عين مدت إلى جدة، وترتفع عن سطح البحر ١٨٥م، وكان تدفق المياه منها بمعدل مليون جالون يومياً، وأثبتت التحاليل أن مياهها صالحة للشرب تماماً، ولم يظهر تحت المجهر أن فيها أحياء مائية.

(٢) عين الجموم، ترتفع عن سطح البحر ١٩٣م، وكان تدفق المياه منها بمعدل مليوني جالون يومياً، ولها خصائص مياه أبي شعيب.

(٣) عين الهنية، ترتفع عن سطح البحر ٢٠٧م، وكان تدفق المياه منها بمعدل ٤١٠٠٠٠ جالون يومياً.

(٤) عين الحسنية، ترتفع عن سطح البحر ٢٠٨م، وكان تدفق المياه منها بمعدل ٦٠٠٠٠٠ جالون يومياً.

(٥) عين أبي عروة، ترتفع عن سطح البحر ٢٢١م، وكان تدفق المياه منها بمعدل ٢٥٠٠٠٠٠ جالون يومياً.

(٦) عين الروضة، ترتفع عن سطح البحر ٢٢٩م، وكان تدفق المياه منها بمعدل ٤١٠٠٠٠ جالون يومياً.

(٧) عين الخيف ترتفع عن سطح البحر ٢٤٢م، وكانت تدفق المياه منها بمعدل ١١٠٠٠٠٠ جالون يومياً.

وتم البدء في الأعمال بتعمير العيون وصلاحتها، وإزالة عروق الأشجار التي كانت تضيق مسالك الماء<sup>(١)</sup>.

(٨) عين البرقة، ترتفع عن سطح البحر ٢٢٨م، وكان تدفق المياه منها بمعدل ٤٩٠٠٠ جالون يومياً.

وقد جاء ذكرها في كتاب لجنة العلاقات العامة بإدارة عين العزيزية<sup>(٢)</sup>، بينما لم يشر إليها الأنصاري، عند حديثه عن الاتفاق مع كبار ملاك العيون في وادي فاطمة كم مر بنا، وذكرها في موضع آخر ضمن حديثه عن مناسيب ارتفاع مواقع العيون وقوتها وكمياتها<sup>(٣)</sup>، وربما أضيفت مياه هذه العين لاحقاً إلى مياه العيون الواردة إلى جدة.

(٩) أربعة عيون أضيفت للعيون السابقة عام ١٣٧٣هـ/١٩٥٣م، وهي: عين أبي حصاني وسلطانة والخص والملك عبد العزيز المسماة عين أم الغطاط<sup>(٤)</sup>.

وتحدث الأنصاري عن مشاهدته لعين أبي حصاني بقوله: (كانت رئاسة العين العزيزية قد اشترت العين المسماة بعين أبي حصاني، ضمن ما اشترته من عيون وادي فاطمة، وقد ظلت هذه العين ناضبة من المياه، متوقفة عن الجيران، يابسة القناة مدة اثنتي عشرة سنة، ثم إنها جرت من تلقاء نفسها في هذا العام، نتيجة تدفق الأمطار والسيول، وكانت رئاسة العين قد صرفت من أجل بعثها وإحيائها وإجرائها، طائل الأموال سدى، والماء الذي تفيض به هذه

(١) الأنصاري، تاريخ العين العزيزية بجدة، ص ٧١، ٧٢، ١١٢، ١١٣، وانظر كذلك: لجنة العلاقات العامة، لمحات عن العين العزيزية بجدة، ص ٢٥.

(٢) لجنة العلاقات العامة، لمحات عن العين العزيزية بجدة، ص ٢٥.

(٣) الأنصاري، تاريخ العين العزيزية بجدة، ص ٧٠، ٧١، ١١٢، ١١٣.

(٤) الأنصاري، تاريخ العين العزيزية بجدة، ص ١٣٤، ١٣٥، ٢٩٥، ٢٩٦.

العين الآن \_ ربما عام ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م \_ هو بمعدل مليوني جالون في اليوم، وماؤها ينقسم إلى قسمين: إحداهما يجري منحدرًا من تلقاء نفسه مع عيون أبي حصاني وغيرها إلى جدة ليسقيها، والقسم الثاني ما يفيض عن ذلك، فينطلق تلقائيًا أيضًا إلى بستان مجاور أنشأه بعض عمال العين، وقناة عين أبي حصاني الأثرية كما شاهدناها عن كثب، مبنية بحجارة الدبش السود، بنورة بلدي قوية، وهي مع استطالتها مربعة التكوين، ظاهرة على سطح الأرض كالحزام، وتتبع هذه العين حسب ما يبدو من تتبع قنواتها، من الناحية الشرقية الجنوبية لوادي فاطمة . . وهذه الناحية الشرقية الجنوبية هي أم مصادر مياه هذه المنطقة جمعاء<sup>(١)</sup>.

وبالوقوف على الطبيعة، عرفني أحد سكان المنطقة، الطالب بقسم التاريخ بجامعة أم القرى سابقًا، يوسف بن أحمد المعبد، على آثار منبع عين الخيف في زيارة ميدانية لها عام ١٤٤٠هـ/٢٠١٩م، فله الشكر والتقدير، وظهر لي ما يلي:

\* **آثار عين الخيف:** تقع العين شرق جدة وشمال وادي فاطمة (الجموم)، برقم (٣٩،٧٤٧٥١٠، ٢١،٧١٢٦٤٥) على خرائط قوقل، ويظهر من الموقع أن سلسلة جبلية تحف منبع العين، من الشمال والشمال الشرقي، مما يجعل منها خزانات طبيعية، لتغذية العين بالمياه (لوحة رقم ١)، ويأخذ المنبع شكل حوضين مربعي الشكل تقريبًا، أحدهما مبنى بأحجار البازلت شبه المهذب بعضها، أبعاده الخارجية ١،٩٥ \* ١،٩٥م وسمك جداره ٦٠ سم، وفي ركنه الملاصق للجبل من الداخل فتحة مسقفة بقطعة واحدة من حجر البازلت، أبعادها نحو ٦٠ \* ٣٠ سم، أرجح أنها منبع العين كما هو بالشكل رقم (٢) (لوحة رقم ١)، ويلاصق هذا

(١) الأنصاري، تاريخ العين العزيزية بجدة، ص ٩٤، ٩٣.

الحوض حوض آخر بذات الأبعاد مع انحناء أخذ شكل ربع دائرة، وقد بني بالأجر، ويوجد فيه فتحة ترتبط بمجرى قناة ترتبط بالحوض السابق، وليس لدي حالياً ما يمكنني من تتبع هذه الفتحة للإجابة على سؤال: هل هي منبع آخر للعين أم أنها لنقل المياه تحت التلال وربطها بقناة في ذات الموقع تقع على بعد نحو ١٥٠ م عن منبع العين، (لوحة رقم ٢،٤)، وفي الحوض منبع العين المبنى بالحجر نجد فتحة سعتها نحو ٥٠ سم وارتفاعها نحو ٣٥ سم يخرج منها ثلاث أنابيب لنقل مياه العين، قطر كل منها أربع بوصات، ربما تكون الأنابيب التي نكرها الأنصاري باسم الخفان أو (الأسبستوس)<sup>(١)</sup> ونكرناها سابقاً (لوحة رقم ٥).

\* ظهرت آثار قناة على بعد نحو ١٥٠ م عن منبع العين، ترتبط بها ٣ أنابيب قطر كل منها ٤ بوصات (لوحة رقم ٦)، وقد أخذت القناة شكلاً مستطيلاً بعمق نحو ٥٠ سم وسعة ٤٠ سم (شكل رقم ٣)، مبنية بأحجار البازلت شبه المهذبة في جزء منها، واستعمال النورة والطين في لصق أحجار البناء، وتخصيصها من الداخل وتغطيتها بمجاديل حجرية، وعند مقارنة ذلك بقناة عين زبيدة في عرفة وقبل مزدلفة، التي تم صيانتها وتعليق جدرانها في عهد الملك عبد العزيز<sup>(٢)</sup>، وقناة عين وادي قوز التي كانت تغذي جدة بالمياه منذ مطلع القرن الحادي عشر للهجرة السابع عشر للميلاد<sup>(٣)</sup>، نجد تشابهاً في طراز البناء ومواده، ولا غرابة في ذلك، لقرب أماكن الأعمال من بعضها، واحتمال قيام المعمارين الذين أصلحوا قناة عين زبيدة في عهد الملك عبد العزيز بأعمال بناء قناة عين العزيزية، لنقل المياه من وادي فاطمة إلى جدة.

- (١) الأنصاري، تاريخ العين العزيزية بجدة، ص ٧٢.
- (٢) غباشي، جهود الملك عبد العزيز في عمارة عين عرفة، (مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدابها، ج ١٢، ٢٠٤، صفر ١٤٢٠ هـ)، ص ٧٢٧-٧٢٩.
- (٣) غباشي، إيصال مياه العيون إلى مدينة جدة، ص ٦٣٤، ٦٣٥، ٦٤١، ٦٤٢.



\* تم العثور على عدة خزرات قرب آبار (أبو حصاني) برقم (٣٩٠٨٠٩٥٩٢٢١).  
٧١٢٩٣٨) على خارطة قوئل (لوحة رقم ٧)، وبالنظر إلى طراز بناء أحدها (شكل رقم ٣)، نجد أنها أخذت شكلاً دائرياً قطرها ٢٠،٢٠ م وسمك جدارها ٦٠ سم وارتفاعها عن مستوى سطح الأرض الحالية ٥٠،١ م، وهي مخصصة للسقيا وتنظيف القناة وإجراء أعمال الصيانة لها، من خلال فتحة في أعلاها يمكن الوصول إليها بارتفاع ندوب أحجار من جدران الخرزة، لتكون سلماً للصاعد، وعمد المعمار للمحافظة على الخرزة والقناة من أثر السيول إلى تجسيصها من الخارج بالنورة (لوحة رقم ٧،٦)، وعند مقارنة طرازها بخزرات عين زبيدة في وادي نعمان<sup>(١)</sup>، أو خزرات عين الوزيرية التي غدت جدة بالمياه مطلع القرن الرابع عشر للهجرة العشرين للميلاد<sup>(٢)</sup>، نجد تشابهاً تاماً في طراز البناء، مما يرجح ما ذهبنا إليه سابقاً، بانتقال خبرة البناء من مكة وجدة إلى وادي فاطمة، نتيجة تقارب أماكن الأعمال المعمارية، فنتج تنفيذ البناء وفق أصول الصنعة، والخبرة التي توارثها الأبناء عن الآباء والأجداد.

## ٢. الآبار:

لجأت إدارة عين العزيزية إلى حفر الآبار اليدوية والارتوازية في مختلف مناطق وادي فاطمة، لتسهيل مياهها إلى جدة، حال الحاجة إليها عند نقص أو توقف مياه العيون<sup>(٣)</sup>، وكان منها آبار منطقة: (أبو حصاني)، (أبو شعيب)، (الجموم)، وركبت عليها مضخات كهربائية،

(١) غباشي، المنشآت المائية لخدمة مكة المكرمة والمشاعر المقدسة من القرن العاشر حتى أوائل القرن الرابع عشر الهجري دراسة حضارية، (المملكة العربية السعودية: دار الملك عبد العزيز، مركز تاريخ مكة المكرمة، ١٤٣٧ هـ/٢٠١٦ م)، ج١، ص ٢٧٩-٢٨١، غباشي، جهود الملك عبد العزيز في عمارة عين عرفة، ص ٧٢٨، ٧٤٣، ٧٤٤، ٧٤٦.

(٢) غباشي، إيصال مياه عين الوزيرية، ص ٧٠٦، ٧٠٩.

(٣) لجنة العلاقات العامة، لمحات عن العين العزيزية، ص ٤٤-٤٥.

تستمد الطاقة من محطات في ذات المناطق<sup>(١)</sup>، وبالوقوف على الطبيعة في منطقة (أبو حصاني)، وجدنا عدة آبار مبنية بأحجار البازلت شبه المهدبة من أجزائها، واستخدام النورة والطين في لصقها، وقد أخذت الآبار أشكالاً دائرية، تميز بعضها بارتباطه ببناء مثلث الشكل في جانب منها (الوحة رقم ٩)، يرجح أنه لتخفيف حدة مياه السيل، بتوزيعها وإبعاد خطرهما عن البئر، حفاظاً عليه من الدمار، كما عمد المعمار إلى تجسيص الآبار من الداخل بارتفاعات مختلفة، ومن الخارج بارتفاع نحو ٢،٥٠م في بعض الأماكن، لمنع تسرب مياه السيل إلى داخله، وخلخت أحجار بنائه وريدها (الوحة رقم ٩،١٠)، ولا يزال بعض هذه الآبار مستخدماً في توفير المياه إلى الوقت الحاضر (رجب ١٤٤١هـ/فبراير ٢٠٢٠م).

### ٣. القنوات وأنابيب المياه:

عند إجراء الدراسة لإيصال مياه العيون من وادي فاطمة إلى جدة، تم التوصية ببناء القنوات لنقل المياه<sup>(٢)</sup>، وهو ذات الأسلوب السابق في إيصال مياه العيون إلى مكة<sup>(٣)</sup>، وجدة<sup>(٤)</sup>، وحيث إن إجراء الدراسة تزامن مع نشوب الحرب العالمية الثانية (١٣٥٨-١٣٦٤هـ/١٩٣٩-١٩٤٥م)<sup>(٥)</sup>، تم التوصية بذلك، لصعوبة وتكلفة الحصول على الأنابيب الحديثة لنقل المياه، وعند البدء بالمشروع عام ١٣٦٧هـ/١٩٤٨م، انتهت الحرب وتيسر الحصول على أنابيب نقل المياه، فتم الإفادة منها في مد خطوط المياه، أما القنوات المبنية فلم يستغن عنها، لوجودها

- (١) الأنصاري، تاريخ العين العزيزية بجدة، ص ١٣٥.
- (٢) الأنصاري، تاريخ العين العزيزية بجدة، ص ٧٢، ٦٧.
- (٣) لمزيد من المعلومات انظر: غباشي، المنشآت المائية، ج ١، ص ٢٥٢-٢٨٣.
- (٤) غباشي، إيصال مياه عين الوزيرية، ص ٧٠٢-٧١٠.
- (٥) لاوند، رمضان، الحرب العالمية الثانية عرض مصور، ط ٧، (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٧٩م)، ص ٢٤، ٥٧٦-٥٨٧.

سابقة للمشروع، مرتبطة بنقل مياه العيون في منطقتها<sup>(١)</sup>، علاوة على استخدامها عند الحاجة. وقد أُنشئت أربعة خطوط للمياه ابتدأت عام ١٣٦٧هـ/١٩٤٨م بأولها من منطقة (أبو حصاني) إلى الكيلو ١٤ بجدة، ثم تلتها أعمال أخرى إلى عام ١٣٧١هـ/١٩٥٢م<sup>(٢)</sup>.

#### ٤. خزانات تجميع المياه وسبل توزيعها في جدة:

سبقت الإشارة في حديثنا عن العيون إلى أن مشروع عين العزيزية، أفاد من طبوغرافية الأرض التي ظهر علوها في وادي فاطمة وانخفاضها في جدة، مما تطلب بناء خزانات لتجميع المياه وتسييلها منحدرة إلى جدة ومن ذلك<sup>(٣)</sup>:

- \* خزان الضغط رقم (١) الواقع على بعد ٤٢ كم من منطقة (أبو شعيب).
- \* خزان الضغط رقم (٢) يستمد مياهه من الخزان السابق لمسافة ٩ كم.
- \* خزان الكيلو (١٤) يستمد مياهه من خزان الضغط رقم (٢) لمسافة ١٤ كم، ومنه كان يتم توزيع المياه إلى جدة.

- \* خزان احتياطي للماء في الكيلو (١٤) بطريق مكة جدة، يسع نحو مليون جالون، ويقع على ارتفاع ٦٧،٥٠ م عن منسوب سطح البحر، مما سهل جريان الماء إلى بيوت جدة.
- \* تم بناء ٦ خزانات ضخمة، منها ٤ لتطهير الماء الوارد من سائر الخزانات إلى جدة.

#### رابعًا: أثر وصول مياه العين إلى جدة:

- (١) الأنصاري، تاريخ العين العزيزية بجدة، ص ٧٢.
- (٢) لمزيد من المعلومات عن خطوط الماء وخزانات التجميع انظر: لجنة العلاقات العامة، لمحات عن العين العزيزية بجدة، ص ٣٣، ٣٦، ٣٨، ٣٩، ٤٤، الأنصاري، تاريخ العين العزيزية بجدة، ص ١١٣، ١١٢، ١٣٣، ١٣٥، ٢٩٥-٢٩٨، صحيفة أم القرى، العدد ١٤٢٠، السنة التاسعة والعشرون، ٤/٦/١٣٧١هـ/٢٩/٢/١٩٥٢م.
- (٣) لجنة العلاقات العامة، لمحات عن العين العزيزية بجدة، ص ٣٣، ٣٦.

## ١. أثر وصول المياه على السكان:

بالنظر إلى تاريخ وصول مياه عين العزيزية إلى جدة في غرة محرم عام ١٣٦٧هـ/١٥/١١/١٩٤٧م، وما نشرته رئاسة الهيئة الإدارية للعين العزيزية بجدة في ٤/٦/١٣٧١هـ/٢٩/٢/١٩٥٢م، متضمنًا أن سكان جدة قبل وصول مياه عين العزيزية لم يتجاوز عددهم ٢٥٠٠٠، والآن بلغ عددهم عشرة أضعاف ما كان<sup>(١)</sup>، يظهر لنا أهمية توفير الماء للاستقرار في جدة، وزيادة عدد سكانها في نحو خمس سنوات من ٢٥٠٠٠ إلى ٢٥٠٠٠٠، وهي نقلة حضارية لهذه المدينة عبر تاريخها، فلم يرد فيما اطلعنا عليه من مصادر لتاريخ جدة، أن عدد سكانها وصل إلى ٢٥٠٠٠٠ قبل العصر السعودي.

وكان يوم وصول مياه العين إلى جدة يوم فرح وسرور، شعر الناس فيه بأهمية هذا الحدث لحاضرهم ومستقبلهم، ونقطة تحول كبيرة لمدينتهم، وتم إقامة مهرجان لهذه المناسبة افتتحه ولي العهد الأمير سعود \_ الملك سعود لاحقًا \_ وحضر معه جمع كبير من الأمراء والوجهاء والممثلون السياسيون، ومعالي عبد الرحمن عزام باشا أمين جامعة الدول العربية، ورجال السفارات والمفوضيات والمؤسسات الأجنبية وأعيانهم، وقد تضمن الحفل الشكر والثناء لصاحب هذا المشروع الملك عبد العزيز، وألقيت العديد من القصائد<sup>(٢)</sup>، وكتبت وثيقة تاريخية، موقَّعة من (١١١) شخصًا، من الوجهاء الذين رفعوا أيضًا خطاب شكر للملك عبد العزيز، وسميت مياه هذه العيون باسم (العين العزيزية بجدة) نسبةً لمؤسسها الملك عبد العزيز<sup>(٣)</sup>.

(١) صحيفة أم القرى، العدد ١٤٢٠، السنة التاسعة والعشرين، ٤/٦/١٣٧١هـ/٢٩/٢/١٩٥٢م.  
(٢) صحيفة أم القرى، العدد ١١٨٥، السنة الرابعة والعشرين، ٨/١/١٣٦٧هـ/٢١/١١/١٩٤٧م.  
(٣) لمزيد من المعلومات انظر: الأنصاري، موسوعة تاريخ مدينة جدة، ص ١٥٣-١٧٣، الأنصاري، تاريخ العين العزيزية بجدة، ص ٩، ١٠، ٣٧، ١١٩، ١٢٦.

وبذلك أثر تدفق مياه عين العزيزية، إلى اجتذاب السكان للاستقرار في هذه المدينة، والإفادة من معطياتها الحضارة، فنشطت تجارتها وتطور اقتصادها مع حرية الناس في التجارة والاستيراد إلى مينائها من كل أنحاء العالم، وتحقق لسكانها والوافدين إليها التمتع بحياة صحية أفضل مما كانت عليه، نتيجةً للاهتمام بتعقيم مياه عين العزيزية مصدر الحياة<sup>(١)</sup>.

## ٢. التطور العمراني:

صاحب توفر الماء، عنصر الحياة في جدة، في عهد الملك عبد العزيز تطور في عمرانها، وظهر ذلك بإنشاء العمارات والمرافق المختلفة، داخل سورها الذي أزيل عام ١٣٦٧هـ/١٩٤٧م بعد تمدد عمرانها خارجه<sup>(٢)</sup>، وتحولت من مدينة صغيرة إلى مدينة عظيمة خضراء بحدائق منازلها، وأشجار وشوارعها وميادينها الخضراء<sup>(٣)</sup>، واتسع عمرانها من مساحة نحو ٣ كم إلى أكثر من ١٤ كم<sup>(٤)</sup>، ونظرًا لاطمئنان هذه المدينة مما كان يهددها بالظمأ، لتوافر الماء العذب فيها من العين، ودخوله إلى بيوتها، بأنابيب حافظة له من التلوث والضياع، وضامنة استمرار وجوده ليل نهار، تطلع سكانها إلى التطور والرقي بمدينتهم، فتطور طراز المباني، واختفت منه الرواشين والبناء بالحجر المنقبي والبحر، الذين كانا يرهقان العمال والبنائين في استخراجهما من البر والبحر ونحتهما، ثم البناء بهما، وبذلك اختفت كثير من الحرائق التي كانت تنتشب في الخشب الذي كان يملأ مساحات من واجهات البيوت، وزال

(١) الأنصاري، تاريخ العين العزيزية بجدة، ص ١٦٣، ١٦٤، ١٦٦-١٦٨، ٢٦٥-٢٦٦، ٢٨١-٢٩١.

(٢) الأنصاري، موسوعة تاريخ مدينة جدة، ص ٢١-٢٦.

(٣) تعليقات أحمد علي، على كتاب جغرافية شبه جزيرة العرب، لعمر رضا كخاله، ص ٢٠٤، انظر: حاشية رقم (١) ص ١٦٠ من تاريخ العين العزيزية.

(٤) الأنصاري، تاريخ العين العزيزية بجدة، ص ١٦٠-١٦١.

خطر الحجر البحري الذي كان يزيد النار اشتعالاً، وأصبحت البيوت عبارة عن مباني جميلة، مشيدة بالإسمنت المسلح، الذي يسهل البناء به، ويسهل تبييضه وتلوينه كما يشاء المعمار، كما يسهل تغطية طبقاته حسب الأسس والقواعد والأعمدة، وأبدلت البيوت العتيقة بتقسيمات داخلية مريحة وحديثة، واكتسبت البيوت زينة من المناظر الجذابة، لحسن طلائها وتشكيلها وفق معطيات الفن والجمال، وأخذت شوارع جدة حظها الكبير من التحسين والتطوير، فهدمت كثير من الدور التي اعترضت توسعة الشوارع واستقامتها ثم سفلتت<sup>(١)</sup>، ونعمت جدة بمرافق حيوية كالمطار وتطور الميناء، وأنشئت المصانع المعتمدة في وجودها على توفر الماء، واتسعت تجارتها، مما حقق تطورها الاقتصادي، فأصبحت جاذبة للسكن فيها وللوافدين إليها، فأنشئت فيها الفنادق الحديثة، التي كان منها الدرجة الأولى، كفندق قصر الكندرة وفندق جدة وفندق البحر الأحمر وفندق الحرمين بالشرفية، وبعضها من الدرجة الثانية والدرجة الثالثة<sup>(٢)</sup>.

(١) الأنصاري، موسوعة تاريخ مدينة جدة، ٣٠-٤١، ص ١٦٠-١٦٢.  
(٢) لمزيد من المعلومات انظر: الأنصاري، موسوعة تاريخ مدينة جدة، ص ٢٨٣-٢٩٤، ٤٣٧-٤٥٠، ٥٩٤-٥٩٦.

### النتائج

- \* ظلت مدينة جدة تعاني من مشكلة نقص المياه العذبة الصالحة للشرب حتى بداية العصر السعودي، الذي بدأت فيه مواجهة ذلك منذ ضم الملك عبد العزيز هذه المدينة إلى حكمه عام ١٣٤٤هـ/١٩٢٥م.
- \* تمثلت الحلول الأولى لمعالجة مشكلة نقص المياه العذبة لمدينة جدة في بداية حكم الملك عبد العزيز بتعهد المصادر الطبيعية التي كانت تغذي جدة بالمياه بالإصلاح والتعمير، وزيادة حفر الآبار، وصيانة البرك والخزانات وإصلاحها وتنظيفها، واستقدام بعثة علمية أمريكية، للبحث عن مصادر المياه التي يمكن الاستفادة منها، في الزراعة وتوفير احتياجات الناس من مياه الشرب.
- \* صيانة آلة التقطير (الكنداسة) السابقة، وتوفير التين جديتين لتحلية مياه البحر.
- \* الاستفادة من نتائج دراسة البعثة الأمريكية، بتبني مشروع جلب مياه العيون من وادي فاطمة إلى جدة، وزيادة كمية المياه الواردة، بحفر الآبار عند الحاجة.
- \* تم البدء في أعمال تنفيذ المشروع بالتعاقد مع محل الخواجات جلا تلي هنكي وشركائهم بجدة، في ١/٨/١٣٦٦هـ/٢١/١١/١٩٤٦م، ووصلت مياه العيون إلى جدة، في غرة محرم ١٣٦٧هـ/١٥/١١/١٩٤٧م، وسميت بالعين العزيزية نسبة إلى مؤسسها الملك عبد العزيز.
- \* تم الاستفادة من انحدار الأرض الطبيعية من وادي فاطمة إلى جدة، لتسهيل انسياب المياه عبر القنوات المبنية، ومواسير الخفان (الاسبستوس)، بطول نحو ٦٥ كم، لتصل إلى خزانات لتوزيع المياه إلى المدينة.

\* تم الكشف عن أدلة أثرية تؤكد ما جاء في النصوص التاريخية، عن جهود الملك عبد العزيز في تزويد جدة بمياه العيون من وادي فاطمة لأول مرة في تاريخها، مواجهًا كافة الصعوبات التي قابلت المشروع.

\* ظهر من الآثار المكتشفة: عين الخيف وأجزاء من قنواتها، وهي أحد روافد عين العزيزية، وخرزات (فتحات للسقيا وصيانة القناة)، يرجح أنها أيضًا على أحد قنوات عين العزيزية، ولم يتم النزول إلى داخلها لإغلاقها حاليًا \_ ١٤٤١هـ/٢٠٢٠م \_ بطبقة إسمنتية.

\* اتفق طراز بناء القناة والخرزات في عين العزيزية مع مثيلاتها في عين زبيدة بمكة المكرمة، وعين الوزيرية بجدة، مما يشير إلى احتمال مشاركة المعمارين الذين أصلحوا قنوات عين زبيدة وعين الوزيرية في عهد الملك عبد العزيز في أعمال بناء عين العزيزية.

\* أسهم وصول مياه عين العزيزية إلى جدة في عهد الملك عبد العزيز، في حل مشكلة نقص المياه العذبة، مما أدى إلى زيادة عدد سكانها من ٢٥٠٠٠ إلى ٢٥٠٠٠٠ في غضون خمس سنوات، وتطور عمرانها إلى خارج سورها، وزادت نسبة بناء البيوت، والفنادق والمصانع بما يلائم التطور الحضاري الذي وصلت إليه هذه المدينة.

\*\*\*



### المصادر والمراجع

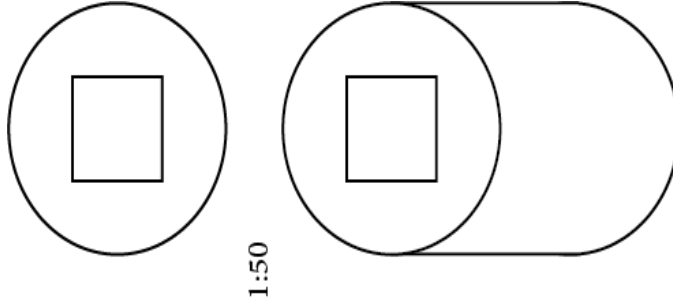
- \* آل خشيل، مها بنت علي، التتقيب عن المعادن في عهد الملك عبد العزيز (١٣٤٤-١٣٧٣هـ/١٩٢٦-١٩٥٣م)، (مجلة الدارة، العدد الأول، السنة الثالثة والأربعون، ١٤٣٨هـ/٢٠١٧م).
- \* الأنصاري، عبد القدوس، تاريخ العين العزيزية بجدة ولمحات عن مصادر المياه في المملكة العربية السعودية، (المملكة العربية السعودية: إدارة العين العزيزية بجدة، د.ت).
- \* الأنصاري، موسوعة تاريخ مدينة جدة، ط٣، (القاهرة: دار مصر للطباعة، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م).
- \* البارودي، محمد سعيد، الميزانية المائية لحوض وادي فاطمة، (الكويت: نشرة دورية محكمة تعني بالبحوث الجغرافية، يصدرها قسم الجغرافيا بجامعة الكويت والجمعية الكويتية. ٨٨. رجب ١٤٠٦هـ/أبريل ١٩٨٦م).
- \* البتوني، محمد لبيب، الرحلة الحجازية، ط٣، (الطائف: مكتبة المعارف، د.ت).
- \* البلادي، عاتق غيث، أودية مكة المكرمة، ط١، (مكة المكرمة: دار مكة للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م).
- \* الزركلي، خير الدين الزركلي، شبه الجزيرة في عهد الملك عبد العزيز، ط٢، (بيروت: دار العلم للملايين، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م).
- \* ششه، نوال سراج، جدة مطلع القرن العاشر الهجري/ السادس الميلادي، ط١، (مكة المكرمة: مكتبة الطالب الجامعي، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م).
- \* صبري، أيوب، مرآة جزيرة العرب، ترجمة وتقديم وتعليق: أحمد فؤاد متولي والصفصافي أحمد المرسي، ط١، (الرياض: دار الرياض للنشر والتوزيع، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م).

- \* صحيفة أم القرى، السنة السادسة والعشرين، عدد ٨، ذو الحجة، سنة ١٣٦٨هـ، موقع إلكتروني لدارة الملك عبد العزيز: (www.darahservices.org).
- \* صحيفة أم القرى، العدد ١٤٢٠، السنة التاسعة والعشرون، ٤/٦/١٣٧١هـ - ٢٩/٢/١٩٥٢م.
- \* صحيفة أم القرى، العدد ١١٨٥، السنة الرابعة والعشرون، ٨/١/١٣٦٧هـ/٢١/١١/١٩٤٧م.
- \* صحيفة صوت الحجاز، العدد (٣٩٨) في ٢٧/٢/١٣٥٨هـ.
- \* عسّه، أحمد، معجزة فوق الرمال، ط٣، (دن، ١٣٩١-١٣٩٢هـ/١٩٧١-١٩٧٣م).
- \* الغازي، عبد الله بن محمد، إفادة الأنام بذكر أخبار البلد الحرام مع تعليقه المسمى بإتمام الكلام، ط١، (مكة المكرمة: مكتبة الأسد لل نشر والتوزيع، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م).
- \* الغامدي، محمد بن جمعان، جدة في عهد الملك عبد العزيز آل سعود ١٩٢٥-١٩٥٣م، ط١، (القاهرة: الوادي الجديد للطباعة، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م).
- \* غباشي، عادل محمد نور، إيصال مياه العيون إلى مدينة جدة منذ القرن العاشر حتى نهاية القرن الثالث عشر للهجرة، (مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدابها، ج١٢، العدد ١٩، شعبان ١٤٢٠هـ).
- \* غباشي، عادل بن محمد نور، إيصال مياه عين الوزيرية إلى مدينة جدة في بداية القرن الرابع عشر للهجرة، (مجلة كلية الآثار بجامعة القاهرة، ٢٠٠٠م).
- \* غباشي، عادل بن محمد نور، توفير المياه لمدينة جدة خلال المدة ١٣٠٤-١٣٤٤هـ/١٨٨٦-١٩٢٥م، (مجلة المؤرخ العربي، ٢٠١٧م).

- \* غباشي، جهود الملك عبد العزيز في عمارة عين عرفة، (مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدابها، ج١٢، العدد ٢٠، صفر ١٤٢٠هـ).
- \* غباشي، المنشآت المائية لخدمة مكة المكرمة والمشاعر المقدسة من القرن العاشر حتى أوائل القرن الرابع عشر الهجري دراسة حضارية، (المملكة العربية السعودية: دار الملك عبد العزيز، مركز تاريخ مكة المكرمة، ١٤٣٧هـ/٢٠١٦م).
- \* لاوند، رمضان، الحرب العالمية الثانية عرض مصور، ط٧، (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٧٩م).
- \* لجنة العلاقات العامة بإدارة العين العزيزية بجدة، لمحات عن العين العزيزية بجدة وقف جلالة الملك عبد العزيز آل سعود طيب الله ثراه، (د.ن.د.ت).
- \* المازني، إبراهيم بن عبد القادر، رحلة إلى الحجاز، (القاهرة: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ٢٠١٢م).



(شكل 2) منبع عين الخيف



(شكل ٣) خرزة يرجح أنها  
على قناة لإيصال مياه  
عين العزيزية إلى جدة



(لوحة ١) موقع عين الخيف  
في وادي فاطمة (الجموم)



(لوحة ٢)  
منبع عين الخيف



(لوحة ٣) عين  
الخيف ويظهر في  
ركنها فتحة المنبع  
حوالي  
٦٠ × ٣٠ سم



(لوحة ٣) عين  
الخيف ويظهر في  
ركنها فتحة المنبع  
حوالي ٣٠ × ٦٠  
سم



(لوحة 4) عين  
الخيف الحوض  
الثاني



(لوحة 5) عين  
الخير ويظهر فيها  
أنابيب نقل المياه



(لوحة 6) مواسير  
الإسبستوس لنقل  
المياه من المنبع إلى  
قناة مبنية بالحجارة

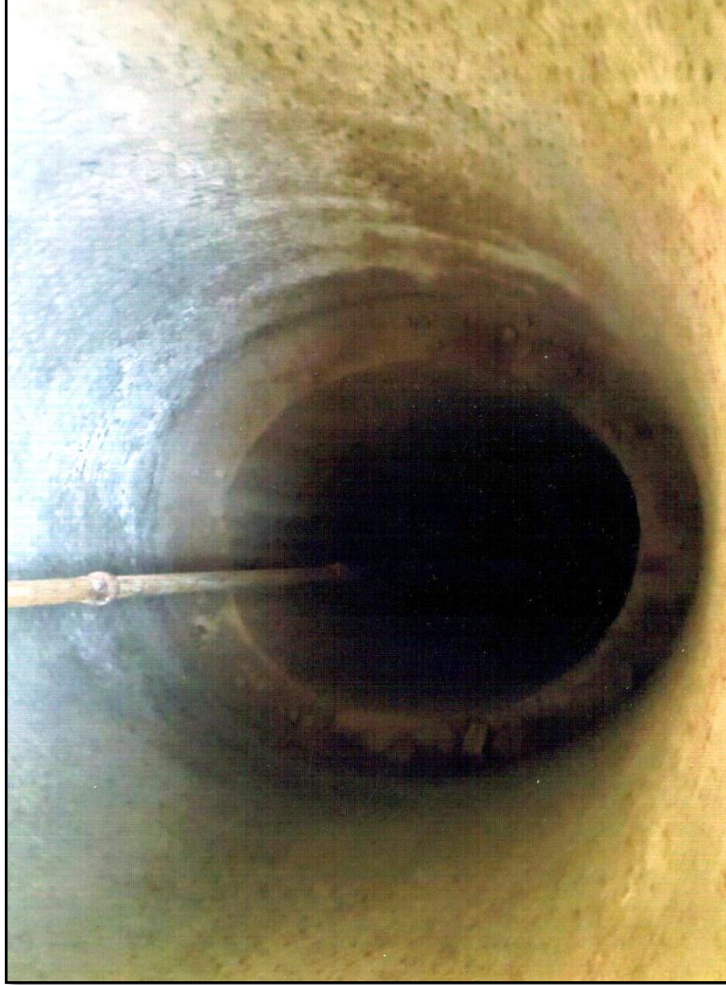




(لوحة 7) خرزة في  
موضع (أبو حصاني)  
وادي فاطمة



(لوحة 8) جزء من  
سطح الخرزة السابقة



(لوحة 9) بئر تغذية  
في موضع (أبو  
حصاني) في وادي  
فاطمة

(لوحة 10) البئر من  
الداخل

## زواج الفتيات الأفريقيات بالإكراه داخل المستعمرات البريطانية

(قراءة في مراسلات وزارة المستعمرات في الفترة من ١٩٣٥-١٩٣٧)

أ.د/ أحمد عبدالدايم حسين

كلية الدراسات الأفريقية العليا

رئيس قسم التاريخ - جامعة القاهرة

لقد أوجدت الشريعة الإسلامية في المناطق الأفريقية المسلمة منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر حلولاً ناجعة، عالجت بها الانتهاكات التي تعرضت لها الفتيات المحرومات من حق اختيار الزوج الذي تهواه قلوبهن، وساعدتهن في حل مشكلة ولاية الإجماع إذا مورست ضدهن بشكل تعسفي. غير إن الزواج بالإكراه في أفريقيا الاستوائية البريطانية، والتي تضم كينيا وتنجانيقا وأوغندا ونياسالاند وروديسيا الشمالية ونيجيريا وغانا وسيراليون وجامبيا وغيرها، كان معضلة كبيرة واجهتها الإدارات الاستعمارية البريطانية في النصف الأول من القرن العشرين، كونها لم تسفر عن نجاح كبير قد تحقق لهن. فلم تخرج تشريعات جديدة وقوانين منظمة لتلك المسائل. ورغم أنه من الصعب معرفة ما إذا كانت الفتاة الأفريقية تتمتع في تلك المناطق بحق اختيار الزوج من الأساس أم لا، لكن يبدو أن العلاقة مع الفتاه الأوروبية داخل المستعمرات، قد جعلها تصبو نحو هذا الحق وتحاول الحصول عليه. ومع أنه لا يوجد لدينا أرشيف أفريقي يُمكننا من دراسة تلك الظاهرة قبل العصر الاستعماري، إلا إن قيام الأرشيف البريطاني بعمل ملف خاص بها الفترة من ١٩٣٥-١٩٣٧، يؤكد على أن سعى الفتيات الأفريقيات للحصول على حقهن في اختيار الزوج، قد وجد صدها لدى الإدارات البريطانية المختلفة. ربما يكون التعليم الاستعماري الذي حصلن عليه قد ساعدهن في تبني بريطانيا لمطالبهن ومناقشة الأمور الخاصة بحقوقهن، لكننا لم نجد فعاليات كبيرة تتبنى تلك الحقوق وتسعى لنيلها. صحيح إننا لا

نملك وسيلة للاضطلاع على قرارات المحاكم الأفريقية العرفية أو سجلات المحاكم الأوروبية في تلك المستعمرات، نرصد من خلالها ما إذا كان هناك تيار متصاعد لرفض الفتاه الأفريقية للزواج القسري، وفي أي فترة قد بدأ، إلا إن توثيق الإدارة البريطانية لهذا الموضوع يدل على أن هذا الرفض النسائي كان قائمًا خلال ثلاثينيات القرن العشرين.

وإذا كانت الدراسات النسوية تستهدف كل أشكال نضال المرأة ضد الاضطهاد، فإنه يمكن تصنيف دراستنا هذه، في إطار دراسة تاريخ النسوية الأفريقية والنوع. ورغم أن المرأة الأفريقية معروفة في نظرتها تجاه أسرتها، ولم تستهدف المساواة النوعية وتمكين النساء أبدًا، إلا أن موضوع الزواج بالإكراه في أفريقيا الاستوائية البريطانية، يقطع بأنهن لم يقفن موقفًا سلبيًا في هذا الأمر. ولما كان موضوع الدراسة يعد من الموضوعات الجديدة تمامًا على مجال البحث في التاريخ الأفريقي الحديث، فلم يسبق لأحد أن تطرق له من قريب أو من بعيد، نظرًا لصعوبته من ناحية، ولعدم وجود مادة أرشيفية تحفظ ملبساته من ناحية أخرى، إلا أن الانتهاكات التي تعرضت لها الفتيات الأفريقيات في المستعمرات البريطانية في فرض الزواج عليهن من قبل الآباء، هو الذي جعلهن في الفترة من ١٩٣٥-١٩٣٧ موضوعًا لحديث الإدارات الاستعمارية وأرشيقاتها. فهناك أكثر من اثنتي عشرة وثيقة من وثائق الخارجية البريطانية وملحقاتها أفردت حديثها حول هذا الموضوع وملبساته. بل خصصت ملفًا مستقلًا لعرضه على المسؤولين البريطانيين ليروا فيه رأيهم.

ومن الواضح بأن دولة الاستعمار في أفريقيا البريطانية قد كانت مفتتحة بأن النساء الأفريقيات كن محرومات من القوة والسلطة في فترة ما قبل الاستعمار، لذا فإنها لم تُقدم على الحديث في أمر الزواج بالإكراه إلا في الفترة من ١٩٣٥-١٩٣٧. ترى ما الذي جعل موضوع الزواج القسري يفرض نفسه في العرض والتناول في تلك

الفترة؟ هل كان مطلبًا للفتيات الأفريقيات فقط؟ أم أن الإدارات الاستعمارية هي التي رفضت ما يجري من انتهاكات؟ وما هي مظاهر رفض الفتيات الأفريقيات للزواج القسري؟ وكيف كانت الحلول؟ وهل كانت المعالجة الاستعمارية في صالح المرأة الأفريقية؟ أم أنها شاركت في إضعاف نفوذها وقوتها؟ وللإجابة على تلك الأسئلة، رأينا تقسيم الدراسة إلى سبعة محاور رئيسية:

أولاً: خلفية الزواج بالإكراه قبل سنة ١٩٣٥.

ثانياً: الأطراف التي طرحت موضوع الزواج بالإكراه في أفريقيا البريطانية ١٩٣٥-١٩٣٦.

ثالثاً: مناقشة موضوع الزواج بالإكراه في أفريقيا البريطانية في الفترة من ١٩٣٥-١٩٣٧.

رابعاً: الزواج بالإكراه في أفريقيا الغربية البريطانية.

خامساً: الزواج بالإكراه في شرق أفريقيا البريطانية ووسطها .

سادساً: رفض الفتيات الأفريقيات ومقاومتهن للزواج بالإكراه.

سابعاً: المحاولة البريطانية لمنع الزواج بالإكراه.

أولاً: خلفية الزواج بالإكراه قبل سنة ١٩٣٥:

الزواج هو ارتباط يبرم بالإرادة بين الرجل والمرأة تحت شروط معينة<sup>(١)</sup>، أهمها توافر الحب بين الطرفين. فالحب غريزة فطرية في الإنسان، تتألف بها القلوب، ويتم بها الاجتماع البشري والعمران<sup>(٢)</sup>. ولهذا انفقت جميع الملل النصرانية على تسميته بسر الزواج<sup>(٣)</sup>. في حين راحت المجتمعات الأفريقية تقدسه على مر العصور. حيث احتفلت به الثقافات الأفريقية احتفالاً مشابهاً لاحتفالها بقدم موسم الأمطار والحصاد وولادة الطفل<sup>(٤)</sup>. بل إن قيمة المرأة في أفريقيا تبدأ عندما تولد؛ لأن ولادتها تعني ضمان أهلها الحصول على ماشية الزواج مبكراً<sup>(٥)</sup>.

على أية حال، فإن هذه النوعية الطبيعية من الزواج لا تعني ورقنتا، كونها تستهدف نوعاً معيناً من الزواج هو الزواج بالإكراه. والإكراه في اللغة، هو حمل الإنسان على أمر لا يريده طبعاً أو شرعاً. أما الإكراه في الشرع، فهو حمل الغير على ما يكره بالوعيد بالقتل، أو التهديد بالضرب أو السجن، أو إتلاف المال، أو الأذى الشديد، أو الإيلام القوي الذي لا يحتمل<sup>(٦)</sup>. والزواج بالإكراه هو زواج أحد الطرفين دون موافقته أو رغم إرادته. ويختلف الزواج بالإكراه عن الزواج المرتب، فالأخير يتم بتوافق الطرفين بمساعدة الآباء<sup>(٧)</sup>. ويعتبر زواج البنات الصغيرات زواجاً قسرياً؛ لأن الفتيات في هذه السن غير قادرات على اتخاذ خيار الزواج أو عدم الزواج بوعي كامل، وبالتالي، أفريقيا أفريقيا تقوم الأسره بهذا الأمر نيابة عنها<sup>(٨)</sup>. حيث يتم الإكراه لإجبار الفتاة على الزواج ممن لا تحب باستخدام العنف الجسدي الصريح، أو عبر الضغوط النفسية الخفية<sup>(٩)</sup>.

وحتى نهاية القرن الثامن عشر كان لا يمكن تمييز مجتمع عن الآخر في ممارسة الإكراه على الفتيات عند الزواج، لكن تختلف تلك الممارسات باختلاف الثقافات. ففي الدول الإسلامية، لا يجوز لولي الأمر، حسب قواعد الشريعة الإسلامية، إجبار ابنته أو من تحت وصايته، على أن تتزوج من شخص لا ترغب في الزواج منه. فالبنات إن كانت بكرًا غير بالغة، جاز لأبيها أن يزوجهما جبراً، لا خلاف في ذلك بين العلماء، أما إن كانت بكرًا بالغة، أو ثيباً كبيرة أو صغيرة، فلا يجوز لوليها أن يزوجهما ممن لا ترغب بالزواج به، ولها الخيار في البقاء معه أو رفع أمرها إلى القاضي الشرعي لفسخ النكاح؛ حرصاً على عدم فشل الزواج وهدم بناء الأسرة. فشرع الخطبة كان للتمهيد للزواج ومعرفة مدى رغبة كل من الطرفين بالآخر، حيث أباح نظر كل منهما للآخر ليحصل التوافق والتآلف. فالزواج لا بد وأن يكون برضى الطرفين، فإن كان الإكراه قبل عقد الزواج، فإنه لا يجوز لولي المرأة أن يجبرها على الزواج بمن لا ترغب به ولا ترزاه؛ لقوله، صلى الله عليه وسلم: «وَلَا تُنْكَحُ الْبِكْرُ حَتَّى تُسْتَأْذَنَ». وأما إن كان الإكراه بعد العقد، فلا إكراه هنا؛ لأنَّ العقد تمَّ برضاها،

فإذا كرهت أخلاق زوجها أو خلقته أو سوء معاملته، فلها طلب الطلاق، ويفصل في ذلك القضاء<sup>(١٠)</sup>. ومن ثم، فقد أباحت الشريعة الإسلامية للمرأة حق اختيار زوجها ومباشرة زواجها بنفسها مع احتفاظ وليها ببعض الاعتراض أمام القاضى إذا هي أساءت الاختيار، كأن تتزوج بغير كفاء لها، أو بمهر أقل من مهر مثيلاتها. أما الفتاة الصغيرة، فقد أباح بعض الفقهاء لوليها حق تزويجها دون مشاورتها، فيما عرف بولاية الحتم والإيجاب أو ولاية الاستبداد، ولكنهم احتفظوا لها بحق الاختيار عندما تبلغ. ورفض بعض الفقهاء مبدأ تزويج المرأة لنفسها. في حين جعل آخرون ولاية الإيجاب للجد بعد الأب. وخلاصة القول، إن المذاهب الفقهية الثلاثة المتأخرة لم تترك للمرأة من حق في اختيار زوجها إلا في وجوب استئذان الثيب البالغ، واستحباب استئذان البكر البالغ. وظل حق اختيار الزوج ومباشرة العقد حقاً محفوظاً لولي المرأة وحده حتى القرن ١٩<sup>(١١)</sup>.

وبالمقابل، فإن تحرير المرأة في أوروبا في القرنين ١٩ والـ ٢٠، استتبع معه تغيير في قوانين الزواج بشكل كبير. فبعد جهد طويل سنت العديد من الدول الغربية تشريعات تحقق المساواة القانونية بين الزوجين. فمنذ أواخر القرن ١٨ وأوائل القرن ١٩، قدمت الحركة الرومانسية في أوروبا أفكاراً جديدة تحفز المجتمع، على الزواج عن طريق الحب. ومع أن الزيجات المدبرة أصبحت أكثر شيوعاً بين الطبقة العليا إلا إن ممارسات الزواج تنوعت في أنحاء أوروبا في القرن ١٩، بحيث توفرت لدى المجتمعات الأوروبية حرية اختيار الزوج<sup>(١٢)</sup>. وانتقل هذا الأمر لأفريقيا مع حركة الاستعمار الأوروبى لها في ثمانينيات القرن التاسع عشر. فكان زواج المسيحيين في المستعمرات البريطانية على سبيل المثال يتم حسب قانون الزواج المسيحي، حيث يتم بتسجيل الزواج في سجلات الناحية أو المنطقة التي يعيش فيها الزوج<sup>(١٣)</sup>. وبالتالي، كانت هناك صعوبة في وقوع حالات فجأة من الإكراه ولا يتم الحديث عنها.

وإذا أخذنا مصر مثالا لمستعمرة بريطانية أفريقية نجد بأن نضال المرأة فيها قد بدأ قبل حلول الاستعمار البريطاني كنضال محلي في البداية، إلى أن أدركت حقوقها بشكل تراكمي، وبدا صوتها مسموعاً في الدوائر التشريعية، حتى أحدثت تعديلات تشريعية وتدرجية في القوانين المقيدة لحقها في اختيار زوجها. وإذا كانت الفتاة المصرية حتى منتصف القرن ١٩ قد فقدت الكثير من حقوقها التي منحتها الشريعة الإسلامية، فلم يعد لها أي حق في اختيار الزوج بأي شكل من الأشكال، كما توقف العمل بمبدأ الخلع، إلا إنها في سبيل استعادة تلك الحقوق المفقودة دخلت في صراع غير متكافئ مع الرجل، وتمردت على سلطانه المطلق بصور وأشكال مختلفة، يأتي على رأسها الرفض النسائي لولايته عليها في حق اختيار الزوج<sup>(١٤)</sup>.

ومع تزايد حالات الهروب النسائي من الزواج الجبري في النصف الثاني من القرن ١٩، وعبر اللجوء لسياسة الأمر الواقع بإزالة البكارة بالاتفاق مع الحبيب المرغوب، تم إحداث بعض التعديلات التشريعية لحل مشكلة قيام البنت بتزويج نفسها أو على الأقل تعيين وكيل لها يقبل القيام بتلك المهمة بدلا عنها. وفي هذا الإطار قدمت إحدى الدراسات صوراً متنوعة لكفاح المرأة في نيل حقها في اختيار زوجها، وانتهت إلى القول بأنه وإن لم تستطع الحصول عليه كاملاً، إلا إنها ضربت المثل والقدوة لمن جاء بعدها. لكنها أقرت بأن ما أثير من مناقشات لم يخرج عن روح الشريعة، فجميع الحقوق التي طالبت بها المرأة، من حق إختيار الزوج، والحق في تطليق نفسها، أو ما يتصل بتقييد تعدد الزوجات، لم يخرج عن روح الشريعة<sup>(١٥)</sup>.

وهذا يعني بأن ما حدث في مصر لم يكن له علاقة بالاستعمار البريطاني الذي حدث لها سنة ١٨٨٢؛ لأن المناقشات التي حدثت في العصر الاستعماري بشأن مسألة الزواج كانت حول قضايا أخرى. فعلى سبيل المثال كتبت الهلال في الأول من ديسمبر سنة ١٨٩٢ تحت عنوان " الزواج بالمراسلة" انتقدت فيه ما أشارت إليه جريدة الأهرام تحت



عنوان " طالبى الزواج" من أنه قد حصل على شهرة عظيمة، حيث اعتبرت بأن الزواج بالمراسلة فكرة جديدة تمت تجربتها في تلك السنة؛ لأنه زواج حديث في أوروبا وأمريكا. وبالتالي استنكرته المجلة، وشبهته بأنه أشبه بعقد تجاري يتم بالمساومة بين الطرفين، وأنه لا صحة للتقارير التي تقول برغبة المصريين في هذا النوع من الزواج<sup>(١٦)</sup>.

وعابت المجلة في عدد لاحق، يناير ١٨٩٣، طريقة البلاد الأوروبية في تزويج بناتها؛ نتيجة للحروب وقلة عدد الرجال، عن طريق المال<sup>(١٧)</sup>. ومع ذلك أشارت في عدد لاحق إلى المكانة الكبيرة التي حققتها النساء في أمريكا وأوروبا في ذلك العصر، حيث أصبحت هناك الطبيبة والمخترعة والمحامية والمحرة وغيرهن<sup>(١٨)</sup>. وتحت عنوان " الزواج وشبان مصر وشوابها"، انتقد كاتب المنار في عدد أغسطس ١٩٠٢، تزواج الشباب المصري من الأوروبيات، وأحجام بعضهم عن التزوج بالمرّة، بعد شيوع الفاحشة ومعاشرة الأوروبيات، وانتشار أمراض الزهري والسكر<sup>(١٩)</sup>.

ثانيًا: الأطراف التي طرحت موضوع الزواج بالإكراه في أفريقيا البريطانية

١٩٣٥-١٩٣٦:-

فيما يختص بالأطراف التي طرحت موضوع الزواج بالإكراه في المستعمرات الاستوائية البريطانية التي تستهدفها الورقة، وتضم كينيا وتجانيف وأوغندا ونياسالاند وروديسيا الشمالية ونيجيريا وغانا وسيراليون وجامبيا، فقد كانت موضوعا للمراسلات البريطانية عبر الملف C.O 879-139.N0.1162, Correspondence relating to the Welfare of Women in Tropical Africa 1935-37 من أرشيف وزارة المستعمرات البريطانية. ويبدو أن هذا الملف هو الملف الوحيد المختص بهذا النوع من القضايا. لكن السؤال الذي يطرح نفسه لماذا اخترنا الفترة من ١٩٣٥-١٩٣٧ الطرح هذا الموضوع خلالها؟ الإجابة تقتضي منا التفصيل لفهم المسألة في سياقها.

أعتقد أن هذا النوع من القضايا الاجتماعية لم يكن يشغل الإدارة البريطانية إلا إذا انعكس مردوده على إدارتها وخشيت من عواقبه. فقد كان جل اهتمامات الإدارات الاستعمارية في كل المناطق يتعلق بالاقتصاد والسياسة أكثر من أى أشياء أخرى. وبالتالي لم تطرح الإدارات البريطانية موضوع زواج الفتيات الأفريقيات سواء في المستعمرات الاستوائية أو في غيرها. وأن الأمر جاء من أطراف خمسة بعيدة عن تلك الإدارات:

**الطرف الأول:** خطاب المبشر أوين Owen لمحرر جريدة المانشستر جارديان Manchester Guardian. فتحت عنوان "الزواج في كينيا.. معارضة البنات للمدفع بالماعز"، يخبرنا خطاب المبشر أوين، رئيس شامسة نجايا التابعة لكافريندو Kavirondo.Ng'iya، التابعة لياالا، التابعة لكيسومو كينيا في ١٦ يونيو ١٩٣٦ إلى محرر الجريدة، بأنه كتب إليه في العام الماضي، أي سنة ١٩٣٥ ليلفت انتباهه إلى بعض الصور البربرية لعادات الزواج الأفريقية. وأنه أعطاه حالات لفتيات يحتجن بعنف على الزواج دون موافقتهن في المناطق المخصصة للأفريقيين. وأنه على الرغم من رفضهن، يتم سحبهن بالقوة على طول الطرق العامة في تلك المناطق، رافضات الزواج من رجال اختيروا لهن، ودفعوا عددًا معينًا من الماشية أو الماعز ثمنًا للعروس". من هنا، فإن خطاب المبشر للجريدة سنة ١٩٣٥ يعد بداية التأريخ للاهتمام بهذا الموضوع الأفريقي الاجتماعي المهم. حيث ذكر بأن العادات الأفريقية قد كسرت حياة الآلاف من الفتيات الأفريقيات ناهيك عن تعرضت منهن للموت نتيجة التعذيب. وتعد إضافته بأنه " في بعض الحالات تبدو عادات الزواج الأفريقي أنها تنطوي على نوع من العبودية للنساء الرافضات". وبأنه عاش سنوات طويلة في أفريقيا قبل أن يتوصل إلى استنتاج لإدانة الحياة الاجتماعية في أفريقيا، يشي بأن معاناة الفتيات الأفريقيات لم تبدأ سنة ١٩٣٥، بل كانت تتم على مدى سنوات طويلة سابقة. حاول فيها الدفاع عنهن، غير أن " معاناة الفتيات كانت متكررة بصورة كبيرة، لدرجة جعلت دفاعه عنها ينهار تمامًا"، ويبدو أن الخطاب الذي أرسله المبشر أوين كان يستهدف المرأة البريطانية لتهب مدافعة عن المظالم التي تتعرض لها الفتيات

الأفريقيات. ويتضح هذا من تركيزه على واحدة منهن. فحين يقول " يوجد في إنجلترا نساء نبيلات، وأنا حزنت على فقدان واحدة منهن، حيث أفر بواحدة منهن، وهي وينفريد هولتبي Winifred Holtby ، التي كانت صديقة حقيقية لنساء أفريقيا"، بأنه يهدف لحث المجتمع النسوي البريطاني للوقوف بجانب الفتيات الأفريقيات والدفاع عما يتعرضن له من إكراه في الزواج. وحين يقول عن وينفريد هولتبي " كتبت لي مرة عندما أثرت هذه المسألة في عمودك الخاص في العام الماضي، وظلت حتى وفاتها تخطط للمساعدة وتدارك ما حوت عبارتي " وضع يأس"، فإنه يعني تشجيع أخريات للسير على نفس النهج. ولعل إعلانه عن أمنياته بأن تقوم رابطة الكومنولث البريطاني تحديداً بتقديم المساعدة للفتيات الأفريقيات، تعطينا فكرة بأن تحركات أوين كانت واعية تماماً بالجهة التي يستهدفها للتحرك. واعتقد أن نهاية خطابه " بأن التهتك والإهانة التي تشعر بها الفتيات الأفريقيات عندما يتم سحبهن لا يوصف، وأنه على الرغم من كونهن أفريقيات، فإن الآلام اللاتس يشعرن بها ليست أقل عمقاً عن معاناة الفتيات الإنجليزيات"<sup>(٢٠)</sup>، هو الذي دفع الإدارة البريطانية في لندن لوجوب التحرك.

وفي هذا الإطار، ذهب القس في ١٦ يونيو ١٩٣٦ لشكر جريدة المانشستر جارديان ومحررها قائلاً " بأنه مدين له بدين كبير من الالتزام والطاعة. حيث كنتم أول من يأتي لمساعدة الكفريندو Kavirondo في عام ١٩٣٢. وكنتم تدفعون باستمرار باتجاه السياسات التقدمية لأفارقة كينيا. وبالتالي، وجب أن نقر بحقيقة أنه أصبح لأفريقيا أصدقاء في إنجلترا، قدموا خدمات لها لا تقدر بثمن. وأنه أصبح لها أيضاً بعض الأصدقاء من بين قرأوك، يعتقدون أننا نقوم بفعل الأفضل لمصلحة الأفارقة وخدمتهم بالكشف علنا عن هذا السوء وتلك الشرور. غير أن بعض البريطانيين كانوا يخافون مثل هذه الدعاية كونها تعطي مؤشراً لأولئك الذين لا يتعاطفون مع المساعدة الاقتصادية والسياسية لتطوير الأفارقة. فيقولون بأن الشر يصح ذاته في الوقت المناسب"<sup>(٢١)</sup>. وعلى هذا، كانت خطابات المبشر اوين لجريدة مانشستر ومحررها أحد الأسباب المهمة المثيرة للاهتمام والتحرك.

**الطرف الثاني: مناقشة مؤتمر رابطة الكمنولث البريطاني للموضوع.** يبدو أن مناشدة المبشر اوين بوجوب تقديم المساعدة للفتيات الأفريقيات لم يكن هو الدافع الوحيد لعقد مؤتمر خاص لمناقشة موضوع الزواج بالاكراه. فتحت عنوان " السعادة أو العبودية؟" تم إرسال مقتطف من جريدة شرق أفريقيا " East Africa " في ١٤ نوفمبر 1935 عن وضع المرأة الأفريقية إلى الإدارة الاستعمارية. وهذا ما دفع لندن بضرورة مناقشة أحوال الزواج الأفريقي ووضع المرأة الأفريقية في المجتمع لعقد مؤتمر في لندن في نوفمبر ١٩٣٥ بدعوة من رابطة الكومنولث البريطاني، للنظر في موضوع "الزواج والعبودية." وبالتالي، كان المؤتمر فرصة جيدة للتعبير عن جوانب القضية وملابساتها. حيث ذكرت السيدة جي اينيس Guy Innes، رئيسة المؤتمر، بأن المؤتمر ما هو إلا مخرجات لخطاب الشماس أوين Owen من كافريندو Kavirondo لجريدة المانشستر جارديان في ٢٦ أغسطس ١٩٣٥، حيث أشار هذا الخطاب إلى حالات القسوة تجاه زوجات السكان الأصليين في كينيا، وهروبهن من هذا الزواج. وقالت بأن رابطة الكومنولث البريطاني لا تعتقد بأن كل الزيجات قد تمت من دون موافقة المرأة، ولكن العديد من تلك الزيجات قد تمت بدون موافقتها. واعتبرت المرأة المتزوجة في مثل هذه الحالة أشبه بامرأة تعيش في ظل العبودية. وتحدثت عن كتابة رئيس الشماسة أوين عن قيام بعض المجالس المحلية في كافريندو بالنظر في هذه المسألة، وأنها أوصت بتسجيل الزواج<sup>(٢٢)</sup>. ولهذا، فإن توجيه المؤتمر بتسجيل الزواج كانت نابعة من رغبة محلية بالأساس، لكن كانت هناك حيرة من قبل الإدارة الاستعمارية هل يكون التسجيل اختياري أم يكون إجبارياً؟

وتحدث الدكتور ليكي Leakey بأن الموضوع يتعلق بالعالم ككل، وبالتالي عند دراسة مشكلة معينة في كينيا ذكّر بثلاث نقاط رئيسة: اولها، أن لكل قبيلة عاداتها المتعلقة بالجنس والزواج ووضع المرأة، ومن المستحيل أن نحكم على أساس ما حدث

في قبيلة واحدة. ثانيًا: بأن ما حدث للنساء في بلد لا يمكن أن يصبح مثاليًا بالضرورة لنساء البلد الآخر؛ فإنجلترا لم تهدف بالضرورة لتبنى نفس الأشياء التي تحدث في فرنسا، والهدف الفرنسي ربما لا يكون كهدف الكيكويو. وبالتالي، فإن الرعاية لا تتطلب إحداث تغييرات وإصدار لوائح تسلب من الناس أشياء لا يريدون أن تسلب منهم. ثالثًا: ان المبشرين هم المعنيون في المقام الأول بالسكان الأصليين، وبكسر قوانينهم وأعرافهم القبلية ليصبحوا مسيحيين اسمًا وحقيقية، بما يعنى أن يكونوا مختلفين عن الكتلة الكبيرة للسكان في كينيا. وإذا كانت لا تزال سوى نسبة صغيرة جدًا من السكان الأصليين يؤمنون بالمسيحية، وغير قبليين، بالتالي يجب ألا تعطى أهمية لا داعي لها لمسائل تؤثر في أقلية صغيرة<sup>(٢٣)</sup>.

وتحت عنوان " الزواج .الأوروبيون والأفارقة"، تحدثت الوثيقة السابقة بأن قوانين الزواج الإنجليزية وعاداته قد عملت أخيرًا لمصلحة وسعادة رجال ونساء إنجلترا. وسردت حديث الدكتور ليكي حول القوانين الإنجليزية التي لم تؤت أكلها بخصوص المساواة والسعادة في الزواج، لهذا فإن كثير من الناس سوف يعتبرونها مصيبة كبيرة إذا أجبرت حكومات شرق أفريقيا على إصدار قوانين زواج خاصة بالأفريقيين لا تعطي نتائج مثالية في بلد منشأها. وقال إنه من الأسهل الحصول على قوانين يمكن تغييرها أو إلغاؤها، لكن ربما وجود قانون سيء قد يسبب المزيد من المعاناة والظلم أحسن من عدم وجوده بالأساس، حتى إذا كان لهذا القانون تأثير عكسي. وذكر بأن بعض الناس الذين حثوا بوجوب تسجيل كل زواج السكان الأصليين لدى موظفي محكمة المنطقة، لم يدركوا ماذا تعني هذه الخطوة؟ فهو يعرف بأن المواطنين من قبائل كينيا الثلاث الكبرى لديهم ارتباط وثيق، ويعرف حياتهم العائلية وقوانينهم القبلية وعاداتهم، ومع ذلك، لم يقل بأن وضع المرأة المتزوجة كان مثاليًا، لكنه كان يعتقد بأن هناك عددًا من الطرق يمكنها تحسين حالة المساواة

والحرية بالنسبة للنساء المتزوجات ليقترّب من وضع المرأة الإنجليزية. ولهذا يمكن القول بأن حديثه قد انصبّ على خمس قضايا رئيسة: الأولى، موقف النساء المتزوجات في جميع قبائل كينيا تقريباً، باستثناء المناطق المتأثرة بالإسلام، فقال بأنه كان أكثر حماية بشكل وثيق من المرأة الإنجليزية. مدللاً على ذلك بأنه في ظل القانون الإنجليزي، كانت المرأة تحت التصرف الجنسي للرجل. أما في شرق أفريقيا، فكان الرجل بين معظم القبائل يجبر المرأة على التعايش معه رغماً عنها، وذلك لبعدها عن قبيلتها، لكن رغم إنها في الحقيقة زوجته، إلا إن هذا لا يعطيه حق التصرف الجنسي ضد إرادتها. الثانية: الاعتقاد الخاطئ بأن لدى كل أفريقي أكثر من زوجة، حيث ذكر بأن نسبة صغيرة جداً هم من لديهم زوجة إضافية. فالناس لديها فهم سطحي لمعنى المعاملات، فالحديث حول الزواج المصاحب لأخرى بين الأفريقيين إنما هو أفضح من شراء الزوجات، على الرغم من أن ما يسمى بسعر الشراء هو ضمانه حقيقية لحسن السلوك والأمن، وشكل من أشكال تأمين الزواج. الثالثة: حديث الصحيفة عن موقف الأرملة، وبأنه في كثير من الأحيان دليل على شُرور نظام الزواج لدى الأفريقيين، خاصة مع تعبير الرجال والنساء في إنجلترا عن سخطهم عليه، ورغبتهم في معرفة مدى صحة أو خطأ موضوع توريث الأرملة، وأنه بعد وفاة الرجل تورث أرملته لأخيه أو لأحد أقاربها الذكور، فذكر بأن الوراثة تعنى في الواقع مسؤولية فقط في الملبس والمنزل وإطعام لها. ولم تكن مسألة الوراثة تعنى الحق في التعايش معها أو إعطائها حقوقها الزوجية، بل لم يكن للزوج الحق في زيارتها. بل يعتبر أطفال الأرملة الذين يولدون أولاداً للزوج المتوفي، ولكن والدهم يمكن أن تختاره بنفسها؛ وذلك لسبب بسيط بأنه كان من غير المألوف للأرملة بأن تصبح زوجة أو حبيبة لشقيق زوجها أو لأى قريب آخر. أما قبولها للوراثة عن طيب خاطر، فهو مسؤولية لتوفير متطلباتها. الرابعة، موضوع الإكراه. فقال بأن الإكراه والضغط في

موضوع الزواج نادر ما يحدث. ففي الوقت الحاضر، كانت هناك محاولات نادرة لإكراه فتيات على الزواج من رجال لا يرغبونهم، فبدلاً من ذلك، كانت ترغب بأن تتزوج مسيحي. فجري توفير الحماية من قبل الحكومة. الخامسة: مسألة العلاج، فقال بأن العلاج لا يكمن في الإجبار على نظام الزواج الإنجليزي غير المرضي عنه بين الأفريقيين، ولكن يكمن في إيجاد الأسباب التي تقف خلف الشرور الحاضرة وإزالتها. فأسباب اقتصادية، ترجع لاضطراب حياة السكان الأصليين، حيث كانت الدعارة واحدة من أعظم الشرور في كينيا. وأكبر خدمة يمكن أن تقدمها رابطة الكومنولث البريطاني ليس التدخل في الوقت الحالي في نظام الزواج، ولكن النضال ضد هذا الشر، والذي لا يمكن تحقيقه ببساطة عن طريق التشريع. وأعرب الدكتور ليكي عن أسفه الشديد من أن بعض أعضاء المجالس المحلية الأفريقية، وربما تحت ضغط من المسؤولين المحليين والمبشرين، قد حثوا على تسجيل كل الزيجات. مضيفاً بأن من يهيمن على تلك المجالس كانوا مواطنين غير قبليين، يبحثون عن التشريع الذي قد يستفيدون منه مالياً، وأن هؤلاء غير القبليين والمجتمع التبشيري الصغير، لا يمكن أن يكونوا سوى عبء في البؤس على الكتلة الكبيرة من قبيلتهم الخاصة<sup>(٢٤)</sup>.

وتحت عنوان "الدكتور ليز وزواج السكان الأصليين"، أشارت الوثيقة السابقة بأن الدكتور نورمان ليز Norman Leys، قد تحدث عبر المؤتمر بأن الناس الذين يعتقدون بوجوب أن تكون لدى النساء الحرية في اختيار الأزواج لأنفسهم يدركون أن هذه الفكرة ستكون ثورية في جميع البلدان تقريباً. فمعظم الزواج عبر العالم عبارة عن شركات عائلية، والغالبية العظمى من الفتيات في الحياة القبلية لم يروا شيئاً غريباً في أن يتم تقديم الأزواج لهن. مستشهداً بما ذكرته اللجنة الاقتصادية في جنوب أفريقيا مؤخراً، من أن نظام المهر كان دفة المجتمع الأفريقي، لإنقاذ سفينة الزواج من التدمير. وفي التأكد من أن كل عائلة جديدة قد بدأت حياتها ببعض المتطلبات

للمستقبل، وأنها تصرفت باعتباره تأمين ضد سوء سلوك الزوج. ورفض الفتاة للرجل الذي وعدت أن تكون زوجة له، يعني التنصل من قبل عائلتها من عقد مالي مهم، ولذا كان من السهل أن نرى لماذا يمنعها القانون القبلي من أن ترفض. وأشار بأنه عندما كان يعيش في شرق أفريقيا، سمع من عدد كبير من الحالات بأن هناك فتيات اعترضن بنجاح على الرجال اللاتي كن مخطوبات لهن، وتمكن من الزواج من رجال من اختيارهن. ومع ذلك كانت الزيجات الرومانسية نادرة جداً في أفريقيا، وبالتالي لا بد من الاعتراف بأن الزواج في المجتمع القبلي كان يتم بترتيب من قبل الآباء، ويجرى بسعادة بطريقة مختلفة عن النظام الإنجليزي. واعترف بأن التأثيرات الرئيسية الجديدة على هذا الإكراه، تتمثل في مدارس البعثات المسيحية، والصناعة الحديثة، والتي بموجبها أصبح الفرد، وليس الأسرة، وحدة داخل نظام الإنتاج. حيث شجعت هذه التأثيرات الجديدة الشباب على اختيار شركائهم بدلاً من ترك حرية الاختيار للوالدين، ولكن يعتقد كثير من الناس الذين يعيشون في أفريقيا بأن هذا التغيير كان للأسوأ، بوصفه تخلياً عن القانون القبلي والعرف. وأنه يجب على الحكومات البريطانية في أفريقيا التخلي عن سياستها تلك، في محاولة للحفاظ على القبليّة سليمة، ولتشجيع أولئك الذين يرغبون في الهروب من القبليّة. وقال بأنه يمكن للإدارة الاستعمارية أن تسمح للطريقة القديمة في الحياة بأن تموت تدريجياً، فهذا من شأنه أن يعطي سكان المدن ظروفًا صحية أحسن، فمن خلال توفير الحيازات الفردية، يتم إعطاء السكان الأصليين فرصة للحياة الحرة<sup>(٢٥)</sup>.

وفي نفس السياق، عبر السيد جيوليوس لوين Julius Lewin بأنه إذا كانت القضية قد نقلت عن الشماس اوين، وجاءت أمام المحكمة الإنجليزية، فإن عمل المبشر وصم بأنه غير شرعي، والمحكمة سوف تقرر لصالح المرأة. فأسباب الطلاق بموجب القانون الأفريقي كانت على نطاق أوسع مما هي عليه في ظل القانون



الإنجليزي، حيث إنه قبل زواج المواطنين تحت مظلة القانون المسيحي، كان يعتقد بوجود إعلامهم بالعواقب الفظيعة من الزواج المسيحي في إنجلترا. وفي هذه الحالة يرى أنهم سيفضلون الزواج بموجب القانون الأفريقي، وليس في إطار القانون الإنجليزي. وفيما يتعلق بالحالات التي أشار لها الشماس أوين المذكور، فإنه سيكون شيئاً جيداً للحصول على حالة اختبار في محكمة كينيا. حيث يعتقد بان المحكمة ستؤيد القرار الإنجليزي بأن الرجل لا يتزوج امرأة رغماً عن إرادتها. واقترحت السيدة ماكجريجور روس Macgregor Ross بأنه ينبغي على الحكومة البريطانية أن تطلب من إدارة كينيا الاستعمارية إعطاء الفتيات الأفريقيات أفضل تعليم. واشتكت بأنه لم يكن هناك أى عضو أفريقي داخل السلطة التشريعية، مع الاعتراف بعدم وجود كفاية في المتعلمين الأفريقيين ليصبحوا أعضاء فيها. بل وصفت اكتشاف الذهب في كافيرندو Kavirondo بأنه مؤسف للغاية. وقالت أنه من خلال التعليم فقط يمكنهم التعامل مع مشكلة المرأة الأفريقية في الزواج<sup>(٢٦)</sup>.

**الطرف الثالث: الاستبيان الذي أرسلته الأنسة أليسون نيليانز Miss Alison Neilans للمستعمرات الأفريقية.** فتحت عنوان "المستشارون الأفريقيون .. التناقض المتبادل"، نتعرف من الأنسة أليسون نيليانز بأنها كانت أحد الاطراف التي دفعت باتجاه موضوع نبذ الزواج بالإكراه. حيث قالت بأنها نيابة عن رابطة الكمنولث البريطانى قد أرسلت استبيان لجميع أنحاء أفريقيا بناء على نقاط محددة أثارها رئيس الشمامسة أوين. لكنها تلقت ردود متناقضة. حيث قالت بأن هناك واحدة من السمات الأساسية للمشكلة بأن أفريقيا تخطت نظام التعامل بالماشية إلى النقد، ولذا، فإن استمرار نظام الزواج بالتقسيم، سيكون له تأثير مروع على توقعات النساء من أزواجهن<sup>(٢٧)</sup>.

**الطرف الرابع: رفض جونستون كنياتا Johnston Kenyatta لموضوع الإكراه.** حيث كان كنياتا حاضراً المؤتمر بحكم دراسته في بريطانيا وسمع تلك المناقشات،

وبالتالي فإن قصة رفضه لم تبدأ مع المؤتمر، بل كتب من قبل بأن العرف القبلي لم يعاقب الفتيات ويجبرهن بهذه الطريقة<sup>(٢٨)</sup>، غير أن قول إحدى الوثائق بأنه بالرغم من أن الحكومة البريطانية قد ساءها ما يحدث في أفريقيا وعقدت مؤتمر رابطة الكمنولث لتكوين رأي متكامل حول المسألة، إلا إن رفض جونستون كنياتنا لحدوث هذا الإكراه، يعنى ضرورة طرح الموضوع للنقاش مرة أخرى. حيث تخبرنا الوثيقة بأن كنياتنا قد أقر داخل المؤتمر أنه باعتبارها فرد من الكيكويو، وأن والده وعمه توفيا خلال الحرب، بأن عمه الآخر، وهو مبشر، سوف يرث المسؤولية عن اثنتين من الأرملة، على الرغم من القوانين التبشيرية، وأنه قام ببناء أكواخ لهما بجوار الأكواخ التي يملكها. وأنه على الرغم من أنه كانت له زوجته، إلا إنه قد قبل بالمسؤولية الإضافية، ومازالت الأرملةان الاثنتان تعيشان في نفس القرية، وإن لم يكن يعاشرن، فهذا يعنى أن زواج الارامل الذي انتقضت له لندن كان حلا لمشاكل اجتماعية لا تعانيها بريطانيا. بل ان إعراب كنياتنا عن اعتقاده بأن عرض حالة الجلد للمرأة الأفريقية في كافرندو مبالغ فيها، مطالبًا الحاضرين بأنه لا يمكن الحكم على المجتمع الأفريقي ككل من تقرير واحد، قد أوجب ضرورة النظر في تقارير أخرى للوقوف على جوانب المسألة. فقد أشار بأنه في ظل نظام الزواج الإنجليزي يدفع الناس في بعض الأحيان للانتحار، وهذا لم يحدث في أفريقيا. معلنا عن احتياجات الأفريقي للتحرر الاقتصادي. قائلًا بأنه يمكن لبريطانيا مساعدتنا في حل أكبر أمور الحياة تعقيدًا، وفي والمسائل الاجتماعية الصغيرة ". غير أن وصفه لزواج زوجين من الكيكويو، بأن يوم الزفاف الفعلي كان مناسبة مثيرة، حيث شاهد نسوة من أقارب العريس الفتاة، التي كان من المفترض أن تعمل في الحقول، من يقبض عليها ويخطفها، وأن كل شيء قد تم بالاتفاق مع العروس، وأنه من المرجح أن هذا هو الذي رآه رئيس الشمامسة، يعنى سخرية من المسائل التي أغضب المبشر أوين وأثارت حفيظته. فما قاله كنياتنا لم يتسبب في ضحك قاعة المؤتمر فقط، بل عد ما قيل عبر المؤتمر سخرية من المتحدثين وبأنهم لم يفهموا الواقع الأفريقي، فهما حقيقيًا. ولعل مناشدته "يا أيها الذين ترغبون في حل المشاكل الأفريقية، يجب ألا تقرعوا رسائل مشابهة لرسالة رئيس الشمامسة، وتتحركوا من أجلها. مطالبًا إياهم " ببحث هذه المسألة بهدوء، وعند التأكد من سبب المتاعب، يمكنكم أن تقدموا

خدمة كبيرة للشعب". وهذا يشي بأن الرجل لم يقطع بأن ما قيل كله غير صحيح، لكنه طالب بالبحث والتقصي. ومن ثم فانه حين قال " اتطلع في الحاضرين اليوم، ولكن لا أرى أي امرأة أفريقية، رغم أن هناك العديد منهن في لندن، وأنه لا بد من أن نقرب منها للتأكد من وجهات نظرها"، يقطع بأن الرجل يقدم الأسلوب الأمثل للوصول إلي جذر المسألة. ومع أن المنصة ذكرت بأن عددًا من النساء الأفريقيات قد دعين للحضور، إلا إنهم لم يستلموا أي رد منهن" (٢٩)، يشي بأن القائمين على المؤتمر قد بذلوا جهدًا للاستماع إلى وجهة نظر المرأة الأفريقية بخصوص تلك القضية. وبالتالي صار مطلوبًا البحث عن أسباب عزوفها عن الحضور، وما إذا كان هناك خشية من التصريح برأيها، أم أن التقاليد الأفريقية ظلت تحاصر المرأة الأفريقية حتى وانت كانت في قلب لندن نفسها.

**الطرف الخامس، حديث جورج ماكميلان.** في داخل مؤتمر رابطة الكمنولث وصف جورج ماكميلان، من جامعة ويتواترسراند، نفسه بأنه "ماكميلان غير القبلي"، وتأسف بأنه لم يكن هناك المزيد من الكلام حول صحة المرأة الأفريقية. وأن إحدى هذه العادات السيئة لدى الكيكويو جعل نساءهم عبارة عن بهائم عجماء كالدواب. قائلًا بأنه يمكنهم أن يروا امرأة زنة تسعين رطل تحمل حمولة من ١٢٠ رطل وتسير أميال كثيرة بمشقة. وبالتالي رأى أن السبب الرئيس للتخلف في أفريقيا هو مشكلة صحية، وهو ما يعود بهم إلى الحياة السياسية والوضع الصعب في كينيا. فأفضل طريقة لمواجهة صخب المستوطنين الأوروبيين هو طرح صخب الآخر، من خلال تحقيق التوازن بين القوة السياسية لهن والقوة السياسية للآخر، وهو ما حمل الحكومة في كينيا لاتخاذ موقف من الاستقلال. وطرح علاجًا تربويًا واضحًا، يتمثل في وجوب تعليم المرأة في بتشوانالاند Bechuanaland. ففي واحدة من المدارس المختلطة في بتشوانالاند، كان هناك ٦٧ تلميذًا، منهم ٦٦ ذكرًا وفتاه واحدة؛ والسبب في ذلك أن هذا البلد كان يعرف ببلد الماشية، وأن الأولاد كان عليهم أن يذهبوا للرعي عدة أميال بعيدًا عن قراهم (٣٠).

وتحت عنوان "أعط دعمكم لمناشدة التعليم للنساء"، خلص الأستاذ ماكميلان بأن "البحث عن الأنسة شو Miss Show وإرسالها إلى أفريقيا، وبالتالي صار في رأيه بأن المشكلة في أساسها مشكلة تعليمية. وأن الانتهاكات التي تحدث يمكن التعامل معها من خلال تعزيز موقف المجتمع ككل. وليس من خلال التقسيم النوعي"، فمقولة "أنا ليست امرأة أنا إنسانة" يجب أن يتم تدعيمها. وبالتالي رأى بأن القانون يتم كسره حينما لا يتم فرض الإنسانية والحضارة". وفي هذا الإطار، فإن السيد كينياتا ذكر "أنه لو كان الأستاذ ماكميلان قد سأل نساء الكيكويو لكانوا قد أبلغوه بأن استطاعتهم قد نفذت؛ لأنه في ظل الترخيص لهن بجلب الخشب من الغابة، يستطعن فعل أي شيء، حيث وضع هذا العبء على المرأة الكيكويو ليس عن طريق العرف القبلي، ولكن عن طريق الحضارة"، فهذا يعني أن كينياتا كان يستهدف الاستعمار وبأنه المسئول عن تلك الحالة. واعتقد أن رد الدكتور ليكي Leakey، على الاستفسار الموجه إليه عما إذا كان هناك أي بلد في العالم لم يجلد بعض النساء رغما عنهن؟، بأنه يتم تقديم الضمانات القانونية لنساء كينيا المحليات ضد هذه المعاملة، سواء من خلال مكتب الإقليم أو من خلال الزعيم المحلي، كان ردًا منطقيًا. ويعني بأن القوانين الموجودة عادلة تمامًا؛ وأن المطلوب هو إنفاذ القوانين القائمة فقط. ولعل إضافته "إذا كانت الحضارة قد أعطتنا قوانين الطلاق، وعقوبة الإعدام، والنظام الخاص بالعقاب لمختلف الجرائم، السجن مثلا ثلاثة أشهر بتهمة سرقة رغيف من الخبز، فلو أن الحضارة في مثالياتها هكذا، أود أن تكون أفريقيا هي بلدي"، يعني أن الرجل مع استنباب الوضع القائم. وبالتالي سجل كلامه في المؤتمر تحت مسائل يجب ملاحظتها<sup>(٣١)</sup>.

### ثالثاً: مناقشة موضوع الزواج بالإكراه في أفريقيا البريطانية في الفترة

: ١٩٣٥-١٩٣٧

نتبين من خلال الرسالة المؤرخة في ١٤ نوفمبر ١٩٣٥ على لسان الأنسة أليسون نيليانز بأنها نيابة عن رابطة الكمنولث البريطاني، قد أرسلت استبيان لجميع أنحاء أفريقيا بناء على نقاط محددة أثارها رئيس الشمامسة أوين<sup>(٣٢)</sup>. هذا الاستبيان هو الذي سيكون له الصدى الأكبر في المراسلات البريطانية لمستعمراتها الأفريقية، والتي تمت بعد ذلك طيلة سنة ١٩٣٦.

أمر آخر كان له صدى في طرح الموضوع، وهو قصة الفتاة كيكوي، حيث أحدثت قصتها تأثيراً قوياً في موضوع زواج الفتيات الأفريقيات بالإكراه للنقاش بقوة. فهناك إفاد من حاكم إقليم تنجانيقا هارولد ماكمايكل أرسله لوزير الدولة لشئون المستعمرات في ٦ فبراير سنة ١٩٣٧، يشير في نهايته، بأنه في إفاد الوزارة بتاريخ ١٧ أغسطس ١٩٣٦ طلب تقريراً منفصلاً عن قضية المرأة كيكوي Kekwe، ونسخة من الحكم الصادر ضدها من قبل قاضي المحاكمة، والذي يحتوي على كافة الحقائق<sup>(٣٣)</sup>. وعلى هذا يتضح أن هذه القصة كان لها تداعياتها على وجوب فتح موضوع الزواج بالإكراه.

وبدأت معرفة هذه القصة على يد القس أوين في ١٦ يونيو ١٩٣٦ حينما كتب مرة ثانية لمحرر جريدة المانشستر جارديان تحت عنوان "الزواج في كينيا.. معارضة البنات للمدفع بالماعز"، مشيراً إلى تقارير جريدة ستاندرد شرق أفريقيا *East African Standard* حول محاكمة إحدى فتيات تنجانيقا التي فجرت القضية وتدعى كيكوي، 18 عاماً. حيث ذكر بأنه في الأنماط الأفريقية يقبل الأهالي ثمن العروس من الرجل حتى لو أعربت الفتاة عن بغضها له. أما في حالة كيكوي، فقد هربت من الرجل الذي أراد الارتباط بها. بل طعنته بسكين في وجود أقارب لها، حينما أراد أن يأخذها بعيداً. لكن لسوء حظها، كانت الطعنة قاتلة، فأدينبت بتهمة القتل الخطأ، وحكم عليها بالسجن لمدة ١٨ شهراً. وراح بعد ذلك يسرد قصتها فقال " في الحقيقة أن كيكوي البالغة من العمر ١٨ عاماً قد قاومت، على الرغم مما يبدو لي أن عقوبة

أسرتها وقبيلتها ستبطل حقها في الدفاع بنفسها عن شخصها المادي والروحي. حيث يمكن للفتاة في مثل هذه الظروف أن تبقى هادئة، ليأخذوا حذرهم بإبعاد السكين عنها، وإبعاد الأشياء المؤذية الأخرى". وفي هذا الإطار، رأى القس أوين بأن كيكوي ما هي إلا ضحية للعرف البربري، فالعادات كسرت حياة عدد لا يحصى لآلاف الفتيات الأفريقيات. مشيراً بأنه يود أن يتمكن من جعل قراء الجريدة يروا ويسمعوا عما كانت عليه مشاعر كيكوي عندما طعنت الزوج المختار لها بسكين قاتلة؟ فيقول " لدي سبب للاعتقاد بأن الوقت قد حان لمحاولة شفاء قرحة عانيت منها على مدار سنوات معيشتي في أفريقيا. فالرأي العام في إنجلترا الآن قد يتحول مع وزارة المستعمرات بشكل واسع. لكن إذا ما تأثر الناس في إنجلترا؛ لأنهم لا يزالوا مترددين في الاعتقاد، كما كنت، بأنه من الممكن للفتيات أن يغضبن بهذه الطريقة في ظل إدارتنا، وأنه لا يمكن طرح بعض الأسئلة في مجلس العموم واستكمال التقرير الصحفي عن حالة كيكوي؟ أنا لا أكتب عن الشروط التي تم القبض عليها بموجبها" (٣٤). وهذا يعني أن القس قد استغل قصة كيكوي لي طرح ما تعانیه الآف الفتيات مثلها، موجها الرأي العام البريطاني بوجوب الضغط ل طرح المسألة للنقاش وإيجاد الحلول.

ويحتوي ملحق رسالة حاكم إقليم تنجانيقا لوزير الدولة لشئون المستعمرات في ٦ فبراير سنة ١٩٣٧ على الحكم الذي أصدره القاضي باتس Bates في ٢١ مايو ١٩٣٦ من خلال محكمة تنجانيقا الملكية العليا في موشي Moshi ، عبر جلسات القضية الجزائية رقم ٤٩ لسنة ١٩٣٦ ضد المتهمين: كيكوي رقم D ومونجا في Muningafi رقم O. حيث يشير منطوق الحكم بأن المتهمه هي امرأة شابة وأن عمرها وفقاً لشهود ثلاثة؛ يتراوح ما بين ١٨ و ٢٠ عاماً وفقاً للدكتور بانفلكار Panvalkar ، و ١٧ عاماً وفقاً للدكتور ويلكوكس Wilcocks ، وأنها قد عرّضت على قتل رجل يدعى نديمفو إس أو نشاو Ndemfoo S.O. Nshau وانها تسببت في وفاته بضربه بسكين، وأن نقطة الدخول للجرح بلغت حوالي ل مسافة شبر واحد داخل خط الحلمة اليسرى، و قليلا فوق الحلمة اليسرى. وثبت أن السكين قد اخترقت أسفل وإلى الداخل وإلى الورا. وحسب ما سمع

القاضي، أنه مقتنع بأنها ضربت ضربتها في حين كان يتم سحب ذراعها اليمنى من قبل نديمفو، وكان البعض الآخر يجروها من الخصر بغرض الذهاب بها إلى بيت أوليندو Olendo (ابن عم نديمفو) الذي كانت مخطوبة له من قبل. وكان من الواضح أن المتهمه على وشك أن تؤخذ بعيداً رغماً عنها، فقد كانت مخطوبة لأوليندو Olendo، لكنها نقلت محبتها لسامبيرا Sambera، في المكان الذي قضت معه ليلتها السابقة قبل ارتكابها الجريمة. وكان والدها قد عاد بها إلى منزلها لذلك السبب، حيث أرسل لأوليندو وعائلته ليأتوا ويأخذوها، لذلك هم جاءوا. وبعد ضغط طويل لم ينجحوا؛ لأن المتهمه كانت رافضة الذهاب معهم، وحسبما وجد، فإنهم ذهبوا إلى داخل منزلها، وأوقفتها عائلة أوليندو، حيث أخبرهم أبوها أنه راضٍ بأن يأخذوها. لذا، فإن القاضي مقتنع بأن قوة غير قانونية قد استخدمت ضد المتهمه بهدف إجبارها على الذهاب. وعندما أخرجت من البيت كان معها سكين في يدها اليسرى. وذكر القاضي بأنه يؤمن تماماً، بأن قصة المتهمه لماذا خرجت ومعها السكين؟. خاصة وانها برهنت على ما حدث من كافة النواحي، وجعلت القاضي والموجودين في المحكمة يصدقون بأنها تحركت فجأة لجلب السكين من وراء، وأنها حين تحركت للأمام طعنت نديمفو عن غير قصد. وبالتالي، وجد القاضي نفسه عاجزاً عن الاتفاق مع الموجودين بأنها ضربت نديمفو بالسكين عن طريق الخطأ. حيث قال بأن شرحها لطريقة انتقال السكين قد تركته متفائلاً في هذا الصدد. لكنه مقتنع، بناء على أدلة الدكتور بانفلكار، بأن الضربة يجب أن تكون ضربة قاسية. حيث تظهر أدلته، حسب رأيه، بأن الضربة يجب أن تكون قد تمت بطريقة مختلفة إلى حد كبير عن الطريقة التي تقول بها المتهمه بضرب نديمفو بالسكين. وحسب ما شاهده وسمع به هنا، هو مقتنع بما لا يدع مجالاً للشك بأن المتهمه قد طعنت نديمفو عمداً. وفي رأيه أن القضية واضحة بأن عملية القتل غير القانونية التي ارتكبتها المتهمه نتجت عن أسباب عاطفية تسببت في الاستفزاز المفاجئ الذي حدث لها، وهذا يعنى تطبيق معنى المادة ١٩٢ من قانون العقوبات. وفي النتيجة يقول بأنه مقتنع ببراءة المتهمه من تهمة القتل والمحكوم عليها بالبند ١٨٨ من قانون العقوبات لجريمة القتل الخطأ. وأنه سأل المتهمه عما إذا كان لديها شيء لتقوله قبل إعلان العقوبة، فقالت: "ليس لدي ما أقوله". وطلب لها المحامي هايوود Haywood عقوبة مخففة. وعندما أجلت

القضية للحكم من قبل القاضى باتس في ١٨ مايو ١٩٣٦ أفادتنا الرسالة المؤرخة في ٢١ مايو ١٩٣٦ بأنه بحضور فيرنون المدعى القضائي وبحضورها وحضور محاميها هايوود، حكم القاضى باتس على المتهمه بالسجن مدة خمسة عشر شهراً<sup>(٣٥)</sup>.

وإذا كانت قصة كيكوى قد فتحت موضوع الزواج بالإكراه للنقاش، فإن مقتطف التقرير الرسمي لمجلس العموم البريطانى والمؤرخ في ٢٢ يوليو ١٩٣٦ عن عادات الزواج في تتجانيقا، يخبرنا بأن المسألة قد ذهبت للبرلمان البريطانى نفسه، وبالتالي انتقلت من الرأي العام للمحاسبة السياسية. فهذا التقرير يفيدنا بأن الانسة راثبوني Rathbone قد استجوبت وزير المستعمرات، حول ما إذا كان يعلم أو لا يعلم بأن فتاة في تتجانيقا تدعى كيكوى، وحكم عليها مؤخرًا بالسجن لمدة ١٨ شهرًا للقتل غير العمد لرجل اختاره والداها للزواج منها رغماً عنها، وعماً إذا كان سينظر في تعزيز القانون في تتجانيقا، وغيرها من المستعمرات البريطانية في أفريقيا، بأن يطلب من كل من ينوي الزواج بأن يعطي رغبته للسلطة القبلية، لتقوم بتسجيل هذا الزواج، ومنعه من ذلك إذا رفضت الفتاة؟ أو ما إذا كان سيتخذ خطوات أخرى لمنع الزواج القسري للفتيات الأفريقيات؟ وردًا على ذلك أشار السيد أورمسي جورى Ormsby Gore بأنه رأى في الصحافة ما يشير للحالة المذكورة. وفيما يتعلق بسؤالها العام أجاب، " أنا أفهم بأن المرأة في كل أفريقيا البريطانية حرة في رفع دعاوى محاولة الإكراه وإشعار السلطات بها، لتتخذ الخطوات المناسبة. وأنه سيطلب من حكام المستعمرات الاهتمام بما إذا كانت الممارسة الحالية، من وجهة نظرهم، كافية لمنع الانتهاكات، وإذا لم تكن كافية، فما هي الخطوات الإضافية التي يمكن النظر في اتخاذها في هذا الشأن؟". وأضافت الوثيقة بأن السيدة باثونى قد سألت صحة ما هو منشور؟ وهل هناك إدراك من السلطة لتلك الحالة التي ذكرها الشماس أوين، الذي لديه معرفة كبيرة جدًا بالعادات في المستعمرة؟ فأجاب الوزير أورمسي جورى بأنه ربما بالتواصل مع الشماس أوين واخذ بيانه" بأنه في الجزء الأول من ردي قلت لقد رأيت عرض للموضوع في الصحافة. وأنها عبارة عن رسالة من الشماس أوين الى المانشستر جارديان. وأنه من الصحيح تمامًا أن لديه معرفة كبيرة بقبيلة كافيريندو Kavirondo، وأنه



على الأغلب، فإن معظم القبائل الأفريقية لديها أفكار قديمة عن الإكراه، وأنه تم القضاء على الإكراه تمامًا<sup>(٣٦)</sup>. وثمة نتائج ثلاثة نخلص إليها: أولها، أن حالة الفتاة كيكوي وإثارتها في الصحافة البريطانية قد أثارت النقاش حول الموضوع لتعميمه على بقية المستعمرات. ثانيها: أن الاستجواب البرلماني الذي تعرض له وزير المستعمرات داخل البرلمان البريطاني قد فرض عليه ضرورة الاهتمام بموضوع الإكراه ومتابعة تطوراتها. ثالثها: إن الحكم الصادر على كيكوي واستمرار الصحافة في إثارة قضيتها، قد فرضت ضرورة طرح الموضوع على مائدة النقاش بشكل مستمر.

وعلى هذا، فإن الأمر كان يتطلب وجوب سؤال المستعمرات الأفريقية عن ظاهرة الإكراه التي تحدثت عنها الصحافة البريطانية وأثارها مجلس العموم، فكان لا بد من الإرسال لحكومات المستعمرات للوقوف على طبيعة الظاهرة ومدى انتشارها. وبالتالي، فإن مراسلات وزارة المستعمرات للإدارة الاستعمارية تحمل داخلها استفسارات واستبيانات حددتها الوزارة تحديداً ووضوحاً.

#### رابعاً: الزواج بالإكراه في أفريقيا الغربية البريطانية:

من المؤكد أن إيفاد وزير الدولة للمستعمرات أورمسي جور لموظفي الإدارة بحكومات كينيا (رقم ٦٢٦)، ومحمية أوغندا (رقم ٣٣٣) ونياسالاند (رقم ٢٩٦) وإقليم تنجانيقا (رقم ٥٥٤)، وروديسيا الشمالية (رقم ٣٧٨)، ونيجيريا (رقم ١١١٠)، وساحل الذهب (رقم ٦٥٦). وسيراليون (رقم ٣٨٦)، وجامبيا (رقم ١٦٩) في ١٧ أغسطس ١٩٣٦، يشير بأن الوزارة قد وجهت هذه المراسلة إلى كل المستعمرات الاستوائية، حيث يقول "أبعث بإيفاد مماثل لضباط بالإدارة بحكومات كل من مستعمرات الشرق والغرب الأفريقي، باستثناء الصومال وزنجبار، في توقيت واحد، وبنسخة مكررة من ذات الرسالة عدا رقم المراسلة". وأنه "يتشرف بأن يرفق نسخة من السؤال الموجه إليه من قبل السيدة رايبونى في الآونة الأخيرة في مجلس العموم بشأن الإجراءات التي يقترحها، ويجب أن تتخذها حكومات المستعمرات البريطانية في أفريقيا بهدف منع الزواج القسري للفتيات الأفريقيات". مرفقاً به نسخة من رده عليها في

مجلس العموم، مبيئاً لهم بأن هذه المسألة نشأت عن المحاكمة الأخيرة لفتاة أفريقية في تنجانيقا بتهمة القتل غير العمد، وأنه ليس لديه أي تقرير عن القضية نفسها، ولكنه أرفق نسخة من الخطاب المتعلقة بها، والمرسل لجريدة المانشستر جارديان في ١٦ يونيو ١٩٣٦ من قبل الشماس أوين من كافيريندو Kavirondo. بعد ذلك يتطرق إلى الاستفسار المجتمعي العام، فذكر بأن مسألة زواج النساء الأفريقيات قد نوقشت من قبل مؤتمر رابطة الكومنولث البريطاني في نوفمبر من العام الماضي، الذي عقد خصيصاً بناء على النسخة المقتطفة من جريدة شرق أفريقيا، وتعرض المؤتمر لمناقشة ما جاء فيها. ذاكراً بأنه يدرك أنه سيكون من التسرع التعميم بسؤال من هذا النوع. خاصة وأن الظروف قد تختلف على نطاق واسع بين القبائل في المنطقة الواحدة، وأن تبيان مدى الضغوط الشريرة التي يمكن أن تمارس على الفتيات الأفريقية بالزواج رغماً عنهن، فيه قدر من المبالغة. في نفس الوقت، رجاهم بأن يلتزموا بما يكفي لإحالة المعلومات إليه على خمسة نقاط: أولها: ما إذا كانت توجد حالات الإكراه الحقيقية (تشمل بعض الإكراه البدني) أو تكون متكررة؟؛ ثانيها، سواء وجدت حالات الإكراه أم لا، فهل النساء لديهن الحرية لرفع مثل هذه الحالات للقائم مقام أو إلى السلطات المختصة الأخرى؟، وعماً إذا كان هذا الحق يمارس على أرض الواقع بحرية أم لا؟ ثالثها، ما هي الإجراءات التي تؤخذ عادة في حالات من هذا القبيل، وتجاه الشكاوى الواردة؟، رابعها، عما إذا كنت راضياً بأن الممارسة الحالية لمنع الانتهاكات الخطيرة غير كافية؟ خامسها، إذا كان الجواب بالنفي، فهل يمكن أن تذكر التدابير الأخرى التي من شأنها تكون مرغوبة وعملية في التسجيل الإلزامي للزواج من قبل سلطة القبلية أو غيرها<sup>(٣٧)</sup>. ومن ثم، فإن نسخ الاسئلة الموجهة للوزير من قبل عضوة البرلمان، أرسلها كما هي لحكام المستعمرات لإفادته بالرأي من خلال الواقع الأفريقي المحلي. وهنا يمكن القول بأن النقاشات التي دارت بشأنها، سواء عبر الرأي العام أو عبر المؤتمرات، أو داخل البرلمان، قد تحولت إلى محاولة لفهم المشكلة من قبل وزارة المستعمرات.

وعلى هذا، فإننا في هذا المحور سنعالج مطالب وزارة المستعمرات البريطانية وردود فعل حكام المستعمرات البريطانية في غرب أفريقيا على تلك الاستفسارات. وفي هذا الإطار، سنجد في إيفاد حاكم سيراليون، هنري مور إلى وزير الدولة للمستعمرات في ٥ ديسمبر ١٩٣٦، أنه يعترف باستلامه إيفاد الوزارة رقم ٣٨٦ في ١٧ أغسطس ١٩٣٦، ومرفق معه نسخة من أسئلة السيدة راثنون الموجهة لوزير المستعمرات داخل مجلس العموم، بشأن الإجراءات المقترحة وينبغي اتخاذها من قبل حكومات الأقاليم التابعة البريطانية في أفريقيا بهدف منع الزواج القسري للفتيات الأفريقيات. وضورة الإجابة على الأسئلة الخمسة المذكورة في الفقرة ٣ من هذا الإيفاد الخاص<sup>(٣٨)</sup>.

وهناك إيفاد من حاكم نيجيريا، بورديلون Bourdillon، إلى وزير شؤون المستعمرات في ٢٧ فبراير ١٩٣٧ يشير فيه لخطاب ١٧ أغسطس، ١٩٣٦، وأنه سيجيب على الأسئلة الخمسة التي طلبها في ذلك الإيفاد بخصوص حالات الإكراه الحقيقي؟ وما إذا كانت المرأة حرة في إبلاغ مأمور المنطقة أو غيره من السلطات بأية حالة من حالات الإكراه؟ وما إذا كانت توجد شكوى من هذا القبيل؟ وهل الممارسة الحالية كافية لمنع الانتهاكات الخطيرة؟ وهل التسجيل الإلزامي سيكون علاجًا ناجحًا؟<sup>(٣٩)</sup>.

وإيفاد حاكم جامبيا الجنوبية، إلى وزير الدولة للمستعمرات في ٦ نوفمبر ١٩٣٦، يشير أيضًا إلى خطاب الوزارة في ١٧ أغسطس ١٩٣٦، حول موضوع الزواج القسري للفتيات الأفريقيات، مشيرًا بأن هذه المسألة هي واحدة من واجباته للرئيسة منذ وصوله مؤخرًا للمستعمرة، وأنه لا يدعى أي معرفة شخصية بها، لكنه مدين لمستشاريه بالآراء التي سيرسلها للوزارة عبر هذه الرسالة. حيث اعترف بأنه لا يمكن إنكار أن حالات الإكراه قد تحدث في جامبيا؛ لأنه من الصعب تقدير مدى ممارسة الكراه في الحالات غير المعروفة. وأنه ربما توجد حالات مادية لإكراه الفتاة وسوء معاملتها من قبل والديها، لكسر إرادتها والخضوع لرغبتهم. غير أنه يميل إلى الاعتقاد بأن هذه الحالات نادرة، وأن القوة الأكثر شيوعًا هي الإكراه المعنوي. أما بخصوص تلك الاعتبارات التي من شأنها أن تردع الكثير من النساء من وضع شكوى لدى المأمور أو السلطات الأخرى فيما يختص بالإكراه، فإنه عندما يتم جلب

مثل تلك الشكاوى وتثبت الحقائق، فإنه يمكن منع الزواج، أما في حالة استخدام القوة البدنية، فإن تهمة الاعتداء أو الخطف لا يمكن أن تتحقق. أما إذا امتنعت المرأة عن الزواج، فإن الأسرة ستكون مطالبة برد المهر للرجل. وإذا حدث إتمام الزواج بالفعل، فيمكن أن يلغى. وفي هذه الحالة الأخيرة، فمن المهم أن يكون هناك دليل كافٍ على الإكراه، لذلك يجب أن يوضع في الاعتبار أن المرأة قد دخلت في الزواج عن طيب خاطر، ويجوز لها، قبل صياغة الشكاوى، أن توضح أشكال القسر، حتى تتمكن من إبطال زواجها دون العقوبات المترتبة على الطلاق إذا رغبت في الخلاص. وفي ضوء هذه الملاحظات، لا يمكن القول بأن الحرية في وضع شكاواها لدى المفوض أو لدى السلطة الأفريقية هي دائماً كافية لمنع الانتهاكات الخطيرة. وأنه إذا تم الاعتراف بأن الزواج الأفريقي على خطأ، فإنه لا ينتج تظلمات مسموعة. فلا التغيير في الإجراءات، ولا سن التشريعات، سيجعل من تسجيل الزواج إلزامياً، أو سيزيل تلك المصاعب التي تعاني منها المرأة الأفريقية في الوقت الحاضر، أو سيسبب امتثالها لعرف قبيلتها. حيث يتم تقديم التشريعات لتوفير قواعد صارمة ضد الزواج القسري، وأي امرأة تستخدم هذه القوانين للهروب من زواج عائلتها، فإنها تعاني من النبذ الاجتماعي الناتج عن استخدامها الإجراء الحالي. فحق المرأة في التحرر من الزواج غير المرغوب فيه، موجود ومعروف. لكن الممارسة الأعم لهذا الحق والاختفاء التدريجي للزواج القسري، لن تتحقق إلا مع تعليم الأفريقيين الاحترام الكبير للحرية الفردية، خصوصاً ضد السلطة الأبوية. أما بالنسبة للوضع اليوم، فهو متطابق مع الاحوال القائمة منذ جيل سابق، وهناك أدلة كافية لتبرير البيان بان وتيرة التقدم نحو تحرر المرأة في جامبيا يتزايد من سنة إلى أخرى. وينبغي إدراك أن هذا التقدم هو الذي يسبب بعض الذعر في مجتمع يقوم على السلطة الأبوية على مدى قرون، بكل ما تميز به ذلك المجتمع الزراعي من المحافظة العميقة على الجذور. حيث كان الموظفون الإداريون في المحمية يتلقون، مع تزايد أشكال التعبير إنذاراً من كبار السن في المجتمع الأفريقي بشأن الحريات المطلوبة والتي اتخذتها نساؤهم، وفي الحاضر، فيجب أن تكون هناك مرحلة انتقالية لأي تدخل فوقي عن طريق التشريع أو خلاف

ذلك من أجل الإسراع في التغيير. وقد يكون هذا له آثار تخريبية أكثر، بحيث تؤخر عملية الإصلاح التي تحدث الآن لأدنى حد من الإزعاج. ولذا، فقد نصح " بأنه لتجنب أي انقطاع، أن تحدث عملية تحرر تدريجية، عن طريق القوى الحضارية الناعمة غير الملموسة، والتي هي بالفعل تعمل من جرائها نفسها، فالفرض المتأني للإجراءات الإدارية القائمة يمكنه منع الزواج القسري أو تقليبه" (٤٠).

وإيفاد حاكم سيراليون إلى وزير الدولة للمستعمرات في ٥ ديسمبر ١٩٣٦ يشير إلى خطاب الوزارة له في ١٧ أغسطس ١٩٣٦، بشأن الاستفسارات التي قدمتها السيدة راثبون لمجلس العموم، والإجراءات المقترحة وينبغي اتخاذها من قبل حكومات المستعمرات الأفريقية بهدف منع الزواج القسري للفتيات الأفريقيات. حيث يشير بأنه طلب من مأموري الأقاليم الإجابة على الأسئلة الخمسة التي طلبتها الوزارة، وطالبهم بأن يتعرفوا على حالات الإكراه الحقيقي التي تحدث في سيراليون، وعمّا إذا أُجبرت النساء على ذلك، فهل هن أحرار، إذا رفض الزعيم المحلي التماسها في تقديم شكوى إلى القائم مقام البريطاني، حيث يشير في تلك النقطة، بأنه لم ترد أي شكاوى من هذا القبيل. وأجاب بلا على الأسئلة المتبقية. لكنه أشار بأن مفوض المقاطعة الجنوبية أضاف شيئاً جديداً "في سيراليون إذا طلب الرجل الزواج من الفتاة، وأُعربت عن نفور ملحوظ، فإن عائلتها لن تجربها على الزواج منه. حيث يتم الضغط على المرأة من قبل عائلتها في تلك الحالات التي يكون فيها خلاف بين الزوج وزوجته، والزوجة تعود للآباء؛ والقاعدة أن الآباء يترددون في رد المهور ويمارسون الضغط على المرأة للعودة إلى زوجها. لكن هذا بطبيعة الحال هو مجرد التمسك بقدسية الزواج وليس بالضرورة أن يحدث نفس الشيء في إجبار الفتاة غير المتزوجة للزواج ممن اختاروه لها، فإن حدثت فلا يهمهم" (٤١).

أما إيفاد حاكم ساحل الذهب، أرنولد هودسون Arnold Hodson إلى وزير شؤون المستعمرات في ٢٠ ديسمبر ١٩٣٦، يشير بأنه أنجز تحقيقاً دقيقاً في هذه المسألة. مخطراً أباه بأربعة مسائل: أولها، أنه لا يمكن اعتبار حالات الإكراه الحقيقي بأنها تتم بشكل متكرر، ثانيها: في حالة محاولة الإكراه، فإن المرأة حرة في جلب مثل هذه الحالات إلى مأمور المقاطعة، وهذا الحق تمارسه بحرية، ثالثها: أن الزواج

القسري يتعارض مع العرف الأفريقي، وفي الحالات القليلة التي تم فيها وضع الشكاوى، وضعت الدعاية للمسألة، وكانت وسيلة للتنفيس بها في محكمة مأمور المقاطعة، بدعم من الرأي العام، وهذا كان كافياً لضمان التعديل المرضي، رابعها: أن الممارسة الحالية كافية لمنع الانتهاكات الخطيرة (٤٢).

ويشير إيفاد حاكم نيجيريا، بورديلون، إلى وزير شئون المستعمرات في ٢٧ فبراير ١٩٣٧، بأنه قد تلقى تقارير من كل جزء في نيجيريا. وأن النعمة العامة في هذه التقارير مطمئنة أكثر. ذاكراً بأنه لا يمكن إنكار ممارسة الإكراه، وأنه في حالات نادرة قد يحدث الإكراه البدني، لكن أصبحت مثل هذه الممارسات أقل تواتراً، وأقل تكراراً. وأرجع الكثير منها إلى ضعف الرقابة الأبوية على المرأة، بما يوفر الأسباب التي تدعو للقلق من الممارسات المفرطة عليهم. وأشار بأنه في مناطق المسلمين يجيز القانون الإكراه من قبل أحد الوالدين، ولكن ليس من قبل ولي الأمر، في حالة الفتاة التي لم يسبق لها الزواج من قبل. وأنه على الرغم من أن العرف يسمح لأحد الوالدين أن يقيم مراسم الزواج التي يتعين القيام بها، إلا إن الفسخ في جميع الحالات السابقة ممكن أن يحدث قبل اكتماله، والقلق والخشية من هروب الفتاة قائم. حيث تسعى الفتاة لإقامة شكل زواجي لا يدوم، يقيد بالإكراه للإقناع الأخلاقي، وتحدث مثل هذه المضايقات نتيجة لرفض الوالدين الحاد. أما بين القبائل الوثنية وفي المناطق الشمالية والجنوبية، فهناك محافظات يسود فيها نظام المهور وخطوبة الأطفال معروفة بشكل كلي تقريباً. وأن هذا النظام ينطوي بالضرورة على الإكراه المعنوي بدرجة أكبر أو أقل، حيث يتم دفع جزء من مهر العروس عادة أثناء طفولة الفتاة، غير أن رفضها في وقت لاحق بقبول زوجها المختار لها، ينطوي على قيام والديها بسداد الأموال الواردة. ومع ذلك، يحق لها الرفض، وفي حالات نادرة جداً لن ينظر بعين العطف من قبل الرأي العام للضغوط الممارسة على الفتاة لتزويجها رغماً عنها. لكن الآباء يدركون بأنهم لن يكونوا مضطرين لرد مهر العروس إذا قامت ابنتهم بترك زوجها بعد الزواج، ومن ثم تستعيد خيارها. وعلاوة على ذلك، فإن العرف يكاد يكون عاماً في خطبة الفتيات، بالقيام بزيارات لعائلة زوجها المقترح قبل الزواج، وبالتالي تتاح لها

الفرصة لتقدير شخصيته. وبالتالي يمكنها أن تعبر عن كراهيتها للخطبة، حتى إذا كان الوالدان يصران على الزواج المقترح بشدة، إلا في ظروف استثنائية. ومن الناحية العملية البحتة، فإن الكل يدرك بأن الرقابة الأبوية على البنات اللاتي كبرن، لم تعد قوية بما يكفي لضمان ديمومة الزواج، وكل قبيلة، بدائية أو غير ذلك، ينبغي أن تمنح الثقة الكافية للمشاعر والأحاسيس وتحتاج إلى قدر كبير من المودة الطبيعية بين الآباء والأبناء. وتكون هذه الخصائص العامة مناسبة ولا يمكن تجاهلها من قبل أولئك الذين يشكلون آراءهم حول الحالات المنعزلة. وفي جميع الحالات التي يتم فيها ممارسة الضغط على الفتاة للزواج رغما عنها، فإنها حرة تمامًا في رفع شكوى إلى السلطات المحلية أو إلى مأمور المنطقة. وعند تلقي مثل هذه الشكاوى تتم دعوة الأسر المعنية، وتبذل محاولة لتسوية المسألة وديًا. وإذا تعذر ذلك، فإن إجراءات إنهاء العقد توضع في المحكمة الأفريقية. ويشير بأنه راض عن التقارير الواردة بشأن الممارسات الحاضرة وأنها كافية لمنع الانتهاكات الخطيرة، وأن حالات الإكراه الحقيقية هي الآن نادرة وستصبح أكثر ندرة. أما الحالات المستثناة، والتي تمت من خلال آباء دفعتهم شهوة الجشع أو القسوة، وأجبروا بناتهم على قبول الزوج غير المرغوب فيه، فلا شك أنها تحدث، ولكن مثل هذه الحالات الاستثنائية تأتي عادة لإبلاغ السلطات. والسبيل الوحيد لإنهاء مثل هذه الممارسات الشريرة يتم عن طريق تشكيل الرأي العام ضدهم، وفي هذا الاتجاه، يحدث تقدمًا كبيرًا، ويجري عمله على أرض الواقع. ويشير بأنه أثناء التحقيق الأخير المطلوب، فقد تبعه تمثيل من قبل السلطات بإرسال بعثة تبشيرية معينة بشأن موضوع الزواج الأفريقي والطلاق، للتعرف على مدى إمكانية تسجيله والتعرف عن قرب على مثل هذه الزيجات. وأنه قد تبين أنه في المناطق التي فيها رأي عام قوي، لا يفضلون تسجيل الزواج إلزاميًا، وبالتالي لا يمكن إدخال التسجيل بنجاح. ولكن التسجيل الطوعي قد يخدم غرضًا مفيدًا، وربما يمهد الطريق إلى قبول وجود نظام سليم للتسجيل في وقت لاحق. وخلاصة القول: فإن الإجابات على الأسئلة التي طلبتها الوزارة تمثلت في خمسة: أولها: أن حالات الإكراه الحقيقي نادرة وأصبحت أكثر ندرة: أما حالات الإكراه البدني، فنادرة جدًا في الواقع، وهناك

تأكيد بأنها تأتي لإبلاغ السلطات. ثانيها، المرأة حرة في أن تأتي لإبلاغ مأمور المنطقة أو غيره من السلطات بأي حالة من حالات الإكراه، وهذا والحق يمارس بحرية. ثالثها: في حال وجود شكوى من هذا القبيل، يتم اجراء محاولة للتوصل إلى تسوية ودية. وفي حالة الفشل يتم الطلاق عن طريق المحكمة الأفريقية. رابعها، انه مقتنع بأن الممارسة الحالية غير كافية لمنع الانتهاكات الخطيرة. خامسها، أن التسجيل الطوعي سيتم من خلاله تشجيع الزواج الأفريقي وتهيأة الرأي العام الافريقي في أي منطقة ليصبح مواتيا بما فيه الكفاية لضمان نجاحها. ويجب ان ياتى العلاج من الداخل، من خلال تحسين موقف الناس أنفسهم، ولا يمكن أن يتحقق عن طريق التشريع أو القيود الأجنبية لشعب لم يتم إعداده بعد<sup>(٤٣)</sup>.

#### خامساً: الزواج بالإكراه في شرق أفريقيا البريطانية ووسطها :-

إذا كانت الردود من المستعمرات البريطانية في غرب أفريقيا قد جاءت مطمئنة إلى حد ما، فإنها في شرق أفريقيا ووسطها لم تختلف عنها كثيراً. وفي هذا الإطار، يجيب إيفاد تشارلز دونداس Charles Dundas، نائب حاكم روديسيا الشمالية لوزير الدولة للمستعمرات في ١٦ سبتمبر ١٩٣٦، " بأنه الآن قد ألغيت العبودية ونادراً ما يتم زواج الفتيات الأفريقيات رغما عنهم. قد تكون هناك محاولات من جانب الآباء والأمهات في بعض المناسبات لإكراه الفتاة، وربما تنزل الفتاة في كثير من الأحيان عند رغبات الآباء أو أولياء الأمور في هذا الشأن. وفي حال استعماله، فلن تتردد الفتاة في هذه الأيام في مناشدة السلطة الأفريقية، أو إذا لزم الأمر تستعين بحاكم المقاطعة ، وفي هذه الحالة سوف يسمح بالزواج". ثم يقفز للقول بأنه مقتنع تماما بأن الممارسة الحالية غير كافية لمنع الانتهاكات الخطيرة؛ لأنه على أرض الواقع، يشعر ببعض القلق؛ لأن الفتيات أصبحن مستقلات أكثر من اللازم، وتميل الواحدة منهن إلى أن تهزأ بتأثير الوالدين، حينما يرغبان في ممارسة حقهم عليهم. أما فيما يتعلق بتسجيل الزيجات الأفريقية، فيشير بأن المؤتمر الأخير للمفوضين الإقليميين قد أوصى بالتسجيل الطوعي لمثل هذه الزيجات من قبل



السلطات الأفريقية، حيث وجه السير هيوبرت يونج Hubert Young بأن تؤخذ وجهات نظر السلطات الأفريقية للحصول على تلك التوصية. وأبلغ الإدارة بأنه ينتظر التقارير الآن بالألا يكون التسجيل بهدف منع الزواج القسري، وإنما لإحكام التضييق على رابطة الزواج، وأن الأمر يتم برغبة السلطات الأفريقية نفسها<sup>(٤٤)</sup>.

وهناك إيفاد من ميتشل Mutchell حاكم أوغندا إلى وزير المستعمرات في ٣ ديسمبر ١٩٣٦، يخبر الإدارة بأن حالات الإكراه الحقيقي هي نادرة جدا في أوغندا. لكن هذا لا يمنع من حدوث بعض الحالات العرضية، مثلما تحدث في أكثر المجتمعات المتحضرة للغاية. غير أن المرأة حرة وليست مكرهه، في تقديم شكاوى ضد الاكراه لموظفي المنطقة أو لسلطتهم القبلية. وفي جميع الحالات يتم التعامل مع هذه المسألة من قبل السلطة القبلية أو العشائرية، وفي الحالات التي يحدث فيها اكراه بدني يتم عرض الجناة على المحكمة المحلية. وتتخذ السلطات المحلية موقفاً جاداً من هذه الحالات. وقد تسبب هذا الموقف بالإضافة لضغوط الرأي العام، في عدم ممارسة اي ضغوط تجبر الفتيات على الزواج، ومن ثم أصبحت نادرة الحدوث. ويقر بأنه مقتنع بأن التشريعات والممارسات القائمة توفر العلاج الفعال لمثل هذه الانتهاكات إذا حدثت. أما من ناحية تسجيل الزواج فيقول بأن التسجيل الإلزامي قد وضع لأسباب أخرى، وهو موجود بالفعل في منطقتين، في حين يتم التسجيل الطوعي عملياً في اثنتين من الأحياء الأخرى، لكن لا يرى أن هناك أي ضرورة حالية لتوسيع هذا النظام ليشمل بقية المحمية. ملفتا نظر الإدارة إلى ما دار من حديث خلال المؤتمر الذي عقده رابطة الكومنولث البريطاني، مؤكداً على أن المشكلة الحقيقية في أفريقيا الحديثة هي انهيار القيود الأخلاقية التقليدية، وانتشار الدعارة. ناصحاً إياها بالإبقاء على الأعراف الموجودة "قد يكون العرف القبلي فيما يتعلق بالزواج ينتج مخالفات عرضية أو ظلم، ولكن أي أشياء أخرى تؤدي لإضعافه من شأنها أن تؤدي إلى شرور أسوأ بكثير؛ لأنه لا يوجد ضبط نفسى زائد، وهو الأمر الأكثر خطورة على نساء أفريقيا، بما يعد ترخيصاً للتهور"<sup>(٤٥)</sup>.

وتشير رسالة حاكم نياسالاند، هارولد كيتيرماستر Harold Kittermaster إلى وزير الدولة لشئون المستعمرات في ١٧ ديسمبر ١٩٣٦ إلى بعض الملاحظات العامة حول الموضوع: الأولى، أن القبائل التي تسير بالنظام الأمومي، تكون الزوجة فيها لها اليد العليا من البداية، وهناك فرصة ضئيلة لإجبار الفتاة على الزواج من رجل ضد رغبتها. وبالتالي من غير المتصور أن يمارس الإكراه البدني مطلقاً. وقد يحدث في بعض الأحيان، كما هو الحال في أكثر الأراضي المتحضرة، أن يقدم أحد الوالدين المشورة لابنته فيما يتعلق بجدارة الخاطب للقبول، وحتى إقناعها بمثل هذه الوسائل على الزواج من رجل كفاء، وإذا شعرت بعدم وجود أي عاطفة معينة أو عميقة نحوه، فمن المؤكد أنها لن توافق على القيام بذلك إذا رغبت في الزواج آخر. الثاني، أن القبائل التي تسير بالنظام الأبوي. فإن المرأة تكون دائماً حرة، حيث يذهب إليها الشهود على الزواج ليتمكنوا من التعبير عن شكواهم. وكما هو الحال في النظام الأمومي، هناك فرصة ضئيلة لأي شكل من أشكال الإكراه لإجبار الفتاة لعقد زواج ضد رغبتها. لكن في بعض الأحيان يتم الإقناع من جانب الوالدين لضمان زواج ابنتهما من رجل ذي ثروة، يكون قادراً على إقناعها ويستطيع دفع المهر الكافي. وهذه المسائل ليست مجهولة للآباء والأمهات في أجزاء أخرى من العالم للرد بطريقة مماثلة في نفس الظروف، وهذه المدفوعات من المهور ليست هي هدف الآباء؛ لأنها تعطى ربحاً قليلاً. حيث يتلقى الأب وأقاربه مهر العروس في منزلهم قبل الزواج من ابنتهم، وهم ملزمون أيضاً بإعطاء مهر لزوجات أبنائهم، وغالباً ما يمر مهر زواج الابنة على مهر زواج الابن. لكنه يلخص الأمر بأن وضع النساء المحليات في نياسالاند عموماً في القمة، وأن العنف أو الإكراه في الزواج من الفتيات يواجه باستياء عموماً، ولا يمكن التغاضي عنه من قبل أي محكمة محلية. فالنظام برمته يهدف إلى حراسة مصلحة النساء، اللاتي يكرمن قبلياً باسم أمهات الشعب. وختم رسالته مجيباً على الاسئلة الخمسة المطروحة من قبل وزارة المستعمرات بخمس إجابات: أولها، أن حالات الإكراه البدني، وما افترض أن يكون المقصود من الإكراه الحقيقي، لا تحدث. ففتاة النظام الأمومي في نياسالاند كما شرح مستقلة تماماً، وخضوعها قليل للنظام

مثلها مثل الشابة الإنجليزية في عالم اليوم. أما حالات استجابتها لضغوط الوالدين، فهي أقل تواتراً في نياسالاند عما هي عليه في إنجلترا. ثانيها، أن فرصة حدوث محاولة الإكراه بعيدة جداً، فالفتاة لا تتردد في تقديم شكوى إلى زعيم القرية، أو إلى السلطة الأفريقية أو المامور، إذا كان ضرورياً. ثالثها: إذا تم إحضار شكوى من هذا النوع، وأثبتت المحكمة الأفريقية محاولة الإكراه، فإن أسرتها ستكون مسؤولة ويتم توبيخها علناً، وينتهي الأمر بدفع التكاليف، وربما دفع غرامة لمخالفة القانون الأفريقي والعرف. رابعها: أنه مقتنع بأن التجاوزات الخطيرة لا تحدث. وإذا حدثت، فإن الممارسات الحالية كافية لمنع ارتكاب هذه الجرائم الفعلية. خامسها: لا يوجد تسجيل الزامى؛ لكنه ذكر بأن العديد من السلطات الأفريقية أدخلت بمحض إرادتها قواعد التسجيل الطوعي للزواج. ومن المتوقع أن ينتشر هذا الأمر على مدى واسع، وفي الوقت نفسه لا يعتبر التسجيل الإلزامي ضرورياً أو مرغوباً فيه<sup>(٤٦)</sup>.

ويشير إيفاد وادي Wade ، القائم بأعمال الحاكم والمسئول الإداري بحكومة كينيا، إلى وزير الدولة لشئون المستعمرات في ٣١ ديسمبر ١٩٣٦ إلى عدة ملاحظات على كل نقطة من النقاط الخمسة التي طلبتها وزارة المستعمرات: **النقطة الأولى**، بشأن السؤال عن حالات الإكراه الحقيقي، وتشمل الإكراه البدني، وما إذا كانت تتم على نحو متكرر. فقال بأن الموقف في هذا الصدد، يختلف وفقاً للقبيلة، وما إذا كانت لا تزال في مرحلة بدائية من التطور، أو ما إذا كان هناك تأثير للحضارة، فنمو الفردية يكسر العادات والأعراف القبلية. مشيراً بأن الإكراه كان يجري في السابق نتيجة الضغوط، أكثر منه عنف الفردي، في حين توجد حالات الإكراه أحياناً، لكنها أصبحت نادرة. على سبيل المثال، في مقاطعة نيانزا، تسكنها قبائل لولو Luo، كيسى Kisi، بين قبائل البانتو وقبائل كبسج Kipsigis، في كيفراندوا، فيعتقد بأن حالات الإكراه قد تضاءلت إلى حد كبير في السنوات الأخيرة، وأصبحت الآن شبه معدومة. وتطبق نفس الملاحظات على المنطقة الوسطى، ومناطق الكيكويو وكامبالا Kambala وإمبو Embu هي المعنية. لكن بين الميرو Meru، فإنه وفقاً للعرف القبلي، فإن الفتاة يجب أن تتزوج الرجل الذي يختاره لها الأب، وعلى الرغم من أنه

في عدد كبير من الحالات يتم الزواج بغير اتفاق بين الطرفين، فان حالات الإكراه لا تحدث بلا شك. وفي بعض الأحيان قد يحدث أن تعزف فتاة من هذه القبيلة عن الزواج من الرجل الذي اختير لها، لكنه يستولى عليها وينقلها الى كوخ الزوجية. والأمر المعتاد ان فتاة الميرو لا تقاوم ارادة والداها، لكن طريقتها في التغلب على صعوبة الزواج من رجل من اختيار الأب وتفضيله عما يختاره قلبها، هو الامتثال لرغبات والداها، حيث تعيش مع زوجها لوقت قصير، ثم تهجره وتذهب مع عشيقها. وفي عرف الميرو فانه بمجرد أن تترك الفتاة منزلها وتعيش مع رجل آخر، فقد انتهت قوة والداها في الإكراه، وليس لديه خيار سوى اعادة مهر العروس. وأوضح أنه من بين قبائل لولو في محافظة نينازا، والكيكيويو في المنطقة الوسطى (وربما بين القبائل الأخرى)، من المتوقع أن تظهر المرأة بعض الممانعة لزوجها في المستقبل باعتباره علامة على احترامها. ويظهر هذا الأثر في الزواج عن طريق الصور التي تجلى المشاهد الفظيعة في كفاح الفتيات ضد السحب إلى قرى أزواجهن. ثم يعرض لنا ما رآه أحد الموظفين العاملين في مكافحة ذبابة التسي تسي، فقد ذكر: "في الآونة الأخيرة صدمت وأنا عائد إلى المخيم، عندما شاهدت تنفيذ الركل في فتاة وهي تصرخ. حيث تدخلت، وأمرت بوضعها خلفي وإعادتها إلى بيتها دون مضايقة. وفي اليوم التالي، عدت الى قريتها ووجدتها في مخيم مع الرجل ذاته الذي كانت تصرخ منه بالأمس. وبعد أن استدعيت الأطراف للحصول على تسجيل الزواج طوعاً، اكتشفت أن المقاومة الواضحة كانت جزءاً من مراسم الزواج العرفي، وأن المسألة تدخل في باب التسلية لجميع الأطراف المعنية إلا انا ". من هنا راح يقول " ليس لدي أي شك في أن حوادث مماثلة لها، خلقت في بعض الأحيان انطباعاً مضللاً في عقول الآخرين إلى جانب هذا الموظف". أما بشأن محافظات الساحل، فقال بأن حالات الإكراه لا تكون متكرره، على الرغم من أن عادات الزواج بين الدجو Digo والدروما Duruma تميل إلى تقييد حرية الفتيات في اختيار أزواجهن. فهي موجودة بين هاتين القبيلتين المتجاورتين، رغم ان احدهما تتبنى النظام الأمومي والأخرى تتبنى النظام الأبوي. وقال بأن تأثير الإسلام في حزام الساحل يرى بوضوح، الامر

الذي أدى إلى خليط غريب من عرف الديجو والشريعة الإسلامية. فالنظام الأمومي هو الأصل بين الديجو والدروما وربما لا تزال سائدة، على الرغم من فقدانه قوته أمام النظام الأبوي. ووفقاً للنظام الأخير، فإن الفتاة تختار زوجها، لكن يظل الأمر مرهوناً برفض أبيها وعمها. والعم له الكلمة الأخيرة. وبالتالي، فإن المرأة لديها قدر معقول من الحرية، وحق الفيتو يظهر كنوع من الحكمة<sup>(٤٧)</sup>.

وأشار إلى ما اتخذ حينها من إجراءات لإزالة الاعتراضات على النظام، بقوله "بأنه أشار في الفقرة السابقة إلى خليط من عرف الديجو والشريعة الإسلامية المنتشر في حزام الساحل. حيث يتم إجراء دفع المهور حسب كل نظام، فوفقاً للشريعة الإسلامية، حسبما يقول، فإنه لا يوجد لدى الفتاة أي خيار سوى الزواج من الشخص الذي اختاره والداها، بغض النظر عن مشاعرها الخاصة في هذا الشأن. حيث تقوم قبائل الدروما في بعض الأحيان بإجراء ترتيبات أولية للزواج في المستقبل عندما تكون الفتيات في سن صغيرة جداً. فالخال عادة ما يلجأ إلى هذا الإجراء تحت ضغط الظروف المالية، حيث يتم تسليم الفتاة بعد دفع المهر إلى والد زوجها. ولا يوجد هذا العرف بين الديجو إلا مع تعديل المبلغ المالي أو الماشية التي حصلت عليها الفتاة كمهر تأميني عندما تصل لسن النضج. وتبذل محاولات لجعل عرف الدروما في خط موازٍ مع الممارسة الأكثر إنسانية القائمة بين الدجو، من خلال التأثير في الرأي العام عبر المجالس المحلية الأفريقية. وفي حالة القبائل الأخرى، فتحدث حالات الإكراه مع اختلاف تردها وفقاً للقبيلة، وما إذا كانت تتبع العادات الموروثة أو تسابير العصر. وراح ينتقد سلوك قبيلة التوركانا، باعتبارها واحدة من القبائل الأكثر بدائية في المستعمرة، حيث قال بأن الإكراه يمارس عملياً، وإن لم يكن غير معروف؛ مرجعاً ذلك إلى حقيقة أن التوركانا لا تنقيد بالإخلاص الزوجي باعتباره واحدة من الفضائل الكبرى<sup>(٤٨)</sup>.

**النقطة الثانية:** إذا وجدت حالات الإكراه، فإن المرأة حرة في إيصال مثل هذه الحالات إلى مأمور المنطقة أو لغيره من السلطات المختصة، وهذا الحق يمارس بحرية تامة. لكن في حقيقة الأمر، فإن الشكاوى من محاولات الإكراه نادر ما يتم إحضارها إلى مأموري المقاطعة، لذا يستمر حدوث الزواج القسري بين بعض القبائل؛ وذلك بسبب الآباء المحافظين، وقوة الرأي العام الإفريقي التي تفضل عدم التدخل،

وتقبل بإخضاع المرأة باعتبارها حالة طبيعية وسليمة. النقطة الثالثة، بالنسبة للإجراءات التي تؤخذ عند حدوث مثل هذه الشكاوى. فذكر بأنه عادة ما يتم التعامل مع الشكاوى بالإشارة، في المقام الأول، إلى المحكمة الأفريقية، التي تخضع للاستئناف أمام مفوض المنطقة. وفي حالة حدثت في المحكمة الأفريقية لمنطقة تيتا Teita في الآونة الأخيرة، تم تغريم الزوج تسعين Shs، وحررت المرأة من الارتباط، وتمكنت من الزواج من رجل من اختيارها. وفي منطقة كيفراندوا الجنوبية، فإنه عندما تترك الزوجة زوجها، فإن المحكمة تأمر بعودتها، ولكن إذا هجرته للمرة الثالثة، فإنها ستعود إلى بلد أبيها، الذي يكون مضطراً لسداد المهر. النقطة الرابعة والخامسة، حول عدم كفاية الممارسات الحالية لمنع الانتهاكات الخطيرة، وحول تسجيل الزواج وما هي التدابير الأخرى التي يقترحها؟ وهل التسجيل الإلزامي للزواج مرغوب من السلطة القبلية أو غيرها وعملي؟، فأجاب بأن الممارسات الحالية لا تمنع الحوادث من الوقوع التي لا يعقلها غير الأفريقيين، مع أنها تبدو للآخرين كانتهاكات خطيرة للحرية الفردية، لكن المواطنين لا يرونها كذلك. وقال بأنه قد حدثت تطورات كبيرة عما في السابق وأن الأمر لا يدعو لأي تدخل جذري من قبل الحكومة، باعتبار التسجيل يكون أكثر حكمة، خاصة وأن آثار الإكراه غير مرغوب فيها<sup>(٤٩)</sup>.

وإيفاد حاكم إقليم تتجانيقا لوزير الدولة لشئون المستعمرات في ٦ فبراير سنة ١٩٣٧، يحيطه علماً بأنه يجري تنفيذ فحص الموضوع كاملاً، وأن هذا الفحص هو الذي تسبب في تأخير الرد على رسالة الوزارة، خاصة وأن أهمية الموضوع فرضت استفسارات واسعة النطاق، ولها ما يبررها. فنظراً للظروف المتفاوتة بين القبائل المختلفة في الإقليم، كانت هناك صعوبة في تعميم استفسار من هذا النوع، مشيراً بأن المبدأ الأساسي لعادة الخطوبة عموماً في هذا الإقليم أن رغبة الوالدين في اختيار الزوج تحمل وزناً كبيراً. وبطبيعة الحال، لا شيء في هذه الرواية لهذا العرف يثير الدهشة والاثارة، فحتى قرب نهاية القرن الماضي، فإن معظم الفتيات الصغيرات في بلده في انجلترا كان يتم هذا الأمر. ومن المؤكد أنه في جميع القبائل، يوجد هناك عرف ومراسيم بأن الفتاة قد ترفض الزواج من رجل معين، لكنها ستكون معتمدة في

قريتها على رفض شيوخ القبائل وعائلتها له. وخلص الى ان الوضع جيد حسب كلام السيد باقشيوي Bagshawe، مفوض المقاطعة الاولى في هذا الإقليم، كونه يمتلك عشرين عامًا من الخبرة والمعرفة العميقة بالافريقيين، مستشهدا بقولته: "مما لا شك فيه انه يمارس قدر معين من الإكراه لجعل الفتيات يتزوجن من الرجال المختارين من قبل ابائهم. لكن هذا الإكراه أخلاقي، ومماثل لذلك الذي يمارس في بعض الأحيان في المجتمعات غير الأفريقية". معلقا، " أما أنا فلم أسمع بحدوث الإكراه البدني لسنوات، وأنا أشك أنه إذا حدث بأن يسمح الرأي العام الأفريقي بذلك" (٥٠).

واضاف " إنه إذا كانت المحاولة حقيقية في الإكراه البدني، فإنها سوف تقتصر على كبار السن من المواطنين. أما جيل الشباب، وغالبية مسيحي إلى حد كبير، فإنه سيقدم تقريراً إلى المبشرين الذين سوف يقومون بتبليغ أقرب موظف إداري. لكن الملاحظ بأن الفتيات الأفريقيات غالباً ما لا يبدين الكثير من المقاومة لرغبات آبائهم المتعلقة بالزواج، فإنهن يطعن ثم يهرين بعد ذلك. والآباء يعرفون هذا، ومن ثم، فإنه عندما يحدث هذا الأمر، يكون سداد المهور في مقدمة واجباتهم؛ ولهذا السبب فإنهم عادة ما يكونوا خائفين من إكراه الفتيات على الزوج إذا كن بالتأكد ضد هذا الاقتراح. هذا في رأيه هو العلاج الحقيقي ضد الإكراه، حيث تستفيد النساء بحرية من ذلك. اما استيلاء العريس على زوجته فهو جزء من مراسم الزواج القبلية. فهو علامة على الفخر بالعروس وبمقاومتها، ودليل على حسن تربيتها مسبقا، وأنها لا تقاد وتسلم نفسها بسهولة، ومن الخطأ ان يفهم هذا على أنه إكراه حقيقي. فالمرأة حرة في تقديم أي شكاوى لموظفي الادارة أو الى المحاكم القبلية، من شأنها أن تشمل الإكراه. فالمحكمة القبلية تمثل عظيم الحماية للنساء في مثل هذه الأمور، وقليل من الرجال يخشون عند فتح المحاكم المحلية من وصف المرأة بأنها لا تريد الزواج منه وترغب في شخص معين. ومن الصعب وصف العمل الذي يقوم به الموظف الإداري عند استلام شكوى المرأة بالإكراه: فكل حالة ستقررها الحقائق، بما في ذلك القوانين القبلية والأعراف. مشيراً بانه خلال سنوات عديدة من الخبرة، لم يجد أي صعوبة في حصول المرأة الأفريقية على حريتها البدنية من الرجل الذي كانت تبغضه. والممارسات المعتادة هو حصولها على تلك الحرية، لكن هناك خيبة أمل لدى الزوج

لاسترداد أي شيء مما قد دفعه للمرأة، وفي رأيه أن هذا سيفي بالغرض لمنع الانتهاكات الخطيرة". ثم انطلق يجيب على الاسئلة الخمسة مجيباً على السؤال الاول بلا. قائلاً بأن ترتيب رقم الزيجات يتم من قبل الآباء، وكما جرت العادة يكون من بين المتقدمين أكثر من واحد من ذوي المؤهلات المرضية، وبالتالي من المعتاد النظر في رغبات الفتاة في مثل هذه الحالات. ونادراً ما يحدث بين القبائل الأكثر بدائية تشكيك في رغبة الوالدين لقدرتهم على إقناع الفتاة والتغلب على أي اعتراضات من جانبها، بدلاً من تحدى والديها، والموافقة على الزواج في وقت لاحق بعد رفع دعوى للطلاق بطريقة او باخرى. في هذه الحالة على الآباء أن يعيدوا مهر العروس، ولهذا السبب هم مترددون في موضوع إجبار بناتهم على الدخول في أحضان الخاطبين غير المرحب بهم. وهذا في الواقع يمثل العلاج الحقيقي ضد الإكراه، والمرأة الأفريقية تدرك ذلك جيداً. والأكثر تطوراً فان القبيلة تصبح أكثر من الوالدين في السيطرة المريحة، ولهذا فان البكاء المستمر للعائلة وشيوخ القبائل من الجيل الأصغر سناً، يظهر في تناقص احترام الاتفاقيات، وبالتالي أصبحت الفتاة مستقلة بشكل متزايد. وفي هذه الظروف فان ضغط الوالدين للتعاقد نادراً ما تتم ممارستها في الزواج غير المرغوب بنجاح. وبالنسبة للسؤال الثاني فقد اجاب بنعم. قائلاً بان حق رفض الزواج من جانب بعض النساء من المسلم به عموماً في العرف القبلي، وهو في الواقع يمارس بحرية. ومع ذلك تأتي اعداد قليلة من حالات الرفض لاطار الإدارة، خاصة مع إدراك المرأة لوسائل الانتصاف لها، واستعداد السلطات القبلية على مساعدتها. حيث تذهب الشكاوى عادة إلى المحكمة الأفريقية في المقام الأول، مع الاحتفاظ بالحق في الاستئناف أمام موظفي المنطقة الرسميين، وأحياناً لا، حيث توضع مباشرة أمام مأمور المنطقة من قبل الأشخاص الذين لديهم إمكانية الوصول المباشر. ويتسلم المرأة لشكاواها للمحاكم الأفريقية قد تمنح الطلاق، وربما تتم معاقبة الطرف المخالف إذا ثبت وجود إكراه حقيقي. ففي واحدة من الحالات القليلة التي حدثت مؤخراً، حكم على الأطراف المخالفة بأحكام بالسجن تتراوح ما بين ٣ إلى ٦ أشهر. واجاب على السؤال الرابع بنعم، مشيراً بانه في ظل حالة عدم النظام، لا يمكن استبعاد حدوث حالات نادرة. مجيباً على السؤال الخامس بلا، فالتعليقات التي تنشأ تكون خارج المكان.



والتسجيل الإلزامي للزيجات الذي تقوم به الإدارات الأهلية سيكون له أثر قليل في منع الإكراه، خاصة وأن التسجيل لا يتم إلا بعد إتمام الزواج. واعتماد التسجيل الإلزامي من قبل بعض الإدارات الأهلية، سيكون بهدف تقدير حجم المهر المدفوع والمسجل في عقد الزواج، والخلافات المتكررة بشأنها ستكون تسويتها أكثر سهولة. أما التسجيل الإلزامي المتوقع للزواج كضمانة إضافية ضد التأثير الضار، لا يبدو أنه مسوغ لأنه غير عملي. وفي هذا يقول " صحيح أن سلطة أروشا الأفريقية، أدخلت نظام التسجيل الإلزامي عند خطبة فتيات أروشا من رجال المأساي، ولكن لم يفعل هذا بغرض عدم تشجيع الآباء والأمهات، تحت اغراء المهور الكبيرة، على إجبار الفتيات للزواج غير المرحب به من رجال القبائل الأخرى. ولتمرير هذه القواعد يفترض في شيوخ الوراشا Waarusha ألا ينقلوا مشاعرهم للفتيات برغبتهم في منع النساء من البقاء في أرض قبيلتها". منتهياً بالقول " بأنه مع وسائل الانتصاف المتاحة للمرأة، أنا لا أعتقد أن أي محاولة لإدخال التسجيل الإلزامي، سواء الزواج أو الخطبة، ستكون ضرورية أو مستحسنة. بالتأكيد لن يتحقق الغرض إلا إذا حصلنا على دعم الرأي الأفريقي، وإلا فإن التحرك لعرضه سيأتي من داخل القبيلة وليس من خارجها" (٥١).

#### سادساً: رفض الفتيات الأفريقيات ومقاومتهن للزواج بالإكراه:

لا يمكن أن تتحرك الحكومة البريطانية في لندن لأمر يخص الفتيات الأفريقيات ما لم يتحركن بأنفسهن لرفض تزويجهن بالإكراه. وعلى هذا الأساس، شكلت عملية رفض الفتيات الأفريقيات لهذا النوع من الزواج البوتقة التي انصهرت فيها آراء السلطة الاستعمارية بخصوص هذا الزواج. وفي هذا الإطار، فإن تقارير حكام المستعمرات أنفسهم رفعت المقاومة النسائية للزواج القسري، بما دفع السلطة البريطانية لمحاولة تغيير الوضع القائم. وحتى نتبين هذا الرفض سنعرض له في منطقتين: المنطقة الأولى، شرق أفريقيا ووسطها. حيث أشار المبشر أوين في إحدى تقاريره لجريدة ماشستر سنة ١٩٣٥ لنماذج مختلفة من هذا الرفض. فتحدث على سبيل المثال عن فتاة توفيت في تلك السنة من جراء العنف الجسدي المستخدم ضدها (٥٢). في حين أشارت إحدى الوثائق الأخرى لحالة واحدة تنطوي على جلد لامرأة هربت من الزواج؛ وثلاثة لفتاة هربت ثلاث مرات من زوج متعدد الزوجات،

ولكنها اضطرت إلى العودة إليه؛ لأن أسرتها رفضت تخليصها<sup>(٥٣)</sup>. واحتوى الحكم الذي أصدره القاضي باتس Bates في ٢١ مايو ١٩٣٦ من خلال محكمة تنجانيقا الملكية العليا، على اعتراض الفتاة كيكويو بكل الطرق على الزواج المفروض عليها، ورغبتها في الزواج من آخر، لدرجة أنها قضت ليلة معه، وأكملت رفضها بقتل الزوج المفروض عليها، لذا تمت محاكمتها بالسجن<sup>(٥٤)</sup>.

ويشير إيفاد تشارلز دونداس، نائب حاكم روديسيا الشمالية لوزير الدولة للمستعمرات في ١٦ سبتمبر ١٩٣٦ بأن المرأة تتمتع بقدر كاف من الحرية، بل كان هناك بعض القلق يساور المسؤولين، لأن الفتيات أصبحن مستقلات أكثر من اللازم، وتميل الواحدة منهن إلى أن تهزأ بتأثير الوالدين حينما يرغبان في ممارسة حقهم عليهم<sup>(٥٥)</sup>. في حين يوضح إيفاد ميتشل حاكم أوغندا إلى وزير المستعمرات في ٣ ديسمبر ١٩٣٦ بوجود حالات قليلة من الإكراه، لكن توجد شروخ اجتماعية أخرى وانحلال أخلاقي<sup>(٥٦)</sup>. أما رسالة حاكم نياسالاند، هارولد كيتيرماستر إلى وزير الدولة لشؤون المستعمرات في ١٧ ديسمبر ١٩٣٦، فيذكر عادات الزواج الأفريقية المتبعة في نياسالاند وبأنها تنقسم إلى قسمين: الأول: قبائل تسير بالنظام الأمومي، حيث يتم ترتيب الزواج باتفاق بين العائلتين. حيث لا توجد مهرور بينهم؛ لكن يجتمع الأقارب، ويحدث اجتماع بين الأطراف المتعاقدة، ويدخلون في اتفاق رسمي بعد موافقة الفتاة نفسها. ثم يقوم الزوج ببناء منزل في قرية أم زوجته، ويستغرق هذا الأمر فترة لإقامة سكنه هناك. ويجب ان يعد حديقة ويؤدي بعض الواجبات لوالدة زوجته قبل أن يصبح فردا في الأسرة. وفي وقت لاحق لا يستطيع أن يأخذ زوجته للعيش في قريته الخاصة ما لم يتم اتفاق رسمي آخر. حيث ينظر في موقفه، ما إذا كان خاضعاً لأحد ما، ومدى نجاحه في الزواج ومستوى معيشته مع أولاده، وهذا يعتمد على حسن السير والسلوك نحو زوجته وعائلتها. الثاني: قبائل تسير بالنظام الأبوي. وفيه توجد المهور ويتم الاتحاد بنفس الطريقة من قبل أقارب كل طرف، الذين يقومون بدور الشهود الرسميين. وتتم موافقة الفتاة على ذات النحو الذي يتم بموجب النظام الأمومي. لكن بعد الزواج تعيش الزوجة في منزل بناه لها زوجها في قريته الخاصة. وأصبحوا يأخذون المال بدلا من الماشية، ويأخذون أشياء أخرى يتم تحديدها في ميثاق الزواج. وتظل تلك

الممتلكات في أيدي اقارب المرأة كضمان لحسن السلوك من الزوج تجاه زوجته، ويخسرهما إذا تم الطلاق بينهما بسبب سوء سلوكه تجاهها. وتطرق الوثيقة إلى عادة زواج الأخ بزوجة أخته بعد موته، والتي بموجبها يتم توريث الزوجات للرجل المتوفي لوريثه، قائلاً " بأن هذه العادة لا تزال ملحوظة، ولكن تأثيرها الوحيد هو أنها تلقي التزامات على الوريث، وتضمن الأمن المستقبلي للأرامل، ولا توجد أشياء تجبر الأرامل على التعايش مع وريث ضد إرادتهم. فغالبية هؤلاء الأرامل من كبار السن، ومن ثم يتعين على الوريث تقديم الدعم لهن. ولكن، إذا كانت إحداهن لا تزال في سن الزواج، ولا ترغب في الدخول في علاقات زيجة مع الوريث، فمن واجبه أن يقوم بترتيب الزواج لها من رجل من اختيارها<sup>(٥٧)</sup>.

ويشير إيفاد وادي، القائم بأعمال الحاكم والمسئول الإداري بحكومة كينيا، إلى وزير الدولة لشئون المستعمرات في ٣١ ديسمبر ١٩٣٦ بأن أثر الزواج بالإكراه يظهر عن طريق الصور التي تجلى المشاهد الفظيعة في كفاح الفتيات ضد السحب إلى قرى أزواجهن. لكن الأمر المعتاد أن فتاة الميرو لا تقاوم إرادة والداها، لكن طريقتها في التغلب على صعوبة الزواج من رجل من اختيار الأب وتفضيله عما يختاره قلبها، هو الامتثال لرغبات والدها، حيث تعيش مع زوجها لوقت قصير، ثم تهجره وتذهب مع عشيقها. وفي عرف الميرو، فإنه بمجرد أن تترك الفتاة منزلها وتعيش مع رجل آخر، فقد انتهت قوة والدها في الإكراه، وليس لديه خيار سوى إعادة مهر العروس. وقد نشأ استيراد النظام الأبوي في أيام العبودية. حيث كان يتم احتجاز نساء القبائل الأخرى خلال الحروب ويتم بيعهن كعبيد، وهنا أصبحت ملكيتهن المطلقة للرجال الذين قاموا بشرائهن. وبالتالي، كان الآباء يورثون تلك النساء لأبنائهن كما تورث بقية الممتلكات؛ وفي ظل هذه الظروف كان لا يوجد أي أحوال لدى هؤلاء الأبناء. في الوقت الذي تم تمديد هذه الممارسة على نساء الدجو والدروما، فإن المرأة تتزوج في العادة طبقاً لنظام دفع الماشية. ولم يكن لدى الذين يعترمون الزواج الإبطاء في الحصول على مزايا السيطرة الكاملة على تلك الزوجات وأطفالهن، والحصول على الحق في توريث ممتلكاتهن لأطفالهم. ويميل الآباء المحتاجين والأعمام أيضاً إلى الحصول على أعلى مهر للعروس، وهو ١٠ بقرات، مقابل مبلغ من المال يتراوح ما بين ٦ إلى ٨ جنيه في الزواج الأمومي. أما الرجال الأثرياء، فليسوا حريصين على زواج الفتيات في ظل

النظام الأبوي؛ لأنه يفقدهن العشيرة، ولكن الذين يعيشون في ظروف فقيرة مستعدون تمامًا للقيام بذلك، وبالتالي، فإن ظروف السنوات السيئة، سواء كانت ناشئة من أحوال اقتصادية أو من جراد أو من جفاف ومجاعة، تؤدي إلى زيادة هذا النوع من الزواج، الذي لا تجد فيه الفتاة الفرصة لنقول شيئاً، ولكنها تجبر على الزواج من الرجل الذي اختاروه لها. حتى إذا كانت هناك شكوك في أن الإكراه البدني قد استخدم ضدها؛ مرجعاً ذلك إلى حقيقة أن التوركانا لا تتقيد بالإخلاص الزوجي باعتباره واحدة من الفضائل الكبرى<sup>(٥٨)</sup>.

**المنطقة الثانية:** غرب أفريقيا، حيث يشير إيفاد حاكم جامبيا ثاوثرن في ٦ نوفمبر ١٩٣٦ بأن الفتاة قد تكون مخطوبة لشاب، أو لرجل كبير في السن، وتشعر بأنه لا يروق لها كزوج. لكن تقف كل قوى المجتمع الأبوي، ممثلة في شيوخ القرية، ضدها لأن رفضها من وجهة نظرهم، يعد احتجاجاً على السلطة التقليدية، الممثلة في الرجال، كونها تهاجم موقفهم من الهيمنة المفروضة، وتقف ضد عائلتها، ولأنها يجب أن تكون طائعة لإرادتهم. ونتيجة لذلك، ربما تسحب الفتاة رفضها في معظم الحالات، وتدخل في الزواج. أما إذا كانت الفتاة تملك من قوة الإرادة ما يؤهلها لمواصلة المقاومة، فهي حرة في وضع شكواها لدى مأمور الاقليم أو لدى السلطة الأفريقية. ومع ذلك لا يمكن أخذ هذه الشكاوى على أنها مؤشر دقيق لعدد الزواجات القسرية التي تحدث. أما إذا كانت الفتاة ستمضي قدماً في شكواها، فمن المرجح أن يصبح عملها هذا وصمة عار يُلطخ اسمها في قريتها. حيث تضطر لمواجهة استياء عائلتها، واستنكار شيوخ القرية. وتضر بشكل خطير فرصتها في الحصول على زوج آخر، وتشعر أنه بعد كل شيء، قد أطلقت سراح نفسها لمصير واحد، هو الأسوأ دائماً<sup>(٥٩)</sup>.

وإيفاد حاكم سيراليون إلى وزير الدولة للمستعمرات في ٥ ديسمبر ١٩٣٦ يشير بأن مفوض المقاطعة الجنوبية أضاف شيئاً جديداً في سيراليون إذا طلب الرجل الزواج من الفتاة وأعريت عن نفور ملحوظ، فإن عائلتها لن تجبرها على الزواج منه. حيث يتم الضغط على المرأة من قبل عائلتها في تلك الحالات التي يكون فيها خلاف بين الزوج وزوجته، والزوجة تعود للآباء؛ والقاعدة أن الآباء يترددون في رد المهور ويمارسون الضغط على المرأة للعودة إلى زوجها<sup>(٦٠)</sup>. أما إيفاد حاكم ساحل الذهب، أرنولد هودسون إلى وزير شؤون

المستعمرات في ٢٠ ديسمبر ١٩٣٦، فيشير بأن الزواج القسري يتعارض مع العرف الأفريقي، وبالتالي يحدث في حالات قليلة<sup>(١١)</sup>. في حين يشير إيفاد حاكم نيجيريا، بورديلون، إلى وزير شؤون المستعمرات في ٢٧ فبراير ١٩٣٧ إلى أن القلق والخشية من هروب الفتاة يظل قائماً، بل قد تسعى الفتاة لإقامة شكل زواجي لا يدوم<sup>(١٢)</sup>.

#### سابعاً: المحاولة البريطانية لمنع الزواج القسري:-

أول من عرض حلاً عملياً هو القس أوين في ١٦ يونيو ١٩٣٦ حينما كتب لمحرر جريدة المانشستر جارديان يسأل سؤالاً مهماً: ماذا تمثل قصة كيكوي في أفريقيا؟ ذاكراً بأن العلاج بسيط جداً. مشيراً بوجود سن قانون يقضي بأن التمهيد للزواج يجب أن يتم بإعطاء إشعار لسلطة القبائل، وبالتالي، فإن تسجيل هذا الزواج سيكون واجباً، ومن شأنه أن يعطي فرصة كبيرة للفتيات للتعبير عما اذا كن يجبرن على الزواج ضد إرادتهم. وانه من أجل الفتيات الأفريقيات، يجب اخطار القبائل، بأنه من دون موافقة الفتاة لا يصبح الزواج صحيحاً<sup>(١٣)</sup>.

ويبدو أن موضوع الزواج القسري كان له صدى في مصر باعتبارها إحدى المستعمرات البريطانية المهمة، لكنها تركت للمثقفين المصريين لشن تلك الحرب على هذا الزواج لتكون المقاومة من الداخل. فتحت عنوان " حرية الفتيات في اختيار الأزواج" كتب الاستاذ عبدالعزيز البشري مقالاً في الهلال في نوفمبر سنة ١٩٣٦ ذكر فيه بأن الحديث حول هذا الموضوع منذ عشرين سنة لم يكن له شأن جليل، لكن جل خطره في هذه السنوات لما أخذته الفتاة من حظ في التعليم والثقافة لا يقل عن حظوظ الفتيان، وبعد أن شاع السفر وتيسر للجنسين الاختلاط. ويعترف بأنه الى فترة قريبة، كانت الفتاة المصرية تخطب الى رجل لم تعرف من هو، ولا تدري ما حليته ونسبه، بل قد تضمن أسرتها عليها باسمه ولقبه، إلى أن تزف إليه. وكانت هذه السنة الشائعة فيما خلا من الزمان، فإذا اجتزت أسرة على مراجعة الفتاة في أمر زواجها، وطالعتها بشخص خطيبها، فقد استهدفها جمهرة الناس بسوء القول. لكن بسبب التعليم وإطراد السفر والتوسع في الحريات، صارت الفتاة المتعلمة تصارح أهلها، وقد تنتشر وتلجأ إلى التمرد والعصيان. فبات الآباء يراجعون بناتهم فيما اختاروا لهن من أزواج، لكن

الكثرة الكاثرة لا تزال لا تحفل لرأى بناتها، ويكرهونها على الزواج ممن اختاروا. واعترف صاحب المقال بأن البنات المصرية في ثورة الآن على جناح الآباء والأمهات، واندھش من إمكانية الحجز على رغباتها في اخص شئونها. وختم " بأن للفتيات حرية كسائر الناس، ولكن هذه الحرية يجب الحد منها كسائر الحريات، وإنما يجد منها حفظاً للفتاة نفسها، وكفالة لأمنها وسعادتها على الأيام، وهذا ما ذهب إليه رأي الآباء" وانتهى بطرح سؤاله " فهل لهذه المشكلة من علاج؟" (١٤).

وتحت عنوان " الشبان والزواج"، كتب سلامة موسى في المجلة الجديدة عدد اغسطس ١٩٣٦، بأن البلاد تعاني أزمة في الزواج تتمثل في تأخير سن الزواج، بسبب التكاليف الكبيرة لإقامة أسرة، وبسبب عدم تسامح الأسر في رؤية الشاب للفتاة التي يرغب في الزواج منها، وأيضاً لاعتقاد بعض الشباب في عدم طهارة البنت التي تركب الترام وتجز شعرها ولا تبالى السير بلا جوارب. وقال بحدوث اختلاف في المجتمع بين فريق يرى بان الاسرة عبارة عن معهد حر قوامه التقاهم والاقناع وليس الاجبار والاختضاع، وبين فريق يمارس الحجاب. ورأى بأن هذا سبب من اسباب الاحجام عن الزواج. واطاف ايضا بان تعلق الشباب بالسحنة الاوروبية التي يراها في الشارع والصور والأفلام، لأن الأسر المصرية تختزن بناتها في البيوت، سبب اخر في عدم الاقدام على الزواج. وذكر بان قلة الحب تؤدي في بلادنا الى كثرة الانغماس في الشهوة الجنسية، وأن شبابنا يحبون قليلاً وينغمسون كثيراً، عكس الشباب الاوروبي الذين يحبون كثيراً وينغمسون قليلاً. والحب كما هو ضرورة للشباب، هو ايضا ضرورة للفتيات وعندما يفشو الحب يزول تعدد الزوجات. وانتهى بأن فتح المجال لعمل المرأة هو الذي يعرفها النظام الاجتماعي الذي يقرر لها الواجبات والمكافآت. فإذا أُقبلت على العمل كانت أكثر رغبة في مرافقة الشباب، وعندئذ يأخذ الحب الشريف مكان الشهوة الجنسية، وعندها تزول الامراض الزهرية من بلادنا<sup>(١)</sup>.

(١٥) سلامة موسى :- الشبان والزواج، المجلة الجديدة، العدد رقم ٨، ١ اغسطس ١٩٣٦، ص ص ٤١-٤٥ .

وكتب سلامة موسى مقالاً آخر بعنوان الزواج والأسرة في عدد ١ ديسمبر ١٩٣٦ مطالباً بأنه لابد من ترقية المركز الاقتصادي للمرأة لترقية وضعها الاجتماعي، ذكراً بان الحضارة الصناعية التي سادت أوروبا وأمريكا آخرت الزواج وأجبرت المرأة على التكسب بالعمل الحر دون الارتكاز على الزواج. وبمقدار ان يعم هذا الامر عندنا، سينعكس على الارتقاء الاجتماعي للمرأة<sup>(٦٥)</sup>.

وإيفاد وزير الدولة لشئون المستعمرات، أورمسي جوري، الى مسئولى الإدارة بحكومات كينيا وغامبيا وأوغندا وسيراليون وتجانيقا وساحل الذهب ونياسالاند ونيجيريا وروديسيا الشمالية في ٩ يوليو ١٩٣٧. يشير إلى أنه استقبل إيفاداتهم على مدار شهرى نوفمبر وديسمبر سنة ١٩٣٦ ويناير وفبراير سنة ١٩٣٧ على التوالي. وفيما يتعلق بمسألة إكراه الفتيات الأفريقيات على الزواج، فقد أعرب عن تقديره للرعاية والتدقيق في إجاباتهم على الاستفسارات التي قدمتها الوزارة حول هذا الموضوع بتبادل الراى مع حكومات المستعمرة. وهنا نراه يشيد بالردود التي جاءت وإنها تحتوي على ثروة من المعلومات المثيرة للاهتمام، وتشير بوضوح الى مجمل الموقف الحاضر والجهود المبذولة للتعامل مع مثل تلك الانتهاكات، وبأنها لا تزال تحدث من وقت لآخر. لكنه أعرب بأن حالات الإكراه ليست متكررة. وأن الفتيات الأفريقيات أحرار في مناشدة مسئولى المقاطعات أو السلطات الأفريقية للعدل والإنصاف إذا تم الشروع في إكراههن على الزواج ممن لا يرتضينه زوجاً لهن. وأنه في حالة وجود مثل هذه النداءات، فانه يمكن اتخاذ إجراءات فعالة لمساعدة اللاتي قدمن الشكاوى. وقال بأن أي تقدم حقيقي ودائم في هذه المسألة يجب بالضرورة ان يكون عبارة عن عملية بطيئة من التربية والتعليم والتنوير، وأن المشكلة هي واحدة ويجب التعامل معها بعظيم الحذر والتعاطف. وذكر بأنه كتب على خطوط مماثلة لمسئولى إدارة المستعمرات الأخرى في الشرق والغرب والذين وصلتهم رسالته في ١٧ أغسطس عام ١٩٣٦، بالتصدي للمشكلة ان وجدت. لكنه اقترح أن ترتب جميع المراسلات لتتم طباعتها. وعند نسخ تلك المطبوعات ستكون متاحة لهم جميعاً، وانه سوف يحيلها لهم للحصول على معلومات اكثر فاكثر<sup>(٦٦)</sup>.

وأعتقد أن ما أشار إليه وادي، المسئول الإداري بحكومة كينيا، في ٣١ ديسمبر ١٩٣٦ هو الذي راق تعميمه. حيث رأى بأن التدخل في العادات والأعراف القبلية عميقة الجذور والبالية، يجب أن يتم بحذر شديد؛ لأن أية إزالة مفاجئة للسيطرة الأبوية ستكون لها نتائج كارثية، فاستخدام القوة ضدها سيقود إلى تحطيم النظام الاجتماعي القبلي. وينبغي أن يحدث التغيير الأساسي بشكل طبيعي، بنمو الأفكار داخل القبائل، وبمساعدة التأثيرات الخارجية والدعاية. ووفق هذه الخطوط ظلت حكومة المستعمرة تعمل منذ فترة ماضية. وفي هذا الصدد تم تعيين لجنة سنة ١٩٢٦ للتحقيق في عمل قوانين الزواج والطلاق في المستعمرة وتطبيقها على الأفارقة، وأوصت بإصدار تشريع لتوفير التسجيل لزواج الوثنيين، ولكن المجلس قرر بأن المسألة ينبغي أن يشار لها "بأن هذا الأمر قد تم بناء على طلب المجالس المحلية الأفريقية". ونتيجة لذلك، مررت المجالس الأفريقية المحلية بعض الحلول القياسية. وفي هذا الإطار أرسل له نسخة من هذه الحلول، والتي تنص على التسجيل الطوعي للزواج، حيث ظهرت بعض الميزات الصغيرة المأخوذة من هذا النظام. ومنذ ذلك الحين، مررت مجالس الكافيريندو الشمالية وكيامبو المحلية الأفريقية قرارات بهدف جعل تسجيل الزواج اجبارياً. مذكرا إياه بلائحة السلطة الأفريقية التي أرسلها له بتاريخ ١٩ نوفمبر ١٩٣٦، وتشمل الاشتراطات الواجب توافرها في هذه القرارات. ومع مرور الوقت، كان لها تأثير غير مباشر على التنمية الاقتصادية والاجتماعية، وعلى المجالس المحلية الأفريقية الأخرى التالية، وتظهر في المثال الذي ضربته لكيامبو وكيفراندوا الشمالية. مضيفاً بأن الخطأ الفادح هو التسرع في الأمور، قائلاً بضرورة مراعاة العادات الاجتماعية والإثنولوجية لكل قبيلة، قبل النظر في أي من هذه التدابير وعرضها. مذكراً بحالة الديجو والدروما، التي أشار لها من قبل والتي يسعوا إلى إدخال تسجيل الزواج بينهم، بالسعى لإقناع المجالس الأفريقية المحلية بتمرير قرارات منح الحرية التي يتمتع بها الفتيات في ظل النظام الأمومي، وذلك للفتيات المتزوجات في ظل النظام الأبوي. مشيراً بأنه تعامل مع هذه المسائل بشيء من التفصيل حتى تتمكن وزارة المستعمرات من تقدير مشكلة وضع المرأة الأفريقية ككل والإحاطة به، خاصة وأنها واحدة من المشكلات التي يجب أن يتم الاقتراب منها بعطف شديد (٦٧).



في حين أوضح لنا ملحق رسالة القائم بأعمال الحاكم العام لمستعمرة كينيا في ٣١ ديسمبر ١٩٣٦ بأن بنود القرار رقم ٤ المتعلق بتسجيل زواج الوثنيين الأفريقيين في نقاط: أولاً، أن المجلس الأفريقي من رأيه وجوب اتمام التسهيلات المقدمة لتسجيل زواج الوثنيين الأفريقيين في هذه المنطقة عن طريق موظفي الإدارة بحيث تقدم طلبات للحكومة تحرضها على اتخاذ الخطوات اللازمة في هذا الشأن. ثانياً: أن يجرى التسجيل الحالي طواعية. ثالثاً: أن يتم تفعيل أي تسجيل بين طرفي الزواج جنباً إلى جنب مع الوالدين أو ولي أمر المرأة. رابعاً: يجب أن يحتوي التسجيل على تفاصيل على النحو المبين في الجدول المرفق في الرسالة. خامساً: أن تخضع لأحكام ثالثاً القائمة أعلاه، بأن يتم تسجيل الزيجات القائمة في سجلات مؤسسة الزواج، ويجوز التسجيل عبر الموظف الذي يكون راضياً على تسجيل مثل هذا الزواج. سادساً، ينبغي أن تكون هذه المساعدة الكتابية المحلية اللازمة، مقدمة على حساب الصندوق الأفريقي المحلي. سابعاً، أن يتم فرض رسوم التسجيل عبر مأمور المنطقة، وأن تصدر (مصدقة) مقتطفة من التسجيل بناء على دفع الرسوم. ويكون هذا الرسم مدفوعاً إلى المجلس الأفريقي المحلي. ثامناً، أن أي إلغاء من قبل الأطراف للزواج يجب أن يتم بشهود مناسبين، يقفوا امام الموظف الإداري الذي يجب أن يصدر مذكرة فسخ مسببة لهذا الزواج المسجل". والرغبة في تسجيل زواج الوثنيين الأفريقيين، لا تكون بهدف الحصول على إحصاءات موثوق بها، ولكن أيضاً لمنع النزاعات التي تحدث في سداد المهر، وفي الاعتراف عموماً. ولم يتطور الرأي العام الأفريقي بما فيه الكفاية في الوقت الحاضر لجعله ممكناً للنظر في إدخال التسجيل الإلزامي. لكن هذه الامور توفر القرار للتسجيل الطوعي . ومن المتوقع أن تحظى بتقدير مزايا النظام، وان يتم الطلب على التسجيل الإلزامي الذي سينشأ بين أكثر القبائل تقدمية<sup>(٦٨)</sup>. (انظر وثيقة الزواج التالية)

نموذج لوثيقة الزواج المقترحة على الأفريقيين سنة ١٩٣٦  
(نموذج شهادة زواج)

المنطقة: ..... الموقع: .....

تاريخ الزواج	اسم الزوج	الزعيم	اسم المرأة	الوالد أو ولي الأمر	شيوخ المنطقة	الشهود	شروط الزواج	المدفوعات المتفق عليها	الرصيد التحقق وموعده	الملاحظات
تاريخ التسجيل:										
توقيع موظف التسجيل ولقبه:										
التوقيع بإصبع إبهام الرجل					التوقيع بإصبع إبهام المرأة					

نقلا عن : C.O 879-139.N0.1162, Correspondence relating to the Welfare of Women in Tropical Africa 1935-37, Enclosure in No. 11. Standrd Resolution No. 4.Registraion of Native Pagan Marriages,P.25 وعلى هذا، فإن إصدار تلك الوثيقة الموحدة وتعميمها على الإدارات الاستعمارية المختلفة سنة ١٩٣٧، كان الطريقة المثلى في نظر الإدارة لمتابعة موضوع الزواج بالإكراه وتحجيمه. ومن ثم فإن توثيق عقود الزواج بطريقة رسمية بات من مهمة الدولة ووظائفها الأساسية. ولذا فإن سنة ١٩٣٦ تعد هي السنة المؤسسة لتوثيق الزواج الأفريقي، وبالتالي توفرت فرصة أكبر للفتيات الأفريقيات للتعبير عن رغباتهن.

### خاتمة: خلصت الدراسة إلى عدد من النتائج، نوجزها في الآتي:

إذا كانت الدراسة قد أكدت على أن نتائج الزواج القسري كانت خطيرة جداً، وأنها تعدت حدود إلحاق الأذى بالفتاة الأفريقية، حيث تجاوزته إلى حدود أوسع وأشمل، غير أن كراهية المرأة لزوجها المفروض عليها قد جعلها تسعى للتخلص منه بالقتل أو الهرب. وإذا ما أجبرت على العيش معه، فإن الضغوط التي تعرضت لها لم تجعلها قادرة على قيامها بمهمتها على وجه صحيح. لذا فقد أثبتت الدراسة بأن الفتيات الأفريقيات لم يكن العوبة في الصراعات الأبوية، فقد اندفعن إلى ساحة الحداثة والتطوير، وعملن على تعزيز نضالهن ضد كبار السن والآباء من أجل نيل حقوقهن في إختيار شريك حياتهن.

أوضحت الدراسة، على لسان الوثائق البريطانية، بأن أبنية السلطة الأبوية لم تكن في عمومها معادية للفتاة الأفريقية، كما يعتقد البعض، بل وجدناها قد تركت مساحات كبيرة تتحرك فيها الفتاة الأفريقية وتتطور. بل أثبتت بأنه إذا كانت القيود قد وضعت للمرأة الأفريقية في مجال دخول السياسة فإن معارضة الفتيات الأفريقيات قد أجبرت الساسة على الانحياز لرغباتهن في مجال الزواج والحب واختيار شريك الحياة. صحيح أن الوثائق قد مالَت إلى إبراز الأدوار الفردية للمرأة الأفريقية في هذا المجال، غير أن تحليلها للأوضاع التاريخية التي عاشتها المرأة الأفريقية قد أوضحت الأسباب التي قضت بتأخير طرق المعالجة. فقالت بأن تسجيل الزواج والطلاق بالنسبة للمرأة لم يساهم في تقوية قدرة النساء الأفريقيات على اتخاذ القرار فيما يتعلق بحياتهن، لكنه قدم حلاً مؤقتاً للموضوع.

بينت الدراسة، وباعتراف الوثائق، بأن ما كان يحدث من انتهاكات للمرأة الأفريقية لم يكن مختلفاً كثيراً عما كان يحدث في بريطانيا نفسها. وأثبتت بأن الفتاة الأفريقية هي التي قادت الرغبة الاستعمارية لمعالجة أشكال الظلم الواقعة عليها. فمع أنهم لم يفضلن خوض الحروب الشخصية ضد الرجال من بنى جنسهن، إلا ان معارضتهن للزواج بالاكراه أثبتت أنهن قد حققت نجاحات كبيرة في تلك الحروب، وتفوقن فيها برغم إمكانيتهن الضعيفة. وأن وثيقة الزواج التي عممتها الإدارة البريطانية على مستعمراتها سنة ١٩٣٧ جاءت نتاج لمقاومة الفتيات الأفريقيات الطويلة للزواج بالاكراه، وممارستهن لحق إختيار شريك الحياة برغبتهن بطرق عديدة.

### هوامش الدراسة:

- (١) الزواج بالمراسلة، الهلال، العدد رقم ٤، ١ ديسمبر ١٨٩٢، ص ص ١٢٥-١٢٨.
- (٢) الحب والجانبية، الهلال، العدد رقم ١٤، ١٥ ابريل ١٨٩٩، ص ٤٢٩.
- (٣) سر الزواج.. بحث طبيعى اجتماعي، الهلال، العدد رقم ٢، ١ يناير ١٩٠٦، ص ٢٣٠-٢٣٤.
- (٤) <http://www.africanmarriage.info/>
- (٥) John Mbiti:--The Role of Women in African Tradional Religon, Published in Cahiers des Religions Africaines 22 (1988), <http://afrikaworld.net/afrel/atr-women.htm>
- (٦) <http://www.nabulsi.com/blue/ar/art.php?art=1177&ssid=142&sid=5577&id=1190&ssid=1195>
- (٧) [https://en.wikipedia.org/wiki/Forced\\_marriage](https://en.wikipedia.org/wiki/Forced_marriage)
- (٨) Hutton, M. J. (2001). Russian and West European Women, 1860-1939: Dreams, Struggles, and Nightmares.[NewYork, Rowman & Littlefield,2001, see [Chapter 1
- (٩) [https://en.wikipedia.org/wiki/Forced\\_marriage](https://en.wikipedia.org/wiki/Forced_marriage)
- (١٠) حيث ورد في السُّنة النبوية ما يدل صراحةً على بطلان عقد نكاح المِجْبَرَة، وأنها تخيَّر. فعن بريدة بن الحصيب، عن أبيه، رضي الله عنهما، قال: "جاءت فتاة إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فقالت: إن أبي زوجني ابن أخيه ليرفع بي خسيسته، قال: فجعل الأمر إليها فقالت: قد أجزت ما صنع أبي، ولكن أردتُ أن تعلم النساء أن ليس إلى الآباء من الأمر شيءٌ." للمزيد انظر، الإكراه على الزواج.. حكمه.. أسبابه.. ونتائجه، مراكز الفتوى
- <http://fatwa.islamweb.net/fatwa/index.php?page=showfatwa&Option=Fatwa&Id=57>
- (١١) عماد هلال:- الفتاة المصرية بين الشريعة والقانون والعرف.. حق اختيار الزوج في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، في ناصر إبراهيم ( تحرير ) :- الفرد والمجتمع في مصر في العصر العثماني، مطبوعات مركز البحوث الاجتماعية، كلية الاداب، جامعة القاهرة، ٢٠٠٥، ص ص ٤٣، ٤٤.

Hutton, M. J. (2001). Russian and West European Women, 1860-1939: (١٢)  
Dreams, Struggles, and Nightmares.[NewYork, Rowman & Littlefield,2[001, see  
[.Chapter 1

[http://bdlaws.minlaw.gov.bd/pdf\\_part.php?id=27](http://bdlaws.minlaw.gov.bd/pdf_part.php?id=27) (١٣)

(١٤) عماد هلال:- المرجع السابق، ص ص ٤٢، ٦٧، ٦٨.

(١٥) نفسه، ص ص ٥٦، ٥٧، ٤٢ - ٦٨ .

(١٦) الزواج بالمراسلة، الهلال ، العدد رقم ٤ ، ١ ديسمبر ١٨٩٢، ص ص ١٢٥-١٢٨ .

(١٧) امتحان السيدات واستبدادهن، الهلال ، العدد رقم ٥ ، ١ يناير ١٨٩٣، ص ص ١٧٣-١٧٧ .

(١٨) هل للنساء أن يطلبن كل حقوق الرجال؟ الهلال ، العدد رقم ٥ ، ١٥ يناير ١٨٩٤، ص ص ٣٠٤-٣٠٦ .

(١٩) الزواج وشبان مصر وشوابها:- المنار، العدد رقم ٩ ، ٥ أغسطس ١٩٠٢ ، ص ص ٣٣٨-٣٤٣ .

(٢٠)C.O 879-139.N0.1162, Correspondence relating to the Welfare of Women in Tropical Africa1935-37, No. 2. 47028/36 [Enclosure to No. 7]. Marriages in Kenya. Reluctant Girls Paid for in Goats.To the Editor of the Manchester Guardian..PP.6,- 8.

(٢١)Ibid. PP.7,8.

(٢٢)C.O 879-139.N0.1162, No. 1.47028/36 [No. 6].Happines or Slavery? Extract from " East Africa " Dated 14th November, 1935. The Status of African Women.P.1.

(٢٣)Ibid.P.1.

(٢٤)Ibid.PP.2,3.

(٢٥)Ibid.PP.3,4.

(٢٦)Ibid.P.5.

(٢٧)Ibid.P. 4.

(٢٨)C.O 879-139.N0.1162, No. 2. 47028/36 ,Enclosure to No. 7.,PP.6,- 8.

(٢٩)C.O 879-139.N0.1162, :-, No. 1.47028/36 [No. 6..Op.Cit.,PP. 4,5.

(٣٠)Ibid.PP. 4,5.

(٣١)Ibid.P.6.

<sup>(٣٢)</sup>Ibid.P.5.

<sup>(٣٣)</sup>C.O 879-139.N0.1162,No, 12.47028/37 [No. 5].Despatch from the Governor of Tanganyika Territory to the Secretary of State for the Colonies.(Received 15th February, 1937.)(Answered by No. 14.)Government House,Dar-es-Salaam.6th February, 1937.(No. 57. P.30..).

<sup>(٣٤)</sup>C.O 879-139.N0.1162,No. 2. 47028/36 ,Enclosure to No. 7, .PP.7.

<sup>(٣٥)</sup>C.O 879-139.N0.1162,Enclosure in No. 12. In His Majesty high Court of Tanganyika at Moshi,Criminal Sessions Case No. 49 of 1936. P.30,31.

<sup>(٣٦)</sup>C.O 879-139.N0.1162, No. 2. 47028/36,[Enclosure to No. 7,PP. 8,9.

<sup>(٣٧)</sup>C.O 879-139.N0.1162,No. 4.47028/36 [Nos. 15-23].Despatch from the Secretary of State for the Colonies to the Officer Administering the Government of1. Kenya (No. 626).2. Uganda Protectorate (No. 333).3. Nyasaland (No. 296).4. Tanganyika Territory (No. 554.(Northern Rhodesia (No. 378).6. Nigeria (No. 1110).7. Gold Coast (No. 656).8. Sierra Leone (No. 386).9. Gambia (No. 169).(Answered by Nos. 11, 8, 10, 12, 5, 13, 9, 7, and 6.)Downing Street.17th August. 1936.PP. 9. 10.

<sup>(٣٨)</sup>C.O 879-139.N0.1162,No. 7.47028/36 [No. 33].Despatch from the Governor of Sierra Leone to the Secretary of State for the Colonies.(Received 21st December, 1936.)(Answered by No. 14.)Government House,Sierra Leone.5th December, 1936.(No. 715.). P.14..

<sup>(٣٩)</sup>C.O 879-139.N0.1162,No. 13.47028/37 [No. 6].Despatch from the Governor of Nigeria to the Secretary of Statefor the Colonies.(Received 22nd March, 1937.)(Answered by No. 14.)Government House,Nigeria.27th February, 1937.(No. 185,P33..

<sup>(٤٠)</sup>C.O 879-139.N0.1162,No. 6.47028/36 [No. 32].Despatch from the Governor of the Gambia to the Secretary of State for the Colonies.(Received 23rd November, 1936.)(Answered by No. 14.) Government House,Bathurst, Gambia.6th November, 1936. P.12-14..

- (٤١) C.O 879-139.N0.1162, No. 7, P.14,15..
- (٤٢) C.O 879-139.N0.1162, No. 9.47028/37 [No. 2].Despatch from the Governor of the Gold Coast to the Secretary of State for the Colonies.(Received 7th January, 1937.){Answered by No. 14.}Government House,Accra,20th December, 1936.No. 759 P.16,17..
- (٤٣) C.O 879-139.N0.1162, No. 13, P.31-33..
- (٤٤) C.O 879-139.N0.1162, No. 5.47028/36 [No. 30].Despatch from the Governor of Northern Rhodesia to the Secretary of State for the Colonies.(Received 9th October, 1936.)(Answered by No. 14.)Government House, Northern Rhodesia.16th September, 1936.(No. 509,P.11..(.
- (٤٥) C.O 879-139.N0.1162, No. 8.47028/37 [No. 1].Despatch from the Governor of Uganda to the Secretary of State for the Colonies.(Received 4th January, 1937.)(Answered by No. 14.)Government House,Uganda.3rd December, 1936.(No. 329. P. 15, 16..(.
- (٤٦) C.O 879-139.N0.1162No. 10.47028/37 [No. 3].The Governor of Nyasaland to the Secretary of State for the Colonies.(Received n t h January, 1937.){Answered by No. 14.}Government House,Zomba, Nyasaland,17th December, 1936.(No. 515 P. 17-19..(.
- (٤٧) C.O 879-139.N0.1162, No. 11.47028/37 [No. 4].Despatch from the Officer Administering the Government of Kenya to the Secretary of State for the Colonies.(Received 25th January, 1937.)(Answered by No. 14.)Government House,Nairobi, Kenya,31st December, 1936.(No. 708 P.20,21 ..(.
- (٤٨) Ibid.P.22,23 .
- (٤٩) Ibid,P.23 .
- (٥٠) C.O 879-139.N0.1162, No, 12,P.27 .
- (٥١) Ibid. P.28-30.
- (٥٢) C.O 879-139.N0.1162No. 2. 47028/36 ,Enclosure to No. 7.,PP.6,- 8.
- (٥٣) C.O 879-139.N0.1162, No. 1.47028/36 ,No. 6,P.1.

(٥٤) C.O 879-139.N0.1162, Enclosure in No. 12. P.30,31.

(٥٥) C.O 879-139.N0.1162, No. 5, P.11.

(٥٦) C.O 879-139.N0.1162, No. 8 P. 15, 16.

(٥٧) C.O 879-139.N0.1162, No. 10 P. 17-19.

(٥٨) C.O 879-139.N0.1162, No. 11, P.22,23 .

(٥٩) C.O 879-139.N0.1162, No. 6, PP.12,13..

(٦٠) C.O 879-139.N0.1162, No. 7, P.14,15..

(٦١) C.O 879-139.N0.1162, No. 9, P.16,17..

(٦٢) C.O 879-139.N0.1162, No. 13, P.31-33..

(٦٣) C.O 879-139.N0.1162, No. 2. 47028/36 ,Enclosure to No. 7, P.8.

(٦٤) عبدالعزيز البشري: - حرية الفتيات في اختيار الأزواج ، الهلال ، العدد رقم ١ ، ١ نوفمبر ١٩٣٦ ، ص ص ١٩-١٦ .

(٦٥) سلامة موسى :- الزواج والأسرة ، المجلة الجديدة، العدد الخاص الأول، ١ ديسمبر ١٩٣٦ ، ص ص ٤١-٤٠ .

C.O 879-139.N0.1162, No. 14.47028/37 [Nos. 7-15].Despatch from the Secretary of State for the Colonies to the Officer Administering the Government of 1. Kenya (No. 526). 6. Gambia (No. 128).2. Uganda (No. 273). 7. Sierra Leone (No.' 3. Tanganyika Territory 312).(No. 496). 8. Gold Coast (No. 593).4. Nyasaland (No. 268). 9. Nigeria (No. 973).5. Northern Rhodesia .(No.322).Downing Street, 9th July, 1937,P.31-33.

(٦٨) .(C.O 879-139.N0.1162, No. 11, P.23,24 .

C.O 879-139.N0.1162, Enclosure in No. 11. Standrd Resolition No. 4.Registraion of Native Pagan Marriages. P.25 . (٦٩)